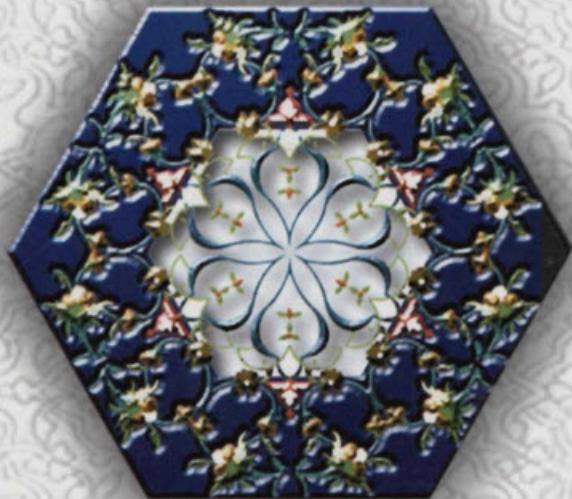


الأب الدكتور جرجس داود داود

الزندقة والزنادقة

في الأدب العربي من الجاهلية
وحتى القرن الثالث الهجري





الزندقة والزنادقة
في الأدب العربي
من الجاهلية وحتى القرن الثالث الهجري

**جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى**

م 2004 — هـ 1425

مجمع المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بيروت — الحمرا — شارع اميل اده — بناية سلام — ص.ب. 113/6311

تلفون 791123 (01) — تلفاكس 791124 (01) بيروت — لبنان

بريد الكتروني majdpub@terra.net.lb

ISBN 9953-427-76 -3

الإهداء

كم أحب أن يكون نتاجي الأدبي هذا شذا بخور يتصاعد فوق ضريح والدي طيب الله ثراهما - عربون خضوعبني لمشيئة الوالد الذي أرادني أن أكون كاهناً مجليناً في حقل العلم فشجعني وابناع لي المراجع والمصادر وحملها إلى المعاهد البعيدة عن ريفنا الفلاحي البدائي ، وتذكرة مرور إلى صدر أمي التي كانت تجلس على كرسيها الخشبي إلى حين رجوعي المتأخر في غالبيته من الجامعة وهي تقول : «عُدْت يا أمي ! الحمد لله على السلامة» وهنا فقط يراود النعاسُ عينيها.

وعربون محبة ووفاء وتقدير إلى زوجتي التي أمنت لي - وما زالت -
الراحة والهدوء للبحث والتنقيب مضحية براحتها وسعادتها تجاه تحصيلي
العلمي العالي وبخاصة ونحن أبوين لستة أولاد.

ومعذرة من القلب إلى أولادي الذين انصرفت عنهم وقضيت من الأوقات بين جنبات الكتب أكثر مما قضيت معهم ، وقد خسروا الكثير من عطف الوالد ورعايته .

إلى هؤلاء جميعاً أهدي هذا الكتاب راجياً الراحة الأبدية للوالدين وللباقيين محبتني .

الأب الدكتور جرجس داود

توطئة

العرب في الجاهلية وصدر الإسلام

عاش العرب في الزمن الغابر، زمن ما قبل الإسلام، وإبانه، في منطقة متراصة السعة⁽¹⁾، هي متصلة بقارتي آسيا وإفريقيا، ولها منافذ على القارة الأوروبيّة⁽²⁾، لقد عاشوا قبائل وإمارات وممالك⁽³⁾. تأثروا بمن حولهم، وأثروا، وذلك بسبب موقع سكنهم الاستراتيجي وجود المدن المقدسة في أرضهم القدس (مكة - يثرب ..) وامتداد رقعة تواجدهم، من تخوم اليمن حتى بلاد الشام والعراق⁽⁴⁾، وكم حنَّ العرب إلى بلادهم وغنوها في حلْهم وترحالهم، كقول الأشجع السلمي :

بأكناافِ العرَاقِ هُوَ دَفِينٌ يَؤْرَقُنِي إِذَا هَدَتِ الْعَيْنُ
أَحْنُ إِلَى الْحِجَازِ وَسَاكِنِيهِ حَنِينَ الْأَلْفِ فَارِقَةُ الْقَرِينِ

(1) د. فيليب حتي، د. إدوارد جرجي. د. جبرائيل جبور. تاريخ العرب. دار غندور، بيروت، ص 40 - 50. فيما بعد: حتي .

(2) د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. دار العلم للملاتين، بيروت 1980، ج 1، ص 35 و 1 ص 144. فيما بعد ج علي .

(3) الأب جرجس داود: أبيان العرب قبل الإسلام، ووجهها الحضاري والاجتماعي. دار مجد، بيروت 1981، ص 92 - 100. فيما بعد داود .

(4) ياقوت الحموي: الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله، بن عبد الله، الرومي البغدادي، معجم البلدان - دار صادر، بيروت 1977، ج 2، ص 219. فيما بعد البلدان.

وقال آخر:

تطاول ليلى بالعراقِ ولم يُكُنْ
عليَّ بأكتافِ الحجاز يطُولُ
فهلْ لي إلى أرضِ الحجاز ومنْ به
بِعَاقِبَةٍ، قَبْلَ الْفَوَاتِ سَبِيلٌ⁽¹⁾

جعل شعراء العرب أرضهم أنشودة في قياثرة حياتهم، بينما رحلوا
طلبًا للماء والكلأ، أو هرباً من حروب وأيام تناوبها فيما بينهم، أو
خاضوها ضدَّ معسكرات الغزاة والطامعين⁽²⁾.

إن الحديث عن جزيرة العرب، وصحرائهم، الحرارة والجافة⁽³⁾ طويل
وشاق، ولا نزيد أن نتغلل كثيراً في جغرافية العرب كي لا تسلب رطوبة
 أجسامنا رياحَ السوم الحارقة⁽⁴⁾، ونتهواى في قفار الفيافي، فُتدفن تحت
كبان الرمال، ولا تظهر أجسادنا إلا بالسيول العارمة الجارفة التي، تصيب
مدن الحجاز أحياناً⁽⁵⁾، وتساعد على نمو النخيل، الذي له فوائد جمة عند
سكان البادية، وقد بجل شجرته العبرانيون، وعبدتها بعض العرب⁽⁶⁾
وعظمتها الرومان⁽⁷⁾.

أما الأشجار غير المثمرة فأهمها أشجار البخور ولللبان. وللبخور

(1) المصدر /2 .220

(2) م. البلدان /5 448 و 5/ 262.

(3) حتى : ص 43.

(4) السوم: الرياح الحارة. ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين، محمد بن مكرم الإفريقي المصري)، لسان العرب، بيروت ج 12، ص 304. فيما بعد: اللسان .

(5) الأزرقي (أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد) أخبار مكة، وما جاء فيها من الآثار، دار الأندلس /2 .33. فيما بعد أخبار مكة.

(6) الكتاب المقدس: لا وين 40: 23 ونحنيا 15: 8 وينذكر الكتاب المقدس استعمال العبرانيين سعف النخل في الأفراح واستقبال العظاماء والأنبياء. وقد استقبل السيد المسيح بسعف النخل عند دخوله أورشليم. داود: 350 وأخبار مكة 1/ 130.

(7) قاموس الكتاب المقدس: نخبة من اللاهوتيين: مجلس كنائس الشرق الأدنى. ط ثانية ص 946 بيروت 1971 .

أهمية كبرى منذ القدم وحتى اليوم، استعمله اليهود⁽¹⁾ والوثنيون على حد سواء يحرقونه على مذابح هياكلهم، وانتقل استعماله إلى النصارى والمسلمين فيما بعد عند ممارسة الشعائر الدينية، والبحور واللبان بالإضافة إلى النخيل، كان السلعة الأساسية التي يحملها التجار العرب من جنوب إشبيلية الجزيرة وبعض مناطقها إلى أسواق مصر والشام والسبب المباشر لاتصالهم بالشعوب المجاورة وتأثيرهم بهذه الشعوب من حيث المعتقد والعادات⁽²⁾.

لقد تفاوتت الفوارق الثقافية العقلية تبعاً لحياة العرب، الحضرية⁽³⁾ أو البدوية⁽⁴⁾ ونظرأً لاختلاطهم بالأمم المجاورة. وكثيراً ما أدى هذا الاختلاط إلى نزاع طبيعي بين جناحيهم، بدأ في الجاهلية واستمر عداء مستحكماً إلى ما بعد الإسلام بقرون طويلة، شارك في هذا التنازع وأذكي ناره الموالي

(1) الكتاب المقدس: 2 أخبار 16: 261 - 21.

(2) الكلبي: أبو متذر هشام بن محمد بن الساب. كتاب الأصنام: ص 28 تحقيق أحمد زكي. الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة - 1965، فيما بعد الأصنام. وأخبار مكة 1/ 177 . ويروي الكلبي قصة حمل أول وثن إلى بلاد العرب على يدي عمرو بن لحي ونصبه في مكة وأمره للناس بعبادته .

إن نتاج هذه الأشجار وغيرها من السلع حمل «محمدًا» لرفقة عمه أبي طالب في تجارة إلى الشام، ثم في تجارة خديجة التي أصبحت زوجاً له فيما بعد، وتعرفه على أدبار النصارى ورهاياهم والسماع منهم عن الله والآخرة .

- ابن هشام (أبو محمد عبد الملك) - كتاب السيرة النبوية، القاهرة 1955، دار الكتب الأدبية ج 1 ص 137، 199، فيما بعد السيرة النبوية .

- ابن سعد (محمد بن منيع) كتاب الطبقات. بيروت 1958، ج 1 ص 88 - 129. فيما بعد (ط ابن سعد). دار صادر .

- الطبرى (محمد بن جرير) تاريخ الأمم والملوک، القاهرة، دار المعارف. بيروت، دار سويдан ج 2، ص 277 - 280، فيما بعد ت.ط.

- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي). مروج الذهب ومعادن الجوهر. دار المعرفة، بيروت 1982. ج 2 ص 293. فيما بعد مروج .

(3) قاموس الكتاب. ص 453. وكتاب مقدس. 1 ملوك 10 / 1 وداود 89 - 104 والقرآن الكريم. س 34 آية 15.

(4) أحمد أمين: فجر الإسلام. ص 5 دار الكتاب العربي. بيروت، لبنان - ط 10، 1969.

الذين ناصروا فريقاً على آخر... ثم كان هذا التناحر سبباً من أسباب الشعوبية والزندة، التي ازدادت حدتها وبشكل واسع جداً في المجتمع العباسي، والتي ستحدث عنها فيما بعد⁽¹⁾.

حالة العرب الاجتماعية في الجاهلية وصدر الإسلام

كان العرب في شبه جزيرتهم قسمين: بدواً وهم الأكثريّة الساحقة، وحضرأ. والهيئة الاجتماعية عند البدو تقوم على نظام العشيرة⁽²⁾، وشرعيتها أن الدم لا يغسله إلا الدم⁽³⁾، ولربما كان لشريعة الدم هذه صلة بما جاء في العهد القديم⁽⁴⁾، ولاحقاً في القرآن الكريم⁽⁵⁾.

إن العشيرة التي بنيت عليها عصبيتهم، ساقتهم إلى الانقسام والتمزق في تلك الأعصر⁽⁶⁾ وأصبحت باباً كبيراً للنجاع منه إلى معرفة كثير من أسباب الحوادث التاريخية التي ارتدت، تارة، رداء الفرق السياسية، وطوراً، لبست مسوح المذاهب الدينية. وقد غالى الشعراء كثيراً في التهاجي والتفاخر طبقاً لتلك الميول، واستغللها فيما بعد خلفاء الدولتين الأموية والعباسية، مما أدى إلى التباعد والتنافر، وساعد على انتشار الفرق الدينية، وبعضها تربص بالدين للخروج عنه. وهذا موضوع بحثنا فيما بعد.

العادات والاعتقادات عند العرب

ووجدت عند عرب الجاهلية وصدر الإسلام عادات ومعتقدات عجيبة

(1) انظر الخلاف بين القبائل العدنانية والقططانية زمن الجاهلية وصدر الإسلام في ج. علي: 495 / 1.

(2) فزاد حمزة: قلب جزيرة العرب، مصر 1933، ص 123 - 127. فيما بعد حمزة .

(3) انظر حرب البسوس بين عشيرتي بكر وتغلب. وحرب داحس والغبراء، بين عبس وفرازة. الزوزوني ص 98 .

(4) كتاب مقدس: خروج 26: 23 (النفس بالنفس، والعين بالعين، والسن بالسن ...). س المائدة، آية 45.

(5) انظر هذه العصبية بين فرعوي قريش: أمية وعبد المطلب. قبل الإسلام وبعده: تاريخ الطبرى 2 / 239 - 260 ومروج 2 / 351.

لها دورها وأثرها في المجتمع، قبل الإسلام وبعده، حيث تمسك بها البعض، وتركها آخرون لمعتقد جديد، وفريق ثالث حاول أن يوفق بينها وبين ما جاءت به الأديان السماوية، فكانت الزندة بمفاهيم مختلفة.

من هذه العادات والمعتقدات:

- الكهانة والعرافة⁽¹⁾.

- التشاوم والتفاؤل، زجر الطير:⁽²⁾ وأكثر الطيور شؤمًا عندهم الغراب، يقول علامة بن عبدة في ذلك:

وَمَنْ تَعَرَّضَ لِلْغَرَبَانِ يَزْجُرُهَا عَلَى سَلَامَتِهِ لَا بُدَّ مَشْؤُومٌ⁽³⁾

- الاستقسام عند الصنم، وقد قام بذلك أمير شعراء الجاهلية، عندما واتاه خبر مصرع والده، وأراد الثأر، فأتى «ذا الخلصة» واستقسمه، فخرج الناهي، فضرب وجه الصنم، وقال:

لَوْ كُنْتَ يَا ذَا الْخُلُصِ الْمُوْتُورَا مِثْلِي، وَكَانَ شِيْحُكَ الْمَقْبُورَا
لَمْ تَنْهِ عَنْ قَتْلِ الْعُدَاءِ زُورَا⁽⁴⁾

- الميسر، وهو ضرب من القمار، مارسه قدماء العرب كثيراً⁽⁵⁾.

- عبادة الله والأصنام والأوثان. وعبدة الله كثيرون، فهم الموحدون الذين تستدل عليهم وعلى إيمانهم من قول التابعية الجعدي:

(1) اللسان: 13/363. والألوسي: (بلغ الأرب في أحوال العرب) المطبعة الرحمانية - القاهرة 1924م، ج 3 ص 375.

(2) ابن رشيق القير沃اني: العمدة في صناعة الشعر وأدابه ونقده، المطبعة التجارية، مصر 1955م، ج 2، ص 163. فيما بعد العمدة .

(3) مفضليات. ص 104.

(4) أصنام: 34. م البلدان: 2/382. داود 307. السيرة النبوية 1/86. الجندي 1/107 وذو الخلصة من أشهر بيوت العبادة عند قدماء العرب. وسمى بالكتبة اليمانية .

(5) اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح العباسي) تاريخ اليعقوبي. ج 1 ص 259، دار صادر، بيروت، فيما بعد اليعقوبي .

الحمدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ مَنْ لَمْ يَقُلْهَا فَنفْسُهُ ظَلَمًا⁽¹⁾
وَمِنْهُمْ: الْيَهُودُ وَأَكْثَرُ مَا تَوَاجَدُوا فِي الْيَمَنِ وَيُثْرِبُونَ وَتَيْمَاءَ وَخَيْرَ⁽²⁾.

وَمِنْهُمُ النَّصَارَى، أَتَبَاعُ بَسْعَ النَّاصِرِيِّ، وَرِبِّاً أَخْذَنَا إِيمَانَهُمْ مِنْ
لُوقَّا، الَّذِي بَشَّرَ فِي بَلَادِ الْيَمَنِ، وَبِولُسُ الَّذِي جَابَ بَلَادَ الشَّامِ، وَقَدْ كَانَتْ
النَّصَارَى فِي غَسَانَ وَالْحِيرَةَ، وَقَبَائِلَ تَنْوِخَ وَتَغْلِبَ وَطَبَّى وَحَمِيرَ ...⁽³⁾.

أَمَا غَيْرُ عَبْدَةِ اللَّهِ، فَكُثُرٌ وَمُخْتَلِفُونَ بَيْنَ:

- الصَّابِثَةُ: وَهُمْ عَبْدَةُ الْكَوَاكِبِ وَأَنْتَشَرُوا بَيْنَ صَفَوفِ قَبَائِلِ سَبَأْ،
وَقَدْ ذَكَرُوهُمُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِقُولِهِ: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِثُونَ
وَالنَّصَارَى مِنْ آمَنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
هُمْ يَحْزَنُونَ»⁽⁴⁾.

- الْمَجْوِسَيَّةُ: وَهِيَ عِبَادَةُ النَّارِ، وَقَدْ كَانَتْ فِي تَمِيمٍ⁽⁵⁾.

- الْوَثَنِيُّونَ: وَقَدْ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ، وَزَعَمُوا
أَنَّهَا تَشْفُعُ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَهُمْ أَصْنَامٌ كَثِيرَةٌ نَصَبُوهَا فِي أَماْكِنٍ شَتَّى
وَخُصُوصًا فِي (مَكَّةَ) وَحَوْلَ الْكَعْبَةِ⁽⁶⁾.

- الزَّنْدَقَةُ: كَانَتْ فِي قُرَيْشٍ، أَخْذُوهَا عَنِ الْحِيرَةِ⁽⁷⁾.

وَلَطَالِمَا وَجَدَنَا الْعَرَبُ يَتَقيِّدُونَ بِعِرْفِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمُ الاجْتِمَاعِيَّةِ
تَقْيِيدًا شَدِيدًا وَهَذَا الْعِرْفُ وَالْتَّقَالِيدُ هُوَ الَّذِي يَعِنِّي الْحَرَامُ وَالْحَلَالُ، وَالْمَبَاحُ

(1) محمد الجارم (أدیان العرب) ص 193 القاهرة 1923. فيما بعد أدیان العرب.

(2) ج علي: 511 - 581

(3) المعارض: 621 واليعقوبي: 1/277 داود: 72 - .87

(4) قرآن كريم: س العنكبوت، آية 69.

(5) الجندي: 1/112.

(6) المصدر: 113 - القرآن الكريم: 39: 3 و 38 الأصنام: 13 وما بعد. السيرة النبوية: 1/85 وما بعد. داود: 299 وما بعد.

(7) المعارض: 621 واللسان: 10/147.

والمحرم. وقد توارث العرب ذلك على مَرْ الأجيال، وسار جنباً إلى جنب مع الدعوة الدينية الجديدة: الإسلام، وربما فاقها أحياناً. وقد تنافرت هذه الأعراف من قبيلة إلى أخرى قبل الإسلام وبعده وأدى التنافر إلى نشوء المذاهب واختلافها وبالتالي المروق عن تعاليم الدين الجديد أو التزندق بمعنى آخر، وهذا ما سنوفيه حقه من البحث والتمحیص فيما يلي من فصول.

وبكلمة موجزة نقول: إن المجتمع العربي، كان عماده العصبية، القبلية زمن الجاهليين، والدينية زمن الرسول، ثم الدينية والقبلية زمن الخلفاء الراشدين، وبعدها القبلية القحطانية والعدنانية التي جيرت لمصالح سياسية زمن الأمويين. ثم العصبية القرمية: عربية وعجمية، زمن بني العباس⁽¹⁾.

وهذه العصبية، وما نتج عنها وما تخللها من ظروف حياة، كان لها دور كبير في تغذية مذاهب الزندقة وأنواعها.

(1) د. زاهية قدورة: الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت طبعة أولى، ص 27 - 85 فيما بعد: قدورة.

المقدمة

عندما أعددت رسالتي، التي حصلت بها على شهادة الماجستير في اللغة العربية وأدابها^(١)، أدركت أهمية البحث والتنقيب عن ميل الإنسان العربي في جاهليته، ثم في العصور الإسلامية اللاحقة.

والمعلوم أن ميل الإنسان، ورغباته، تختلف باختلاف المكان، فتأثر بعناصر عديدة، وبخاصة عناصر أديان السماء، وعناصر أديان الأرض بما يستنبطه ويتبعده له.

والإيمان برب السماء قد جاب أصقاع جزيرة العرب، وما حولها، من بلدان وأقاليم افتحت أو بشر فيها.

ولما كنت قد اتجهت إلى أديان العرب في رسالة الماجستير، عصر الجahلية، وحاوت معرفة إيمان العرب، صممت أن أظل سائراً على هذا الطريق.

وبما أن الإنسان يؤمن ويرعوي أحياناً، وينفر ويلحد أحياناً أخرى، فقد أحبت أن أتبع مسيرة أولئك المنحرفين، الغاوين، الذي عرّفوا الإيمان أو سمعوا بخالق السماء والأرض، ولكنهم نفروا ونفروا، وابتعدوا وباعدوا، فآمنوا تارة، وكفروا أخرى، أو آمنوا وضلوا في آن، فكانوا زنادقة دين، وزنادقة فكر، وزنادقة سياسة، وزنادقة مجتمع.

(١) موضوعها: «أديان العرب قبل الإسلام، ووجهها الحضاري والاجتماعي».

والسبب الأهم في تتبعي حياة أولئك الناس، ومدى تأثيرهم وتأثيرهم في أعمق البحث عن حياة الأفراد والمجتمعات، كوني إنساناً مؤمناً، إيماناً عميقاً بمن هو جدير بالعبادة، وكاهناً اخترت طريق الوعظ والإرشاد والهداية، وهذا ما يستدعي الاهتمام الكلي بقضايا الإيمان، ونحن أبناء الشرق، نمتاز عن باقي شعوب الغرب بالنزعة الروحية، المتمثلة بمعرفة أركان الإيمان، وفروض العبادات.

وهناك سبب مهم أيضاً، هو أن الزندقة والزنادقة، والنزعة الكفرية، كانت معروفة ورائجة منذ الجاهلية ولم تتوقف فيما بعد، بل توالت، وقويت شوكتها وبالأخص زمن العصر العباسي الأول.

وهكذا أردت إكمال المسيرة، وبعد قراءة مستفيضة واضحة للأدب العربي وصلت إلى اختيار موضوع يصلاح أن يكون أطروحة لشهادة الدكتوراه.

وقد رأيت أن هذا الموضوع لم يظفر ببحوث خاصة به، تكشف غواضيه، وتظهر للدارسين مدى ما فيه من تشعب فكري، واصطراع أدبي، ومذهبى، واحتدام بين عقلية إنسان الصحراء القاسية الساذجة، وعقلية إنسان الحضارة المعقدة، إنه: موضوع: «الزنادقة والزنادقة، من الجاهلية حتى القرن الثالث الهجري».

وموضوع الزندقة والزنادقة قد يثير العواطف الدينية والمشاعر المذهبية ولكنه بالوقت نفسه بحث شيق على ما أرى، يكشف عن هوى كثيرين في السر والعلانية.

وقد سعيت جاهداً، أن أحدد معنى الزندقة وسبب تفشيها في المجتمعات، والغاية التي صبا إليها أصحابها. وللوصول إلى كل ذلك جبت المكتبات وفتشت بين ثنايا كتب الفرق في الأديان، والأدب والتراجم والتاريخ ودواوين الشعراء، وراجعت الدراسات التي اهتمت بالبحث عن هذا الموضوع، لأخلص إلى الآراء الراجحة، والأحكام الواضحة والجريدة.

وخلال البحث والتنقيب في مناجم الأدباء، وفي حنايا كتب الأدب والتاريخ عن زنادقة عصور الموضوع، رأيت بعضهم يتباهي في صحراء الزنادقة، فيصورهم بما ليس فيهم، أو يجمع حبات العنبر المختلفة الألوان، والطعم، والحجم، في دُنْ واحد ليستخرج منها عصيراً مركباً يسميه الزنادقة⁽¹⁾.

ويبدو أن عبارات الجاحظ في «الحيوان»⁽²⁾، تأتي مترجمة في عدم تحديد معنى الزنادقة، تحديداً دقيقاً وصريحاً، فهو يقول: «إن الزنادقة حريصون على تدبيج كتبهم بورق نقى أبيض، وحبر أسود براق، وخط جيد مقن»⁽³⁾.

فالجاحظ يصف لنا أنواع كتب الزنادقة وليس إيمانهم، ويضيف قائلاً: «إن إنفاق الزنادقة على تحصيل الكتب، وإنفاق النصارى على البيع»⁽⁴⁾ وبيع النصارى كما هو معلوم، أماكن عبادة وليس هي العبادة بحد ذاتها، وليس كل كنائس النصارى مزينة أو مزخرفة، كما يزعم الجاحظ.

ويضيف الجاحظ بقوله: «ولو كانت كتب الزنادقة، كتب حكمة، أو فلسفة، أو سنن نبيين ... أو كتب صناعات وتجارات ...، ولكنهم ذهبوا فيها مذهب الديانة على طريق تعظيم الملة ؛ ... فإنما إنفاقهم في ذلك وإنفاق المجنوس على بيت النار، وإنفاق النصارى على صلبان الذهب»⁽⁵⁾. وهو ربما يعني أنهم يريدون استمالة الناس إليها عن طريق التأنق والمغالاة.

(1) انظر الملل والنحل، ص180.

(2) كتاب الحيوان: الجاحظ: تحقيق فوزي عطوي. دار صعب بيروت ج 1 - 3، ص43 وما بعد.

(3) المصدر نفسه، ص43.

(4) المصدر نفسه، ص44.

(5) المصدر نفسه، ص44.

أما عن مضمون تلك الكتب فيقول الجاحظ : «وجلَّ ما فيها ذكر النور والظلمة، وتناكح الشياطين، وتسافد العفاريت، وذكر الصنديد، والتهويل بعمود النسخ، والإخبار عن شقلون، وعن الهامة، ... وكله هذر وغبيٌّ وخرافة»⁽¹⁾.

وهذا المضمون، إن دلَّ على شيءٍ فعلى عبادةِ الاثنين عند زنادقةِ الجاحظ، وبالاخص، عندما يذكر ثانوية النور والظلمة ... ونتساءل هنا عن سبب ذكر المحسوس والنصارى، ومقارنتهم بالزنادقة، لأنَّ الجاحظ كان جاهلاً بما يؤمن به المحسوس، أو بما تؤمن به النصارى؟ لا أظن ذلك فالجاحظ موسوعة زمانه علمًا ومعرفة وثقافة، ولكن الذي أظنه، هو ادعاء سطحيٍّ، ومقارنة فارغة بالشكل والمضمون. وربما كان ذلك عن هوس دينيٍّ وبعد عصبيٍّ عنصريٍّ، وليس إلا ...

وإذا ما انتقلنا إلى كتاب الأغاني، وبين دفتيه الكثير عن هذه الفرقة، فإننا نجد «أبا الفرج» لا يحدد معنى دقيقاً للزنادقة فتارة نراه يلهو، ويلهو معه سيد العصر⁽²⁾، عندما يطلب من بشار بن برد⁽³⁾ أن يكمل ما بدأه من شعر، فيكمله بشار بأبيات ماجنة، فيضحك المهدى ويأمر له بجائزة⁽⁴⁾. وطوراً يهاجم هذا الشاعر سياسة العباسيين ومن ولوا من وزراء، على ضياع ملك بنى أمية ويقول:

بني أمية هبوا طال نومكم	إن الخليفة يعقوب بُنْ داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا	خليفة الله بين الزق والعود

ويُرفع أمره إلى الخليفة على يد الوزير يعقوب بن داود ؛ الذي يدعو الشاعر الأعمى ملحداً وزنديقاً لأنَّه يهجو الخليفة بأفهش الألفاظ، فينحدر

(1) المصدر نفسه، ص 45.

(2) الخليفة المهدى .

(3) الشاعر الذي قتل على الزندقة .

(4) انظر الأبيات في الأغاني 3/ 64 بولاق .

المهدي إلى البصرة وعندما يصل إلى البطيحة يسمع أذاناً وقت الضحى، ويعلم أن صاحب الأذان هو بشار السكران، فيأمر صاحب الزنادقة أن يضربه حتى التلف⁽¹⁾.

إن من يقرأ أخبار بشار، وما ساقه الأصفهاني من أسباب موته، يرى بوضوح أن أبا الفرج لم يحدد لنا سبباً كافياً لموته؛ وكل ما أشار إليه هو اتهامات عامة، من هجاء فاحش إلى سكر ومجون وعربدة ولم يفسر لنا ما ساقه على لسان يعقوب بن داود عن هذا الشاعر: «يا أمير المؤمنين إن هذا الأعمى، الملحد، الزنديق، قد هجاك» ويبدو أن هذه الاتهامات. كانت رائجة، ويستطيع كل واحد أن يسوقها للآخرين ويلصقها بخصومه...

ويروي الطبرى عن الواسطي، أن أباه حدثه أن المهدي قال لموسى يوماً: وقد قدم إليه زنديق، فاستتابه، فأبى أن يتوب، فضرب عنقه، وأمر بصلبه: «يا بنتي، إن صار لك هذا الأمر فتجبر لهذه العصابة يعني أصحاب ماني - فإنها فرقة تدعى الناس إلى ظاهر حسن، كاجتناب الفواحش، والزهد في الدنيا، والعمل للأخرة، ... ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور ... ثم تخرجها إلى عبادة اثنين: النور والظلمة، فارفع فيها الخشب، وجرد فيها السيف»⁽²⁾.

ويبدو من عبارات الطبرى، أن الزنديق هو من اتبع تعليم ماني⁽³⁾ الذي حرم اقتناه المال، وأبطل النكاح. أو من قال بالاثنين النور والظلمة...

وهذا مغاير لما سنتبته في سياق البحث، وهو أن ما أشار إليه الطبرى ليس إلا نوع من أنواع الزنادقة، وفرع من فروع شجرتها المتشعبة، والتي ظللت الكثيرين، متبعي ملة الزنادقة.

وإذا ما انتقلنا إلى البحث، فإننا نراه يتألف مما يلى:

(1) المصدر 3/70 بولاق .

(2) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 8، ص 220، دار سعيدان، بيروت .

(3) سنشرح إيمانه في سياق البحث.

أولاً: توطئة: نظرت فيها إلى واقع العرب الاجتماعي زمن الجاهلية، وصدر الإسلام، وعاداتهم، وطرق عيشهم، وعباداتهم واعتقاداتهم ... فكانت مدخلاً إلى فضول البحث.

ثانياً: الفصل الأول: ويشمل قسمين اثنين، وفيه بحثنا عن:
أ - تأثير العرب بالأديان، السماوية منها، والأرضية.
ب - المزج بين هذه الأديان.

ثالثاً: الفصل الثاني: وعنوانه: «الزندة»: وقد قسمته إلى أربعة أقسام
أ - المعنى اللغوي والاصطلاحي للزندة.

ب - الجذور التاريخية للزندة، وبدأتها في الجاهلية، ثم في صدر الإسلام وعصر بني أمية، وأنهيتها في العصر العباسي الأول.

ج - حاولت في هذا القسم أن أستطلع آراء المؤرخين القدماء والمحدثين .

د - أما القسم الرابع فقد حاولت معرفة أهداف الزندة.

رابعاً: الفصل الثالث: وقد شمل أقساماً ثلاثة. تحدثت في القسمين الأولين عن مراحل الزندة في أعرق بحثنا وأنواعها بشكل عام، وفي القسم الثالث تحدثت عن أنواع الزندة بطريقة خاصة، وفصلت بين الزندة الدينية، والفكرية، والسياسية، والاجتماعية.

خامساً: الفصل الرابع: وفصلته إلى أربعة أقسام أيضاً وحاولت أن أثبت زندة المشاهير في أعرق البحث، فتنتقلت في حنايا دوحة الأدب، لاستطاع رأي الشعراء، والكتاب، ومدعى النبوة، ومتعصبي القوميات والأديان ... وأقف على نوعية وماهية زندتهم .

سادساً: الفصل الخامس: وأردت فيه إثبات الطابع الاجتماعي والحضاري للزندة. وضمته ثلاثة أقسام، تحدثت فيها عما أفرزته تجمعات

الشعوب والأمم، بعدما أخذت مما عند غيرها ومزجته بما عندها فكان المجنون والزهد، يقتربان ويبعدان، يتصادقان ويتنافران، ويصلان في النتيجة إلى مناحي الزنقة ؟ ولكنهما في الوقت نفسه يتجانسون أسلوب حياة، وأسلوب لغة ناتجة عن مسرى هذه الحياة المتقاربة إلى حد اللمس مع الزنقة، والتي أفرزت براعم حضارة نمت، وازدهرت، وانتشرت في أرجاء الأرض التي كانت خاضعة للخلافتين الأموية والعباسية، وربما انتقلت إلى أرجاء الأندلس فيما بعد.

أما المنهج المتبني هو المنهج التاريخي، قمت معه بتقسيم موضوعي إلى عصور عدة تمشياً وتطابقاً مع الأعصر السياسية. ابتدأت بعصر الجاهلية، وتدرجت إلى صدر الإسلام ودولة بنو أمية ثم إلى العصر العباسي الأول.

ولا شك في أن بين الأدب والتاريخ قرابة وتأخيناً، وإن كان الأدب لا يخضع لأحكام التاريخ ولا إلى تغيراته الجوهرية.

وليس هناك من أبواب تغلق أو تسد، في وجه الأدب، الذي لا شك أنه يخترق الحدود ويقطع المسافات، ويتجاوز الزمان والمكان، وإن تكن البيئة الجغرافية، والسياسية، والاجتماعية، لها أثراً بينها وبين في مجرأه. ولا غرو إن قلت أيضاً أن التواريخ الفردية، والصفات النفسية هي بمكان من عصور الأدب.

إن الزنادقة وإن كانوا قد تأثروا بثقافات وأديان ومعتقدات مختلفة ومتباينة، منها ما هو حصيلة إيمان محلي، ومنها الخارجي، فإني أرى زندقهم قد تنقلت من هنا إلى هناك في أرجاء البيئة العربية، وتحديداً في مدن الحجاز والشام والعراق، وبين ظهرينيها.

ولا بد، نهاية من أن أقف مفاجراً بالأستاذ الكبير، الدكتور يوسف فرحات، وشاكرأ له طيبة قلبه، معترفاً بسعة اطلاعه، ورحابة صدره، في قراءة بحثي غير مرة وتقويم الاعوجاج وتصحيح الأخطاء ... ولا أفضي سراً

إذا ما قلت أن مكتبه ومكان إقامته كان دائماً مفتوحاً لي دون اعتذار عن لقاء، أو تردد في تحديد موعد ...

كما أقف مفاخراً بالجامعة اللبنانية، جامعتنا الوطنية، التي فتحت أبواب الدراسات العليا أمام الطامحين إلى التقدم في مجالات المعرفة، معترفاً بفضل رئيسها وعميد كلية الآداب ومجلسها الكريم.

وبعد ،

فإبني أرجو أن يكون لهذا البحث بعض النفع للمتخصصين في الدراسات العربية، الذين يبغون الاطلاع على جانب مهم من حياة العرب وأدبهم الذي ينبض بالحركة، ويزخر بأنواع شتى من فنون المعرفة، وأأمل أن يسد هذا البحث فراغاً في الدراسات الأدبية.

وإذا لم يتسم هذا البحث مرتبة الكمال، فحسبي أنني نشدتها، وإلى الله القصد، ومنه الثواب.

الفصل الأول

تأثير العرب بالأديان والمزاج بينها

أ - تأثير العرب بالأديان:

إن معارفنا عن أديان العرب، السماوية والأرضية، في أعرق بحثنا، عائدة في أكثرها إلى الشذرات الواردة في الأدب العربي، وإلى الكتب السماوية والسير، وكتب التاريخ، قبل الإسلام وبعده.

إن من يقرأ أدب العرب، وكتب سيرهم، وتاريخهم، يطلع على أكثر معتقداتهم، ويرى بوضوح مدى تأثرهم بهذه المعتقدات، ومدى ارتباطها بمعتقدات الشعوب المجاورة، ويتلمس طبيعة الإنسان العربي، الذي ترى كيفية تقبله لهذه المعتقدات، فيؤمن بما يناسب طبيعته ومزاجه من تعاليمها، وفرائضها، وشرائعها، ويرفض ما يخالف.

ففي زمن ما قبل الإسلام، كان العرب على أديان ومذاهب. فمنهم من آمن بالله الواحد الأحد، أمثال «قس بن ساعدة» الذي يقول:

كلا بل هو الله إلهٌ واحدٌ ليس بـمـولـود ولا والـد⁽¹⁾

(1) الشهريستاني: أبو الفتح محمد عبد الكريم بن أبي بكر: الملل والنحل. تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، منشورات مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة، 1968. ج 3، ص 86. فيما بعد ملل ونحل، وابن حزم (أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الطاهري) الفصل في الملل والأهواء والنحل، وبهامشه الملل والنحل. ج 3، ص 227، دار المعرفة، بيروت 1983، هكذا (ورد).

وأمثال قصي بن كلاب الذي يقول:

أرباً واحداً أم ألف رَبْ
تركثُ اللاتُ والعزى جمِيعاً
فلا العزى أدين ولا ابنتيها
كذلك يفعلُ الرجلُ البصيرُ
ولا صنَّمي ببني غَنمٍ أزوّر⁽¹⁾

والأشعى الذي يقول:

وريك لا تُشريكَه، إن شريكَه
بل الله فاعبُدْ، لا شريكَ لوجهه
إياتاكَ والميتاتِ لا تَقْرَبَنَّها
يَحْظُّ من الخيراتِ تلك الباقيا
يُكَنُ لك فيما تَكَدُّحُ اليوم راعياً
كفى بكلامِ الله عن ذاك ناهياً⁽²⁾

هذا الإله الواحد، الكائن منذ الأزل وإلى الأبد، عرفوه حالقاً
وسموه إلهاً ورحاماً ورباً⁽³⁾ يحيي ولا يُحيى. يقول عبد الطابخة بن ثعلب
من قضاعة:

ولم يُرَ عبدٌ منك في صالحٍ وجَم
تبدأت خلق الناس في أكثم العَدَم
إلى ظلمةٍ من صُلْبٍ آدم في ظُلْم⁽⁴⁾
وأنتموا به قادرًا، فاحصاً القلوب، عليماً بكل شيء، يجازي الناس
بحسب أعمالهم، يقول ذو الأصبع العدواني:

الله يعلمُني والله يعلمُكم والله يُجزيُكُم عنِّي ويُجزيَنِي⁽⁵⁾
ويعكس هذا الإيمان على تصرفاتهم، فتراهم يحافظون على العرض

(1) المصدر نفسه 3/93.

(2) الأشعى الكبير: ميمون بن قيس. الديوان. شرح محمد حسين. نشر مكتبة الآداب بالجاميز. قصيدة 66 ص 329. فيما بعد الديوان.

(3) داود 173 و 184. وأنظر بقية أسماء الله.

(4) ملل ونحل 3/88. الفصل في الملل والأهواء والنحل (الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الطاهري) وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني. دار المعرفة، بيروت سنة 1983م. ج 3، ص 229 الهاشم فيما بعد. الفصل في الملل والنحل.

(5) منضليات ص 161، وقد روى هذا البيت للأشعى. المصدر ص 162.

من وجه أخلاقي ديني وإنساني، كما تراهم يتتبذون عبادة المال، وكأنهم قد سمعوا وتأثروا بأقوال الإنجيل⁽¹⁾، يقول حاتم الطائي:

أفضح جاري وأخون جاري معاذ الله أ فعل ما حبيت
كما يقول:

إذا كان بعض المال رباً لأهله، فإنني، بحمد الله، مالي مُعبَد⁽³⁾
ثم يقول:

كلوا الآن من رزق الإله وأيسروا فإن على الرحمن، رزقكم غدا⁽⁴⁾
والعربي في عصوره السابقة للإسلام ربما وصله الشعاع الإلهي عن طريق الأديان السماوية، فردد اسم الله كثيراً في أشعاره، ولو أردنا جمع هذا الاسم ومدلولاته، لجاء يتوج عشرات الصفحات ولكننا نكتفي بهذا النذر اليسير متوكلاً على إثبات وجود الله في عقل وقلب العربي الجاهلي الذي توصل إلى معرفة الله، وبعض صفاتيه، فالله واحد لا شريك له⁽⁵⁾، القدير⁽⁶⁾، العالم⁽⁷⁾، المدرك⁽⁸⁾، الغفور⁽⁹⁾، الواقي⁽¹⁰⁾، المتقى⁽¹¹⁾،

(1) «لا تعبدوا ربيباً، إما الله وإما المال»، «ولا تهتموا بما للغد»، «ولا بما تأكلون وما تلبسون». لوقا 12/22.

(2) الديوان، ص31، دار بيروت 1974.

(3) المصدر نفسه، ص35.

(4) المصدر نفسه: ص41.

(5) ديوان عبيد بن الأبرص. دار بيروت 1979، ص15. وديوان الأعشى، المؤسسة العربية، بيروت ص218.

(6) مفضليات ص162.

(7) ديوان عبيد بن الأبرص، ص15 و131.

(8) المصدر نفسه، ص15.

(9) ديوان عترة، دار صعب، ص142.

(10) مفضليات 261.

(11) المصدر نفسه 384.

العادل⁽¹⁾، الكافي⁽²⁾، المجازى⁽³⁾، والقاضي⁽⁴⁾.

وإننا لنرى شاعرًا كالأشعى يجمع بشعره أكثر أسماء الجلاله مشيرًا إلى التوحيد والتقوى والعبادة والامتناع عن أكل الميتة والزنى⁽⁵⁾، حيث يقول :

وَإِنْ تَقِيَ الرَّحْمَنُ لَا شَيْءٌ مِثْلُهِ
وَرَبِّكَ لَا تَشْرِكُ بِهِ، إِنْ شَرَكَهُ
بِلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ، لَا شَرِيكَ لِوَجْهِهِ ،
وَإِنَّكَ وَالْمَيِّتَاتِ لَا تَقْرِبُنَّهَا ،
وَجَارَةً جَنْبِ الْبَيْتِ لَا تَبْغِي عَلَى اللَّهِ خَافِيَا⁽⁶⁾

هناك الكثير من التعابير السماوية في أشعار الجاهليين، تدل وبصورة ثابتة على أن بعض القوم قد آمن بالله بطريقة ما، نصرانية أو يهودية أو حنفية، أو قربية منها. وإن ما أشرنا إليه من نفحات إلهية في قوالب شعرية هو للإثبات لا للاستشهاد. ورب سائل يقول: كيف نوفق بين من استقسم بالله في شعره، واستقسم بالأصنام والأوثان في آن واحد؟ أتدعوا مثل هذا مؤمنا بالله؟

واعتقادي أن الإنسان يخضع في تفكيره وإيمانه وميوله الإنسانية، ورغباته. وأحساسه، لأطوار حياته مختلفة، فهو في سن العشرين غيره في الخمسين. ويقيني أيضًا أنه مؤمن حتى يثبت العكس، والشاهد على ذلك من تراه اليوم بأم عينك وتسمعه بأذنك، وهو يحلف بالله وأنبيائه ومن ثم بمبدئه وعقيدته ورئيس ربه وحزبه، ويكون مثلاً من غير دينك ولا يؤمن

(1) ديوان الأشعى ص 12.

(2) المصدر نفسه .208

(3) المصدر نفسه .15

(4) ديوان عترة .74

(5) كان كلامه يطابق ما ورد في وصية رسول المسيح إلى الأمم. أعمال رسول .25/21

(6) السحاق الغراني = الهزالى الجياع. الديوان. شرح محمد حسين قصيدة رقم 66 ص 329.

بهذا الدين، وتراء لحالة نفسية ما، أو حالة اجتماعية وسلكية ما يقسم بما تؤمن به أنت، عساه يستدر عطفك وحنانك ورضاك فينال ما يتمنى وتنقضى الحاجة الملحة ويعود إلى ديانته يمارس شعائرها ويسير بهديها. أليس هذا مثل ذلك؟!

إن الأدلة التي ذكرنا على وجود الله في عقل العربي الجاهلي وقلبه قد تعدد قائلتها وبدون ريب إلى قلوب الآخرين من أبناء المجتمع لأن الشاعر كما عهدهنا في كل زمان، وعلى الخصوص وقتئذ، هو لسان حال الناس يعبر عن مشاعرهم في الحزن والفرح والشدة واللعن والكفر والإيمان... وإلى ما هنالك من مناحي الحياة، ولا يمكن أن تخيله فرداً خاصاً له نمط معين واعتقاد معين ونظرية معينة يتبعها مجتمعه، وهنا إما أن يتلاشى ويُنسى أو يُقدس ويصبح من الأنبياء. وهذا ما لم نره في استدلالاتنا الكثيرة⁽¹⁾.

من العرب من آمن إذاً بالله ووحده، ومنهم من آمن به، وتعبد للأصنام. زاعماً أنها تقر لهم إليه. ومنهم من تعبد للأصنام معتقداً أنها ضارة ونافعة⁽²⁾ ومنهم من دان باليهودية والنصرانية، أو بالمجوسية، ومنهم من آمن بتحكم الآلهة في هذه الحياة، ويبطلان كل شيء بعد الموت فلا حساب ولا نشر ولا كتاب⁽³⁾. ومنهم من تزندق، ومنهم الصابئة وعبدة النجوم والكواكب⁽⁴⁾.

وكون بحثنا عن الزندقة، وللزندقة علاقة مباشرة بكل ما ذكرنا فستتعرض لهذه المذاهب والديانات عند حديثنا عن الزندقة، ونكتفي الآن

(1) راجع هذه الاستدلالات في «داود» ص 169 - 185. عن وجود الله في فكر عرب الجاهلية.

(2) أبو اسحق إبراهيم بن عبد الله النجيري الكاتب، (إيمان العرب في الجاهلية) تحقيق محب الدين الخطيب، القاهرة 1328 هـ ص 12 وما بعدها. فيما بعد النجيري.

(3) أديان العرب في الجاهلية (داود) ص 185، وحتى نهاية الكتاب.

(4) داود 329 وما بعد .

بتقسيم الأديان إلى مجموعتين رئيسيتين: أولاهما الديانات السماوية. وهي تجمع - قبل الإسلام - الأحناف والموحدين واليهود والنصارى ؛ والثانية: الديانات الوثنية⁽¹⁾ وقد أتينا على ذكر أسماء أكثرها، وبإعتقادى أن بعض عرب الجاهلية كانوا وثنيين بالفكرة والعمل والبعض الآخر كانوا مؤمنين بالله وبالآوثان معاً، لا كما يعتقد بعض الباحثان الغربيين أمثال: رينان Renan، بأنهم موحدون بطبعهم كسائر الساميين، وأن ديانتهم هي من ديانات التوحيد⁽²⁾.

ونستدل على الذين آمنوا بالله وعبدوا للأصنام من قول القرآن الكريم فيهم: ﴿أَلَا لِلّهِ الدِّينُ الْخالصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرَّبُونَا إِلَى اللّهِ رُلْفِي. إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ مُخْلِفُون﴾⁽³⁾.

ومن قول شحنة بن خلف الجرهمي لعمرو بن لحي⁽⁴⁾: عندما أتى بالصنم من بلاد الشام ونصبه على الكعبة:

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهة شتى، بمكة حول البيت أنصاباً
وكان للبيت رب واحد أبداً فقد جعلت له في الناس أرباباً⁽⁵⁾

ومن استقسام امرئ القيس عند الصنم (ذى الخلصة)، وخرقه له بعد رجوع قداحه تنهاء عن قتل العادة:

لو كنت ياذا الخلص الموتوراً مثلّي وكان شيخُك المقبوراً

(1) التسمية مجازية.

E.Renan: Histoire générale et système comparé des langues sémitiques, Paris, 1855. Vol, I, (2) Chapt.1. p: 1 فيما بعد رينان.

(3) سورة الزمر، آية 3 تفسير الجلالين (جلال الدين المحملي)، وجلال الدين السيوطي. المكتبة الشعبية ص 385. فيما بعد. تفسير الجلالين. وأنظر أيضاً سور القرآن: الأنعام: 100 و148 والنحل: 35 والبقرة: 165 وإبراهيم: 30.

(4) أول من أمر بعبادة الأصنام على رأي بعضهم (الأصنام) ص 6 وما بعدها .

(5) مروج 2/56

لم تنبِ عن قتل العُدَاة زوراً⁽¹⁾

ومن ورود الرجل الكناني بابله إلى صنم اسمه سعد: قصد التبرك، فتفرق الإبل وتتفرق، فيرمي الصنم بحجر وهو يقول: لا بارك الله فيك إلهًا، أنفرت عليَّ إبلي ثم ينشد:

أتينا إلى سعيد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد⁽²⁾

فهذا التبرك من سعد: قوله: لا بارك الله فيك إلهًا، إنما يعنيان ما قصدناه من أن بعض العرب قد آمن بالله وتعبد لآلهة أخرى أرضية. أو أن إيمانه وتعبده مختلف إلى حد ما في مراحل عمره، وهذا ما نراه عند زيد بن عمرو بن نفيل بقوله:

أرباً واحداً أم ألف رب
تركـتـ الـلاتـ والـعـزـىـ جـمـيـعاً
فـلاـ العـزـىـ أـدـيـنـ وـلـاـ اـبـنـيـهاـ
وـلـاـ هـبـلـأـ أـزـورـ وـكـانـ رـبـاـ
كـذـلـكـ يـفـعـلـ الجـلدـ الصـبـورـ
وـلـاـ صـنـمـيـ بـنـيـ عـمـرـ وـأـزـوـرـ
لـنـاـ فـيـ الدـهـرـ إـذـ حـلـمـيـ صـغـيرـ⁽³⁾

وفي شعر آخر يقول زيد:

فـإـنـكـ لـاـ تـخـفـىـ مـنـ اللهـ خـافـيـاـ
وـإـيـاكـ لـاـ تـجـعـلـ مـعـ اللهـ غـيرـهـ
وـلـاـ إـيـهاـ إـنـسـانـ إـيـاكـ وـالـرـدـىـ
وـمـنـهـ نـسـتـتـجـعـ أـنـ هـنـاكـ آـلـهـةـ غـيرـ اللهـ تـعـبـدـ،ـ إـذـ تـقـرـبـ مـنـهاـ النـاسـ فـيـ ذـلـكـ
الـعـصـرـ،ـ رـبـيـمـ لـمـيـلـهـمـ إـلـىـ الـمـحـسـوسـ مـتـمـنـيـنـ رـؤـيـةـ مـعـبـودـهـمـ وـسـمـاعـهـ،ـ وـالـهـ
رـوـحـ خـفـيـةـ،ـ لـاـ يـدـرـكـ إـلـاـ بـالـإـيمـانـ الـمـطـلـقـ وـبـالـعـقـلـ الـوـاعـيـ.

وـرـبـيـماـ ذـكـرـ النـاسـ هـذـهـ آـلـهـةـ،ـ وـأـقـسـمـواـ بـهـاـ أـحـيـانـاـ،ـ كـمـاـ أـسـلـفـنـاـ،ـ
دـونـمـاـ إـيمـانـ بـهـاـ،ـ إـمـاـ اـنـقـاءـ لـشـرـ أوـ دـفـعـاـ لـغـائـلـةـ ...ـ إـنـ الشـاعـرـ أـوـسـ بـنـ حـجـرـ

(1) الأصنام .35

(2) المصدر نفسه .37

(3) المصدر نفسه، ص.22

يقسم بالات والعزى، ولكنه يعترفحقيقة أن الله أكبر منها، مؤكداً ذلك
ومشدياً عليه، يقول:

وَبِالْأَتِ وَالْعُزَىٰ وَمَنْ دَانَ دِينَهَا ۖ وَبِاللّٰهِ، إِنَّ اللّٰهَ مِنْهُنَّ أَكْبَرُ⁽¹⁾

وخير دليل على هذه العبادة المزدوجة عند بعض عرب الجاهلية،
اعتبارهم هذه الأوثان والأصنام⁽²⁾، وسطاء وشففاء عند الله، وكانوا مع
اعترافهم بالله لا يرون غنى عن أصنامهم، وهو ما تعجبوا له وتساءلوا عنه،
في القرآن الكريم: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللّٰهَ وَحْدَهُ وَنَذَرْ مَا كَانَ يُعْبُدُ آباؤُنَا﴾.
وأيضاً: ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أُمَّ اللّٰهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾⁽³⁾.

أما الوثنيون العرب، أو أتباع أديان الأرض، فهم الذين ألهوا
الأصنام⁽⁴⁾، والأوثان⁽⁵⁾، والأنساب⁽⁶⁾، وعبدوها من دون الله.

وكان لهم أصنام كبرى عامة كاللات والعزى ومنا⁽⁷⁾ يقر بربوتها أكثر
عبدة الأصنام من العرب، وأصنام خاصة لكل قبيلة وثنية، وأيضاً لكل
بيت⁽⁸⁾. ولعل هؤلاء الوثنين قد اعتبروا وثنيتهم ديانة تقليدية وراثية، فقالوا
عنها أنها ديانة الآباء والأجداد، وهذا ما يفسره لقاء أشراف قريش يتزعمهم
أبو سفيان: بأبي طالب عم محمد وحاميه، وقولهم له: «يا أبا طالب، إن

(1) المصدر نفسه، ص 17.

(2) لم تفصلها لضيق المكان. راجعها مفصلة في أديان العرب، داود، ص 289 - 377.

(3) سورة الأعراف آية: 70. ويوسف 39 والأنعام 19.

(4) راجع تعريفها في اللسان مادة (صنم) 12 / 349.

(5) راجع تعريفها في ناج العروس مادة (وثن).

(6) راجع تعريفها في اللسان مادة (نصب) 1 / 759. وكونها متداخلة متشابكة في تعريفاتها
فسنعتها جميعاً شيئاً واحداً وإذا ذكرنا أحدهما عنينا الجميع.

(7) راجع عبادتها في الأصنام: ص 13 - 14 - 16 - 17 والسيرة النبوية (1 - 2) 85. ومعجم
البلدان 5 / 405. وداود 299 - 304.

(8) محمد حسين هيكل: حياة محمد: مكتبة النهضة المصرية، ط 13 سنة 1968 ص 84. فيما
بعد هيكل.

ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فلما أن
تكفَّه عنها وإنما أن تخلي بيتنا وبينه⁽¹⁾.

ولما كانت الكعبة مصدر رزق أهل مكة، ومحج العرب، يقصدونها من كل الأنهاء، نصب قريش أصنام جميع القبائل عند الكعبة، ليتبرك كل حاج بمعبوده، ويرضى ويقدم القرابين⁽²⁾.

وبمناً: التي ذكرنا يُقسم الشاعر عبد العزى بن وديعة المُرَنِّي:

إني حلفتُ يمينَ صدقَ بَرَّةَ بمناًةَ عندَ محلِّ آلِ الخزرِ⁽³⁾
مشيراً إلى من تعبد لها. وقد كان العرب يعلقون القلائد والشنوف على تلك الأصنام. وهذه عادة بقيت سائدة حتى يومنا هذا، وربما أخذوها عن غيرهم من أهل الديانات السماوية، إذ نرى أهل هذه الديانات لا يزالون يتقربون من الأولياء ومزاراتهم بتعليق الشياط وقطع المعادن الثمينة فيها، يقول كعب بن مالك الأنباري ذاكراً: اللات والعزى وودا، ومشيراً إلى تلك العادات:

وننسى اللات والعزى ووداً ونسلبهما القلائد والشنوفا⁽⁴⁾
وقد ذكر الرحالة الإنكليزي جايمس هاملتون أن صخرة اللات كانت لا تزال في أيامه بالطائف. ووصفها بأنها صخرة من «الغرانيت»، شكلها خماسي، وطولها اثنتا عشرة قدماً⁽⁵⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 145.

(2) الخربوطلي (تاريخ الكعبة). دار الجيل، بيروت 1976، ص 36. فيما بعد الخربوطلي .

(3) الأصنام، ص 14.

(4) السيرة النبوية (1 - 2) ص 78 الشنوف: قرط للأذن. وأنظر بقية أسماء الأصنام عند العرب في داود: 304 وما بعد. ومن تعبد لها من قبائل العرب في ج علي 234 / 6 وما بعد .

James Hamilton: Sinai, The Hegas and Soudan. London 1857. P. 150. After (5)
Hamilton.

كما أن العرب الوثنيين كانوا يحملون معهم أصنامهم وقت المعارك
مؤمنين بأنها ستساعدهم في النصر، وفي ذلك يقول الشاعر:

وَسَارَ بِنَا يَغُوثُ إِلَى مُرَادٍ فَنَاجَزْنَاهُمْ قَبْلَ الصَّبَاحِ⁽¹⁾
وَرَبِّما فَعَلُوا ذَلِكَ مُتَأثِّرِينَ بِعَصْبَانِ أَهْلِ الْدِيَانَاتِ السَّمَاوِيَّةِ الَّذِينَ كَانَتْ
رَأِيَّاتِهِمْ فِي سَاحَاتِ الْوَغْيِ تَحْمِلُ إِشَارَاتِ دِينِهِمْ. وَهَذَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ
الْأَخْطَلُ بِقُولِهِ :

لَمَا رَأَوْنَا وَالصَّلِيبَ طَالَعَاً وَمَارَ سَرْجِيسَ وَمَوْتَأً نَاقِعاً
وَأَبْصَرُوا رَأِيَاتِنَا لَوَامِعاً خَلَوْا لَنَا رَادَانَ وَالْمَزَارِعَا⁽²⁾

إن آلية العرب الوثنيين كثيرة جداً، ونحن لا ندخل في جدل حول التفسيرات التي وضعـت لهـذه الآلهـة وكيف وُجـدت عندـ العـربـ، فقد اسـهـبـ الـبـحـاثـوـنـ فـيـ ذـلـكـ وأـطـالـوـا⁽³⁾ـ، ولـكـنـنـاـ نـرـيـدـ أـنـ نـقـولـ: إنـ الـاتـصـالـاتـ الـإـنـسـانـيـةـ الـمـسـتـمـرـةـ لـهـاـ عـلـاقـةـ كـبـيرـةـ بـحـدـوثـ تـطـورـاتـ فـكـرـيـةـ بـيـنـ الشـعـوبـ،ـ منـ شـائـعـاـنـاـ أـنـ تـؤـديـ إـلـىـ تـلاـقـعـ فـيـ الـعـبـادـاتـ فـيـ أـغـلـبـ الـأـحـيـانـ،ـ والـعـربـ فـيـ جـزـيرـتـهـمـ،ـ قـبـلـ الـإـسـلـامـ،ـ لـمـ يـكـوـنـواـ يـوـمـاـ بـعـيـدـيـ المـرـمـىـ عـنـ الـرـوـمـانـ وـالـبـلـقـانـ وـالـفـرـسـ وـالـأـحـبـاشـ وـغـيـرـهـمـ فـكـمـ بـالـأـحـرـىـ بـعـدـ الـإـسـلـامـ عـنـدـمـاـ شـقـتـ خـيـولـهـمـ طـرـيقـهـاـ إـلـىـ مـرـايـعـ السـنـدـ شـرـقاـ وـإـلـىـ أـوـدـيـةـ الـبـيـرـيـنـهـ غـربـاـ.

ب - المزج بين الأديان:

إن اختلاط العرب بالأمم المجاورة يفسـرـ لـنـاـ مـاـ جـاءـ فـيـ الجـمـهـرـةـ⁽⁴⁾ـ فـيـ تـصـيـرـ الـعـربـ وـتـهـوـيـدـهـمـ وـتـمـجيـسـهـمـ وـتـوـثـيـنـهـمـ فـيـقـالـ:ـ «ـإـنـ إـيـادـاـ،ـ وـرـبـيـعـةـ،ـ

(1) الأصنام ص 10 و م البلدان 5/439.

(2) الأخطل (ديوان) تحقيق د: فخر الدين قباوة. دار الآفاق الجديدة، بيروت الطبعة الثانية 1979. جزمان. ص 129 و 144. فيما بعد الديوان .

(3) راجع جواد علي 6/290 - 336.

(4) جمهـرـةـ الـأـنـسـابـ.ـ صـ 491ـ.ـ وـبـرـايـيـ أـنـ نـسـلـ أـكـثـرـهـمـ لـمـ يـنـقـطـعـ كـمـ أـشـارـ إـبـنـ حـزمـ،ـ وـرـبـماـ غـيـبـ أوـ أـهـيـلـ لـسـبـ مـنـ الـأـسـابـ .ـ

ويكراً، وتغلب، وعبد القيس، وغسان، وطبيه، وكثيراً من تنوخ، وكلب، وتميم، ولخم، كانوا نصارى. وكانت حمير يهوداً، وكثير من كندة. وظهرت المجوسيّة في بني تميم أما سائر قبائل العرب فعباد أوثان». وقد تنصر من قريش نفر يسير.

ولقد كان العرب في جاهليتهم وبعد الإسلام على اتصال بمن حولهم من الشعوب، وكان لهذا الاتصال أثره في حقول الحياة كافة عندهم، بعد أن مر بعده قنوات، أهمها:

1 - الموقع والجغرافيا.

2 - التجارة.

3 - المراكز الدينية.

4 - الهجرات الدائمة من الجزيرة وإليها.

5 - الحملات العسكرية

إن القناة الأولى تحدثنا عنها في التوطنة. أما التجارة فقد كانت بلاد العرب طريراً مهمة لها، فشبكة المواصلات البرية تخترق أرضهم من وادي الرافدين، حيث حضارة بابل، إلى المنطقة السورية فأسيا الصغرى ومصر. ومن اليمن في الجنوب إلى الشام مورأ بمكة⁽¹⁾، وإلى وادي الرافدين عن طريق نجد، وإلى حضرموت⁽²⁾. هذه التجارة كان لها تأثير كبير في مختلف الميادين منها الميادين الدينية⁽³⁾.

(1) داود، ص 20.

(2) لطفي، ص 29.

(3) الكلبي (أبو منذر هشام بن محمد بن السائب) كتاب الأصنام. ص 28. تحقيق أحمد زكي، الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة 1965. فيما بعد الأصنام. وأخبار مكة 1/117. ويروي الكلبي قصة حمل أول وثن إلى بلاد العرب على يدي عمرو بن لحي ونصبه في مكة وأمره للناس بعبادته وهذه التجارة حملت «محمداما» لرفقة عمه أبي طالب في تجارة إلى الشام، ثم في تجارة خديجة التي أصبحت زوجاً له فيما بعد. وتعرفه على أديار النصارى ورهبانهم والسماع منهم عن الله والآخرة.

ج - المراكز الدينية:

كانت مكة المكرمة المركز الديني الرئيسي للعرب فيما قبل الإسلام⁽¹⁾، وبعده، وموقعها في قلب شبه الجزيرة، حج إليها العرب من جميع أرجاء بلادهم⁽²⁾ كما حج إليها بعض شعوب الأمم الأخرى كالهنود والفرس. وقد افتخر بعض شعراء الفرس زمن الإسلام بتقديسهم الكعبة والحج إليها، بقولهم:

وَمَا زَلْنَا نَحْجُ الْبَيْتَ قَدْمًا وَنَلَقَى بِالْأَبَاطِحِ آمْنِينَا
وَسَاسَانَ بْنَ بَابَكَ سَارَ حَتَّى أَتَى الْبَيْتَ الْعَتِيقَ بِأَصْدِيدِنَا
وَطَافَ بِهِ وَزَمْرَمَ عَنْدَ بَنْرِ لِإِسْمَاعِيلَ تَرَوِي الشَّارِبِينَا⁽³⁾

أما بعد ظهور الإسلام، فالحج إلى «البيت» في مكة غدا ركناً من أركان العبادة الخمس عند المسلمين في كل أمة وأرض. وهذا ما يفسر لنا مدى تأثير «مكة» في امتزاج العرب بغيرهم.

أما المراكز الدينية الأخرى كأورشليم «القدس» وبيت لحم حيث المراكز الدينية اليهودية وال المسيحية فينبغي لزائرتها الاختلاط بالعرب، إن بواسطة الطرق أو الاختلاط بهم هناك⁽⁴⁾.

د - الهجرات الدائمة من الجزيرة العربية وإليها:

لقد فرضت الطبيعة القاسية، والمناخ المتقلب، مع شح الأمطار على سكان الجزيرة نموذجاً من الحياة، اتسم عموماً بعدم الاستقرار، فكان التحرك البشري الدائم داخل الجزيرة وإلى خارجها، أحد سمات الحياة فيها ويتم إما على شكل أفراد وأسر، أو على شكل جماعات متفاوتة

(1) الجهيشاري (محمد بن عبدوس). الوزراء والكتاب ص 396 والأغاني 47/5.

(2) م البلدان 5/183. حجت إليها حمير وكندة وغسان ولخم وباقى العرب .

(3) خربوطلي، ص 27. ومروج الذهب 1/242.

(4) وكثير من العرب كانوا نصارى ويهودا. انظر داود 220 و 245.

الحجوم، شبهها المؤرخون عند ضخامتها بأمواج البحر⁽¹⁾.

اضطر العرب إلى الهجرات شمالاً لأسباب كثيرة، منها: سعيهم الدائب لإيجاد المراعي الخصبة، فانساحوا في بلاد الشام ودخلوا أرض الراافدين، كما تقدموا إلى طور سيناء فشواطئ نهر النيل⁽²⁾.

هذا من الجزيرة، أما إليها فقد قصدها اليهود ابتداءً من إبراهيم⁽³⁾، الذي يذكره القرآن بوضعه أسس البيت (الكعبة) مع ولده إسماعيل⁽⁴⁾، كما قصدوها عند سبيهم إلى أشور وبابل على عهد نبوخذنسر⁽⁵⁾، بحيث فرّ قسم منهم إلى بلاد العرب، وأقاموا فيها متواترين حتى ظهور الإسلام، وبعدهم عاد إلى دياره وبقيت بينهم وبين بعض العرب مراسلات⁽⁶⁾. هاجروا إليها بعد خراب هيكلهم ومدينتهم اورشليم⁽⁷⁾، وتوجلوا في نواحيها فوصلوا تيماء ويشرب ومكة في الحجاز، ومن هناك إلى اليمن وغيرها في الجنوب، وقد ظهر منهم أنبياء⁽⁸⁾، وشعراء ، في بلاد العرب مشهورين أمثال السموأل بن عاديا ، والربيع بن أبي الحقيق الذي يقول في إحدى قصائده:

إنا ، إذا نحكم في ديننا نرضى بحکم العادل الفاصل
لا نجعل الباطل حقاً ولا نلِط دون الحق بالباطل⁽⁹⁾

(1) د. سهيل زكار: تاريخ العرب والإسلام. منذ ما قبل المبعث وحتى سقوط بغداد. دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة سنة 1979م، ص 18 فيما بعد زكار .

(2) ج: علي / 1. 620.

(3) قاموس الكتاب المقدس ص 596، فأقام في شكيم أولاً، ثم في بيت إيل، ثم ارتحل إلى أرض الجنوب فمصر ليعود ويستقر عند (بلوطات ممرا) المصدر ص 10 .

(4) سورة البقرة، آية 127.

(5) قاموس الكتاب المقدس، ص 597.

(6) كتاب مقدس. نحميا 1:6 وما بعدها .

(7) وذلك عام 70 م على يد الرومان .

(8) كالنبي أیوب، الذي يضمه فيليب حتى إلى العرب. حتى ص 73 - 74 .

(9) الجمحي (أبو عبد الله بن سلام البصري) طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين دار الفكر، بيروت ص 110، فيما بعد طبقات الشعراء .

ومنهم كعب بن الأشرف، وشريح بن عمران، وشعبة بن غريض،
الذي يقول:

لا تبعدن فكل حي هالك لا بُدَّ من تلف فبن بفلاح
إن امرءاً من الحوادث جاهلاً ورجا الخلود كضارب بقداح⁽¹⁾

هذه الهجرات تمت فيما قبل الإسلام، أما بعده فهي كثيرة جداً إذ إن الفتوحات المتواترة شملت مناطق مختلفة في طبيعتها وحضارتها وخصائصها الاجتماعية، وأجناس بشرها، كما أخرجت عدداً ضخماً من العرب من جزيرتهم إلى مواطن جديدة استقرروا فيها شيئاً فشيئاً، وتزاوجوا مع أهلها وتسلطت عليهم مؤثرات جديدة غيرت مجرى حياتهم، حتى الجزيرة نفسها لم يسلم سكانها من هذه المؤثرات التي غزتها وتسلطت عليها عن طريق الجواري والرقيق الذين حملوا معهم صدى مجتمعهم بما فيه من خير وشر، والذين سرى فيهم في الفصول اللاحقة سبباً رئيساً من أسباب زرع الزندقة في نفوس العرب وأفكارهم.

إن الفتوحات التي اخترقت الشام والعراق، ومنهما شرقاً إلى فارس والسندي، وغرباً إلى إفريقيا الشمالية والأندلس، سببت عملية مزج قوية بين العرب وباقى الأمم المغلوبة، مزج في الدم والنظم الاجتماعية والأراء العقلية، ومزج في العقائد الدينية⁽²⁾.

هـ - الحملات العسكرية:

إن اختلاط العرب بباقي الشعوب المجاورة سبب مزجاً في أكثر مناحي الحياة، وقد رأينا أنه تم بواسطة قنوات عدة، منها الحملات العسكرية التي قصدت بلاد العرب لإخضاعها، كحملة شلمناصر ملك

(1) المصدر، ص 111، وهناك شعراء آخرون عديدون غيرهم .

(2) فجر الإسلام، ص 84 وما بعد .

آشور⁽¹⁾ على أطراف الجزيرة، وحملة سنهاريب أيضاً وإخضاعه «أدومو قلعة بلاد العرب»⁽²⁾ وأسر ملكتها «تبوعة» وحمل آلهتها إلى نينوى، ومن ثم إعادةتها إلى حيث كانت مع كتابة اسم إله آشور عليها⁽³⁾.

وحملة نبونيد ملك الكلدان، الذي بني له قصراً مسكوناً في تيماء بعد إخضاعها. ناقلاً معه أقواماً من شعبه ومن اليهود ليسكنهم في نواحي الحجاز في تيماء وخبير ويثرب⁽⁴⁾.

وحملة قمبيز ملك فارس على مصر، ومروره بأرض العرب ومحالفته لهم ليكونوا خير مساعد له في عبور الصحراء⁽⁵⁾.

وحملة «وهرز» قائد كسرى على بلاد اليمن لمناصرة «سيف بن ذي يزن» ضد الأحباش المحتلين⁽⁶⁾ وبقاء الفرس هناك حتى الفتح الإسلامي. وفي هذا الحدث يقول «أبو الصلت»:

مَنْ مِثْلُ كَسْرَى شَهْنَشَاهِ الْمُلُوكِ لَهُ
لَهُ دَرْهَمٌ مِنْ عُضْبَةِ خَرَجَوا
أَرْسَلَتْ أَنْدَأَا عَلَى سُودِ الْكَلَابِ فَقَد
أَوْ مِثْلُ وَهْرَزٍ يَوْمَ الْجَيْشِ إِذْ صَالَ
مَا إِنْ تَرَى لَهُمْ فِي النَّاسِ أَمْثَالًا
أَصْحَى شَرِيدُهُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَلَّا⁽⁷⁾

وحملة آليوس غالوس الروماني على قلب الجزيرة العربية⁽⁸⁾، وحملة

(1) النص الذي تركه هذا الملك يذكر فيه أن حملته كانت على ملك دمشق الآرامي وعلى حليفه «أخاب» ملك إسرائيل، و«جندب» أحد مشايخ العرب.

D.D. Luck, Ancient Records of Assyria and Babylonia. (Chicago 1927) V.I. P.611.

(2) تعرف بالمصادر العربية بدومة الجندي. م. البلدان 2/ 487 وما بعد .

(3) ج : علي /1 .592

(4) المصدر /1 .613

(5) داود 48 وحتى ص.70.

(6) حتى ، ص.101.

(7) الطبرى /2 .146

(8) حتى ، ص.77

ابن سبتموس سفيروس على العربية السعيدة⁽¹⁾، وقد فشلت الحملتان ونجحت حملة الأحباش أنصارهم فيما بعد على بلاد اليمن⁽²⁾.

إن هذه الحملات العسكرية، وغيرها من القنوات التي ذكرنا، والتي بواسطتها حصل المزج السكاني بين العرب وباقى تلك الشعوب وخصوصاً الفرس قد عملت على إدخال بعض العرب في ديانة الفرس ووصول الزندقة إليهم⁽³⁾، وربما في ديانة الآخرين. لأن بعض العرب ونظراً إلى تواتر الاختلاط، كان يجيد اللغة اليونانية⁽⁴⁾، وللغة الفارسية ويتقنها إلى جانب عربيته، فعدي بن زيد كان من ترجمة ابرويز (ملك الفرس)، وأبوه زيد كان شاعراً خطيباً وقارئاً كتاب العرب والفرس⁽⁵⁾. ولما كان عرب الحيرة على علاقة وطيدة بالفرس، وكان أمراؤهم مقصدأً لشعراء العرب من كل أنحاء الجزيرة يمدحونهم ويبشرون بهم بين البدو⁽⁶⁾ فقد أثروا كثيراً في الحياة العقلية والدينية للعرب عامه⁽⁷⁾. ومعنى هذا ان عرب الحيرة خصوصاً، وعرب العراق وباقى بلادهم عموماً خضعوا قبل الإسلام لمزج عربي فارسي.

ولما جاء الإسلام ودخل الفرس في هذا الدين، انتقلوا بكل حضارتهم إليه، وحلت البصرة والكوفة محل الحيرة. وإن الفتوحات العربية

(1) ج: علي 2 / 67، إن للرومأن آثاراً كثيرة باقية في بلاد العرب، كمدينة جرش في الأردن: زيارة شخصية عام 1967، وأثار بعلبك، ودير البلمند في لبنان، ولقاء مع بطريق الروم الأرثوذكس الكسندر طحان عام 1958 وتحديثه عن تاريخ الدير بحضور ملك اليونان «بول» ورئيس جمهورية لبنان: كميل شمعون .

(2) الطيري 2 / 125 وما بعد .

(3) ابن الأثير - الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي بيروت 1 / 243 وما بعدها .

(4) أنظر ضحي الإسلام 1 / 253 .

(5) أغاني 2 / 20 .

(6) ابن الأثير 1 / 331 وسالم (عبد العزيز) تاريخ العرب في عصر الجاهلية. دار النهضة العربية، بيروت 1971 (سالم) ص 277.

(7) أنظر أحاديث جذيمة الأبرش، وأساطير الزياء، والخورنق والسدير، ويومي النعمان، في الطيري 1 / 613. م البلدان 2 / 401 و 3 / 201 و 4 / 198 والمعارف 649 .

التي شملت أرض ما بين النهرين وبلاد فارس شرقاً وحتى السند، ومصر وشمال إفريقيا غرباً وحتى الأندلس، سببت في مزج سكاني بين العرب وغيرهم، وورثت أبناء الصحراء العربية تلك الثقافات الفكرية القديمة وما يتفرع عنها في مجال الدين. لقد غلبوا فغلبوا. غلبوا عسكرياً لكنهم خضعوا بدورهم لحضارة الأمم المغلوبة، فما أن استقر الإسلام حتى قام الهنود والفرس والمصريون وغيرهم من أسلم منهم ومن بقي على دين آبائهم القديم⁽¹⁾، بدورهم في عملية المزج الجنسي واللغوي والثقافي والديني، وإذا بنا بإزاء أمة (عربية) تتألف من أجناس مختلفة، وإذا بالبيت العربي يزخر بالجواري من كل جنس⁽²⁾، وما إن تدول دولة الأمويين حتى نرى العربي الخالص الدم في بغداد نادراً، لأن غالبية الأمهات من الجواري والإماء، وكذلك الشأن في الخلفاء أنفسهم⁽³⁾. مما هيأ للقاء واسع بين العرب وباقى الأمم، ولا نقصد اللقاء الدموي فحسب، بل نقصد اللقاء الثقافي الديني، لأنه من الطبيعي أن يحمل جيل كهذا عن أمهاته ثقافتهن وكثيراً من الطباع والعادات والمعتقدات. وهكذا ونتيجة لهذا اللقاء - الجديد القديم - انتقلت المجوسية⁽⁴⁾ والممانوية⁽⁵⁾، والمزدكية⁽⁶⁾ إلى دنيا العرب، وتمكنـت من أفكار البعض الذين تزندقوا سراً وعلنـا.

وسنرى في الفصل اللاحق من دان بها ومن حاربها.

إن العرب وقد انساحوا في هذه البلاد المتaramية الأطراف، والتي تضم إلى جانبهم أممأً تختلف في الأهواء والميول السياسية⁽⁷⁾، وتنقسم إلى

(1) كاليهود والنصارى والمجوس وغيرهم .

(2) كالسنديات والحبشيات والفارسيات والخراسانيات والتركمانيات والروميات، والصقلبيات. ضيف: العصر العباسي الأول : 89 / 3 .

(3) المصدر نفسه. ومثل ونحل ص 42 .

(4) مثل ونحل ، ص 70 .

(5) الفهرست 456 ومثل ونحل 81 وفجر الإسلام ص 104 .

(6) الفهرست 479 ومثل ونحل 86 .

(7) أنظر ما رواه عن ذلك: ابن قتيبة. أبو عبد الله بن مسلم الدينوري. عيون الأخبار. دار الكتاب العربي ، بيروت ، ص 204. فيما بعد عيون الأخبار .

طوائف ومذاهب مختلفة، لكل منها شعائر وعبادات خاصة، فمنهم يهود، حافظوا على تقاليدتهم، وحرموا التزاوج إلا منهم ومنهم نصارى، تمسكوا بشعائرهم وطرق عبادتهم، ومجوس يقيمون هياكتهم، ويوقدون نيرانهم⁽¹⁾. لكن لا بد للعرب، بعد أن وقف الفكر الإسلامي واليوناني والفارسي والهندي متواجهين، أن يتأثروا بالأفكار والعقائد التي غزتهم عن طريق إخضاع تلك الأمم عسكرياً، وعن طريق الزواج والولادة كما أسلفنا وقد أحلَ ذلك الإسلام⁽²⁾.

وهذا التزاوج في الإسلام بدأ بزواج «محمد» من «مارية القبطية»⁽³⁾ واستمر ينمو ويتکاثر حتى بلغ أشدّه زمن بنى العباس. وننجع عن هذا التزاوج جيل التوليد الذي انبثق من اختلاط الأجناس، ومن نظام الرق الولاء عقب الفتح الإسلامي وقد أصبح البيت الإسلامي⁽⁴⁾، عصبة أمم ينبع من النسل ما يحمل خصائص الأمم المختلفة⁽⁵⁾. وهذا النسل أكثر أمهاته جوار، وقد كان للرشيد زهاء ألفي جارية من المغنيات والخدامة في الشراب⁽⁶⁾، ويقال: أنه كان للمتوكل أربعة آلاف سرتة⁽⁷⁾. ومن هذا المزج في الزواج نشأ جيل من المولدين يحمل ميزات خاصة، حتى أن بعض الخلفاء كانوا من هذا الصنف، أمهاتهم سبيات منهم الهادي والرشيد ويزيد بن الوليد وأخوه إبراهيم ومروان بن محمد⁽⁸⁾، وأبو جعفر المنصور

(1) ضحى الإسلام 8/1.

(2) انظر القرآن سورة 5/5.

(3) سرتة أهدتها المقوقس «للرسول» وأنجبت له «إبراهيم» وهي لا تزال سرتة. محمد حسين هيكل (حياة محمد) مكتبة النهضة المصرية، الطبعة 13 سنة 1968 ص 443، فيما بعد حياة محمد .

(4) خاصة بيت الخلفاء والأمراء والأغنياء .

(5) مثال ذلك بيت: أبي جعفر المنصور: حيث كان أولاده من نساء عربيات وكرديات وروبيات. العقد الفريد 5/116.

(6) أغاني 9/88 وكل أولاده من الأجنبيةيات باستثناء «محمد الأمين».

(7) ضحى الإسلام 9/1.

(8) هؤلاء الثلاثة خلفاء أمريكيون .

واللهم وَالْمَأْمُونُ وَالْمَعْتَصِمُ وَالْمَتَوَكِّلُ⁽¹⁾.

إلى جانب التوليد الجسمى، كان هناك توليد عقلى، نشأ مزيجاً من العقليين العربى والفارسى، والعربى والرومى وإلى ما هنالك وتشابكت الأفكار واحتبت المعتقدات المترتبة في النفوس وظهرت المذاهب الكثيرة والمترفة ومن بينها الزندقة.

إن الفتوحات أوجدت الموالى الكثر، وعلى الرغم من أن الإسلام دعا إلى نزع الفوارق بين طبقات الأمة بقول القرآن الكريم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأَنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شَعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعْرَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَمْ»⁽²⁾. فإنه بالوقت ذاته يقر بالطبقية، نزولاً عند قول القرآن: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خُلَافَاءَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ بَرْجَاتٍ لِيَلْبِسُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ...»⁽³⁾ وربما دعا هذا القول بني أمية ليرفضوا التسوية بين العرب وبقية الشعوب المغلوبة، وقد نظر نفر منهم إلى «الموالى» نظرة السيد إلى عبده في السلم وال الحرب⁽⁴⁾. وهذا ما حدا بهؤلاء إلى استرجاع ماضיהם، وما فيه من أمجاد وقيم وعلم وأدب وحضارة ودين ليقفوا بوجه من فاقهم رفعة وساد عليهم، ولم يكن فيما مضى إلا أقل شأن منهم في النسب والفروسيّة والحضارة والدين. يقول إسماعيل بن يسار النسائي:

رُبَّ خَالِي مُتَوَجِّلِي وَعَمْ مَاجِدٌ مُجْدِي كَرِيمُ النِّصَابِ
إِنَّمَا سَمِيَ الْفَوَارِسُ بِالْفَرِّ
سِنِ مَصَاحِهَا رَفْعَةُ الْأَنْسَابِ
فَاتَّرَكِي الْجُورَ وَانْطَقِي بِالصَّوَابِ
وَاتَّرَكِي الْفَخْرَ يَا أَمَامَ عَلَيْنَا
كَيْفَ كَنَا فِي سَالِفِ الْأَحْقَابِ
وَاسْأَلِي إِنْ جَهَلْتِ عَنَا وَعَنْكُمْ
نَّ سَفَاهَا بِنَاتِكُمْ فِي التَّرَابِ⁽⁵⁾

(1) المعارف: ابن قتيبة 380 وما بعد. وضحى الإسلام 1/11.

(2) سورة الحجرات، آية 13.

(3) تفسير الجلالين ص 123. قرآن 105/165.

(4) ضيف (تطور وتتجدد) ص 114. وخير من صور هذه المعاملة ابن عبد ربه في العقد الفريد 3/412.

(5) أغاني 4/120 وأنظر دفاعه أيضاً عن بنى بجدته في قصيدة له. أغاني 4/125.

وناصر هؤلاء الأعاجم - بصورة عامة الفرس - الدعوة الهاشمية العباسية⁽¹⁾، وما أن انتصر العباسيون وسادوا، ونقلوا مقر الخلافة من الشام إلى بغداد القريبة من بلاد فارس، حتى رأيناهم بين الفينة والأخرى مستهدفين للخطر من الثورات المذهبية المضطربة في خراسان، حيث احتك الإسلام بالعقائد البوذية والآراء الشامية⁽²⁾ والدين الزرادشتى، ومتفرعاته، دين إيران القومى، وحتى رأينا هذه المذاهب والمملل والنحل الدينية قد زاد عددها على العشرات بل تعدى ذلك إلى المئات، وسارت في شعب وشعيبات، تارة تلتقي وطوراً تفترق، وظهرت الزندقة بأحلى حللها تسير فيها وخيلاء بين سراديب العلم والدين تتزين بحلى التاريخ وتعتلي المنابر السياسية والفكرية، وتدخل محاريب الدين. تلجم أبواب القصور، وتدخل كهوف البائسين. يعتنقها الشاعر والأديب والمفكر. وتستهوي، - في بعض مذاهبها - المتهافيين على اللذة السائرين وراء شهواتهم، يبغون الدين للدنيا ولغيرهم الآخرة، فنرى الزندقة تصول وتجول، تتشابك عناصرها، وتتفرع اتجاهاتها، وتسرى في كل طبقات المجتمع سريان النار في الهشيم فيعظم شأنها وتبلغ في بعض معانقها درجة كبيرة من الخطورة، إن في المعتقد أو في الحياة الاجتماعية، وما يتربى على ذلك من فساد وانحلال. مما حدا بكثير من الخلفاء وذوي الشأن بلاحقة مثل هؤلاء وقطع دابرهم⁽³⁾.

(1) برأى أنها كانت للإيقاع بين العرب أنفسهم لتفريقهم وإضعافهم.

(2) نسبة إلى شامان، كلمة سنسكريتية تعنى الكاهن أو الساحر، كان يزعم أن في مقدوره الاتصال بالأرواح الصالحة والشريرة. كارل بروكلمان (تاريخ الشعوب الإسلامية) ترجمة فارس ويعليكي - دار العلم للملاتين، بيروت. طبعة ثامنة 1979. ص 181. فيما بعد بروكلمان.

(3) هذا ما نراه في فصول لاحقة من البحث.

الفصل الثاني

الزندقة

القسم الأول

المعنى اللغوي والاصطلاحي للزندقة

أولاً: المعنى اللغوي للكلمة

اختلف الباحثون وعلماء اللغة في تحديد معنى كلمة «زندقة» ولكنهم اتفقوا على أن اللفظة ليست من أصل عربي. ويرى ابن منظور (أن الزنديق: القائل ببقاء الدهر، فارسي معرب، وهو بالفارسية «زَنْدِكَرَائِي» يقول بدواويم بقاء الدهر. وقيل الزنديق معروف، وزندقته أنه لا يؤمن بالأخرة ووحданية الخالق، وقال أحمد بن يحيى: ليس في كلام العرب زنديق، فإذا أرادت العرب معنى ما تقوله العامة، قالوا: مُلحد ودهري. وقال الجوهرى: الزنديق من الثنوية وهو معرب، والجمع زنادقة، وقد تزندق، والاسم (الزندة)^(١).

ويرى الأب سبسيتان رنفال اليسوعي: «أن لفظة زنديق فارسية الأصل، وليس عربية، لورودها في كتب الفرس القديمة قبل الإسلام، وهو يرى أن «الأبستا» كتاب من أقدم كتب الفرس، والزندي تفسير للأبستا،

(1) اللسان 10/147 مادة زندة.

والكتابان بمنزلة واحدة من التكريم والتعظيم عند الفرس القدماء. وقد ورد ذكر الزنادقة في كتاب الأبستا قبل تأليف الزند، إذ قيل: «إننا جعلنا الصلاة ... لكي تحارب الزندة والساحر وتخربهما جميعاً، والمراد بالزندة في الفارسية الأولى شريعة الساحر أو بعبارة أخرى السحر عينه. فالزندي إذاً في تاريخ الفرس القديم ساحر قبيح المذهب، سين الععتقد والمصنع»⁽¹⁾.

وقد اتخد الفرس المحدثون هذه الكلمة، فتلفظوا بها على صورة «زنديك»، ومنها اشتقت - بتصحيف الحرف الأخير - لفظة (زنديق) الشائعة عند العرب وابتكرروا لها ضرورياً من الاشتقات. وخلاصة رأي الأب سبستيان أن الزنديق لفظة فارسية عريقة في القدم معناها الأصلي رجل السحر لا رجل التأويل كما زعم العرب ومن ذهب مذهبهم⁽²⁾.

ويرى «بروكلمان» أن كلمة «زنديق» كانت شائعة على عهد الساسانيين ويؤمن بها وينبذ كل من تجرأ على تفسير «الأبستاق»⁽³⁾، تفسيراً جديداً وتطلق أيضاً على أتباع ماني ومزدك⁽⁴⁾.

أما المعلم بطرس البستاني فيرى أن اللفظة معربة عن «زن دين» الفارسية ، وتعني دين المرأة، أو صاحب الدين المعتقد بدین «زرادشت»، أو أنها معربة عن «زنديه» نسبة إلى «الزندا» أحد كتب الدين عند المجوس⁽⁵⁾.

ويرى «بيغا» أن اللفظة من أصل آرامي (زَدِيق) انتقلت إلى الفرس

(1) شيخو (الأب لويس اليسوعي) المشرق: السنة الأولى العدد 15، ص 681. فيما بعد المشرق .

(2) المصدر نفسه .

(3) هو الأبستاء نفسه وسماه بعضهم «الأفستا» .

(4) تاريخ الشعوب الإسلامية (بروكلمان) ص 183.

(5) بطرس البستاني: دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت، مادة زنديق ج 9 ص 270. فيما بعد، بطرس البستاني .

فحرفت إلى (زنديك) ثم نقلت إلى العربية (زنديق) ويقصد بها أبرار (المانوية)⁽¹⁾، وزهادهم، وقد تطور معناها فيما بعد إلى ملحد. وأيد هذا الرأي «حامد عبد القادر» الذي أكد أن الفارسية الفهلوية تأثرت بالأرامية ورجح انتقال الكلمة من الأرامية إلى الفارسية حيث كانت تطلق على المؤمن المخلص من أتباع (ماني)، ولما كان الزرادشتيون يعدون هؤلاء ملحدين خارجين عن الزرادشتية، فقد صارت الكلمة عندهم تطلق على كل ملحد لا يؤمن بدينه⁽²⁾.

ويرى «فولورز» أن الكلمة من اصل إغريقي⁽³⁾ وبراون يراها صفة فارسية معناها «متبع الزند» أي الشروح القديمة للأبستا⁽⁴⁾، «وفون كريم» يقول أنها تدل على معانٍ مختلفة في أزمنة مختلفة، فالزنديق من اعتنق آراء الفرس في بادئ الأمر ثم من اعتنق ديانة ماني⁽⁵⁾ ويرى (شيندر) أن الكلمة زنديق عربت في العراق أخذًا من المصطلحات الإيرانية أيام حكم الساسانيين، ويقول (صياديقي) إن هذا التعرّب حدث بين الموالي في الحيرة والكوفة وأن الكلمة ظهرت أول ما ظهرت في العراق عام 125هـ عند قتل الجعد بن درهم⁽⁶⁾.

ويرجع معرب مادة زنديق في دائرة المعارف الإسلامية - نقلًا عن السيد أدي شير صاحب كتاب الألفاظ الفارسية المعربة - أن كلمة زنديق معربة عن لفظ «زنديك» أي الذي يعمل بما يطابق كتاب الزندلمزدك. ويفهم «أحمد أمين» من كلام ابن النديم أن الزندقة كانت مرادفة

(1) سنيين معناها فيما بعد .

(2) حامد عبد القادر قصة الأدب الفارسي. مكتبة نهضة مصر بالفجالة. القاهرة 1951. ص 60 - 61. فيما بعد. قصة الأدب الفارسي .

(3) دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) مادة زنديق .

(4) كتاب زرادشت المقدس. المصدر السابق .

(5) الحضارة الإسلامية - ترجمة مصطفى بدر. دار الفكر العربي، القاهرة 1947، ص 101 - 102. فيما بعد (كريمر) .

(6) دائرة المعارف الإسلامية. مادة زنديق .

للمانوية، في حين أن الخياط المعتزلي في كتابه «الانتصار» يستعملها للدلالة على فرقة خاصة قرينة لليهود والنصارى، فيقول مثلاً: «قال ابن الرواندى: وزعم تماماً أن أكثر اليهود والنصارى والمجوس والزنادقة والدهرية يصيرون في القيمة تراباً، ولا يدخلون الجنة ... الخ»، كما ويفهم أحمد أمين من كلام ابن قتيبة في كتابه «المعارف» أن الزندقة دين خاص من أديان الفرس⁽¹⁾. ولكن كلام ابن قتيبة يدل على أنه يعني بالزنادقة المزدكية بالذات⁽²⁾.

ويفهم حسن إبراهيم حسن من عبارة للغزالى أن العرب كانوا يطلقون لفظ زنديق على من ينفي وجود الله أو يقول إن له شريكأ⁽³⁾.

ومن جملة ما مر من آراء حول الأصل اللغوى لكلمة زندقة ومعناها وتطور مدلولها، وبعد إطلاعنا على عملية المزج بين العرب وباقى الشعوب المجاورة خصوصاً الفرس، قبل الإسلام وبعده، يمكننا القول إن لفظة الزندقة فيما يبدو من أصل فارسي، وإنها عربت مع الفاظ فارسية كثيرة. دخلت اللغة العربية من خلال المزج السكاني، وإنها لم يكن يقصد بها إلا طوائف الثنوية جميعاً من مانوية وديصانية ومرقونية ومزدكية⁽⁴⁾، ووصية

(1) فجر الإسلام، ص 107.

(2) المعارف 621.

(3) تاريخ الإسلام - حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية. الطبعة السابعة 1964، ج 2، ص 115. بعد تاريخ الإسلام .

(4) سترعرض لها بالشرح في الفصول اللاحقة. ماني بن فاتك الحكم قتله بهرام بن هرمز ملك الفرس، قال بنبيه المسيح ونفي نبيه موسى، زعم أن العالم مركب من أصلين الترور والظلمة. الفصل في الملل والنحل، ص 81 وما بعد .

الديصانية: أصحاب ديان دعوته قريبة من الدعوة المانوية. المصدر نفسه، ص 88.
المرقونية: أصحاب مرقون: ثبت ثلاثة اصول للعالم: بإضافة روح المسيح التي تخرج الأصلين. المصدر نفسه، ص 89.

المزدكية: أتباع مزدك: قتله أنوشروان، قال بالأصلين أهل النساء وأباح الأموال. المصدر نفسه، ص 89.

المهدي لابنه الهادي التي ذكرها الطبرى تؤكّد ذلك، فقد جاء فيها: «إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة (يعنى أصحاب مانى) فإنها فرقة تدعى الناس إلى ظاهر حسن، كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للأخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الظهور، وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوياً، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين: أحدهما النور والأخر الظلمة، ثم تبيع بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور، فارفع فيها الخشب، وجرد فيها السيف»⁽¹⁾.

والطبرى هنا يمزج تعاليم المانوية والمزدكية⁽²⁾، في الوصية ذلك أن تعاليم ماني لا تدعى إلى الإباحة، والذي دعا إلى ذلك مزدك: «فأباح الأموال، وأحل النساء، وجعل الناس شركة فيما كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ، لأن المخالفه والمباغضة والقتال التي نهى عنها إنما تقع بسبب ذلك»⁽³⁾. مما يرجع أن لفظة زندقة كانت تطلق على المانوية والمزدكية وكل من دان بالتحل الفارسية القديمة وربما بالتحل غير الفارسية، لأن المهدي «أمعن في قتل الملحدين، والذاهبين عن الدين لظهورهم في أيامه، ولما انتشر من كتب ماني وابن ديسان ومرقيون مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره، وترجمت من الفارسية والفارسية إلى العربية، وما صنفه في ذلك ابن أبي العرجاء، وحماد عجرد، ويحيى بن زياد، ومطبي ابن إياس في تأييد المذاهب المانية، والديسانية، والمرقونية، فكثر بذلك الزندقة، وظهرت آراوهم في الناس»⁽⁴⁾.

والقول بأن لفظة زندقة فارسية الأصل، ربما لأنها تبتدئ بكلمة (زن)

(1) تاريخ الطبرى : 220 / 8.

(2) أنظرهما في الملل والتحل 2 / 81 و 86.

(3) الفهرست ص 479.

(4) مروج 4 / 315.

الفارسية وتعني بالعربية امرأة أو ربما قابلها بالعربية كلمة (زنى) والزنى لا يكون إلا بالمرأة، وهذا مخالف لشريائع السماء، يضاف إليها كلمة (دق) العربية وتعني الكسر والرضا والتهميش وإظهار الشيء⁽¹⁾، أي تهشيم العذرية وفض البكورية وإظهار الزنى، هذا على إمكان التجوز لا الحتم.

ثانياً: المعنى الاصطلاحي للزندقة

إن العرب عاشوا حياة بؤس وشقاء في صحرائهم الواسعة - فيما قبل الإسلام - وعندما جاء الإسلام وانساحوا شمالاً وشرقاً وغرباً، تغيرت ظروف معيشتهم إلى نعيم ورخاء، وحياة فيها الجد والزهد واللهو والمجون، وفي كل أعصرهم كان هناك حياة للقلب والعقل ، والعاطفة والدين. وقد نرى صراعاً بين الإيمان الخالص، والشك والزندقة والإلحاد ... يوم ينتشر الإلحاد، وأخر يعم الإيمان، وبين الاثنين ترى الزندقة. فما هي هذه الزندقة؟ وما معناها؟

اختلف الباحثون، وكثرت الآراء نحو مدلول الزندقة والمعنى الاصطلاحي لها فمنها: أن الزنديق هو الثنوي القائل بوجود خالقين أحدهما إله النور والثاني إله الظلمة «يزدان واهرمان» وهذا مذهب الفرس القدماء ... وقيل إنه من يبطئ الكفر ويظهر الإيمان، وعليه قال أحدهم:

بغداد دار لأهل المال طيبة وللمفاليس دار الضنك والضيق
ظللت حيران أمشي في أزقتها كأنني مصحف في بيت زنديق⁽²⁾
فالخاصة من الناس وأشباههم كانوا يفهمون الزنديق الذي اعتقد
الإسلام ظاهراً وبقي على دين الفرس باطنًا⁽³⁾، غرضه في ذلك إفساد التعليم

(1) اللسان 10/101 مادة (دق).

(2) دائرة المعارف (ب. بستاني) 9/270 مادة زنديق .
وقد روی صدر البيت الثاني (اصبحت فيها مضاعفاً بين أظهرهم) م. البلدان 1/464 مادة بغداد .

(3) خاصة من أضرم «دين ماني» ضحى الإسلام 1/150.

الإسلامية بعدة طرق كالعلم والدين، والأدب، وإظهار مثالب العرب.

فمن ناحية الدين ما فعله «عبد الكرييم بن أبي العوجاء» المتهم بالزندة والذي قيل عنه إنه وضع أربعة آلاف حديث مغايرة لأحاديث (الرسول)، واعترف بذلك يوم قتله المنصور⁽¹⁾، ومن ناحية اللغة والأدب ما عمله «حماد الراوية» من شعر يضفيه إلى الشعراء المقدمين، ويدسه في أشعارهم، حتى قيل عنه «إنه أفسد الشعر» كما يدرس صالح بن عبد القدوس «معاني الزندة في الأشعار»⁽²⁾.

أما «يونس بن أبي فروة» فإنه يؤلف كتاباً في مثالب العرب، وعيوب الإسلام، ويحمله إلى ملك الروم فيأخذ منه مالاً عليه⁽³⁾. هؤلاء وأمثالهم تزندقوا تزندقاً علمياً فاعتقدوا بمانع أو مزدك وأمنوا بالنور والظلمة، عن علم ومعرفة بدين الفرس، ثم تظاهروا بالإسلام تقية أو توسلًا ونستدل على معنى ذلك من رواية الأغاني إن بشاراً هجا حماد عجرد فقال:

يا ابنَ ثُهْبَى، رَأَسَ عَلَيَّ ثَقِيلٌ وَاحْتِمَالُ الرَّأْسِينِ أَمْرٌ جَلِيلٌ
فَادْعُ غَيْرِي إِلَى عِبَادَةِ رَبِّيْنِ فَإِنِّي بِوَاحِدٍ مَشْغُولٌ!

فقال حماد: ما يغيظني من بشار إلا تجاهله بالزندة، يوهم الناس أنه يظن أن الزنادة تبعد رأساً ليظن الجهل أنه لا يعرفها، وهو والله أعلم بالزندة من ماني⁽⁴⁾. ويدلي أبو نواس بشهادته عن حماد قائلاً: «كنت أنوهم حماد عجرد إنما يرمي بالزندة لمجنونه في شعره حتى حبس في حبس الزنادة، فإذا حماد عجرد إمام من أنتمهم، وإذا له شعر مزاوج بيتهن

(1) المصدر نفسه .

(2) المصدر نفسه / 151 .

(3) الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي (أمالى المرتضى) غر الفوائد ودرر القلائد. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الكتاب العربي سنة 1967، بيروت 1/90. فيما بعد أمالى المرتضى .

(4) الأغاني / 13 .76

بيتین، يقرأون به في صلاتهم»⁽¹⁾ وكان له صاحب يقال له «حريب» على مذهبه وله يقول بشار حين مات حماد على سبيل التعزية:

بَكَىْ حُرِيبٌ فَوْقَرَه بِتَعْزِيَةِ مَاتَ ابْنُ نُهْبَى وَقَدْ كَانَا شَرِيكَيْنِ
تَفَاوْضَا حِينَ شَابَا فِي نِسَائِهِمَا وَحَلَّا كُلَّ شَيْءٍ بَيْنَ رِجْلَيْنِ
أَمْسَى حُرِيبٌ بِمَا أَسْدَى لَهُ غَيْرَأً كَرَاكِبُ اثْنَيْنِ يَرْجُو قَوَّةَ اثْنَيْنِ
حَتَّى إِذَا أَخْدَى فِي غَيْرِ وَجْهِهِمَا تَفَرَّقا وَهُوَ بَيْنَ الظَّرِيقَيْنِ⁽²⁾

وإلى جانب الثنوي القائل بوجود إلهين خالقين. أو الذي كان مسلم الظاهر مجوسي الباطن، كان هناك زنادقة من أتباع ديانة الفرس لم يتحولوا الإسلام، بل كانت لهم كتب أجود ما تكون ورقاً، حبرها أسود براق، وخطها جيد ... وجل ما فيها «ذكر النور والظلمة، وتناكح الشياطين، وت safad العفاريت، وذكر الصنديد...»⁽³⁾. كما كان هناك زنادقة جحدوا الأديان كلها، قال أبو العلاء المعري: «الزنادقة هم الذين يسمون الدهرية لا يقولون بنبوة ولا كتاب»⁽⁴⁾.

هذه المعاني للزنادقة اصطلاح عليها الخاصة، أما العامة وأشاינם فقد أطلقوا على الماجن المستهتر لفظة «زنديق» فإبراهيم بن سباء الشاعر الخليع الماجن، رمي بالزنادقة، ولم يكن يعرف عنه قول في الدين، وربما لمجونه وحبه للغلمان⁽⁵⁾ وأدام حفيد عمر بن عبد العزيز اتهم بالزنادقة لمجونه وانهماكه في شرب الخمر، قوله الشعر وهو سكران تجري على لسانه أبيات فيها مساس بالدين، كان يقول:

(1) الأغاني 13/74.

(2) يعني أنه كان يقول بقول الثوبة في عبادة اثنين فتفرقا ويقي بينهما حائراً. أغاني 13/74.

(3) الجاحظ: حيوان (1 - 3) ص 45.

(4) أبو العلاء المعري (رسالة الغفران) تحقيق فوزي عطوي. الشركة اللبنانية للكتاب. بيروت - ص 215. فيما بعد رسالة الغفران .

(5) أغاني 11/7.

اسقني واسق خليلي
لؤلؤها أصفر صافٍ
من ينسل منها ثلاثة
قل لمن يلحاك فيها
أنت، دغها وارجُ أخرى
تعطشُ اليوم وتُسقى
وكان يقول:

لا تبغ بالنقد ديننا
غم ثريك الشين زيناً

فيضرب بحضره المهدى ثلثمائة سوط ليقر بالزنقة، فيقول: «والله
ما أشركت بالله طرفة عين، ولكنه طرب غلبني وشعر طفح على قلبي،
أشرب النبيذ وأقول ما قلت على سبيل المجنون»⁽¹⁾.

والواقع أن أكثر شعراء الجاهلية والأعصر الإسلامية التي نحن
بصددها قد أفرطوا في الفجور والإباحة والاستهتار، وجهروا بأقوال
فيها تهكم وسخرية على من يقول بتحريم الخمر ويخوف بالنار والعقاب
ويذكر بيوم البعث والحساب. يقول شداد بن الأسود الليبي في رثاء
قتلى بدر:

ولا يا أم بكر لا تُكري
عليّ الكأس بعد أخي هشام
ولا من مبلغ الرحمن عنني
باني تارك شهر الصيام
أيوعدنا ابن كبشة أن سنحيا
وكيف حياة أصداء وهام؟
أتترك أن تردد الموت عنني ،
وتُحييني إذا بليت عظامي؟⁽²⁾
ويقول ربيعة بن أمية بن خلف الجمحي بعد هروبه من أبي بكر
لخطب جرى له:

(1) أغاني 14/60 - 61.

(2) رسالة الغفران، ص 211.

بترك صلاة من عشاء ولا ظهر
فما حرم الله السلاف من الخمر
فإبني قد خلني لأبي بكر⁽¹⁾

لحقت بأرض الروم غير مفكري
 فلا تتركوني من صبور مدامه
 فإن يك إسلامي هو الحق والهدى

ويقول الوليد بن يزيد:

عَبْدَلَا دُونَ الْإِزارِ
غَيْرَ مَبْعُوثٍ لِنَارِ⁽²⁾

أَذْيَا مَنِي خَلِيلِي
فَلَقَدْ أَيْقَنْتُ أَنِّي

ويقول بشار:

لَا نلتقي وسبيلُ الملتقى نَهَجُ
ما في التلاقي ولا في قُبْلَةَ حَرَجُ⁽³⁾
وكثيراً ما وصل هذا النوع من التزندق إلى ضرب من الإلحاد. كما

لَا خير في العيش إن كنا كذا أبداً
قالوا: حرام تلاقينا! فقلت لهم
وكثيراً ما وصل هذا النوع من التزندق إلى ضرب من الإلحاد. كما
في قول أبي نواس:

وصرفت معرفتي إلى الإنكارِ
وتعجلأً من طيب هذى الدارِ
علّمِي به رجمُ من الأخبارِ
في جنةٍ من مات أو في النارِ⁽⁴⁾

فَدَعَيَ الملام فقد أطعثتْ غَوَائِيْتِي
ورأيتُ إتياني اللذادة والهوى
آخرِ وأحرَمَ من تنظرِ آجلِ
ما جاءتنا أحَدٌ يخْبِرُ أَنَّهُ

وكما في قوله أيضاً:

لَا قَدَرْ صَحَّ وَلَا جَبَرْ
تذكُرُ إِلَّا الموتُ والقبرُ⁽⁵⁾

يَا ناظراً في الدين ما الأمرُ
ما صحَّ عندي من جميع الذي

كما أطلق العامة لفظ زنديق على من وصف بالظرف كقول أبي نواس

في وصف العباس بن الفضل بن الربع:

(1) رسالة الغفران، ص 221.

(2) المصدر ص 223.

(3) ضحي الإسلام 1/148.

(4) ديوان أبي نواس. ضحي الإسلام 1/148.

(5) ديوان أبي نواس. ضحي الإسلام 1/148.

نَدِيمُ كَأسِ مُحَدَّثِ مَلِكٍ تِبْيَهُ مُغَنٌ وَظَرْفُ زَنْدِيقٍ⁽¹⁾

وقال ابن منادر في محمد بن زياد، الذي كان يظهر الزندقة تظروفاً:

يَا ابْنَ زِيَادٍ، يَا أَبَا جَعْفَرٍ أَظْهَرْتَ دِينَنَا غَيْرَ مَا ثُخِفي
مِنْ زَنْدِيقٍ الظَّاهِرُ بِاللَّفْظِ فِي بَاطِنِ إِسْلَامٍ فَتَئَ عَفْ
لَسْتَ بِزَنْدِيقٍ وَلَكُثُّمَا أَرَدْتَ أَنْ تُوَسِّمَ بِالظَّرْفِ⁽²⁾

وبهذا المعنى، معنى التهتك، والتظرف، والتدrog في ذلك إلى الخروج عن الدين أحياناً، ثم المغالاة في ذلك إلى أقوال فيها معنى الإلحاد لا عن نظر وتفكير، كان معنى «الزنادقة» في أذهان العامة وأشباههم، وعلى هذا قالوا: «إن علامة الزندقة شرب الخمر، والرشا في الحكم، ومهر البغي»⁽³⁾.

ولكن هناك تعريفات للزنادقة صدرت عن الخاصة، وأربكت البحاثة فيما بعد.

منها ما حكى عن «يحيى الدمشقي»⁽⁴⁾ الشديد التمسك بنصرانيته والذي عمل هو وأبوه في قصر عبد الملك بن مروان، وألف كتاباً للنصارى يدفع به دعوة المسلمين عن «كلمة الله وروحه» أي المسيح، لأن الذي يقول أن الله لم تكن له كلمة ولا روح فهو زنديق بنظر المسلمين⁽⁵⁾.

ومنها ما رواه ابن النديم عن المأمون عند لقائه لجماعة من الحرانيين، حيث أنكر المأمون زيهم! وقال لهم من أنتم من الذمة؟

(1) الديوان. وضحى الإسلام 1/149.

(2) أغاني 1/15.

(3) العقد الفريد 2/179.

(4) في المصادر المسيحية يوحنا الدمشقي. أنظر كتاب المئة مقالة في الإيمان الأرثوذكسي. للقديس يوحنا الدمشقي. تعریب الأرشمندريت أدریانوس شکور المکتبة البولیسیة (البنان).

1984. اسمه الحقيقی منصور بن سرجون: ص 36.

(5) ضحى الإسلام 1/343.

أنصارى أم يهود أم مجوس؟ أفلكم كتاب أم نبى؟ فجمجموا في القول.
فقال لهم: «فأنتم إذاً الزنادقة عبدة الأوثان، وأنتم حلال دماؤكم، لا ذمة لكم»⁽¹⁾.

ومنها اتهام الخلفاء لخصومهم بالزنادقة، وربما كان هذا الاتهام سياسياً للإيقاع بهم⁽²⁾ وكذلك الوزراء بعضهم البعض⁽³⁾ والأحزاب أيضاً من أممية وخوارج وشيعة فقد كفر بعضهم البعض، وما دامت الزندقة كفراً أو ضرباً من ضروب الكفر. فالخارج عن سياسة الآخرين كافر زنديق. يقول أعشى همدان في الحجاج بعد قصائه على ثورة عبد الرحمن بن الأشعث:

أبى الله إلا أن يُتَمَّمْ نوره وَيُطْفَئِ نَارَ الْفَاسِقِينَ فَتَخْمَدَا
وَيُنَزَلَ ذَلِّاً بِالْعَرَاقِ وَأَهْلِهِ لَمَا نَقْضُوا الْعَهْدَ الْوَثِيقَ الْمُؤْكَدا
وَمَا أَحَدُثُوا مِنْ بَدْعَةٍ وَعَظِيمَةٍ مِنَ الْقَوْلِ لَمْ تَضَعُدْ إِلَى الله مَضْعَدًا
فَقْتَلَاهُمْ قَتْلَى ضَلَالٍ وَفَتْنَةٍ وَحِيَهُمْ أَمْسَى ذَلِيلًا مُطَرَّدًا⁽⁴⁾

ويقول كعب الأشعري في المهلب أثناء انتصاره على الأزارقة في «كرمان»:

أَنْهَارَ كِيرْمَانَ بَعْدَ اللهِ مَا صَدَرُوا لَوْلَا المَهْلَبُ لِلْجَيْشِ الَّذِي وَرَدُوا
بِالْمُحْكَمَاتِ وَلَمْ نَكُفُّ كَمَا كَفَرُوا إِنَّا اعْتَصَمْنَا بِحَبْلِ اللهِ إِذْ جَحَدُوا
جَارُوا عَنِ الْقَضِيدِ وَالْإِسْلَامِ وَاتَّبَعُوا دِينًا يَخَالِفُ مَا جَاءَتْ بِهِ النُّذُرُ⁽⁵⁾

ومن خلال السياسة نرى الحق الإلهي للسلطان ومن جاوز هذا الحق فهو مارق وزنديق. ونستخلص هذا الحق الإلهي من خطبة زياد والي معاوية على البصرة حيث يقول: «أيها الناس، إننا أصبحنا لكم ساسته وعنكم ذادة،

(1) الفهرست ص 445 - 446.

(2) تاريخ الطبرى 8/ 190 وما بعد .

(3) المصدر 8/ 136 وما بعد .

(4) تاريخ الطبرى 6/ 376 .

(5) المصدر 6/ 308 .

نسوكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونزوّد عنكم بفيء الله الذي خولنا»⁽¹⁾.

لقد كانت صورة الخليفة الأموي في رأي حزبه صورة مقدسة، فهو الإمام الذي تجب طاعته، لأن طاعته من طاعة الله، وطاعة خصومه من طاعة الشيطان. يشهد على ذلك الطبرى إذ يقول: «لما توفي يزيد بن معاوية ودعا ابن الزبير لنفسه، قام حسان بن مالك بالأردن فقال: (يا أهل الأردن، ما شهادتكم على ابن الزبير وعلى قتلى أهل الحرّة؟ قالوا: نشهد أن ابن الزبير منافق وأن قتلى أهل الحرّة في النار، قال: فما شهادتكم على يزيد بن معاوية وقتلاكم بالحرّة؟ قالوا: نشهد أن يزيد على الحق وأن قتلانا في الجنة)»⁽²⁾.

كما تقدم يمكننا القول أن المعنى الاصطلاحي للزنندة قد كثر وتشعب وتعدد الآراء فيه، وفهمه العامة غير ما فهمته الخاصة.

وما دامت الزنندة موجودة منذ الجاهلية وقد عاصرت الإسلام في أقصى بحثنا فإننا نراها وقد ولجت عالم الفكر والسياسة والأدب والدين وما يتفرع عن ذلك وهذا ما ستعرض له في الفصول التي تلي.

القسم الثاني

الجذور التاريخية للزنندة

أولاً: جذورها في الجاهلية

بعد أن تطرقنا للأصل اللغوي لكلمة «زنندة» وللمعنى الاصطلاحي لها، وما اعتقدته العامة والخاصة في مدلول الكلمة، يستوقفنا البحث عند الجذور التاريخية للزنندة: فقد اشار بعض الإخباريين إلى اعتقاد بعض

(1) الجاحظ (البيان والتبيين 1 - 2 - 3) تحقيق فوزي عطوي - الشركة اللبنانيّة للكتاب. بيروت لبنان. ص 244. فيما بعد البيان والتبيين .

(2) تاريخ الطبرى 5/539

قريش بالنور والظلمة، قائلين: إنهم أخذوها من الحيرة⁽¹⁾، وأنهم (ثنويون - زنادقة)⁽²⁾ كما أشاروا إلى وجود الزندقة والتعطيل في قريش: «وكانت الزندقة والتعطيل في قريش»⁽³⁾. ووصفوا الزنديق بالقاتل بدوام الدهر وبقائه، ولا يؤمن بالأخرة، فهو والحالة هذه دهري ملحد لا يؤمن بإله واحد، بل هو ثني و إلى هذا المعنى في تفسير زندقة قريش ذهب أكثر أهل الأخبار، والذي نريد قوله هو إثبات وجود الزندقة في زمن ما قبل الإسلام. يصف أبو العلاء المعربي «شداد بن الأسود الليثي» بأنه شاعر زنادقة قريش لقوله:

بأنِي تاركُ شهْرَ الصِّيَامِ
فَقدْ شَبَعَ الْأَنْيُسُ مِنَ الطَّعَامِ
وَكَيْفَ حِيَاةً أَصْدَاءَ وَهَامِ
وَتَحِيَّبِينِي إِذَا بَلِيتَ عَظَامِي⁽⁴⁾

أَلَا مِنْ مَبْلُغِ الرَّحْمَنَ عَنِي
إِذَا مَا الرَّأْسُ زَايِلَ مَنْكِبِيهِ
أَيُوْعَدُنَا أَبْنُ كَبِشَةَ أَنْ سَنْحِيَا؟
أَتَتْرَكَ أَنْ تَرَدَّ الْمَوْتُ عَنِي

والمتبصر لهذا القول يرى أن قائله لا يعتقد بالبعث والقيمة ويُسخر من مدعى ذلك ويرى استحالة هذا الأمر فهو دهري. وربما أشار القرآن إلى معتقدني هذه الفكرة منمن سبق بقوله: «وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حِيَاةُ الدُّنْيَا، نَمُوتُ وَنَحْيَا، وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الْدَّهْرُ»⁽⁵⁾. إن كلمات القرآن موجهة إلى معاصرى (محمد) الذين أخذوا إيمانهم عن آبائهم وأجدادهم من الجاهليين. والذين أطلقت عليهم أسماء زنادقة قريش، وقد عرفنا منهم الكثير مثل: «أبو سفيان بن حرب، وعقبة بن أبي معيط، وأبي بن خلف الجمحي، والنضر بن الحارث بن كلدة، والعاص بن وائل السهمي، والوليد بن

(1) المعارف، ص 621.

(2) اللسان مادة (زنادقة) 10/147.

(3) المقدسى (المظہر بن طاہر) کتاب البدہ والتاریخ، ج 4، باریس 1903، ص 31. فیما بعد البدہ والتاریخ. وبلوغ الارب 2/228. الالوسی .

(4) رسالت الغفران ص 211. الشركة اللبنانيّة. والشاعر هنا يرثى قتل (بدر) ضد المسلمين .

(5) سورة الجاثية، آية 23.

المغيرة المخزومي»، وقد ذكر محمد بن حبيب أن هؤلاء «تعلموا الزندقة من نصارى الحيرة»⁽¹⁾. فما هي هذه الزندقة؟ ولماذا ربط هنا بينها وبين (نصارى الحيرة)، وقد ذهب أيضاً (ابن قتيبة) إلىأخذ قريش الزندقة من الحيرة، كما مر معنا سابقاً.

برأيي أن الإخباريين العرب، أو أكثرهم، قد عزوا هذه التعليل لأسباب نذكر منها:

1 - لأن الحيرة كانت مملكة عربية ذات صول وطول زمن ما قبل الإسلام. وكان لها روابط قوية مع الفرس ومن بلاد فارس خرجت الزرادشتية والمانوية والمزدكية، وفيما بعد الشعوبية.

2 - لأن الحيرة كانت أحد مراكز النصرانية في بلاد العرب، وقد دان شعبها وملوكها بأحد المذاهب المسيحية⁽²⁾ والذي يخرج عن إيمان الجماعة ومنهباً الجدد يعد «زنديقاً».

3 - أو لأن الحيرة كانت الجسر الذي عبرت عليه الزندقة من بلاد الفرس إلى دنيا العرب، إذا ما اعتقد بعضهم أن الزندقة مصدرها فارس.

لكن الذي نعرفه عن «زنادقة قريش» أنهم كانوا متعمدين بشدة بعبادة الأصنام، لأن أبا سفيان كان يستصرخ الصنم (هبل) على المسلمين يوم (أحد)، ويناديه: «أَعْلُ هُبَّل، أَعْلُ هُبَّل»⁽³⁾، فمن المحتمل إذاً أن تكون زندقتهم على البند الثاني أعلاه، لأن ما نسب إليهم من معارضته (للرسول) يمكن حصره في التقرب إلى الأصنام والتبعده عنها، والدفاع عنها بقولهم: «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفي»⁽⁴⁾، أو القول بالدهر والتعطيل ونكران

(1) محمد بن حبيب: المبحير ص 161. دار المعرفة، مصر ووج: علي 6/147.

(2) كالذهب النسطوري واليعقوبي. انظر الملل والنحل ص 64 - 65.

(3) اللسان 11/688 والأصنام ص 28.

(4) سورة الزمر رقم 39 آية 3.

البعث والحضر والنشر. ويتجلّى ذلك في قولهم (للرسول): «إن كنت صادقاً فيما تقول، فابعث لنا جدك (قصي بن كلاب)، حتى نسأله عما كان ويحدث بعد الموت»⁽¹⁾. فعبادتهم للأصنام لتكون وسيطة وشفيعة لهم عند الله، ونكرانهم للبعث والنشر، ربما هو الذي دعا بعض الإخباريين للقول أن قريشاً أخذت زندقتها من الحيرة. لأن الحيرة نصرانية والنصارى في أكثر طوائفهم يشفعون القديسين والأولياء عند الله ويؤمن بعضهم - ومن المحتمل أن يكون نصارى الحيرة من هذا البعض - بقيامة وخلود الأرواح لا الأجسام. إن الشاعر أوس بن حجر يصور لنا مدى وساطة وشفاعة الأصنام عند عرب ما قبل الإسلام عندما يقسم باللات والعزى وهم صنمان معروفان معبدان في الجاهلية بقوله⁽²⁾:

وبيالات والعزى ومن دان دينها وبإله، إن الله منهن أكبر⁽³⁾

ونفهم من قول ابن الكلبي، أن نزاراً كانت تقول إذا ما أهلت ،

لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ!

لَبَّيْكَ! لَا شَرِيكَ لَكَ! إِلَّا شَرِيكٌ هُوَ لَكَ!
تملكه وما ملك!⁽⁴⁾

نفهم أنهم يوحدونه بالتلبية، ويدخلون آلهتهم من الأصنام معه كوسطاء وشففاء، و يجعلون ملكها بيده، وربما فسر البعض أن هذه العبادة «ثنوية» والثنوية هي إحدى المعاني الاصطلاحية للزنادقة كما بينا في الفصل الأول من هذا الباب. يقول ابن الجوزي البغدادي: «واعلم أن الأنبياء جاءوا بالبيان الكامل وتتوافقوا على منهاج لا يختلف، فأقبل الشيطان يخالط بالبيان شيئاً وبالدواء سما .. وما زال يلعب بالعقل إلى أن فرق الجاهلية

(1) مروج الذهب 2/126. ذكر ديانات العرب وأرائها في الجاهلية .

(2) داود ص 300 - 301.

(3) أصنام، ص 17.

(4) المصدر نفسه، ص 7.

في مذاهب سخيفة، ويدع قبيحة، فاصبحوا يعبدون الأصنام في البيت الحرام⁽¹⁾، وكأنه يشير إلى الزنادقة العلمية ويثبت وجودها في ما قبل الإسلام.

الزنادقة إذاً كانت في الجاهلية بضروبها المختلفة، كانت هناك الثنوية كما أسلفنا، ثنوية التوحيد والشرك، الإيمان بالله والاعتقاد بالأوثان «لتقربهم إلى الله زلفى» وكانت هناك الزنادقة العلمية ووجودها ناشئ عن اختلاط العرب بالهنود والفرس وغيرهم من الأعاجم⁽²⁾، حيث بدأت المعرفة والعلوم والعادات والتقاليد والإيمان يمازج بعضها ببعضاً، ويتأثر بها هذا وذاك حتى شاب العرب - والمسلمين فيما بعد - شوائب كثيرة فترنديق البعض وزهد الآخر ليرد على زندقه⁽³⁾...

وابن حزم يشير إلى بعض إيمان العرب، حيث يقول: إن النصرانية كانت في كل إياد وربيعة وبكر وتغلب وغسان وتنوخ، وكل من سكن الحيرة من تميم ولخم وغيرهم. واليهودية في حمير وكتنة. والمجوسية قد ظهرت في بعض تميم، كما كانت «خثعم» لا تدين بشيء⁽⁴⁾. فهذا الاختلاط الديني والمزيج الإيماني الذي نتج عن المزج البشري أو جد زنادقة الجاهلية في بعض وجهاتها.

فمن مذاهب الهند، على سبيل المثال، التي وصلت إلى العرب مذهب «السمينة»⁽⁵⁾ الذي انتشر في خراسان وفارس والعراق والموصل إلى بلاد الشام⁽⁶⁾، ويفتي هذا المذهب القائل بالتتساخ متواتراً منذ الجاهلية حتى

(1) تلبيس إيليس، ص.3.

(2) أنظر الفصل الأول من هذا البحث .

(3) شوقي ضيف (الفن ومذاهبه في الشعر العربي) دار المعارف، مصر، الطبعة التاسعة ص 109. فيما بعد: الفن ومذاهبه .

(4) جمهرة أنساب، ص.491.

(5) نسبة إلى «سومنات» وهو اسم صنم كان في الهند. ضحى الإسلام / 1 .241

(6) ضحى الإسلام / 1 .241.

عهد بنى العباس وعرف من أتباعه في البصرة كثيرون⁽¹⁾، أشهرهم «جرير بن حازم الأزدي».

وفي أحدهم يقول بشار بن برد:

قلت عبد الكرييم يا ابن أبي العو
لا تصلّي ولا تصوم فإن صُفْ
لبيت شعرى غداة حُلَيْت في الجبَّ
أنت مَمَن يدورُ في لعنة الله

ومن مذاهب الفرس التي انساحت في دنيا العرب منذ الجاهلية وتواترت حتى الأعصر الإسلامية مدار بحثنا: المانوية والمزدكية والصابئة.

المانوية : وتنسب إلى ماني الذي أظهر أول أمره النصرانية ورفض اليهودية والمجوسية والوثنية، ثم مرق من الدين وسمى نفسه «مسيحاً» وزعم أن للعالم إلهين أحدهما خير والآخر شر، وكان يقول بالتناسخ ويفسر في تمجيد النار مقتبساً ذلك من الفرس⁽³⁾:

وبما أن الزندقة أطلقت على معانٍ مختلفة ومنها المانوية، التي يحتمل أن تكون قد أطلت برأسها على الحيرة مصدرة الزندقة إلى قبائل العرب⁽⁴⁾، وصلة الاتصال بين عرب الجاهلية وسكان فارس، فإنها قد ولجت بباب الجزيرة وانضمت إلى باقي اعتقادات الناس وبقيت في أذهان

(١) منهم من آمن بالتأسخ كعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء ثم صارا إلى الاعتزال. ومنهم من آمن ثم تاب كعبد الكريم بن أبي الموجاه صالح بن عبد القدوس. ومنهم من بقي مخلطاً بينه وبين الإسلام كبشار الأعمى. أغاني 3/ 24.

(2) أغاني 3/24. وقد أهملت الكلمة أشرت إليها بـ (...) لأنها بذاتها يموجها الذوق السليم.

(3) عرف على زمن هرمز ملك فارس وقتل على زمن سابور أوبهرام بن هرمز (ابن العيري غريغوريوس الملطي). تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1958. ص 76 - 77. فيما بعد ابن العيري. وقيل أنه ظهر في زمن سابور وقتل بهرام بن هرمز بن سابور

ملل ونحل 2 / .81

(4) المعارف (ابن قتيبة) .621

بعضهم حتى زمن بنى أمية⁽¹⁾ وبني العباس الذين جردوا لأنباعها السيف.
وهذا ما نراه لاحقاً.

المزدكية : وتنسب إلى «مزدك» الذي قال أيضاً كالمانوية في الكونين والأصلين والإلهين، ولكنها عارضها بحله النساء وإباحته الأموال، وجعل الناس شركة فيها كي تتوقف المخالفة والبغضة والقتال بسببها⁽²⁾.

ويروي ابن الأثير أن ملك الفرس «قباذ» بعد أن استجاب لدعوة مزدك كتب إلى «المنذر بن ماء السماء» ملك الحيرة، طالباً منه الدخول في مذهب مزدك وزندقه، فامتنع المنذر، فاغتاظ قباذ منه وعزله وعين مكانه «الحارث الكندي» بعد أن أجابه إلى دعوته، ثم انتشر بعد ذلك ولده فملکوا على بكر وتميم وقيس وتغلب وأسد⁽³⁾، وأشهر هؤلاء الأولاد حجر والد الشاعر امرئ القيس أمير شعراء الجاهلية⁽⁴⁾.

فإذا كانت المزدكية زندة بنظر بعضهم كما أسلفنا فإن جذور هذه الزندة قد ترسخت بين قبائل العرب منذ الجاهلية.

الصابئة : جاء في اللسان: أن الصابئين قوم يزعمون أنهم على دين نوح، بكذبهم، أو قوم من أهل الكتاب، وقبلتهم من مهب الشمال، أو نحو مهب الجنوب، وهم كاذبون. وكان يقال للرجل إذا أسلم في زمن (الرسول) قد (صبا)، عنوا أنه خرج من دين إلى دين، وكانت العرب تسمى (النبي) الصابئي، لأنه خرج من دين قريش إلى دين الإسلام⁽⁵⁾.

ويقول: سراقة بن عوف بن الأحوص: في ليبد بن ربيعة عندما أرسله

(1) الفهرست ص 472.

(2) ملل ونحل 2 / 86. ومروج 1 / 263 والالفهرست ص 479.

(3) الكامل في التاريخ 1 / 243 و 1 / 305.

(4) أغاني 8 / .62.

(5) اللسان 1 / 107 - 108 مادة صبا. وأنظر الفهرست ص 442 وما بعد .

قومه بنو عامر إلى (الرسول) ليعلم خبره فعاد، بعد أن أسلم، يذكر لقومه
البعث والجنة والنار:

لعمري لبيد أنه لاين أمه ولكن أبوه مسه قدم العهد
دفعناك فحالاً فوقه قرع اللباد دفعناك في أرض الحجاز كأنما
بالواح نجد بعد عهدهك من عهد وحيث بدين الصابئين تشوبه
وإن لنا داراً زعمت ومرجعاً وشم ايابُ القارظين وذي البرد⁽¹⁾

فإإننا نرى قوم لبيد وقد وصفوا دين (محمد) بدين الصابئين، وربما
كان ذلك لخروج (محمد) عن دين قريش.

إن القرآن يذكر الصابئين⁽²⁾، مما يشير إلى وجودهم في دنيا العرب.
والذي يتتحل نحلة أو ملة غير ما آمن به الآباء، أو غير ملة الجماعة يرمي
بالزندة. هذا إذا اعتبرنا أن كل خارج عن دين الجماعة صابئاً وكل صابئ
«زنديقاً» وهذا محال.

وإذا ما كانت الزندة متجلدة في العصر الجاهلي فقد استمرت
وتواترت في صدر الإسلام وحتى الأعصر العباسية، وإن تغيرت ألوان
ردائها بعض الشيء من عصر إلى عصر، تأثراً بالبيئة الجديدة من حيث
المقام والمعارف والعلوم وتبابن اللغات والأديان، وامتزاج الشعوب
والأمم في البلدان المفتوحة والمغلوبة، ومن حيث سياسة الحكماء اللينة
حينما والشديدة أحياناً تجاه العرب والجم ...

ثانياً: جذور الزندة في صدر الإسلام وعصر بنى أمية
مات (الرسول ﷺ) فوق الخلاف بين الصحابة على أمور ثلاثة:

1 - أول خلاف كان في موته، فزعم قوم أنه لم يمت، بل رفعه الله إليه.

(1) أغاني 15/138.

(2) المائدة: آية 69. والبقرة. آية: 63. والحج: آية 17.

2 - والثاني في دفنه، فقد أراد أهل مكة حمله إلى مسقط رأسه ودفنه هناك. أما أهل المدينة فأصرروا على دفنه في يثرب.

3 - والثالث في الإمامة، لمن تكون من بعده. فأذعن الأنصار لسعد بالبيعة، وقريش قالت: إن الإمامة لا تكون إلا فيها. وقد فتح هذا الخلاف باباً ولجه المبتدعون والزنادقة وأدخلوا الشكوك على بعض الأفراد، وسنوا طرقاً مضلة وزخرفوها بأقاويل وحجج، ودعوا الناس إليها⁽¹⁾.

ولم يكدر الرسول يفارق هذا العالم حتى عادت نار العصبية واشتعلت من جديد وبثوب جديد، تتلون بين طائفتين من العرب المسلمين، هما: المهاجرون والأنصار، واستلم الإمام زعيم المهاجرين: أبو بكر، فانبرى الشاعر «أبو عبرة القرشي» يستبشر بهذه البيعة، متقدماً بتطلع الأنصار، ومعبراً عن غبطة قريش بالخلافة، يقول:

شكراً لمن هو بالثناء حقيقٌ ذهب اللجاج ويوضع الصديقُ
من بعدِ ما زلت بسعدي نعله ورجا رجاء دونه العيُوقُ
إن الخلافة في قريش ما لكم؟ فيها وربّ محمدٍ معروقُ⁽²⁾

لكن الأنصار وقد آلمهم ذلك وهم من نصروا الرسول، فقد تحسروا على صنيعهم الذي ضاع بلسان شاعرهم حسان بن ثابت:

نصرنا وأوينا النبي ولم نحْفَ صروف الليالي والبلاء على رجلٍ
بذلنا لهم أنصافٍ مالٍ أكفنا كقصمة أيسار الجرؤ من الفضل
فكان جزاء الفضل منا عليهم حُمـقاً وما ذاك بالعدل⁽³⁾

واحتمم اللجاج بين شعراء الفريقين، فعمرو بن العاص يتهمكم بتطلع

(1) تلبيس إيليس، ص 15 - 16. الهاشم .

(2) شرح نهج البلاغة 6/8. سعد: هو أبو عبادة أحد الأنصار الذين كانوا يريدون الخلافة. العيوق: نجم: معروق: نصيب قليل .

(3) المصدر نفسه 10/6.

الأنصار إلى الخلافة، ومالك بن العجلان يرد عليه. وهكذا⁽¹⁾ حتى تطور هذا اللجاج وتشعب خصوصاً بعد مقتل عثمان وظهور «الخلافتين»⁽²⁾ في دنيا العرب، وخروج طلحة والزبير عن بيعتهما لعلي بن أبي طالب، وانضمام السيدة عائشة إليهما، لقتاله في موقعة الجمل. وتفرق العرب في أحزاب وفرق وشيع، وعادت العصبية القبلية لتنمو وتسع وتتفوق عصبية الجاهلين، ودارت الاتهامات السياسية الحزبية⁽³⁾، دورتها في أرجاء البلاد الخاضعة لحكم العرب، واشتد الصراع بين العرب من جهة، والعجم⁽⁴⁾ من جهة ثانية.

وبما أن الاتهامات السياسية والحزبية وما يتفرع عنها يتجدد منها ضرب من ضروب الزندقة تضاف إلى باقي الأنواع الأخرى، كما أسلفنا، فإن الزندقة استمرت تشق طريقها، إن بين عرب الأمويين أو بين موالיהם.

والحقيقة أن كل حزب سياسي كان عند المسلمين مذهبًا دينياً لعدم تمييز الدنيا والدين في أمور الحكومة على أحكام الشريعة الإسلامية⁽⁵⁾، وهكذا نرى الزندقة في العصر الأموي قد استترت تارة وراء الصراع العربي العربي وطوراً بين العرب والموالي، واقتصرت مظاهرها على شاعر يتغنى بأمجاد ساسان، وأخر يبشر بالمانوية، وكاتب ينقل تراث الفرس القدماء في الحضارة والدين⁽⁶⁾.

لقد كان عبد الصمد بن عبد الأعلى، مربى الخليفة الأموي الوليد بن

(1) المصدر نفسه 10/6 - 15.

(2) خلافة علي ابن أبي طالب، وخلافة معاوية ابن أبي سفيان.

(3) الحزب الأموي، والحزب الهاشمي (العلوي) والحزب الزبيدي، حيث ظهرت في هذه الفترة خلافة «ابن الزبير».

(4) ما سمعتهم المصادر العربية بـ«الموالي».

(5) نالليتو. ص 226.

(6) د. عبد العزيز الدوري (الجذور التاريخية للشعوبية) دار الطليعة، بيروت، ط ثانية، ص 13، فيما بعد الدوري.

يزيد بن عبد الملك ومؤدبه زنديقاً⁽¹⁾ كما كان الجعد بن درهم، مربى مروان بن محمد، آخر الخلفاء الأمويين زنديقاً. ويرى ابن النديم⁽²⁾، أن الجعد أدخل مروان وولده في الزندقة. وأُعدم الجعد هذا في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك على يد خالد بن عبد الله القسري.

ومما يثبت تأصل الزندقة في عصر بني أمية، أن أكثر الزنادقة المشهورين زمنبني العباس⁽³⁾، كانوا من مخضري الدولتين، الأموية والعباسية. ومن هؤلاء: الحمادون الثلاثة، وقد اجمعت المصادر على اتهامهم بالزندة⁽⁴⁾، ويونس بن أبي فروة، وعمارة بن حمزة، ومطبيع ابن إياس، وابن المقفع⁽⁵⁾. الذي عاصر أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي، وقال عنه الخليفة العباسي المهدي: «ما وجدت كتاب زندقة، إلا وأصله ابن المقفع»⁽⁶⁾. وربما كان هذا القول لأن ابن المقفع قام بترجمة الكثير من آثار الفرس والهند إلى العربية، ومنه كتب ماني وابن ديسان ومرقيون من الفارسية إلى العربية⁽⁷⁾.

ويمكنا، بعد أن ذكرنا أسباباً لتفشي الزندقة في العصر الأموي، أن نجمل العوامل التي ساعدت على ذلك. ومنها:

1 - سخط العاجم، وجلمهم من الفرس، وتعصبهم ضد العرب عامة والدولة الأموية بخاصة واتخاذ الزندقة وسيلة من وسائل هذا السخط.

(1) أغاني 6/101.

(2) الفهرست 472.

(3) ستحدث عنهم لاحقاً وبإسهاب وهم: حماد الرواية، وحماد عجرد، وحماد ابن الزرقان.

(4) أغاني 5/164. المحافظ: الحيوان 4/443.

(5) أمالی المرتضی 1/134.

(6) القالی (أبو علي إسماعيل بن القاسم (البغدادي) «الأمالی» جزءان - دار الكتب المصرية

1344هـ / 1926م. فيما بعد أمالی القالی. ج 1، ص 134.

(7) أغاني 12/87. مطبعة التقدم بالقاهرة .

2 - اعزاز الأعلام بقومياتهم وعلومهم وأدابهم ومعتقداتهم التي كانت «زندقة» بنظر العرب المسلمين.

3 - تعصببني أمية لعربيتهم واتباعهم سياسة التعرّب، مما أثار حفيظة الشعوب المغلوبة (الموالي)، ودفعهم إلى التعصب لقومياتهم وما تحويه من معتقدات.

4 - اعتماد الثنائيين علىبني أمية، على (الموالي) مما أشعر هؤلاء بأهميتهم ونمى فيهم شعور العداء للعرب وديانتهم.

5 - احتفاظ بعض أبناء القوميات⁽¹⁾ بمعتقداتهم القديمة، وإن تظاهروا بالإسلام، مما ساعد على نمو الزندقة وانتشارها.

6 - الصراع السياسي والفكري بين الفرق الدينية والأحزاب السياسية «العائلية» وتنافسها على ضم غير العرب إليها، وتطوير مبادئها، بحيث تتلااءم وأفكار ومعتقدات هؤلاء. وهذا ما سبب بتفرق أبناء الإسلام إلى فرق وشيع، فيما بعد، فاق عددها العشرات⁽²⁾ وساعد كثيراً في تسريب الزندقة بمختلف أنواعها إلى أفكار الناس، حتى وصلت إلى دار الخلفاء ورمي بها بعضهم كما ذكرنا آنفاً.

تميزت الفترة الأخيرة من العصر الأموي بصراع الأحزاب السياسية والفرق الدينية، وظهرت روح الزندقة واضحة بين ثنياً وآراء وعقائد هذه الأحزاب والفرق. فكانت هناك جماعات الخارج والمرجنة وغيرهم.

تسلل إلى عقائد الخارج كثير من التعاليم المجنوسية والآراء التي

(1) غير العربية .

(2) انظر الملل والنحل 1/40 وما بعد والجزء الثاني بأكمله وأنظر الفرق الإسلامية في الشعر الأموي. د. النعمان القاضي. دار المعارف بمصر، ص 89 وما بعد. فيما بعد. الفرق الإسلامية. وأنظر الفرق لعبد القاهر البغدادي. دار المعرفة. بيروت ص 12 وما بعد. فيما بعد الفرق بين الفرق .

تتضاعف فيها الزندقة⁽¹⁾. وظهر هذا واضحاً في آراء ميمون بن عمران والضحاك، وهما من أبرز علماء الخوارج الأزارقة. وقد أباح ميمون هذا لأنبياء زواج بنات البنات وبنات البنين، وفقاً لل تعاليم المجوسية ومخالفته ل تعاليم الإسلام⁽²⁾. أما الضحاك فقد أجاز للمسلمات أن يتزوجن سراً من بني قومهم من الكفار، والإسلام يمنع زواج المسلمة بالمشرك⁽³⁾.

أما المرجنة فقد أعلن فيهم «جهنم بن صفوان» أنه مباح للشخص أن يدعى الإسلام سراً، ويعلن اعتقاده أي مذهب آخر من المذاهب المجوسية أو الوثنية، وانتشرت هذه التعاليم المتسمة بالزنادقة في خراسان وفارس، وجعلت بعض أهلها يتحللون من الفرائض الإسلامية كالصلوة والصوم والزكاة وغيرها، مكتفين بإضمار الإسلام⁽⁴⁾.

وأدرك نصر بن سيار الحاكم الأموي بخراسان خطورة هذه الزندقة المستترة بالدعوة لبني العباس، وأبدى ألمه إذ رأى البيت الأموي منقسمًا على نفسه، وصاغ تحذيره لبني أمية بأبيات شعر ينذرهم فيها بضياع ملكهم، موضحاً الخطر الذي يهدد الإسلام والعرب على السواء، يقول:

أرى بين الرماد وميض جمر
أقول من التعجب ليت شعري
فإن يكُن قومنا أضحوها نيا مام
فقل قوموا فقد حان القيام⁽⁵⁾

أبيقاظ أميئهُ أم نيا مام
على الإسلام والعرب السلام

ثم ترى (نصرًا) هذا ينشد أبياتاً يستحث فيها هم العرب على عدو

(1) خاصة فرقة الأزارقة منهم: الفرق بين الفرق، ص 84.

(2) المصدر نفسه، ص 280.

(3) سميرة مختار الليبي (الزنادقة والشعوبية). مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة 1968. ص 57. فيما بعد الليبي .

(4) الفرق بين الفرق، ص 211. والليبي، ص 57.

(5) الديبوري (أحمد بن داود أبو حنيفة): الأخبار الطوال. ليدن 1888، ص 312. فيما بعد. الأخبار الطوال .

لا دين له وقد انضم إلى العدو أقوام تحت ستار الدعوة لبني العباس يدينون بأديان لم يسمع هو بها عن (الرسول) ولا توافق ما جاء في الكتب السماوية، ولن يست عقيدة هؤلاء الناس وهدفهم سوى (قتل العرب) يقول:

أبلغَ ربيعةَ في مَزِّوِ وأخوتَها
ما بالكم تلفحون الحرب بينكم
وتتركون عذرًا قد أصلكم
ليسوا إلى عرب منا، فتعرفهم
قومًا يدينون ديناً ما سمعت به
فمن يكن سائلي عن أصل دينهم

أن يغضبوا قبل ألا ينفع الغضبُ
كان أهلَ الحجَّى عن فعلكم غَيْبُ
مَنْ تَأْثَبْ لَا دِينْ وَلَا حَسْبُ
وَلَا صَمِيمَ الْمَوَالِيِّ، إِنْ هُمْ نُسَبُوا
عَنِ الرَّسُولِ، وَلَا جَاءَتْ بِهِ الْكِتَبُ
إِنَّ دِينَهُمْ أَنْ تُقْتَلَ الْعَرَبُ^(١)

إن الشاعر والحاكم الأموي، بشعره هذا تراه يدعو إلى وحدة القبائل، وكان أمراً جللاً سيحدث، في وجه عدو ليس عربياً، وليس موالياً - وهذا تقسيم عرقي، كان سبباً في ازدهار الزندقة - لا حسب لهذا العدو ولا يؤمن إيمان أهل السماء. وهو قتل العرب، ربما لأنهم أتوا بدين يخالف دينه ويکاد يقضي عليه.

وكون هذا العدو لا يؤمن بأديان السماء كما أشار الشاعر، فما هو إيمانه؟ وما هي ديانته؟

بالواقع أنه لم يسم لنا ماهية هذه العقيدة، وربما ألمح إلى عقائد الفرس القديمة^(٢)، التي يفخر العرب بمحوها من قبل الإسلام، ويحاول الفرس العودة إليها لإظهار مناقبهم، والوقوف بوجه العنصر العربي الحاكم. واشتد أوار هذا الصراع الديني، الاجتماعي، والفكري في كل أزمنة الدولة العباسية، صراع العرب مع العرب وقد هدا بعض الشيء عمما كان عليه زمن الأمويين، وصراع العرب والعجم^(٣)، وقد اشتد وعنف وعادت

(١) المصدر نفسه. ص 343.

(٢) مثل الزرادشية والمجوسية وما تفرع عنهما، وصولاً إلى الزندقة .

(٣) وخاصة الفرس وقد أسمتهم المصادر العربية «الموالي» كما رأينا سابقاً .

المعتقدات القديمة لتظهر بقوة واتهם اصحابها بالزندة، ولو حقووا، وقتل أكثرهم لألف سبب وسبب. وهذا ما سنبحثه في الباب الثالث عند تكلمنا عن مراحل الزندة.

ومن البديهي ونحن نستعرض الجذور التاريخية للزندة، وقد عبرنا العصر الجاهلي، وعصرى: صدر الإسلام وبني أمية، يستوقفنا البحث على جذورها في العصر العباسي.

ثالثاً: جذور الزندة في العصر العباسي الأول

من المعلوم أن المانوية كانت تحمل اسم «الزندة» في العهد السياسي⁽¹⁾ ثم شمل هذا الاصطلاح المزدكية وقد استعمله العرب بعدما وجدهو مستعملاً باللغتين الفارسية والأرامية في العراق، للدلالة على الديانات الإيرانية المنشقة عن الزرادشتية. وقد شهد العراق الجنوبي نشاطاً دينياً ملحوظاً للمانوية بعد تحريره من النفوذ السياسي⁽²⁾.

واتسع معنى الزندة منذ النصف الثاني من القرن الثاني الهجري فشمل إضافة لأنصار الديانة (الثنوية) كل مسلم منشق أو ملحد أو متكلم أو متحرر شكاك أو معارض للسلطة العباسية. ولعل هذا التعميم كان السبب في تخطيط الكثريين في تعريف الزندة أو التفريق بين الزنادقة الحقيقيين وبين غيرهم من حملة الأفكار التي لا تستسيغها السلطة العباسية.

من المتفق عليه أن حركة الزندة زمن بنى العباس، كانت تنظيماً فكريأً صلباً، ذا منهج دقيق تمركز في العراق والأقاليم الشرقية وتستر بالإسلام.

(1) صديقي (الحركات الدينية - السياسية في إيران) باريس 1938 ص 84 - 85. فيما بعد صديقي .

(2) د. فاروق عمر (العباسيون الأوائل)، الجزء الثاني، دمشق 1973، (فصل السياسة الدينية). فيما بعد العاسيون الأوائل .

وقد أدت الرفاهية الاقتصادية والاستقرار السياسي النسبي، وأثر الثقافات الأجنبية، وتساهل السلطة مع العقائد المختلفة، إلى نوع من التحلل الحضاري واصطدام الأفكار في المجتمع. فكان أن ظهرت جماعات أو حلقات من الكتاب والشعراء والمفكرين المعجبين بحضور «ساسان» ومُثلها، وكان من أهداف هذه الحلقات إحياء النظم «الفارسية» ومذاهبها، ومنها المانوية⁽¹⁾.

لقد حاول بعضهم وضع كتاب يشبه (القرآن) وطعنوا بالرسالة، وقد ذهب (ابن الروندى) إلى أن معجزات الأنبياء ما هي إلا مخاريق ومن عمل السحرة⁽²⁾، والذي ينظر إلى من تصدى لحركة الزندقة من الكتاب يرى مدى انتشار هذه العقيدة في المجتمع العباسي⁽³⁾، كما كان وراءها الخلفاء أنفسهم، والمهم أن نذكر ما قاله اليعقوبي عن «المهدي» عندما بدأ حملة منظمة لمحاربة أهل البدع والزنادقة: «كان قصده قتل الزنادقة وذلك أنهم كانوا قد كثروا. و مما كان ابن المقفع ترجمة من كتب ماني الشنوي، وكتب ابن ديسان الشنوي وغيرهما. وما وصفه ابن أبي العوجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطبع بن إياس وملاؤا به الأرض من كتب الملحدين. وكثرت الزنادقة وفشت كتبهم في الناس، وكان أول خليفة أمر المتكلمين أن يضعوا الكتب على أهل الإلحاد»⁽⁴⁾.

ويؤيد المسعودي ذلك بقوله:

«أمعن المهدي في قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم في أيامه وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته ... وكان المهدي أول من أمر أهل

(1) فاروق عمر (التاريخ الإسلامي وفكرة القرن العشرين) مؤسسة المطبوعات العربية، بيروت 1980، ص 131. فيما بعد التاريخ الإسلامي وفكرة القرن العشرين .

(2) المصدر نفسه .

(3) العباسيون الأول 140 / 2 وما بعد .

(4) اليعقوبي (تاريخ) دار صادر، بيروت، الجزء الثاني، ص 400 وما بعد. فيما بعد اليعقوبي.

البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب في الرد على الملحدين ... فأقاموا
البراهين على المعاندين وأوضحاوا الحق للشاكرين⁽¹⁾.

إن المهدى أنشأ من أجل هذه الغاية ديواناً سماه (ديوان الزنادقة) واستمر هذا الديوان بعملية تعقب الزنادقة وبصورة منتظمة حتى أيام المؤمنون⁽²⁾، مما يدل على سريان هذا المعتقد وبصورة واسعة في المجتمع العباسي وتأثيره على المجتمع وخوف الخلفاء، ربما الخوف الديني، وربما السياسي، من استفحال هذا الأمر، لأن الثقافة الآرامية - الفارسية القديمة في العراق - مركز المانوية - كانت لا تزال تحمل ذلك الضرب من التفكير الحر الذي عرف بالزنادقة، ولم يتضح في استمرار وجود الأفكار الشتوية في الدين فحسب، بل تجلّى بصورة أوضح في الاستشهاد والاستخفاف بجميع المذاهب الخلقية وعرف باسم المجنون⁽³⁾.

وسواء كانت الزنادقة خلال مسيرتها الطويلة - منذ الجاهلية حتى العصر العباسي - مذهبًا مانويًا أو مزدكيًا أو زرادشتياً، أو اعتقادًا لطائفه من الشراك والدهريين أو الجاحدين الأديان كلها، أو وسيلة من وسائل العبث والمجنون، فإنها شغلت حيزاً رئيساً في الفكر الديني - السياسي في كل هذه الأعصار وعلى الخصوص في العصر العباسي، وكان لها إثرها العميق في المجتمع بما أصدرته من صراع فكري أثر في معتقداته الناصري وبالتأثر في قيمهم وحضارتهم.

(1) التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، ص 135.

(2) مروج الذهب 9/4.

(3) جب (هاملتون) دراسات في حضارة الإسلام - دار العلم للملاتين. بيروت 1979. ص 91 - 92. فيما بعد: جب .

القسم الثالث

المؤرخون القدماء والمحثوثون للزندقة

أ - المؤرخون القدماء

١ - المسعودي: عرف المسعودي الزنديق بأنه الشخص الذي ترك الكتاب المقدس في الزرادشتية وهو (الأفستا)، واتبع (الزند). وكان الزند يياناً لتأويل المتقدم المنزل. والذي يورد شيئاً بخلاف المنزل، ويعدل إلى التأويل الذي هو الزند يقال عنه «زندي»^(١).

ويضيف المسعودي:

«وفي أيام سابور بن أردشير»^(٢) ظهر ماني^(٣) وقال بالاثنين، فرجع سابور عن المجوسية إلى مذهب ماني والقول بالنور والبراءة من الظلمة، ثم عاد بعد ذلك إلى دين المجوسية، وفي أيام ماني هذا ظهر اسم الزندقة^(٤)، الذي أضيف إليه الزنادقة ... الذين انحرقوا عن «الافستا» إلى «الزند» أي انحرقوا عن الطواهر من المنزل إلى تأويل، هو بخلاف التنزيل، فلما أن جاءت العرب أخذت هذا المعنى من الفرس، وقالوا: زنديق، وعربوه، والثنوية هم الزنادقة ولحق بهؤلاء سائر من اعتقاد القدم، وأبى حدوث العالم»^(٥).

وما يهمنا من كلام المسعودي أن الزندقة موجودة قبل الإسلام، وأن الزنديق هو المنحرف عن الدين القويم - سماوياً كان هذا الدين أم أرضياً -

(١) جب (هاملتون) دراسات في حضارة الإسلام - دار العلم للملاتين - بيروت 1979. ص 91 - 92. فيما بعد جب .

(٢) أحد ملوك الفرس من الأسرة الساسانية. مروج 1 / 249.

(٣) قتله بهرام بن هرمز بن سابور بن أردشير ملك فارس. مروج 1 / 250.

(٤) ربما نسبت إلى متبوعي «الزند».

(٥) مروج 1 / 250 - 251.

والعرب عرفوا الزندقة من الفرس، والزنادقة هم الثنائيون ومن اعتقاد القدم ورفض خلق العالم.

2 - ابن قتيبة : يشير ابن قتيبة إلى أن الزندقة انتشرت بين نفر من قريش قبل الإسلام، فيقول: «وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الحيرة»⁽¹⁾.

وما دام هناك زندقة قبل الإسلام وفي قريش نفسها فمن المعقول جداً أن تكون قد تسربت إلى أكثر قبائل العرب وإلى أكثر أماكنهم أيضاً ... لأنه من المعروف والمشهور أن مكانة عظمى كانت لقريش قبل الإسلام وبعده.

ولكن السؤال المطروح عن نوعية هذه الزندقة أهي مانوية ثانية كالتى ذكرها المسعودي ، أم غير ذلك؟

إن نظرة ثابتة فاحصة لكلام ابن الأثير عن علاقة الفرس بالحيرة، تظهر بوضوح أن هذه الزندقة هي «المزدكية» يقول بان الأثير : «أن الملك قباد⁽²⁾، طلب من ملك الحيرة المنذر بن ماء السماء الدخول في مذهب مزدك وزندقته، فامتنع المنذر، فاغتاظ قباد منه وعزله ووضع مكانه، الحارث الكندي، ملكاً على الحيرة بعد أن أجابه إلى دعوته⁽³⁾، وانتشر بعد ذلك ولده فملكو على بكر وتميم وقيس وتغلب وأسد»⁽⁴⁾، وأشهر هؤلاء الأولاد «حجر» والد أمير شعراء الجاهلية «امرأة القيس» حيث ملك على بني أسد، فقتلوه، وهو الملقب بأكل المرار⁽⁵⁾.

وعندما يجيب الحارث الكندي، دعوة ملك الفرس للدخول في مذهب مزدك ويتملك أبناء هذا الكندي على قبائل كثيرة فمن المرجح أن

(1) المعارف .621

(2) قباد بن فيروز من الأسرة الساسانية، في أيامه ظهر مزدك الزنديق. مروج 1/263.

(3) الكامل في التاريخ 1/243.

(4) المصدر نفسه 1/305.

(5) أغاني 8/62.

تكون المزدكية قد تسربت إلى عقيدة أناس كثرين، وأن تكون الزندقة التي وصلت إلى قريش عن طريق الحيرة زندقة مزدكية.

3 - الجاحظ : يجد الجاحظ تفسيراً أعمق لهذه الحركة الدينية - الفكرية - الاجتماعية ذلك أنه يربط الزندقة بالشعوبية⁽¹⁾، من حيث طبيعتهما وأهدافهما المعادية للتراث العربي والقيم العربية الإسلامية، حين يقول: «إنما عامة من ارتتاب بالإسلام إنما جاءه هذا عن طريق الشعوبية، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام إذ كانت العرب هي التي جاءت به وكانتوا السلف»⁽²⁾، ويرى الجاحظ أن مثل هذه الشعوبية تؤدي إلى الزندقة في مثل قوله: «ثم أنك لم تر قوماً أشقي من هؤلاء الشعوبية ولا أعدى على دينه ولا أشد استهلاكاً لعرضه، ولا أطول نصباً، ولا أقل غنماً، من أهل هذه النحلة»⁽³⁾.

ولكتنا حين نفحص تحليل الجاحظ للزندقة واتهامه الشعوبيين بها يستوقفنا البحث أمام الحرب المستعرة التي كانت قائمة بين العرب والموالي في زمنه وقبل ذلك الزمن، هذه الحرب التي وصل أوارها إلى جميع مناطي الحياة الدينية والفكرية والاجتماعية ... وغير ذلك، وقد كان الجاحظ إماماً في الدفاع عن العرب⁽⁴⁾.

4 - ابن الرواندي : يعتبر ابن الرواندي أن لفظ (زنديق) يطلق على من ينفي وجود الله وينكر حكمته، ويجعل له شريكًا، فيقول:

(1) الشعوبية: لفظ يطلق على الأعاجم ومن ضمنهم العوالي الذين تصبوا ضد العرب. انظر الشعوبية في الليبي ص 38 وما بعد .

(2) البيان والتبيين ج 3 ص 14. مطبعة الفتوح ج 3، القاهرة .

(3) المصدر نفسه ص 405 - 406 دار صعب بيروت (1 - 3) .

(4) انظر رد الجاحظ على الشعوبية في البيان والتبيين (1 - 3) ص 401 ، دار صعب .

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاءه مرزوقا
هذا الذي ترك الأوهام حائرة وحَبَّ العالم التحرير زنديقا⁽¹⁾
وفي كتاب «الانتصار» يقول الخياط المعتزلي: «قال ابن الراوندي:
وزعم ثمامنة أن أكثر اليهود والنصارى والمجوس والزنادقة والدهرية
يصيرون في القيامة تراباً، ولا يدخلون الجنة ... الخ»⁽²⁾.

5 - ياقوت الحموي : يرى ياقوت أن الزنديق هو من يظهر الإيمان
ويبطن الكفر وفي ذلك قول الشاعر:

بغداد دار لأهل المال طيبة وللمفاليس دارُ الضئيل والضيق
ظللت حيران أمشي في أزقتها كأنني مصحف في بيت زنديق⁽³⁾

6 - ابن النديم : أما ابن النديم فنراه يطلق لفظ (الزنادقة) على
اصحاب ماني ومعتنقي مذهبة، ولا يطلقه على كل كافر أو ملحد⁽⁴⁾.

7 - السيد المرتضى : يرى أن الزنادقة هم أعداء الإسلام، وكأنه
يتفق مع ياقوت الحموي بالرأي، وقد تظاهروا باعتناقهم ليكيدوا له فيقول :
«فقد نشأ جماعة من يتستر بإظهار الإسلام، ويتحقق بإظهار شعاره
والدخول في جملة أهله، دمه وما له، زنادقة ملحدون، وكفار مشركون،
وبلاية هؤلاء على الإسلام وأهله أعظم وأغلظ، لأنهم يدخلون في الدين
ويموهون إلى المستضعفين، بجاش رابط، ورأي جامع، فغل من قد أمن
الوحشة، ووثق بالأنسة، بما يظهره من لباس الدين، الذي هو منه على
الحقيقة عار»⁽⁵⁾.

(1) الفزالي (الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمود بن أحمد) «فيصل التفرقة بين الإسلام والزنادقة»، القاهرة 1901م. ص 32 - فيما بعد فيصل التفرقة بين الإسلام والزنادقة .

(2) الخياط (أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد عثمان المعتزلي) كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد تحقيق الدكتور نسirج القاهرة 1344هـ / 1925م، ص 63. فيما بعد الانتصار .

(3) معجم البلدان 1/ 464 مادة بغداد .

(4) الفهرست ص 473 .

(5) أمالى المرتضى 1/ 127 .

وقد أشار السيد المرتضى إلى زنادقة الجاهلية بما يسبق هذا الكلام فيقول: «وكما أنه كان في الجاهلية قبل الإسلام وفي ابتدائه قوم يقولون بالدهر، وينفون الصانع، وأخرون مشركون يعبدون غير خالقهم، ويستنزلون الرزق من غير رازقهم، فقد نشأ بعد هؤلاء جماعة ممن يتستر بإظهار الإسلام ...»⁽¹⁾.

وقد سمي السيد المرتضى الكثيرين من الزنادقة⁽²⁾، أولهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي يقول:

اسقياني وابن حزب
واسـتـرانـا بـإـازـارـ
ـة يـسـعـى فـي خـسـارـ
ـاتـرـكـا مـن طـلـبـ الجـ
ـارـ يـرـكـبـوا دـيـنـ الحـمـارـ
ـأسـوسـ النـاسـ حـتـىـ

8 - الشعالي : يرى أن (الزنادقة) هم من تظاهروا بالظرف فيقول: أما قولهم أظرف من زنديق فقد صار مثلا في زمن كثر ظرفاؤه وهو زمان المهدى ، وكانوا يرمون بالزنادقة كصالح بن عبد القدس ، وبشار ، وحمد الراوية ، وحماد عجرد ، ومطيع بن إياس . وما منهم في الظاهر إلا نظيف البزة جميل الشكل ظاهر المروءة⁽⁴⁾ .

9 - الصولي : رأى الصولي مثل رأي الشعالي في الزنادقة وهو يصف أشعار أبي نواس بأنها «تيه مغن وظرف زنديق». قال الصولي : وإنما قال ذلك لأن الزنديق لا يرع عن شيء ، ولا يمتنع من يدعى إليه ، فنسبه إلى الظرف لمساعدته على كل شيء ، وقلة خلافه⁽⁵⁾ .

(1) المصدر نفسه .

(2) المصدر نفسه . ستعرض لهم بالتفصيل فيما بعد في باب الزنادقة .

(3) المصدر نفسه 1/29 يركبوا دين الحمار : «أي حتى ينزو بعضهم على بعض كما تنتازى الحمير».

(4) الشعالي (ثمار القلوب) طبعة القاهرة 1908. ص 128 - 129 فيما بعد ثمار القلوب .

(5) أمالي المرتضى 1/143.

10 - أبو حيان التوحيدى : يرى أن (من طلب الدين بالكلام ألد)، وبذلك أصبح المتكلمون ضمن الزنادقة⁽¹⁾.

11 - ابن الجوزي : يشير إلى أن (الزنادقة) هم الدهريون، الذين قالوا: «ليس لأحد أن يثبت لنفسه رباً، لأن الإثبات لا يكون إلا بعد إدراك الحواس، وما يدرك فليس بيده، وما لا يدرك لا يثبت»⁽²⁾.

12 - أبو العلاء المعرى : يتفق مع ابن الجوزي في تعريفهم بالدهريين، الذين قالوا: «بأن لا صانع للعالم» ويتهمهم بإنكار النبوات والكتب السماوية.⁽³⁾

13 - ابن منظور : يرى أن الزنديق، هو القائل ببقاء الدهر، واللّفظ فارسي معرب من «زندرک»، أي يقول ببقاء الدهر ... وليس في كلام العرب زنديق، فإذا أرادت العرب معنى ما تقوله العامة، قالوا: ملحد ودهري.⁽⁴⁾

14 - البيروني : يرى في زهاد (المانوية) ما يراه الجاحظ، وهذا الزهد مفارق للزهد الإسلامي، ويندرج في صنوف الزنادقة. يقول البيروني: «شرع ماني نواميس يفترضها الصديقون، وهم أبرار المانوية وزهادهم، على أنفسهم من إيثار المسكنة وقمع الحرث والشهوة، ورفض الدنيا والزهد فيها، ومواصلة الصوم والتصدق بما أمكن، وتحريم اقتناء شيء ما خلا قوت يوم واحد، ولباس سنة، وترك السفاد، وإدامة التطوف في الدنيا للدعوة والإرشاد»⁽⁵⁾. ويقول الجاحظ بهذا المعنى : «رهبان الزنادقة سياحون

(1) التوحيدى (أبو حيان): الامتناع والمؤانسة. شرح: احمد أمين، وأحمد الزين. القاهرة 1939 ج 1 ص 142. فيما بعد الامتناع والمؤانسة .

(2) تلبيس إيليس، ص 21.

(3) رسالة الغفران، ص 219.

(4) اللسان 10/147 مادة زندق .

(5) البيروني (أبو الريحان، محمد بن أحمد) الآثار الباقية عن القرون الخالية. اعنى بشـره، أدوارـ سخـارـ طبع ليـزـكـ 1923ـ صـ 207ـ فيما بعد الـ بـيرـونـيـ .

... ولا يسيرون إلا أزواجاً ... والسياحة عندهم لا يبيت أحدهم في منزل ليلتين، قال: ويسرون على أربعة خصال: على القدس، والطهر، والصدق، والمسكنة، فاما المسكنة فأن يأكل من المسألة، وما طابت به أنفس الناس له ... ولا يأكل إلا من كسب غيره، وأما الطهر فترك الجماع، وأما الصدق فعلى ألا يكذب، وأما القدس فعلى أن يكتم ذنبه، وإن سئل عنه»⁽¹⁾.

15 - ابن المعتر : يرى الزنادقة في إغراء الشباب العربي الإسلامي بالفجور والتعهّر وإدمان الخمر، وطلب اللهو واللهفة، والتغزل بالغلمان، واللواط بهم، واستباحة المحرمات وانتهاك الأعراض. ويرى أن المجان الزنادقة قاموا بكل ذلك، على نحو ما هو معروف عن الحمادين الثلاثة ومطيع بن إياس وبشار بن برد⁽²⁾.

16 - أبو فرج الأصفهاني : يرى أن الزنادقة هي التبذب في الإيمان، والمجاهرة بالشنية، وهي أكثر ما تكون عند الشعوبين. يقول عن أبي العناية: «كان مذبذباً في مذاهبه يعتقد شيئاً فإذا سمع طاعناً عليه ترك اعتقاده إياه وأخذ غيره». ويضيف: «عن مذهب أبي العناية القول بأن الله خلق جوهرين متضادين ... وإن (حمدوبة)⁽³⁾، صاحب الزنادقة، أراد أن يأخذ أبا العناية فقنع من ذلك وقعد حجاماً»⁽⁴⁾.

وخلال الكلام في هذا المضمون، بعد استعراضنا لأراء جمهرة من المؤرخين واللغويين العرب، نرى أن الاصطلاح لمفهوم الزنادقة لم يكن محدداً تحديداً دقيقاً، فقد نظر كل واحد منهم من زاويته الخاصة، فاختلت النظرة والمفهوم من أتباع مذهب معين، عنها في أتباع مذهب آخر،

(1) الحيوان: طبعة مصر 1938. تحقيق عبد السلام هارون. ج 4، ص 457 - 459.

(2) ابن المعتر (عبد الله) طبقات الشعراء. تحقيق عبد الستار أحمد فراج. دار المعارف مصر، ص 21 - 69 - 96.

(3) وهو المسؤول من قبل الخليفة العباسي عن ملاحقة الزنادقة.

(4) أغاني 3/ 128 - 129. طبعة بولاق.

والعربي عن المولى، كما أن نظرة المؤرخ تختلف عن نظرة الأديب.

في العصر العباسي نرى الناس قد أفرطوا في رمي بعضهم البعض بالزندة، إما لخصوصة سياسية أو عقائدية أو فكرية. وأطلق اللفظ (زندة) للدلالة على الثنرين من أصحاب ماني، واستخدمته السلطة ضد خصومها السياسيين. أما الفقهاء فاستخدموه للدلالة على الملحدين والمشككين. ويمكننا أن نحصر الدلالات الرئيسية لهذا الاصطلاح عند من ذكرنا بما يأتي :

أولاً: المعنى الرسمي الذي استخدمته السلطة العباسية يدل على أن الزنديق هو من تبع مذهب (ماني) الثنوي الإيراني.

ثانياً: اتسع هذا اللفظ ليدل، كما في أقوال الجاحظ والأصفهاني⁽¹⁾ وغيرهما، على الشعوبية باعتبار أن العروبة والإسلام مفهومان مترادافان في القرنين الأول والثاني الهجريين، لذا فإن الشعوبية والزندة لفظان مترادافان أيضاً. فمن يكره العرب يكره الإسلام والعكس كذلك.

ثالثاً: أصبح لهذا الاصطلاح دلالات دينية - سياسية عامة حين استخدمته السلطة العباسية لضرب خصومها السياسيين أو الدينيين، فاتهمت العديد من شيوخ الأحزاب المعارضة بالكفر والزندة، كما شمل هذا الاصطلاح بعض (الذميين) وبخاصة النصارى⁽²⁾.

رابعاً: شمل الاصطلاح الخلقاء والمجان والظرفاء.

خامساً: شمل أيضاً المشككين والدهريين وذوي التفكير الحر وأهل الكلام لكونهم «يبطئون الكفر ويتظاهرون بالإيمان» وليس هدفهم سوى العبث الفكري والتشكيك بالعقيدة.

(1) أغاني 1/17 مطبعة التقدم بالقاهرة .

(2) تشير المصادر المدونة بالسريانية أن من اضطهد من النصارى في العهد العباسي قد رمي بالزندة. التاريخ الإسلامي وفكرة القرن العشرين ص 126 الهاشم .

ولكن هذا لا ينفي وجود حركة فكرية اجتماعية منظمة نادى أصحابها بنشر أفكار (مانى) ومذهبة بديلاً للعقيدة والترااث العربي الإسلامي زمن بنى العباس وقبلهم الأمويين ... سبب هذه الحركة في إذكاء نار التفاخر بدين الفرس وترائهم الحضاري أمام دين العرب وترائهم. وأصحاب هذه الحركة الفكرية هم (الزنادقة) الذين حاربهم السلطة العباسية، لكونهم نادوا بأراء ومفاهيم اعتبر انتشارها خطراً وتهديداً للدولة⁽¹⁾.

ب - المؤرخون المحدثون:

إن الكتاب المحدثين قد اختلفوا هم أيضاً في تصورهم لمعنى الزندقة وتضاربت آراؤهم في عقيدة الزنديق على النحو التالي :

1 - أحمد أمين : إن كلمة الزندقة عند أحمد أمين لم تكن ذات معنى واحد، وإنما تطلق على معانٍ أربعة :

أ - أولاهـا: الاستهتار والمجون. يقول أحمد أمين: «فأما العامة وأشباههم فكانوا يطلقون على المستهتر الماجن (زنديقاً)، فإبراهيم بن سيابة الشاعر كان يُرمى بالزنديقة، ولم يكن يعرف عنه قول في الدين، إنما كان خليعاً، ماجناً، يحب الغلمان ويحبه المجان⁽²⁾... وآدم حميد عمر بن بد العزيز ؛ اتهم بالزنديقة لأنـه كان خليعاً ماجنا مفترطاً في الشرب، تجري على لسانه - وهو سكران - أبيات فيها مساس بالدين، كأن يقول⁽³⁾:

(1) المصدر نفسه ص 127.

(2) جاء في الأغاني : «ان ابن سيابة غمز غلاماً أمرد ذات يوم فأجابه ومضى به إلى منزله فاكلا وجلا يشريان فقال له الغلام : أنت ابن سيابة الزنديق قال : نعم . قال : أحب أن تعلمني الزندقة . قال : أفعل وكراهة ، ثم بطحه على وجهه فلما تمكّن منه أدخل عليه فصائح الغلام أوه أيش هذا ويحك . قال : سألتني أن أعلمك الزندقة وهذا أول باب من شرائعها»

ج 11، ص 7.

(3) ضحي الإسلام 1/146.

في مَدِي اللَّيلِ الطَّوِيلِ
وهي كالمُسْكِ الفتيلِ
ينسَّ منهاج السَّبِيلِ
من فقيهٍ أو نبيِّلِ
من رحِيق السَّلْسَبِيلِ
في غَدْنَعَتِ الْطُّلُولِ^(١)

اسْقَنِي واسِقِ خَلِيلِي
لَوْهَا أصْفَرُ صَافِ
مَنْ يَنْلِي مِنْهَا ثَلَاثَةً
قَلْ لِمَنْ يَلْحَاكَ فِيهَا
أَنْتَ، دَغَهَا وَارْجُ أَخْرَى
تَعْطَشُ الْيَوْمَ وَتَسْقَى

فيُنْهِمُ (آدم) بِالزَّنْدَقَةِ لِقَوْلِهِ هَذَا الشِّعْرُ وَمِثْلُهُ، وَيَأْخُذُهُ الْمَهْدِيُّ وَيَضْرِبُهُ
ثَلَاثَمَائَةَ سَوْطٍ عَلَى أَنْ يَقُرَرَ بِالزَّنْدَقَةِ، فَيَقُولُ: وَاللهِ مَا أَشْرَكْتَ بِاللهِ، وَمَتَى
رَأَيْتَ قَرْشَيَاً تَزَنْدِقَ؟ وَلَكِنَّهُ طَرَبَ غَلْبَنِي وَشَعْرَ طَفْحٍ عَلَى قَلْبِيِّ، إِذَا شَرَبَ
النَّيْدَ، وَأَقُولُ مَا قَلَتْ عَلَى سَيْلِ الْمَجُونِ^(٢).

إِنْ شُعْرَاءَ الْأَسْتَهْتَارِ وَالْمَجُونِ أَفْرَطُوا فِي دُعْوَةِ النَّاسِ إِلَى الْفَجُورِ
وَالْإِبَاحَةِ مُتَعَرِّضِينَ لِلَّدِينِ سَاهِرِينَ مِنْ يَقُولُ بِتَحْرِيمِ الْخَمْرِ وَيَخْفُوُ
وَيَذَكُرُ بِيَوْمِ الْبَعْثِ وَمَا فِيهِ مِنْ حِسَابٍ. وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ أَبُو نَوَّاسُ:

يَا نَاظِرًا فِي الدِّينِ مَا الْأَمْرُ لَا قَدَرْ صَحَّ وَلَا جَبَرْ
مَا صَحَّ عَنِّي مِنْ جَمِيعِ الْذِي تَذَكَّرُ إِلَّا الْمَوْتُ وَالْقَبْرُ
وَيَقُولُ أَيْضًا:

قَلْتُ وَالْكَأْسُ عَلَى كَفِي تَهْنِوي لِالْتَّشَامِيِّ
أَنَا لَا أَعْرِفُ ذَاكَ الْبَيْرَ مَ فِي ذَاكَ الزَّحَامِ^(٣)
وَلَكِنَّ الْمُسْتَمِعِينَ لِمَثْلِ هَذِهِ الْأَقْوَالِ، وَقَتَذَاكَ، اخْتَلَفُوا فِي حُكْمِهِمْ
عَلَى شُعْرَاءِ هَذِهِ الْفَتَّةِ. فَمِنْهُمْ مَنْ حَكِمَ عَلَى قَاتِلِهِ بِالْإِلْحَادِ وَالْخَرْوَجِ مِنِ
الْدِينِ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ القَوْلَ نُوعٌ مِنْ أَنْوَاعِ التَّمْلِحِ وَالتَّظْرِفِ، وَعَلَى
هَذِهِ الْأَسَاسِ الْأَخِيرِ، شَاعَ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ وَصَفَ الزَّنْدِيقَ بِالظَّرْفِ، وَشَاعَ

(١) أغاني 14/61.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ضحى الإسلام 1/148.

أيضاً أن بعضهم يتزندق ليشتهر بالظرف. ففي الأغاني أن ابن مناذر، قال في محمد بن زياد الذي كان يظهر الزندقة تظروفاً:

يا ابن زياد ابا ابا جعفر أظهرت ديناً غير ما تُخفي
مزندق الظاهر باللفظ في باطن إسلام فتئَ عَفَّ
لست بزنديق ولكثِّيما أردت أن تُوسم بالظرف⁽¹⁾
وقال غيره بهذا المعنى:

تزندق مُعلناً ليقولَ قومٌ إذا ذكروه زنديقٌ ظريفٌ
فقد بقي التزندقُ فيه وسماً وما قبل الظريفُ ولا اللطيفُ⁽²⁾
والزندقة بهذا المعنى، - الاستهتار والمجون والتھتك ثم التدرج فيه
إلى الخروج عن الدين والتطرف أيضاً - كان شائعاً في أذهان العامة
وأشباههم، ولذا قالوا: «إن علامة الزندقة شرب الخمر، والرشا في
الحكم، ومهر البنغى»⁽³⁾.

ب - ثانيةا : اتباع دين المجنوس، وخاصة دين ماني مع التظاهر
بالإسلام، كالذى اتهم به الاشرين، واتهم به بشار بن برد وحماد الرواية
وابن المقفع وغيرهم⁽⁴⁾.

وهذا المعنى يفهمه الخاصة وأشباههم وقد بينا ذلك في ما سبق⁽⁵⁾.
فبعد الكريم بن أبي العوجاء يتهم بالزندقة، ويقر حين يقتله المنصور، بأنه
وضع أربعة آلاف حديث مكذوب مصنوع⁽⁶⁾. فابن أبي العوجاء وأمثاله
تزندقوا تزندقاً علمياً، تظاهروا بالإسلام تقية أو توسلًا إلى إضلال الناس،
يدل عليهذا ما رواه الأصفهاني عن قول حماد عجرد في بشار عندما هجاه:

(1) أغاني 17/15.

(2) ضحي الإسلام 1/149.

(3) العقد الفريد 2/179.

(4) ضحي الإسلام 1/151 و152.

(5) انظر هامش رقم (1) ص 45 من البحث.

(6) أمالى المرتضى 1/127.

«ما يغيبني من بشار الا تجاهله بالزنادقة، يوهم الناس أنه يظن أن الزنادقة تعبد رأساً ليظن الجهال أنه لا يعرفها ... وهو والله أعلم بالزنادقة من ماني»⁽¹⁾.

ج - ثالثها : اتباع دين المجرم، وبخاصة «ماني» من غير ظاهر بالإسلام⁽²⁾، ويستند أحمد أمين بكلامه هذا على ما جاء في كتاب الحيوان للجاحظ الذي يقول: «وكان لهؤلاء الزنادقة كتب أجود ما تكون ورقاً، يكتب عليه بالحبر الأسود البراق، ويستجاد له الخط»⁽³⁾.

د - رابعها : أن هناك زنادقة ملحدين لا دين لهم⁽⁴⁾. مستشهاداً بقول أبي العلاء المعري في رسالة الغفران: «والزنادقة هم الذين يسمعون الدهرية لا يقولون بنبوة ولا كتاب»⁽⁵⁾.

2 - طه حسين : يرى طه حسين أن العراق مصدر الزنادقة، لتأثير أهله بالفرس تأثيراً عميقاً، وقد كانوا بهم أشد اتصالاً وتأثراً أيضاً باليونان وفلسفتهم وإن كان هذا التأثير عرضياً لا جوهرياً وفلسفة الإغريق بنظره ليست إلا حلية يزيتون بها شعرهم وزندقتهم⁽⁶⁾. ويشخص طه حسين الزنادقة تشخيصاً أدبياً فيقول: «إنها ضرب من السخط على العرب وعاداتهم وأخلاقهم ومحافظتهم ودينهن بنوع خاص» كما يراها أيضاً: «ضرب من الكلف بحياة الفرس وعاداتهم ولذاتهن وحضارتهم، وما ذاع فيها من عقيدة دينية»⁽⁷⁾.

(1) أغاني 13 / 76.

(2) صحي الإسلام 1 / 153.

(3) الحيوان (1 - 3) ص 44 - 45.

(4) صحي الإسلام 1 / 154.

(5) المصدر نفسه.

(6) طه حسين : (المجموعة الكاملة لمقالاته) المجلد الثاني ويحتوي على: حديث الأربعاء، الجزء الأول والثاني والثالث. دار الكتاب اللبناني، بيروت الطبعة الثانية 1980 ج 2 ص 418. فيما بعد حديث الأربعاء .

(7) المصدر السابق 2 / 482.

ولكنه يرى أن كرههم للإسلام لم يسقهم إلى طريق النصرانية واليهودية ولا حتى إلى المجوسية والزرادشتية، إنما أثروا البدع في عقائد الفرس القديمة، التي تدعو إلى الإباحة والله «فتعصبو على الإسلام، وعلى كل دين من شأنه أن يأخذ الناس بشيء من القسط في الاستمتاع باللذات، ومن هنا هاجموا أصول الديانات، وسخروا منها، وأثروا النار التي يعبدوها الفرس، على الطين الذي ترد إليه الديانات السامية أصل الإنسان والحيوان ... وهم في حقيقة الأمر لا يحفلون بتوحيد ولا بثنية ولا بثلثٍ⁽¹⁾» وجل ما يحفلون به اللذات.

ودليل طه حسين على ذلك أن هؤلاء الزنادقة لم يكونوا يوماً صادقين في زندقتهم، «فلو أن هناك صلة دينية متينة، تجمع بينهم حقاً، وتكون منهم أقلية متضامنة، لما أساء بعضهم إلى بعض، ولما سعى بعضهم ببعض، ولما استعدى بعضهم على بعض السلطان»⁽²⁾، ويكتفي مثلاً ما قاله حماد عجرد للأمير عيسى بن عمر يغريه للإيقاع بخصمه بشار⁽³⁾ :

ذِي الْمَسَاعِيِّ الْعَظَامِ فِي قَطْطَانٍ
لَكَ جَازَ بِالْمَصْرِ لَمْ يَجْعَلِ الدَّ
لَا يُصْلِي وَلَا يَضُومُ وَلَا يَفْ
إِنَّمَا مَغْدِنُ الرِّزْنَةَ مِنَ السَّفَ
وَهُوَ خِذْنُ الصُّبَيَّانِ وَهُوَ ابْنُ سَبْعَ
طَهْرِ الْمُضَرَّ مِنْهُ يَأْيُهَا الْمَزَ
يَا ابْنَ بُزْدٍ إِخْسَأً إِلَيْكَ فَمِثْلُ الْ

فمثلك هذا القول وغيره⁽⁵⁾ يقود الكاتب للاعتقاد بأن الزنادقة لم تكن

(1) المصدر نفسه / 483 .

(2) المصدر نفسه / 484 .

(3) الآثاران رميًا بالزنادقة .

(4) حديث الأربعاء / 485 .

(5) انظر المصدر السابق بشار يهجو حماداً .

خروجاً عن الأديان السماوية بمعنى الكفر والإلحاد، بل هي التهتك والاستهتار والفجور. وهذه جميعها بممجها الدين وترفضها شرائعه.

3 - عبد العزيز الدوري : يرى عبد العزيز الدوري أن الشعوبية هي العامل الأول في قيام حركة الزندقة. ويستنتاج ذلك من الارتباط الوثيق بينعروبة والإسلام من جهة، والشعوبية وعوائق المجرم الدينية القديمة من جهة أخرى والشعوبية تنتهي بدورها إلى الزندقة. وفي هذا، يقول: «ولذا نجد الشعوبية تنتهي في كثير من الحالات بالخروج على الإسلام وبالزندة فهي تبدأ من التهجم على العرب، وتنتهي بالهجوم على الإسلام»⁽¹⁾.

كما أنه يرى في حركة الغلو جانب آخر للنشاط الشعوبى في الحقل الدينى، «والغلاة فرق عديدة، ونظرة إلى مبادئهم تشير إلى أصول مزدكية وزردشتية ومانوية، وقد استمرت الحركة المانوية باسم الزندقة في المجتمع الإسلامي»⁽²⁾.

وما دام «الدوري» يعتبر الشعوبية زندقة. فإن ما يراه من شعر يظهر تفاخر الفرس بالأنساب والأمجاد، يعتبره مروقاً عن الدين لا بل زندقة ويسوق الأمثال الكثيرة على ذلك من مثل قول إسماعيل بن يسار:

أصلی کریم ومجیدی لا یقادس به ولی لسان کحد السیف مسموم
اھمی به مجد اقوام ذوی حسب من کل قرم بتاج الملک معمول
جحاجح ساده بُلچ مرازبَه جُرَدْ عتاق مسامیح مطاعیم⁽³⁾

4 - عبد الرحمن بدوي : يتأثر «بدوي» بالمؤرخين الرواد كما تأثر غيره من ذكرنا فيعزى الزندقة إلى من يؤمن بالمانوية ثم يتسع هذا المعنى بنظره ليطلق على صاحب كل بدعة وكل ملحد، وينتهي به الأمر أخيراً

(1) الدكتور عبد العزيز الدوري : (الجذور التاريخية للشعوبية) دار الطليعة - بيروت، الطبعة الثانية 1980. ص 58 فيما بعد الجذور التاريخية للشعوبية .

(2) المصدر السابق ص 20.

(3) أغاني 4/125 وأنظر بقية الشواهد في (الجذور التاريخية للشعوبية) ص 63 - 66.

ليكون الزنديق من يخالف أهل السنة ومن يحيا حياة المجنون من الشعراء والكتاب ومن إليهم⁽¹⁾.

5 - المستشرقون: فيدا ، أخذ هذا المستشرق برأي ابن النديم حيث يقول: «إنَّ الزندقة التي حاربها المهدي والهادي هي المانوية»⁽²⁾.

ماسينيون: يتأثر أيضاً برأي ابن النديم فيرى أن التعريف الرسمي لمعنى الزنديق هو زاهد ثني ويضيف أن الزندقة أطلقت على المفكرين الأحرار⁽³⁾.

برنارد لويس: يرى هذا المستشرق أن العادات الشخصية والتنازع على السلطة والجاه، ومحاولة القضاء على المعارضة الدينية - السياسية، لعبت دوراً كبيراً في اتهام البعض بالزنادقة، وفي ذلك يقول: «إن الزندقة غدت اصطلاحاً إدارياً وسياسياً وليس اصطلاحاً كلامياً أو نظرياً، وبمعنى آخر فإن تهمة الزندقة تؤدي بصاحبها إلى السجن على أقل تقدير، بل ربما انتهت بالمتهم إلى القتل»⁽⁴⁾.

جب : يرى أن الشعوبية جسر الزندقة، وخطرها يكمن في تشكيكها الذي ولدته في نفوس الطبقات المتعلمة، لأن الثقافة الآرامية - الفارسية القديمة في العراق مركز المانوية كانت لا تزال تحمل جراثيم ذلك الضرب من التفكير الحر الذي عرف بالزنادقة، وقد تجلت هذه الزندقة في استمرار

(1) الدكتور عبد الرحمن بدوي (من تاريخ الإلحاد في الإسلام) المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ، طبقة ثانية 1980 ، ص 28 فيما بعد بدوي .

(2) فيدا (جورج) الزندقة في الإسلام، مجلة الدراسات الشرقية 1940 ، 1938 ص 173 وما بعد .

G.Vaida. Les Zindiqs en Pays d'Islam au début de la période abbaside R.S.D. XXI. 1937 P.P 137-229.

(3) ماسينيون: مادة زندقة. دائرة المعارف الإسلامية. عذاب الحلاج، ص 186 - 188 . L.Massignon: La passion d'al-Hallag.

(4) التاريخ الإسلامي وفكرة القرن العشرين، ص 137 . B.Leuis: the significance of Heres. P.55.

وجود الفكر الثنوي في الدين من جهة، وفي الاستهتار والاستخفاف بجميع المذاهب الخلقية من جهة أخرى، وقد عرف هذا الأخير باسم المجنون⁽¹⁾.

كارل بروكلمان: لا يستبعد تأثير الشعوبية في دفع تيار الزندقة، لأنَّه يذكر أنَّ المانوية، لا الزرادشتيَّة الحالصة، كانت لا تزال تفرض سلطانها الكبير على أولئك الداخلين حديثاً في الإسلام، ولم يرتاحوا كلياً لشعائره الصارمة، بل لقد كادت المانوية أن تكون دين الطبقات المثقفة⁽²⁾. وكان هؤلاء المسلمين ظاهراً، والمانيون باطنًا، خير دليل على التأثير «الشعوبي» في تقوية تيار الإلحاد والزنادقة، وإثارة الشكوك في المجتمع الإسلامي.

يتبيَّن من هذا الاستعراض لأقوال الكتاب المحدثين في الزندقة، أنَّهم لم يخرجوا عن الأطر التي حددها المؤرخون الرواد، رغم أنَّ كلاًًا منهم أكَّد على وجْهَة نظر معينة من مدلولات الزندقة، واعتبرها الدافع المحرك لحركة فكرية، ذات أهداف سياسية، دينية، اجتماعية. تتحرك بتحرُّك أصحابها «الزنادقة». فمنهم - تبعاً للأعصر الزمنية - من خرج من قومه ودينه لسبب ما، وكاد لهما ومنهم من أراد أن يحيا بالفسق والفجور، فتُمْتَعِّن بالملذات والمحرامات.

ومنهم من عاد إلى قديمه وعمل على إحياء تراث آبائه، خصوصاً من ناحية العقيدة.

ومنهم من تظاهر بالظرف أو أراده. وأخيراً منهم من اختلف سياسياً مع الأمراء والحكام والخلفاء.

(1) جب، هاملتون: دراسات في حضارة الإسلام. دار العلم للملائين، بيروت - الطبعة الثالثة 1979. ص 91 - 92. فيما بعد جب .

Hamilton. A.R. Gibb. (Studies on the Civilisation of Islam). Beacon Press, Boston, Massachusetts. 1962.

ترجمة: إحسان عباس، محمد يوسف نجم ومحمد زايد.

(2) بروكلمان، كارل: الإمبراطورية العثمانية وانحلالها. ترجمة فارس وبعلبكي. دار العلم للملائين. بيروت 1949 ص 15. فيما بعد بروكلمان، الإمبراطورية الإسلامية وانحلالها.

القسم الرابع

أهداف الزنادقة

بعد عرضنا لآراء القدماء والمحدثين والمستشرقين للزنادقة وتفسيراتهم لمعانيها، نكون قد تعرفنا إلى اختلاف وجهات نظرهم، نتيجة تنوع أشكال الزنادقة وصورها، حيث ظهرت في ثوب عقائدي، وفكري، واجتماعي، وسياسي، ونتيجة اختلاف أهداف الزنادقة أيضاً كما بينا آنفاً.

لكن حركات الزنادقة وخصوصاً في نهاية العصر الأموي والعصر العباسي الأول - كانت تهدف إلى تقويض دعائم الإسلام⁽¹⁾، من حيث الظاهر، وإلى التعبير عن الرأي الحر والمعتقد الحر من حيث الباطن.

وبما أن آرائهم دعت أحياناً إلى ما يفهم منه مخالفة تعاليم الدين، ومعارضة قيمه الروحية ومثله العليا، فقد وقف الخلفاء العباسيون والمسلمون الأتقياء موقفاً حازماً من الزنادقة دفاعاً عن دينهم الحنيف⁽²⁾.

ولما كان الزنادقة يحاربون الإسلام، فلا يخضعون لدستوره (القرآن الكريم)، وهو مصدر قوانين الدولة، ونظمها وتقاليدها، فقد اعتبر الخلفاء العباسيون الزنادقة خارجين على طاعة الدولة، وثواراً سياسيين يعملون على إحياء النظم الفارسية، وعقائدها المجوسية البائدة، مما يسبب بإنهيار السلطة الإسلامية، لذا كانوا متشددين في ملاحقة الزنادقة وقتلهم.

وقضية إحياء التراث الفارسي القديم وعقائده اتهم بها بعض البرامكة وهم من هم زمن الرشيد، فابن قتيبة يقول: «البرامكة كانوا يرمون بالزنادقة

(1) الليثي - الزنادقة والشعوبية، ص 29.

(2) محمد بديع شريف (الصراع بين الموالي والعرب) ص 67. دار الكتاب العربي، مصر، 1945م. فيما بعد: شريف. وفي هذا الكتاب يرى المؤلف أن ابن المفعع: «كان زنديقاً لا يؤمن بالله ولا يقيم وزناً للدين محمد بن عبد الله» وفيه فقرات من كتاب معارضة ابن المفعع للقرآن.

إلا أقلهم» ويروي يتيمن للأصمسي في ذلك: ⁽¹⁾

إذا ذُكر الشّرك في مجلس أضاءت وجوه بني بَرْمك
وإن تُلْيَتْ عَنْهُمْ آيَةً أَتَوَا بِالْأَحَادِيثِ عَنْ مَزْدِكِ⁽²⁾

ولعل ما يتصل بهذه النقطة ما نلاحظه من انتشار المبادئ الدينية
الفارسية القديمة بعد تكون حزب الموالي⁽³⁾ الذي يعتبر «أبو مسلم
الخراساني» أول رئيس فعلى له، والذي أعرب أبو العطاء السندي عن
خيئة أمله في الحكم العباسى بعد مقتل أبي مسلم، في قوله:

يا ليت جوراً بني مروانَ عاد لنا يا ليت عذلَ بني العباسِ في النار⁽⁴⁾
ويبدو أن نشر هذه المبادئ والترويج لها كان من أسس ما خطط له
الموالى ليتمكنوا من فرض سيطرتهم عن طريق سيادة هذه الآراء والمعتقدات
والماذاب، وأخطرها جميعاً في رأي الباحثين المزدكية والمانوية. يقول
«نيبرج» في مقاله بين الإسلام والمانوية، مشيراً إلى رغبة «المانويين» في
تمزيق الإسلام: «كانت الحركة المانوية في الشرق أخطر أعداء الإسلام، فإن
من طبيعة المانوية أن تتدخل في غيرها من الأديان وتمتزج بها وتتحدى معها،
كي تمزق وحدتها من الداخل بما تبذره من أصول الخلاف والشقاق»⁽⁵⁾.

ويرى بعضهم أن جميع الحركات التي ظهرت بعد مقتل أبي مسلم
تعتبر تطورات لمبادئ مزدك مثل الخرمية، والمحمرة والسلمية⁽⁶⁾. وقد جاء
في دائرة المعارف الإسلامية، أن عمار بن يزيد، وهو أحد دعاة العباسيين،

(1) المعارف .382

(2) ينسبان أيضاً إلى (أبي نواس). محمد مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربي في القرن
الثاني الهجري. دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، ص 234. فيما بعد: هدارة .

(3) هدارة ص 44 وما بعد .

(4) أغاني 84/16 .

(5) شريف: الصراع بين الموالي والعرب. ص 54.

(6) عبد العزيز الدوري: العصر العباسى الأول. نشر دار المعلمين الالية، بغداد، 1945،
ص 84. فيما بعد: الدوري العصر العباسى الأول .

اعتنق عقائد الخرمية وجاهر بآراء بعيدة عن الدين والخلق⁽¹⁾.

ولكن الزنادقة لم يكونوا جميعاً من الأعاجم، وما كانت الزنادقة قط نوعاً واحداً، بل هي دينية، فكرية، سياسية، واجتماعية. وأول الشعراء الذين يتهمن بالزنادقة - عصربني أمية - الوليد بن يزيد، الخليفة الأموي⁽²⁾، الذي ينكر الحساب والبعث وشكك بالقرآن بقوله:

تذكرنني الحساب ولستُ أدرى أحقاً ما تقولُ مِنَ الحساب
فقلْ لَهُ يَمْنَعْنِي طَعَامِي وَقُلْ لَهُ يَمْنَعْنِي شَرَابِي⁽³⁾
فمن هذا القول ومن أقوال أخرى للوليد، ولغيره ... يتبيّن لنا أن هناك زنادقة نشأت عقידتهم على تمجيد العقل الإنساني وطلب الحرية في كل أفعال الإنسان ونزاعاته. ولهذا يقبل الوليد وغيره على شرب الخمر واستباحة المحرمات، ويهجر الدين وفرائضه، وحين يشعر بحرি�ته، يحاول تقويض الإيمان بإنكار عناصره الأساسية، ثم تزين له حرি�ته قوته وسلطانه كفرد فينكر الألوهية.

وما المجنون والاستهتار والشك والحرية إلا ضرب من ضروب الزنادقة الفكرية التي تهدف إلى تحرر الإرادة الإنسانية من كل قيد، ويمكننا أن نلمع عناصر من هذه الزنادقة الفكرية لمطيع بن إياس يتغزل فيها ويقول لمحبوبته:

قَبَّلِينِي سُعَادُ بِاللَّهِ قُبْلَةٌ وَاسْأَلِينِي لَهَا فَدَيْتُكَ نِخْلَةٌ
فَوَرَبَّ السَّمَاءِ لَوْ قُلْتِ لِي صَلٌّ لِوَجْهِي جَعَلْتُكَ الدَّهْرَ قِبْلَةٌ⁽⁴⁾
فمثل هذا الغزل الرقيق، الإباحي بعض الشيء، يلام عليه قائله ويتهم بالظرف والخلاعة والمجنون والزنادقة⁽⁵⁾، وهو ليس بكثير إذا ما قورن

(1) دائرة المعارف الإسلامية: الترجمة العربية: مادة عمار بن يزيد .

(2) أغاني 2/7 .3 .

(3) أمالي المرتضى: 1/130 دار الكتاب العربي .

(4) أغاني 13/85. طبعة دار الكتب المصرية .

(5) المصدر السابق 12/85 طبعة بولاق .

بالغزل في كل أعصر التاريخ عندما نرى العاشق الولهان ينادي حبيبته
بالقول: يا حياتي! يا معبودتي! يا محراب صلاتي!

ولكن هناك من اتبع هواه العرقي من جهة والديني من جهة ثانية،
بالإضافة إلى المذاهب الكثيرة والطوائف والفرق المختلفة في كل دين من
الأديان، وقد انبرى أفراد هذه الأجناس البشرية وهذه الأديان وما تفرع
عنها من فرق وطوائف ومذاهب، يدافعون عن الجنس والمعتقد ويقدّفون
خصومهم الآخرين بكل الاتهامات ... والذي نراه من كل ما تقدم أن
أهداف الزنادقة لم يكن كله المروق من الدين، بل التحرر من قيوده ليتاح
لصاحب فعل ما يريد والعيش كما يهوى.

ويبدو أن أهداف الزنادقة كثيرة ومتشعبة، منها ما أشرنا إليه وهو
إعادة انتشار وإحياء المبادئ الدينية القديمة، وبخاصة عند الفرس الذين
هالهم انتصار الدين الجديد، وهيمته، ويسطّنفوذ أتباعه على مراقب الحياة
في كل الأمكنة التي أخضعتها الخلافة لنفوذها.

ويبدو أيضاً أن نشر هذه المبادئ وترويجها كان من أسس برنامج
الحزب الموالي. وأخطر هذه المبادئ في رأي الباحثين هي تعاليم مزدك
وماني.

وكانت مبادئ هذه الدعوات تتم في مبدأ الأمر، بصورة خفية، ثم
أصبحت سياستهم علنية، بعد مقتل أبي مسلم الخراساني، ظهرت حركة
زنديقة متأثرة بصورة رئيسية بالأعلام، ومتشحة بثوب إسلامي. من مبادئ
الديانات القديمة التي عادت لتطل برأسها بعد موات محظوظ.

الراوندية: وأساس دعوتها تناسخ الأرواح وأصولها من بلاد الهند.

المقنعة: وهي تقول بأن الله خلق آدم، فتحول في صورته، ثم في
صورة نوح وبالتالي والتواتر إلى أبي مسلم الخراساني، ثم حركات كثيرة

كالخرمية، والمحمرة والمسلمية⁽¹⁾، وجميعها تدعو إلى الانتقام من قتلة أبي مسلم، ذلك الانتقام الرهيب، العنصري الأساسي، والمذهبي النشأة والذي يفرز الانحلال والزنقة في المجتمع العربي الإسلامي. وخصوصاً أن أتباع أبي مسلم اعتبروه أحد خلفاء زرادشت، وانتظروا إيايه، فيملاً الأرض عدلاً ويعيد للمجوس مجدهم، ويزيل ملك العرب⁽²⁾.

ومن المرجح أن الزنادقة شجعوا انتشار المانوية في مناطق ما وراء النهر، لضعفوا الإسلام، ويعيدوا مجد المجوس الضائع⁽³⁾.

إن كثيراً من فرق الرافضة⁽⁴⁾، ضلوا وغروا وأشركوا بالله، فقال فيهم السيد الحميري:

قُومٌ غَلَوْا فِي عَلَيٍّ لَا أَبَا لَهُمْ وَاجْشَمُوا أَنفُسًا فِي حُبِّهِ تَعَبَا⁽⁵⁾
قَالُوا هُوَ اللَّهُ، جَلَّ اللَّهُ خَالقُنَا عن أَنْ يَكُونَ أَبُوكُونَ أَبَا⁽⁶⁾
وَبَعْضُهُمْ كَفَرُوا بِالْقِيَامَةِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ⁽⁶⁾، وَآخَرُونَ آمَنُوا بِرَجْعَةِ
الْأَمْوَاتِ إِلَى الدِّينِ قَبْلَ الْقِيَامَةِ، وَشَاعِرُهُمْ يَقُولُ:

إِلَى يَوْمِ يَؤُوبُ النَّاسُ فِيهِ إِلَى دُنْيَا هُمْ قَبْلَ الْحِسَابِ⁽⁷⁾
وَرِبِّما ذَهَبَ الشَّعُوبِيُّونَ الْمُتَعَصِّبُونَ وَأَكْثَرُ الْمَوَالِيِّ إِلَى حِرَكَاتِ
التَّطْرُفِ، لَأَنَّهُمْ رَأَوْا فِيهَا سَتَارًا يَحْقِقُ مَا خَبَئَ فِي نُفُوسِهِمْ مِنَ الْحَقْدِ عَلَى
الدِّينِ الْجَدِيدِ، وَالْكِيدُ لَهُ وَمَحَاوِلَةُ إِسْقَاطِ دُولَتِهِ، وَإِزَالَةُ سُلْطَانِهِ.

(1) هداية، ص 236.

(2) المصدر نفسه.

(3) ابن النديم، الفهرست، ص 472.

(4) مثل البيانية، والحربية، والبزيقية (الفرق بين الفرق) لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي. نشر السيد عزت العطار الحسيني، القاهرة 1948، ص 145.

(5) الخياط: أبو الحسين عبد الرحيم. الانتصار، نشر لجنة للتأليف والترجمة. القاهرة 1914 ص 148.

(6) فرقة المنصورية. الفرق بين الفرق، ص 145.

(7) المصدر نفسه، ص 37.

والزنادقة ما كانوا رواضاً وشعبيين وحسب، بل كانوا أنواعاً كثيرة، لهم دافع مختلفة وأهداف وغايات متشعبة، منها الديني، ومنها السياسي، وأصحاب هذا الرأي وجدوا في الزنادقة تراثاً قومياً يجب الحرص عليه والدفاع عنه. ومنها دافع أكثر أهمية بالنسبة إلى بحثنا، هو الدافع الحضاري الفكري، ومن دان بهذا المبدأ اتخد الزنادقة وسيلة من وسائل العبث الفكري، فشكك، ورمى من وراء ذلك إلى الاستهثار بعقائد الناس⁽¹⁾.

ويمكننا أن نصل من خلال هؤلاء إلى طائفة أخرى، كانت زندقتها تظفراً وحسن منادمة، وسمة من سمات الرقي الثقافي والاجتماعي.

ولكن طوائف الزنادقة تداخلت فيما بينها، ولا يمكن تحديدها تحديداً دقيقاً ولا الفصل بين أنواعها وطبقاتها .. فقد يكون الزنديق، زنديق دين وسياسة، وظرف ومجون، وقد يكون زنديق تيار واحد. وربما كان الزنديق إنساناً عادياً، أو شاعراً، أو كاتباً، أو أميراً، وحتى خليفة⁽²⁾، ولكل واحد منهم هدفه وغايته. ومن هذه الأهداف والغايات إذا قرأنا شعر الوليد بن يزيد:

يُذكِّرني الحسابَ ولستُ أدرِي أحقاً ما يقول عن الحساب⁽³⁾
 فهو ينكر البعث والنشور، وينكر نزول القرآن وما جاء فيه من أخبار
عن الآخرة، ويقول:

إذا مثُ يا أمَّ الْحُنَيْكِلِ فانكحي
فإنَّ الَّذِي حُدُثْتِه مِن لِقَائِنَا
ولا تأملِي بَعْدِ الفِراقِ تلاقياً
أحاديثُ طَسْمٍ تركَ العَقْلَ واهِيَا⁽⁴⁾

ونرى هذا الخليفة يتجرأ، وينكر القدرة الإلهية، ويشك، ويمجن،

(1) من تاريخ الإلحاد في الإسلام، ص 33.

(2) المصدر نفسه، ص 34.

(3) أمالى المرتضى: 1/90.

(4) كرد علي: محمد: رسائل البلغاء. مطبعة لجنة الترجمة والنشر. القاهرة 1946، ص 260.

ويستهتر بأمور الدين، ويجهل بارتکاب الموبقات، فيقول:

اسقیانی وابن حربُ واسْتَرَانَا بِإِزَارٍ
واترکا من طلب الجنَّةَ يَسْعى فِي حسَارٍ
سأَسُوسُ النَّاسَ حَتَّى يَرْكِبُوا دِينَ الْحَمَارِ⁽¹⁾

ولربما كان هدف هذا الخليفة الماجن، العايث بعقائد الناس، أن يلزم البشر باللادين حتى يتساووا معه في الخروج عن الإيمان والعقيدة.

وربما أيضاً، كان يرمي من وراء زندقته للوصول إلى نزعـة التـنـوير، التي تقوم على تمجيد العقل الإنساني، وطلب الحرية المطلقة في كل أفعال الإنسان.

ولهذا يقبل الوليد وأمثاله على استباحة المحرمات، وهجر فرائض الدين، ومحاولة خرق عناصره الرئيسية، كالبعث والحساب، والوحى والقرآن والنبوة. ويحاول ومن معه تشكيك الناس، للمساواة فقط.

وما دمنا نتكلـم عن نزعـة التـنـوير التي تريد تحرـر الإرادـة الإنسـانية، المطلـقة، فنسـمع مطـيعـاً بن إـيـاس يقول:

إِخْلُقْ عَذَارَكِ فِي الْهُوَى وَاشْرَبْ مَعْتَقَةَ الدُّنَانِ
وَصِلِّ الْقَبِيَحَ مَجَاهِرًا فَالْعِيشُ فِي وَصْلِ الْقِيَانِ
لَا يُلْهِيَنَّكَ غَيْرُ مَا تَهْوِي فِيَّ الْعُمَرُ فَانِ⁽²⁾

ومن أهداف الزندقة والزنادقة، إياحة النساء، وقد يفهم ذلك من هجاء بشار للشاعر حماد عجرد حين مات صديق له اسمه حرـبـ كان على مذهبـهـ، بـقولـهـ:

(1) أمالى المرتضى 1/89

(2) فون جرونباوم (جوستاف) تحقيق: شعراء عباسيون (مطـيعـ - سـلمـ الخـاـسـ - أبو الشـمـقـ). دار مكتبة الحياة، بيـرـوتـ 1959 مـ، صـ 76.

بكم حُرِيَّتْ فوْقَزْ بتعزيَّةْ مات ابن نُهْيَ وقد كانا شريكيَّنْ
تفاوضاً حين شابا في نسائهما وحَلَّا كل شيء بين رجلين
أمسى حُرِيَّتْ بما أسدى له غَيْرَا كراكب اثنين يرجو قوَّة اثنين⁽¹⁾
ويبدو أنه كان من أهدافهم أيضاً الدعوة إلى التعلق بتراث الفرس
والتعني به في جميع مظاهره، وهذا أمر ينطبق على دعوة الشعوبية، وإحياء
أمجاد الأعاجم بعد أن دالت دولتهم.

ومما سعوا إليه، ربما، هو مذهب العرض والإظهار، للفت النظر
ولنسمع ما يقال عن أبي نواس في هذا المضمار: «كان يتزندق لأنَّه كان
يتفلسف، وقد اطلع على النجوم وعلوم الأوائل من الهند والروم، فزاغ عن
اليقين ومرق عن الدين»⁽²⁾ والمتبصر بأمر ما يرى، أن زندقة أبي نواس
تشمل الزندقة الاجتماعية والفكرية في آن. ولذلك فإنَّ الهدف من زندقته هو
الفلسفات وعلم الكلام، يقول ابن منظور في ذلك: «واشتهر علم الكلام،
فقد إلى أصحابه، فتعلم منهم شيئاً من الكلام، ثم دعاه ذلك إلى
الزندقة»⁽³⁾.

وخلالمة الكلام أنَّ أهداف الزنادقة كانت كثيرة ومتنوعة ويبدو أنه
يلزمها بحث باحث كامل، للإحاطة بمجاميعها، والاطلاع على معانيها.

(1) تاريخ بغداد: البغدادي (الحافظ أبو بكر محمد بن علي الخطيب) مطبعة السعادة ، القاهرة ج 8، ص 148. 1931

(2) العقاد: عباس محمود. أبو نواس. نشر مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة 1957. ص 47.

(3) أخبار أبي نواس: (أبو هفان بن عبد الله المهزمي) مكتبة مصر 1953م، ج 1، ص 6.

الفصل الثالث

مراحل الزندقة وأنواعها

القسم الأول

أولاً: زندقة العصر الجاهلي

بعد أن رأينا فيما تقدم دلالات كلمة زندقة⁽¹⁾، وما عنته للكتاب في مختلف الأعصر، نستطيع أن نبدأ ببحثنا عنها منذ ما قبل الإسلام. يحدثنا أبو الوليد الأزرقي عن قبيلة جرهم وولايتها على البيت الحرام، وظلم هذه القبيلة وفجورها والحادها، وقيام رجل واعظ فيهم⁽²⁾، يقول: «يا قوم أبقوا على أنفسكم وراقبوا الله في حرمته، وتواصلوه، وتواصوا بالمعروف وانتهوا عن المنكر، ولا تستخفوا بحرم الله تعالى وببيته الحرام، وإياسكم والإلحاد فيه بالظلم فإنه بوار وأيم الله، واحذروا البغي، وتنزهوا عنه ...»⁽³⁾.

فإذا ما كانت الزندقة خروجاً عن القيم والأخلاق، والاستخفاف بالمحرمات ونكران أصولها، فيكون هذا الوعاظ قد أشار إلى زندقة في جرهم⁽⁴⁾ من دون أن يسميها.

(1) راجع الفصل الثاني، القسم الأول ص 43.

(2) هو مضاض بن الحارث ... بن عمرو. أخبار مكة. ص 90.

(3) أخبار مكة ، ص .91.

(4) قبيلة خرجت من اليمن واستقرت في مكة. المصدر نفسه ، ص 85.

ويحدثنا ابن الأثير عن ملوك كندة، وعلى الأخص، الحارت الكندي الذي استجاب إلى دعوة قباد ملك الفرس للدخول في مذهب مزدك وزندقته، بعد أن امتنع المنذر بن ماء السماء⁽¹⁾ عن الدخول في هذا المذهب، فيعزل العاهل الفارسي المنذر عن كرسي الملك ويستعيض عنه بالحارت الكندي مكافأة له⁽²⁾، ثم ينتشر بعد ذلك ولده فيملكون على بكر وتميم وقيس وتغلب وأسد⁽³⁾. وبما أن الحارت الكندي قد دخل في مذهب مزدك⁽⁴⁾ وملك على الحيرة وهي من أكبر ممالك العرب في الشمال، عصر ما قبل الإسلام، فربما يكون قد أثر على مذهب أهل المملكة وعلى ولده الذين حكموا قبائل عربية كثيرة وبدورهم أثروا هم أيضاً. وانتقل هذا التأثير إلى باقي العرب عن طريق الهجرات والاتصالات الدائمة.

وربما تكون هذه الزندقة أيضاً قد وصلت إلى قبيلة قريش عن طريق الحيرة، فاعتقد بعضهم بالنور والظلمة⁽⁵⁾. وبعضهم اعتقاد بدوام الدهر وبقائه، ولم يؤمن بالأخرة⁽⁶⁾. وقد ذكر محمد بن حبيب أسماء كثيرة لزنادقة قريش⁽⁷⁾.

وإذا رجعنا إلى معاني الزندقة اصطلاحاً، نرى كثيراً من عرب الجاهلية يسيرون في خط الزندقة. فمن القائل بمذهب الدهرية وإنكار الخالق وجحد البعث⁽⁸⁾، إلى المعترف والمقر بالخالق ولكنه منكر للرسل ويوم الحساب. ومن القائل بأن الملائكة بنيات الله، إلى المؤمن بيوم الحساب كما في قول زهير بن أبي سلمى:

(1) ملك الحيرة .

(2) ابن الأثير (الكامل في التاريخ)، 1 / 243.

(3) المصدر نفسه. 1 / 305.

(4) الكثيرون اعتبروا هذا المذهب زندقة .

(5) راجع في ذلك. المعارف ص 621. واللسان 10 / 147 مادة زنديق. والبدء والتاريخ 4 / 31. وبلوغ الأربع 2 / 228.

(6) راجع البحث ص 57 وانظر تلبيس إيليس ص 63.

(7) الم Berger ص 161. راجع أسماء هؤلاء الزنادقة بالبحث صفحة 57.

(8) تلبيس إيليس، ص 63.

يُؤَخِّرُ فِي وُضُعْ فِي كِتَابٍ فَيُدْخِلُهُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعَجِّلُ فِي نَقْمِ⁽¹⁾
وَالَّذِي غَيْرُ الْمُؤْمِنِ بِيَوْمِ الْحِسَابِ⁽²⁾. وَمِنْهُمْ مَنْ يُوحِدُ اللَّهَ وَيَتَوَسَّطُ
الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ كَشْفَعَاهُ عَنْهُ⁽³⁾، إِلَى مَنْ يُؤْمِنُ بِالتَّنَاسُخِ⁽⁴⁾.

وهكذا نرى علامات وإشارات تدل على وجود الزندقة في العصر الجاهلي من حيث معناها ودلالتها من دون أن نعثر على وجود لكلمة زندقة في الأدب الجاهلي. وربما تكون هذه الكلمة قد عربت ودخلت دنيا العرب فيما بعد الإسلام من حيث اللفظ. ولكنها في جوهرها وحسبما فهمها الباحثون والكتاب وأشاروا إلى معانيها المختلفة موجودة دون شك في الجahلية.

ثانياً: الزندقة في صدر الإسلام

إن الزندقة التي كانت في الجahلية لم تختفِ بظهور الإسلام، فقد توالت في بدايته وبعد ظهوره، حيث تستر بعضهم بهذا الدين وألجمهم خوف القتل إلى الخفية، وجاهر البعض الآخر بما يعتقد كلما سُنحت له الفرصة. يقول الشريف المرتضى: «وَكَمَا أَنَّهُ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَقَبْلِ الْإِسْلَامِ وَفِي ابْتِدَائِهِ قَوْمٌ يَقُولُونَ بِالْدَّهَرِ، وَيَنْفُونَ الصَّانِعَ، وَآخَرُونَ مُشْرِكُونَ، يَعْبُدُونَ غَيْرَ حَالَقَمِ، وَيَسْتَنْزَلُونَ الرِّزْقَ مِنْ غَيْرِ رَازِقِهِمْ، ... فَقَدْ نَشَأَ بَعْدَ هُزُلَاءِ جَمَاعَةٍ مَّنْ يَتَسْتَرُ بِإِظْهَارِ الْإِسْلَامِ، وَيَحْقِنُ، بِإِظْهَارِ شَعَارِهِ وَالْمَدْخُولِ فِي جَمْلَةِ أَهْلِهِ، دَمِهِ وَمَالِهِ، زَنَادِقَ مُلْحَدِوْنَ، وَكُفَّارَ مُشْرِكُوْنَ، فَمَنْعَمُهُمْ عَزِيزٌ الْإِسْلَامُ عَنِ الْمَظَاهِرِ وَالْمَجَاهِرِ، وَالْجَاهِلُونَ خَوْفُ الْقَتْلِ إِلَى الْمَسَاطِرِ ... إِنَّهُمْ يَدْعَلُونَ فِي الدِّينِ، وَيَمْهُوْنَ عَلَى الْمُسْتَضْعِفِينَ»⁽⁵⁾.

(1) راجع المعلقات السبع، ص. 111.

(2) راجع هامش رقم (1) ص .58.

(3) الأصنام ص 17 والبحث ص 50 - 51.

(4) تليس أبييس، ص. 80.

(5) أمالى المرتضى 1/ 127.

ومن كلام الشريف المرتضى يتبيّن لنا أن الزنادقة الملحدين كانوا في الجاهلية وفي ابتداء الإسلام، ويؤمنون بالدهر، فهم (الدهرية) الذين أشير إليهم في القرآن الكريم: «وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا، نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر»⁽¹⁾. وبقي هذا المعتقد راسخاً في نفوس كثير من أدرك الإسلام وأسلم، حيث نراهم يسبون الدهر إذا ما أصيّبوا بمكروه. ولهذا جاء الحديث الشريف ينهاهم عن ذلك بقوله: «لا تسبوا الدهر، فإن الله الدهر». وقوله: «يؤذني ابن آدم، يسب الدهر الدهر، وإنما أنا الدهر: أقلب الليل والنهار»⁽²⁾.

كما يتبيّن لنا أنه نشأ بعد هؤلاء جماعة يظهرون الإسلام ويبطئون الكفر، خوفاً من القتل ... وربما كان الكفر على أنواع مختلفة، منها المجنون والهباء، ومجالسة الغلمان وغير ذلك. فإذا رحنا نتبين سياسة (عمر بن الخطاب) الداخلية، نراه حريصاً على الآداب الإسلامية، كارها للتقاليد الجاهلية من عصبيات وأهاج وصياح بالشعر في الغزل أو الخمريات ونحوها، لا يلين في القسوة على متاحليها مهما تكون منزلتهم، فقد حبس الحطيثة لهجائه الزيرقان بن بدر، فاستعطفه الشاعر بأبياته المشهورة:

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ زُغب الحواصل لا ماء ولا شجر
 القيت كاسبُهم في قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر⁽³⁾
 فغر عمر ونهاه عن الهباء واشتري منه أعراض الناس بثلاثة آلاف
 درهم، فقال الحطيثة:

وأخذت أطراف الكلام فلم تدع شتماً يضر ولا مدحياً ينفع
 وحميَّتنِي عرضَ اللثيم فلم يَحْفَ ذمَّي وأصبحَ آمناً لا يُفرز⁽⁴⁾

(1) سورة الجاثية. آية 24.

(2) اللسان مادة (دهر) تاج العروس مادة (دهر).

(3) أغاني 2/185 دار الكتب.

(4) المصدر السابق.

وقد عد بعضهم الهجاء إشراكاً، والإشراك زنقة، وهذا ما بينه الشاعر كعب بن جعيل التغلبي، في رفضه الرد على عبد الرحمن بن حسان بن ثابت عندما تعرض لبني أمية ونسائهم بهجائه اللاذع وتغزله برملاة بنت معاوية، إن كعباً هذا يرفض طلب يزيد أخي رملة بقوله:

«أرادِي أنت إلى الإشراك بعد الإيمان»⁽¹⁾.

ولما قال أبو محجن الثقفي :

إذا مُتْ فادفَنَّى إلَى أَصْلِ كَرْمَةٍ تُرْوَى عَظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عَرَوْفَهَا
وَلَا تَدْفَنَّى فِي الْفَلَّةِ فَإِنِّي أَخَافُ إِذَا مُتْ أَلَا أَذْوَفُهَا
جَلْدِهِ عَمْرٌ وَنَفَاهُ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَكَانَ عَمْرٌ قَدْ اسْتَعْمَلَ النَّعْمَانَ بْنَ عَدِيَّ
بْنَ نَضْلَةَ عَلَى مِيسَانَ، وَكَانَ هَذَا شَاعِرًا، فَقَالَ:

مِنْ مُبْلِغِ الْحَسَنَاءِ أَنْ حَلِيلَهَا بِمِيسَانَ يُسْقَى فِي زَجاجٍ وَحْشَيْمٍ
فَإِنْ كُنْتَ نَدْمَانِي فِي الْأَكْبَرِ اسْتَقْنِي وَلَا تَسْقِنِي بِالْأَصْغَرِ الْمُتَثَلِّمِ
لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسْوَءُهُ تَنَادُّ مَنَا فِي الْجَوْسِقِ الْمُتَهَدِّمِ
وَلَمَا سَمِعَ عَمْرٌ قَوْلَهُ، سَاءَهُ ذَلِكُ، وَعَزَّلَهُ، فَقَدِمَ عَلَى عَمْرٍ فَقَالَ: وَاللهِ
مَا صَنَعْتَ شَيْئاً مَا قَلْتَ، وَلَكِنْ كُنْتَ امْرَأَ شَاعِرًا وَجَدْتَ فَضْلًا مِنْ قَوْلٍ
فَقَلْتَ فِيهِ الشِّعْرُ، فَقَالَ عَمْرٌ: وَاللهِ لَا تَعْمَلْ لِي عَلَى عَمَلٍ مَا بَقِيَتْ وَقَدْ
قَلْتَ مَا قَلْتَ⁽²⁾.

ويستوقفنا البحث هنا على نقطة هامة في مسار الشعر العربي في كل أعمصه حيث نرى الشاعر يقول ما لا يفعل، وربما يقسم بما لا يؤمن به. لموقف ما أو ظرف آني يصادفه، يتلون تلون الحرباء، ثم يعود إلى طبيعته بعد تحقيق الهدف. أنشد الفرزدق لسليمان بن عبد الملك القصيدة التي يقول فيها:

(1) شوقي ضيف (التطور والتجدد) ص 133.

(2) الشايب (تاريخ الشعر السياسي)، ص 147. حشم: جرار لونها أحمر.

ثلاث واثنتان فهُنَّ خمْسٌ وسادسة تميلُ إلى شَمَاء
فِيَّشَنْ بِجَانِبِيَّ مَصْرَعَاتٍ وبِئْ أَفْضُلْ أَغْلَاقِ الْخِتَامِ
كَانَ مَفَالِقَ الرَّمَانَ⁽¹⁾

فيقول سليمان: أقررت عندي بالزنا يا فرزدق وأنا إمام، ولا بد لي من إقامة الحد عليك بما أوجبه كتاب الله. فيجيب الفرزدق: إن كتاب الله يدرأ عنّي بقوله: «والشعراً يتبعهم الغاون، ألم تر أنهم في كلّ واحد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون»⁽²⁾ ويتابع الفرزدق: فأنا قلت ما لم أفعل⁽³⁾.

وما دمنا في ذكر الخمرة والخمرة باب تلجه الزندقة، فقد كان الوليد بن عقبة، والي عثمان على الكوفة، يشرب مع ندامه ومحنيه حتى الصباح، وصلى الناس الصبح أربعة وأفسد الصلاة، وقد دخل قصره يتزاح ثملاً ويتمثل بأبيات لـ«تأبط شرًا»:

ولست بعيداً عن مُدَامٍ وَقِينَةٍ ولا بصفها صَلَدٌ عن الخير معزِّي ولكنني أروي من الخمر هامتي وأمشي المَلَا بالساحب المتسلسل
وفي ذلك يقول الحطيئة:

أنَ الْوَلِيدَ أَحَقُّ بِالْعُذْرِ
الْبِزْدُوكُمْ؟ ثُمَّلَا وَلَا يَدْرِي
خَلُوا عَنَّاكَ لَمْ تَزُلْ تَجْرِي⁽⁴⁾
شهد الحطيئة يوم يلقى ربه
نادي وقد تَمَّتْ صلاتُهم
حبسو عَنَّاكَ فِي الصَّلَاةِ وَلَوْ

واسْتَقْدَمَ الْوَلِيدُ بْنُ عَقْبَةَ لِلْمَثُولِ فِي حُضُورِ الْخَلِيفَةِ، فَيَقِيمُ عَلَيْهِ بْنُ أَبِي طَالِبٍ⁽⁵⁾ الحد عليه.

(1) عيون الأخبار 4/1047 والسطر الثالث فيه كلمات لاذعة فاحشة يعجبها الذوق ...

(2) سورة الشعرا، آية 124 - 126.

(3) عيون الأخبار 4/107.

(4) مروج الذهب 2/344.

(5) المصدر السابق .

إن الغزل الإباحي وشرب الخمرة كفر وزندقة، كما أسلفنا، فكيف بمحالسة الغلمان، التي كانت في الجاهلية وبقيت في بدء الإسلام وتواترت بعد ذلك. وقد نهى عنها (الرسول) في أحاديثه، عن أنس قال: قال (رسول الله): «لا تجالسوا أبناء الملوك فإن النفوس تشتاق إليهم ما لا تشتاق إلى الجواري العواتق» وعن أبي هريرة عن الرسول، قال: «لا تملأوا أعينكم من أولاد الملوك فإن لهم فتنة أشد من فتنة العذارى»⁽¹⁾.

وفي قصة وفد (عبد قيس) على (الرسول)، ومعهم غلام أمرد ... وقد أجلسه الرسول وراءه⁽²⁾، ما يدل على أن محالسة الغلمان قد بقيت متواترة. وسنرى في فصل المجون لاحقاً مدى انكباب الشعراء الماجنين على التغزل بالغلمان. وقد عد ذلك زندقة زمن بنى العباس. فلم لا يكون كذلك في صدر الإسلام وعصر بنى أمية؟

أما الرقص والغناء ببدعة وكفر في رأي بعضهم. يقول أبو الوفاء ابن عقيل: قد نص القرآن على النهي عن الرقص بقوله: «لَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرُقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجَبَالَ طُولًا»⁽³⁾.

وكلذلك الخشوع الزائد، فقد عد نفاقاً. روي عن عمر بن الخطاب أنه نظر إلى شاب قد نكس رأسه، فقال له: «يا هذا ارفع رأسك فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب، فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما في قلبه فإنما أظهر نفاقاً على نفاق»⁽⁴⁾.

هذا على زمن الرسول والخلفاء الراشدين. فكيف كانت الحال زمن بنى أمية؟!

(1) تلبيس إيليس، ص 274.

(2) المصدر السابق .

(3) سورة الإسراء آية 37.

(4) ابن الجوزي: تلبيس إيليس ص 291.

ثالثاً: الزندقة في العصر الأموي

إن ما رأيناه في التحدث عن جذور الزندقة في صدر الإسلام و زمن بنى أمية، يظهر أن بعض الخلفاء المتأخرين من بنى أمية⁽¹⁾ ، كانوا يعتقدون بالزندقة تأثراً بمؤديهم⁽²⁾ وحتى يصل هذا المعتقد إلى الخليفة، وهو رأس الهرم في مركبة الدولة وهيكليتها، فلا بد أن يكون قد انتشر بين الناس وأخذ مداه إلى أبعد الحدود. وخير الأمثلة في هذا المقام، يزيد بن عبد الملك الذي وصفه أبو حمزة الخارجي في خطبة له، فقال: «إنه يشرب الخمر، ويلبس الحلة قُوّمت بألف دينار ... حباة عن يمينه، وسلامة عن يساره، تغشاه حتى إذا أخذ الشراب منه كل مأخذ قد ثوبه، ثم التفت إلى إحداهما، فقال: ألا أطير»⁽³⁾. كما وصف يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بقوله: «يزيد الخمور، ويزيد القرود، ويزيد الفهود، الفاسق في بطنه، المأبون في فرجه»⁽⁴⁾.

أما الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وقد كان أبوه⁽⁵⁾ ، يشرب الخمر ويستقدم المغنين من العجاز⁽⁶⁾ ، وما أن يغشه (معبد) صوتاً حتى يستخنه الطرب ويشب من مكانه أمراً جواريه أن يفعلن كما يفعل، وجعل يدور في الدار وهو يقول:

يَا دَارَ دُورِي نَـيْ يَا قَرْقَرَ امْسَكِينِي
ولم يزل يدور حتى خر مغشياً عليه ووقعن فوقه، ما يعقل ولا

(1) كالوليد بن يزيد ومروان بن محمد.

(2) أنظر الهاشم رقم 1 و 2 ص 59 البحث.

(3) الجاحظ: البيان والتبيين (1 - 3) ص 276.

(4) المصدر السابق. والمأبون في فرجه المتهم في عرضه.

(5) كما يصفه الخارجي أعلاه.

(6) أمثال (ابن سريج، ومعبد، ومالك الطاني، وابن عائشة، وابن أبي لهب) شوقى ضيف: (التطور والتجدد)، ص 292.

يعقلن⁽¹⁾، لقد شب الوليد بن يزيد، بين هذه المعاذف وما يتصل بها من لهو وخمر وقيان، فلا غرو، بعد هذا أن يعيش حياة الترف بأبعد حدودها، ويصادف أن يسلمه أبوه إلى مؤدب يسمى عبد الصمد بن عبد الأعلى، وكان فيه مجون وزندقة⁽²⁾. وهكذا اجتمعت بيتة بيته ومعلمه على توجيهه في سلوكه توجيهاً لاهياً ماجناً.

ويحاول عمه هشام إصلاح سيرته فيفشل فيوليه إماراة الحج سنة مائة وست عشرة ليظهر مجنونه بالحرمين فيسقط، فيحج الوليد ويحمل معه كلاباً في صناديق ويتشاغل بالمعنفين والشراب، ... فيكتب إليه هشام يعنفه ويسأله على أي دين هو، فيجيب:

يا أيها السائل عن ديننا نحن على دين أبي شاكر
نشربها صرفاً وممزوجةً بالسخن أحياناً وبالفاتر⁽³⁾
وكان أبو شاكر قد قسم أموالاً بمكة والمدينة عندما ولاه هشام إماراة
الحج. فقال مولى لأهل المدينة يرد على الوليد:

يا أيها السائل عن ديننا نحن على دين أبي شاكر
الواهِبُ الْجُزَءَ بِأَرْسَانِهَا لِيُسْ بِزَنْدِيقٍ وَلَا كَافِرٍ⁽⁴⁾
ويموت عمه هشام لحسن حظه فيجمع ندماءه ليشرب معهم نخب
الخبر، وهو يقول:

طاب يومي ولذ شربُ السلافةَ
إذ أتاني نعيٌ مَن بالرصافةَ
وأتانا البريد ينعي هشاماً
فاصطبخنا من خمر عانة صرفاً
ولهؤُنَا بِقَنِينَةٍ عَزَافَةٍ⁽⁵⁾

(1) أغاني 1/23.

(2) المصدر السابق 6/101.

(3) أبو شاكر لقب «مسلمة» الذي كان يرشحه هشام للخلافة، ومشهور بالنسك والوقار والليل. تاريخ الطبرى 4/1742.

(4) المصدر السابق، والجرد: جمع أجرد: الفرس الجواد القصیر الشعراً. أغاني 6/109.

(5) أغاني 6/109.

ثم ينتقل إلى قصر الخلافة فيحوله إلى مقصف للخمر والعزف والغناء، ويجمع في بلاطه الظرفاء والماجنيين والمغنيين والندياء والمضحكيين⁽¹⁾. ضارباً بالدين وبشرائعه المستوحاة من القرآن عرض الحائط، يفلسف القرآن بفلسفته فيقول:

لَيْتْ هَشَامًا عَاشَ حَتَّى يَرَى مَكِيلَهُ الْأَوْفَرَ قَدْ أَتَرَعَا
لَمْ نَأْتِ مَا نَأْتَيْهُ عَنْ بَدْعَةٍ أَحَلَّهُ الْقُرْآنُ لِي أَجْمَعًا⁽²⁾
وَيَقُولُ أَيْضًا:

أَشَهَدُ اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةَ الْأَبَرَّ
أَنِّي أَشْتَهِي السَّمَاعَ وَشُرَبَ الْمَلَاحَ
وَالنَّدِيمَ الْكَرِيمَ وَالْخَادِمَ الْفَارِ
بَرَارَ وَالْعَابِدِينَ أَهْلَ الصَّلَاحِ
كَأسِ وَالْعَضَّ لِلْخُدُودِ الْمَلَاحِ
رَهْ يَسْعَى عَلَيَّ بِالْأَقْدَاحِ⁽³⁾

وَاتَّهُمُ الْوَلِيدُ لِفَسْقِهِ بِالْكُفْرِ وَالْمَانُوَيْهِ، وَعَلَى الْأَخْصِ عِنْدَ تَحَامِلِهِ عَلَى
الدِّينِ وَعِنْدَمَا عَلَقَ الْمَصْحَفُ بِالْحَائِطِ، وَأَخْذَ الْقَوْسَ وَالْبَلَلِ، فَرْمَاهُ، حَتَّى
مَزْقَهُ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ أَنْ وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَى الْآيَةِ: «وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَارٍ
عِنْدَ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءِ صَدِيدِهِ»⁽⁴⁾.

أَثُوَرَ كُلُّ جَبَارٍ عَنِيدٍ فَهَا أَنَا ذَاكَ جَبَارٌ عَنِيدٌ
إِذَا لَاقِيتَ رَبِّكَ يَوْمَ حَشْرٍ فَقُلْ لِلَّهِ مَرْءُونِي الْوَلِيدُ⁽⁵⁾
وَيَرْوَى أَبُو الْفَرْجِ عَنِ الْعَلَاءِ الْبَنْدَارِ: أَنَّ الْوَلِيدَ كَانَ زَنْدِيقًا يَقُولُ
بِالثَّنْوِيَّةِ وَيُؤْمِنُ بِمَانِي وَيَعْدُمُ بَعْثَ أَنْيَاءَ لَا قَبْلَهُ، وَلَا بَعْدَهُ⁽⁶⁾.

وَمَا رُوِيَ عَنْهُ، أَنَّهُ هَامَ بِحُبِّ جَارِيَةِ نَصْرَانِيَّةٍ، وَتَقْشَفَ وَغَيْرُ حَلِيَّهُ

(1) انظر أسماءهم في الأغاني 3/76 طبعة ساسي. والأغاني 7/29 دار الكتب والأغاني 2/21 و 6/78 و 91.

(2) أغاني 6/109.

(3) المصدر السابق 6/112.

(4) سورة إبراهيم، آية 15 - 16.

(5) أغاني 6/125.

(6) المصدر نفسه 6/135.

ودخل بستانًا قرب الكنيسة ليراهَا في يوم عِيدٍ، وقال في ذلك:

صَبَا قَدِيمًا لِلْحَسَانِ صَبُودًا
مِنْ حُبٍّ وَاضْحَى الْعَوَارِضُ طَفْلَةً
بَرَزَتْ لَنَا نَحْنُ الْكَنِيْسَةُ عِبَادًا
مَا زَلَتْ ارْمُقْهَا بَعِينَيْنِي وَامْبِقْ
حَتَّى بَصَرْتُ بِهَا تَقْبِيلُ عَوْدَا!
عَوْدَ الصَّلِيبِ، فَوَيْحَ نَفْسِي، مِنْ رَأْيِ
مِنْكُمْ صَلِيبًا مِثْلَهُ مُعَبُودًا!
فَسَأَلْتُ رَبِّي أَنْ أَكُونَ مَكَانَهُ
وَأَكُونَ فِي لَهَبِ الْجَحِيمِ وُقُودًا⁽¹⁾

إِنَّهَا أَمْثَلَةُ لِمَرْوَقِ بَعْضِ الْخَلْفَاءِ، فِي عَصْرِ بَنِي أُمَيَّةَ، عَنْ إِيمَانِ
الْجَمَاعَةِ وَأَتَابُعُهُمْ هُوَ أَنْفُسُهُمْ بِحِيثِ تَرَكُوا العَنَانَ لَهَا لِتَوَغَّلُ فِي الشَّرِبِ
وَاللَّهُو وَالْمَجُونُ، فَيَرْمُونَ بِالْزَّنْدَقَةِ.

أَمَا عَامَةُ النَّاسِ وَمِنْهُمُ الْكِتَابُ وَالشِّعْرَاءُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ مُخْضَرِ مِيَّ
الْدُولَتَيْنِ - الْأُمُوْرِيَّةِ وَالْعَبَاسِيَّةِ - فَقَدْ كَثُرَ عَدْدُهُمْ. قَالَ عُمَرُ بْنُ بَحْرٍ
الْجَاحِظُ: «كَانَ مَنْقُذُ بْنُ زَيْدَ الْهَلَالِيُّ، وَمَطْعِيْعُ بْنُ إِيَّاَسَ، وَبِحَبِّيْنُ بْنُ زَيْدَ،
وَحَفْصُ بْنُ أَبِي وَدَةَ، قَاسِمُ بْنُ زَنْقَطَةَ، وَابْنُ الْمَقْفَعِ، وَبِيُونَسُ بْنُ أَبِي
فَرْوَةَ، وَعَلَيْ بْنُ الْخَلِيلِ، وَالْحَمَادُوْنَ الْثَّلَاثَةَ، وَوَالْبَةُ بْنُ الْحَبَابِ ... وَبِشَارُ
بْنُ بَرْدَ وَأَبَانُ الْلَّاحِقِيُّ، يَجْتَمِعُونَ عَلَى الشَّرِبِ وَقُولُ الشِّعْرِ، وَكُلُّ مِنْهُمْ
مِنْهُمْ فِي دِيَنِهِ»⁽²⁾.

وَالْزَّنْدَقَةُ مُتَفَشِّيَّةٌ وَمُعْرُوفَةٌ فِي عَصْرِ بَنِي أُمَيَّةَ. وَقَدْ جَاءَ عَلَى لِسَانِ
بِحَبِّي الدَّمْشِقِيِّ - عَمَلُهُ وَأَبُوهُ فِي قَصْرِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ - : فِي
دِفَاعِهِ عَنْ نَصْرَانِيَّتِهِ وَالرَّدِّ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ فِي أَمْرِ الْمَسِيْحِ: «الَّذِي يَقُولُ إِنَّ
اللهَ لَمْ تَكُنْ لَهُ كَلْمَةٌ وَلَا رُوحٌ فَهُوَ زَنْدِيقٌ بِنَظَرِ الْمُسْلِمِيْنَ»⁽³⁾.

وَمِنْ أَمْثَلَتْنَا عَلَى تَفْشِيِ الْزَّنْدَقَةِ وَشَيْوَعْهَا، زَمْنَ بَنِي أُمَيَّةَ، التَّصْرِيْحُ
الَّذِي أَدْلَى بِهِ الشَّاعِرُ الْكَبِيرُ، الْفَرَزِدقُ، فِي قَصِيْدَةِ يَهْجُو بِهَا إِبْلِيسَ، فَهُوَ

(1) أَمَالِيُّ الْمَرْتَضِيِّ / 1. 131.

(2) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ. سَتَكَلِّمُ عَنْ كُلِّ فَرَدٍ مِنْ هُؤُلَاءِ مُفْصَلًا فِيمَا بَعْدُ فِي بَابِ الْزَّنْدَقَةِ .

(3) أَحْمَدُ أَمِينٍ. ضَحْيَ الْإِسْلَامِ / 1. 343.

يعرف بكل صراحة أنه أطاع إيليس سبعين سنة من عمره، بقوله:

أطعْتُك يا إيليس سبعين حَجَّةَ فلما انتهى شيببي وتمَّ تمامٍ
فرَزَّتْ إلى ربِّي وأيَّقَّنْتُ أَنَّنِي مُلَاقٍ لأيَّامِ الْمَنْوَنِ حِمامِي⁽¹⁾
فهذا الشاعر المستهتر الفاسق، يعود إلى ربه بعد سبعين عاماً من
العهر والفحور، أليست هذه زندقة؟ ربما سماها بعضهم زندقة ظرف
ومجون واستهتار ...

أما الشاعر جرير، أحد ثلاثة الكبار⁽²⁾، فقد اعتبر خصوم بنى أمية
والثائرين عليهم خارجين عن الدين، مارقين منه، وقارن بين هؤلاء وبين
 القوم نوح وهو دمود، من مثل قوله في يزيد بن المهلب حين ثار وقتلته
الأمويون:⁽³⁾

آل المهلبِ فرَّطوا في دينهم وطَغَوْا كَمَا فَعَلْتُ ثَمُودُ فباروا
ولكن هذا الاتهام فيه نظر. فربما كان ذلك لدفاعه الشديد عن بنى
أمية منذ اتصاله بعبد الملك، وتحوله إلى داعية لهم في كل العالم
الإسلامي، وهو القائل في بنى مروان:⁽⁴⁾

يا آل مروان إن الله فَضَّلَّكُمْ فضلاً عظيماً على من دينه البدع
ونراه يغالى كثيراً في شعره ودعوته لبني أمية، فاسمعه يقول عندما
حاول سليمان أن يثبت ابنه أيوب في ولایة العهد:⁽⁵⁾
أنت الخليفة للرحمن يعرفه أهل الزبور وفي التوارية مكتوب
فهل أن هذا الكلام ينطبق على واقع الحال؟

(1) ديوان الفرزدق - مكتبة الثقاقة - بغداد، ص 260.

(2) هم الفرزدق وجرير والأخطل .

(3) ديوان جرير ص 219. دار الأندلس ، بيروت .

(4) الديوان ، ص 356. دار الأندلس ، بيروت .

(5) الديوان ص 35. دار الأندلس ، بيروت .

لا شك أنها مغalaة قصوى، فليس صحيحاً أن اسم أبوب بن سليمان الأموي قد ورد ذكره في التوراة والزبور، ولا اسم أبيه. ولكن الذي ورد في التوراة هو اسم سليمان الحكم والنبي أبوب.

ومن كل ما ورد نستخلص وجود زندقة متفشية بين الناس زمن بني أمية، اعتقدوها العام والخاص، وتدرجت في طبقات المجتمع من الموالي حتى الخليفة.

ومما يستلفت النظر أن عقاباً على الإلحاد والزنادقة قد وضع في هذا العصر، وإن كان قد تم في ظل الخلفاء الأمويين المتأخرین⁽¹⁾، ولا تستغرب مثل هذا العقاب في عصر عاش فيه الوليد بن يزيد ومطیع بن إیاس، وحماد عجرد ... وغيرهم، فلم يكن هذا العصر عصر إيمان ويقين في جملته إنما كان أيضاً عصر شك واستخفاف⁽²⁾.

القسم الثاني

الزنادقة في أوجها (العصر العباسي الأول)

زنادقة الفرق والأحزاب والدعاة

في القسم الثاني من الفصل الثاني تحدثنا عن الجذور التاريخية للزنادقة، وألمحنا إليها بإيجاز في العصر العباسي⁽³⁾.

ولما كان العصر العباسي الأول العصر الذهبي للزنادقة، فمن الواجب التوقف عنده، عسى أن نسبر غور هذه الحركة الدينية، الاجتماعية، والسياسية.

نادي الإسلام بهدم الفوارق العصبية القبلية، كما نادي بإزالة الفوارق

(1) دائرة المعارف الإسلامية، مادة «جهنم بن صفوان».

(2) طه حسين، حديث الأربعاء، لمجلد الثاني. دار الكتاب اللبناني، ص 470.

(3) انظر صفحة 68 وما بعد من البحث.

الجنسية. فلا عدناني ولا قحطاني، لا عربي ولا أعمجي. الجميع متساوون في الحقوق والواجبات، ولا فضل بينهم إلا بالتفوّي والعمل الصالح. جاء في القرآن الكريم: «يا أيها الناس إنما خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليمٌ خير»⁽¹⁾.

كما جاء على لسان (الرسول) في خطبة حجة الوداع: «أيها الناس ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لأدم وأدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على أعمجي فضل إلا بالتفوّي»⁽²⁾.

غير أنا لا نصل إلى عصر علي بن أبي طالب، حتى نرى العصبيات القبلية تعود جذعة بين القبائل، وتشتد اضطراماً في عصر بني أمية، فقد انهم الأمويون بالقسوة في معاملة الموالي الذين رأوا في هذه المعاملة سبباً ليشاركونا الخوارج والدعاة لآل البيت في الثورة عليهم. ولم يكتف الموالي بذلك فأخذ فريق منهم - يمثلهم إسماعيل بن يسار النسائي⁽³⁾. يفاخر العرب بحضارتهم الفارسية وملوكها الساسانيين، والتقدّت منهم جماعات كثيرة حول أبي مسلم الخراساني - داعية العباسين بخراسان .. حيث زحفوا بجيش ضخم أدالوا به للعباسيين من الأمويين وللفرس من العرب إدالة نفذوا في أنماطها إلى مناصب الدولة العباسية العليا، خصوصاً حين استولى البرامكة على أزمة الحكم في عهد الرشيد، وبنو سهل في عهد المأمون. ومن هنا برزت نزعنة الشعورية⁽⁴⁾، التي ثبتت أركان بنائها على مفاهيم الفرس بحضارتهم، وقد كان الشعوريين طوائف مختلفة، منهم السياسيون الذين يريدون استرجاع مجدهم فارس ومنهم القوميون⁽⁵⁾، الذين أحبوا إحياء

(1) سورة العجرات، آية 13.

(2) الجاحظ: البيان والتبيين 2/ 229. دار صعب .

(3) أغاني 4/ 119 وما بعد. الأعلام 1/ 329.

(4) نسبة إلى الشعوب الأعجمية، وفي مقدمتها الشعب الفارسي .

(5) كلمة أطلقناها مجازاً على مشاعر الفرس أنذاك حيث أن كلمة قومية حديثة الاستعمال .

مشاعر قوميتهم ضد العرب، ومنهم مجان وخلعاء اعجبتهم الحضارات الأجنبية وما اقترنت بها من خمر ولذة واستمتاع بالحياة. وأشد من كل هؤلاء عنفأً وغيظاً من العرب، الملحدون الزنادقة الذين أبغضوا الدين الإسلامي وكل ما اتصل به من عرب وعروبة⁽¹⁾ وفي هؤلاء يقول الجاحظ: «إن عامة من ارتتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأي الشعوبية والتمادي فيه وطول الجدال المؤدي إلى الضلال، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة ... فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسليخ من الإسلام إذ كانت العرب هي التي جاءت به، وهي السلف والقدوة»⁽²⁾. وحاول الشعوبيون أن يستلوا قريشاً قوم الرسول من العرب ويدخلوهم في غمارهم فزعم بعضهم أن سائلاً سأله (عليه) عن أهله وأصل قريش فقال: «نحن قوم من نبط كوثي»⁽³⁾ كما حاول رجالهم البارزون⁽⁴⁾ أن يذكروا نار هذه الشعوبية فيما حولهم من أبناء جلدتهم وقد اختلف الناطقون عنها بين عالم وأديب وشاعر، نذكر منهم أبا عبيدة اللغوي الأخباري المشهور، وقد صب عنایته على تسجيل مثالب العرب وطعن في بعض أسباب الرسول⁽⁵⁾، وعلان الفارسي⁽⁶⁾، وسهل بن هارون⁽⁷⁾، اللذين تعصباً على العرب. وأهم شاعر في العصر أوقد نيران هذه الخصومة، بشار بن برد الذي فخر بمواليه زمنبني أمية، حتى إذا حدث الانقلاب العباسي، انقلب معه يتبرأ من العرب وولائهم ناسياً ولاءه إلى الله ذي الجلال، بقوله:

(1) شوقي ضيف. تاريخ الأدب العربي (3) العصر العباسي الأول. ص 75 دار المعرفة .

(2) الحافظ: الحيوان (4 - 7) ص 661 دار صعب .

(3) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج 4/ 488 دار صادر مادة كوثي .

(4) أمثال البرامكة وأآل سهل وأآل طاهر ابن الحسين .

(5) ابن النديم - الفهرست ص 79. دار المعرفة .

(6) المصدر نفسه ص 153.

(7) المصدر نفسه، ص 174.

أصبحت مولى ذي الجلال وبعضاً من مولى العرَبِ فُحُذ بفضلك فافخر⁽¹⁾
والمعروف أن جمهور الفرس قبل الإسلام كان مجوسياً على دين
زرادشت⁽²⁾ الذي ظهر في ديارهم حوالي منتصف القرن السابع ق.م. وظهر
عندهم في القرن الثالث الميلادي داع هو ماني مزج في تعاليمه الزرادشتية
والبوذية والنصرانية⁽³⁾.

فأخذ من الأولى عقيدة إلهي لنور والظلمة واستباحة الزواج بالبنات
والأخوات، ومن الثانية عقيدة التناصح وتحريم ذبح الحيوان، ومن الثالثة
الزهد والنسك. وفي أواخر القرن الخامس الميلادي ظهر في إيران داع
جديد هو مزدك وكان ثنياً⁽⁴⁾، يؤمن بإلهي النور والظلمة وتقديس النار،
ويدعوا إلى العكوف على اللذات والشهوات والإمعان فيها، وإباحة النساء
والأموال وجعلهما شركة للناس.

ولما انتشر الإسلام وسيطر في العراق وفارس، وانتقلت الخلافة إلى
بغداد، ظلت المجوسية حية قوية لمعاملة المسلمين اتباعها معاملة أهل
الكتب السماوية⁽⁵⁾.

ولكن الملل التي ذكرنا انتشرت بين الناس سراً وعلانية مما جعل
الخلفاء يتبعون لخطرها فيتبعون دعاتها وأتباعها ويتخذون ديواناً خاصاً
لمحاكمة من يعتنقها، أنشأ هذا الديوان المهدي وبقي مستمراً حتى عهد
الرشيد، ويظهر أن الزنادقة قد نشطوا نشاطاً واسعاً في نشر هذه العقائد،
مما أثار حفيظة الخليفة فأمعن في قتلهم وملاحقتهم. يقول المسعودي عن
ذلك: «أمعن المهدي في قتل الملحدين والمداهنين في الدين لظهورهم في

(1) أغاني : 21 / 3.

(2) الملل والنحل - الشهرياني 2 / 77 ، دار المعرفة .

(3) المصدر نفسه 2 / 81.

(4) ابن النديم: الفهرست ، ص 479 ، وأنظر الشهرياني : ملل ونحل ص 192.

(5) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي (3) العصر العباسي الأول. دار المعرفة ، ص 80.

أيامه وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافه لما انتشر من كتب ماني وابن ديسان ومرقيون مما نقله عبد الله بن الميقع وغيره وترجمه من الفارسية والفالهولية إلى العربية وما صنف عن ذلك ابن أبي العوجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن إيسا من تأييد لمذاهب المناية⁽¹⁾ والديسانية والمرقوية، فكثرت بذلك الزنادقة ظهرت آراؤهم في الناس⁽²⁾، ولكن الجاحظ يعزرو وصول كتب الزنادقة إلى الظرفاء والمجان والأغبياء من العرب المسلمين، للتكلمين النصارى وأطبائهم ومنجيمهم وعلى الأخص لمرقيون⁽³⁾، وابن ديسان⁽⁴⁾، دونما إشارة إلى طرد هؤلاء من صفوف المسيحية. يقول الجاحظ: «لولا متكلمو النصارى وأطباؤهم ومنجموهم ما صار إلى أغبيانا وظرفائنا ومجاننا وأحداثنا شيء من كتب المناية والديسانية والمرقوية...»⁽⁵⁾.

ولم ينصب المهدي وخلفاؤه للزنادقة حرب السيف وحدها، فقد نصبوا لهم حرب اللسان أيضاً، لسان المتكلمين الذين انبروا يفتدون آراءهم ويصنفون في ذلك الرسائل والكتب الطوال. ومن يقرأ كتاب الحيوان للجاحظ يجد فيه الكثير من رد النظام وغيره من المتكلمين على الزنادقة.

وقد قتل الكثير من رؤوس الزنادقة في هذا العصر، منهم ابن الميقع الذي قتل في عهد المنصور، وفيه يقول المهدي: «ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن الميقع»⁽⁶⁾، ومنهم صالح بن عبد القدوس والشاعر

(1) النسبة إلى ماني إما ماني أو ماني .

(2) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي (3) العصر العباسي الأول. دار المعارف ص 80. وانظر ملل ونحل 2 / 88 - 89 معنى الديسانية والمرقوية .

(3) من أهل آسيا الصغرى كان مسيحياً وانحرف عن تعاليم المسيحية وكون لنفسه مذهباً كان فيه علهم لابن ديسان. طرده الكنيسة سنة 144م. المصدر السابق (ضيف).

(4) من أهل الرها اعتنق المسيحية وشذ عن تعاليمها، طرده الكنيسة. المصدر نفسه .

(5) المصدر السابق، ص 81.

(6) أمالي المرتضى 1/134. دار الكتاب العربي .

الأعمى بشار بن برد وعبد الكريم بن أبي العوجاء وحماد عجرد، وجميعهم قتلوا في عهد المهدى⁽¹⁾.

واشتد الهاדי مثل أبيه في ملاحقة الزنادقة، من بينهم داود بن علي أحد أبناء عميه ويعقوب بن الفضل من سلالة الحارث بن عبد المطلب. وهكذا فعل خلفه هارون الرشيد، وممن تعقبهم يزيد بن الفيض ويونس بن أبي فروة⁽²⁾.

وكان المؤمن إذا سمع بزنديق أمر بحمله إليه ليناظره المتكلمون لرده إلى الإسلام، وإذا لم يرتد أمر بقتله كما فعل بالرجال العشرة⁽³⁾.

ويظهر من ملاحقة خلفاء بني العباس للزنادقة أنهم لم يكونوا يقتلون على الزنادقة إلا بعد ثبوتها على صاحبها، ويظهر أنهم إنما كانوا يقتلون من ينزع نزعة مجوسية وخاصة أصحاب النزعة المانوية كما تشهد بذلك أخبار من قتلوا لهم، ويؤكد هذا وصية المهدى لابنه الهاادي بتتبع الزنادقة، فقد وصفهم له وصفاً أراد به من يعتنقون تعاليم المانوية⁽⁴⁾ على أنها يجب أن نشير إلى أن عمليات المطاردة اتسعت في عهد المهدى ومن خلفه لتشمل جماعات أخرى ليست مانوية، وأن أسباباً أخرى دفعت السلطة العباسية إلى اتهام هؤلاء بالزنادقة ومطاردتهم. وهنا مثلت العداوات الشخصية والتنازع على السلطة والجاه، والأهواء السياسية والدينية، دورها في اتهام البعض بالزنادقة، وإلى ذلك يشير المستشرق برنارد لويس حين يقول :

«إن الزنادقة غدت اصطلاحاً إدارياً سياسياً وليس اصطلاحاً كلامياً أو نظرياً فقط وبمعنى آخر فإن تهمة الزنادقة كانت تؤدي بصاحبها إلى

(1) المصدر السابق، وأنظر أيضاً الأصفهاني : الأغاني 3/70 دار الفكر.

(2) تاريخ الطبرى 8/217 . وما بعد . دار سيدان .

(3) المسعودي ، مروج الذهب 4/9 . دار المعرفة .

(4) تاريخ الطبرى 8/220 .

السجن على أقل تقدير بل ربما انتهت بالتهم إلى القتل»⁽¹⁾.

وكان هناك من اتهم بالزندة لمجونه وخلاعته، كآدم حفيد عمر ابن عبد العزيز وقد ضربه المهدى ثلثمائة سوط من دون أن يعترف بالزندة بل كان يقول:

«والله ما أشركت باش طرفة عين، ومتى رأيت قرشياً تزندق؟ ولكنه طرب غلبني وشعر طفع على قلبي وأنا فتى من فتيان قريش أشرب النبيذ وأقول على سبيل المجنون»⁽²⁾.

ومن الملاحظ أن اصطلاح الزندة توسع زمن بنى العباس وبيات يطلق على كل ذي بدعة أو مشكك من غير أن يكون مانوي المذهب، وهذا ما نراه في تفسير أحمد بن حنبل للزندة، وما نلاحظه في تفسير الغزالى للزندة حيث يدخل فيها كل محاولة اجتهادية تخالف المذاهب السلفية وتتحرف عنها في التفسير⁽³⁾.

وبما أن نشاط ديوان الزنادة بات قوياً في تعقبهم، فقد لجأ بعض المتهمين في تبرئة أنفسهم من الاتهام بالزندة إلى كشف ستار خصومهم من المعتنقين لتعاليم الزندة، وأحياناً لنزوة إنسانية أخرى.

ومثلنا على ذلك الشاعر أبو نواس الذي لم يجد حرجاً - على الرغم من اتهامه بالزندة - في أن يهجو ويلصق التهمة بأبان بن عبد الحميد اللاحقى وينفر من أصحابه حيث يقول:

Bernard Lewis : The Significance of Heresy. P. 55.

(1)

وأنظر فاروق عمر: التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، ص 137.

(2) ابن النديم: الفهرست، ص 230 دار المعرفة. وأنظر فاروق عمر، التاريخ الإسلامي وفكـرـ القرن العـشـرينـ، ص 138.

(3) فاروق عمر، ص 140 والغزالى: المتنفذ من الضلال، ص 18 وما بعدها. دمشق سنة 1934م.

لا دَرَّ دَرَّ أَبْنَاءِ
إِلَى اِنْقَاضِيَّةِ الْأَذَانِ
بِذَا بَغَيْرِ عَيَانِ
تَعَايَنَ الْعَيْنَيْنِ
فَقَالَ: سَبْحَانَ مَانِي
عَنْ هَادِلَ بِالْقُرْآنِ
بِالْكُفْرِ بِالرَّحْمَنِ
بِالْعَصْبَةِ الْمَجَانِ
وَالْوَالَّبِي الْهَجَانِ
رِيحَانَةُ النَّدْمَانِ^(١)

جَالَسْتُ يَوْمًا أَبْنَاءِ
فَكُلُّ مَا قَالَ قَلَّنَا
فَقَالَ: كَيْفَ شَهَدْتُمْ
لَا أَشْهَدُ الدَّهْرَ حَتَّى
فَقَلَّتْ: سَبْحَانَ رَبِّي
وَقَمَتْ أَسْحَبُ ذِيلِي
عَنْ كَافِرٍ يَتَمَرَّى
يَرِيدُ أَنْ يَتَسَوَّى
بِعَجْرَدٍ وَغُبَابَادٍ
وَقَاسِمٍ وَمَطَبِيعٍ

عقائد المجنوس أساس للزنادقة في العصر العباسي الأول:

كان لبقاء العقائد المجنوسية واستمرارها في بلاد فارس والأطراف الشرقية من الدولة العباسية طوال عهد الخلفاء الراشدين والأمويين، أثره في ظهور الحركات الدينية التي سميت بحركات الزندقة في العصر العباسي.

ويمكّنا أن نميز ثلات فئات لشعوب تلك المناطق:

1 - فئة اعتنقت الإسلام نتيجة افتتاح كامل، لكنها لم تتخلى عن تراث الماضي فكان إسلامها مشوياً بشوائب جمة متجلدة في النفوس التي غدت أرضًا صالحة لنمو مبادئ الزندقة.

2 - فئة حافظت على مجوسيتها ولم تعتنق الإسلام وعاملتها الخلفاء حتى عصر بنى العباس معاملة أهل الذمة، وقد أدى هذا التسامح في نمو المذاهب المجنوسية التي نبعـت فيها حركات الزندقة في العصر العباسي الأول.

(١) الجاحظ: الحيوان. 165 / 4. دار صعب وأنظر بقية الأسماء التي لم تذكر في الشعر والتي أنكر عليها أبو نواس زندقتها.

3 - فئة ثالثة تظاهرت بالإسلام واحتفظت سراً بعقائدها المجوسية إما للتهرب من دفع الجزية، أو لرغبة في تولي المناصب، وأصبحت هذه الفئة في مقدمة المساهمين في حركات الزنادقة في العصر العباسي الأول⁽¹⁾.

أما المجوسية فقد عرفها الشهريستاني بقوله: «المجوس وأصحاب الاثنين المانوية وسائر فرقهم المجوسية، يقال لهم الدين الأكبر والملة العظمى ... وكان لملوكيهم مرجع هو موبذ، أعلم العلماء وأقدم الحكماء لا يرجعون إلا إلى رأيه ...»⁽²⁾ واتخذ المجوس النار رمزاً للضوء وبعبارة أخرى رمزاً لإله الخير.

وتفرعت المجوسية إلى مذاهب عدة أشهرها: الزرادشتية، المانوية، والمزدكية إلى جانب فرق أخرى أقل أهمية، مثل الديصانية، المرقونية، والتناسخية.

عرف الكتاب دين زرداشت بعدة أسماء، فسموه «الثنائية» لأنهم نسبوا إلى أتباعه، أنهم قالوا بوجود إلهين، إله للخير وإله للشر. وأول ما عرف هذا الدين في بلاد فارس، واشتهر باسم المجوسية. وسموه الزرادشتية نسبة إلى زرادشت⁽³⁾، وسموا عبدة النار، لأن العبادة تتم في بيت توقد فيه النيران.

أما المانوية⁽⁴⁾، فتقول بالثانوية وتناسخ الأرواح. وقد قامت بدور كبير في جميع حركات الزنادقة في العصر العباسي الأول.

(1) الليثي. الزندقة والشعوبية، ص 87.

(2) الملل والنحل / 30.

(3) نسبة إلى زرادشت وقد ظهر في أذربيجان توفي نحو سنة 583 ق.م الشهريستاني. ملل ونحل / 2 . 77

(4) الشهريستاني. ملل ونحل / 2 . 81

والمزدكية⁽¹⁾ تقول أيضاً بالثانوية والشيوخية⁽²⁾، وقد ظهرت تعاليم مزدك في صورة خطيرة في العصر العباسي، أظهرها وارثو تعاليمه واعتنقها بعض العرب ليرضوا شهواتهم. وقد عد بعضهم أن تعاليم مزدك هي المسؤولة عن ظهور جماعة الفساق والمجان في ذلك العصر⁽³⁾.

ومن الملاحظ أن المجوسية وما تفرع عنها من مذاهب، إنما نادت جميعها بالثانوية التي كثر أتباعها زمن بنى العباس وعظم شأن معتنقها حتى نرى أحد أتباعها يناظر الخليفة. قال المأمون لثنوي يناظر عنده: «أسألك عن حرفين فقط، خبرني: هل ندم مسيء قط على إساءته؟ قال: بلى، قال: فالندم على الإساءة إساءة أم إحسان؟ قال: بل إحسان، قل: فالذي ندم هو الذي أساء وغيره؟ قال: بل هو الذي أساء، قال: فأرى صاحب الخير هو صاحب الشر، وقد بطل قولكم، ... فأسكنه»⁽⁴⁾.

ومن هذه المناظرة بين المأمون والثانوي نستخلص أن هذا الخليفة العباسي ربما لم يعتبر المجوس زنادقة، وإثباتاً لذلك ما رواه ابن النديم، أن المأمون اجتاز في آخر أيامه ديار مصر، يريد بلاد الروم للغزو، فتلقاء الناس يدعون له، وفيهم جماعة من «الحرانيين» وكان زيهما إذ ذاك لبس الأقبية، وشعورهم طويلة ... فأنكر المأمون زيهما! وقال لهم: من أنتم من الذمة؟ فقالوا: نحن الحرانيون، فقال: أنصارى أنتم؟ قالوا: لا، قال: فيهود أنتم؟ قالوا: لا، قال: فمجوس أنتم؟ قالوا: لا، قال لهم: أفل لكم كتاب أمنبي؟ فجمجموا في القول، فقال لهم فأنتم إذا الزنادقة عبدة الأولان، وأصحاب الرأس في أيام الرشيد والدي، وأنتم حلال دماؤكم، لا ذمة لكم ...»⁽⁵⁾.

(1) المصدر نفسه /2.86.

(2) حيث أشار المساواة بين الناس في المال والنساء، المصدر السابق .

(3) الليثي. الزندقة والشعوبية، ص104.

(4) ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار /2.152. دار الكتاب العربي. وأنظر ابن عبد ربه: العقد الفريد /2.384. دار الكتاب العربي .

(5) ابن النديم - الفهرست ، ص445.

ومن كلام ابن النديم نرى أن المأمون قد اعتبر المجوس من أهل الذمة وقارنهم بالنصارى وباليهود. واعتبر الزنادقة عبدة الأوثان ولكن الكتاب كما يبدو قد خلطوا فيمن سموهم زنادقة وركزوا لسبب أو لآخر على أصحاب الاثنين الذين يعودون بمعتقدهم إلى المذاهب المجوسية⁽¹⁾.

زنادقة الفرق والأحزاب والدعاة:

إن الإسلام كما فهمه المسلمون، دين ودولة: ولم يكن في الإسلام صنفان متميزان من الوظائف أو الأعمال العامة يخلص أحدهما للدين، وبخلص الآخر للسياسة، لأن الدين والسياسة متلازمان في الإسلام فال الخليفة أو الحاكم يمثل السلطة الدينية والمدنية، إذ يسوس الرعية، ويتولى شؤونها هو وأعوانه، لكن هذه السياسة قائمة على الخضوع للدين.

وقد نجمت في ذلك المجتمع دعوات وآراء سياسية، وجرت في أرضه تيارات متعارضة، اعتمدت في جريانها على السيف وعلى اللسان، نتج عن ذلك أحزاب سياسية حقيقة، لكل منها مذهب وآراؤه ونظرياته في الحكم.

ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا ما ذهينا إلى أن الأدب السياسي الذي أثمره الصراع بين الأحزاب والفرق - والدفاع عن دعاتها حيناً وذمهم حيناً آخر، في العصرتين الأموي والعباسي - لهو أضخم تراث ديني ودنيوي في الأدب العربي منذ نشأته إلى العصر الحديث.

الأحزاب:

عوامل نشأتها:

لم يكدر «الرسول» يفارق هذا العالم، حتى بدرت العصبية المتوارية ووقع النزاع على من يخلفه بين طائفتين من المسلمين، هما المهاجرون

(1) انظر في ذلك الشهيرستاني ملل ونحل. وابن النديم الفهرست، ص 445. والطبرى تاريخ الأمم والملوك. والمسعودى مروج الذهب. والقالي الأمالى ...

والأنصار. وقد مثل الشعر غبطة المهاجرين القرشيين بالخلافة، إذ قال أبو عبرة القرشي أبياتاً استبشر فيها ببيعة أبي بكر، وندد بتطلع الأنصار إلى الخلافة، منها:

شكراً لمن هو بالثناء حقيقٌ ذهب اللّجاجُ وبُويعَ الصَّديقُ
إنَّ الخلافةَ فِي قريشٍ مَا لِكُمْ فِيهِ ورَبُّ مُحَمَّدٍ مَغْرُوقٌ^(١)
فيرد عليه حسان بن ثابت، مدعياً أن الخلافة يجب أن تكون
لأنصار، بقوله:

نصرنا وأوينا النبيٌّ ولم تَحْفَتْ صُرُوفَ الْتَّيَالِيِّ والبلاءُ على رِجْلِ
فكان جزاءُ الفضلِ مِنَا عَلَيْهِمْ جهالتَهُمْ حُمْقاً وَمَا ذاكَ بِالْعَدْلِ^(٢)
واحتدم اللجاج بين شعراء قريش وشعراء الأنصار^(٣)، حتى دعا
خزيمة بن ثابت الأنصاري إلى السلم والمودعة.

وينقضي عهد أبو بكر وعمر فتزول عوامل الجمع، وتتجددُ أسبابُ،
يُستعلن فيها التذمر، وتدب الفتنة، وتنفجر مراجل السخط على حكم
ال الخليفة ويذهب عثمان ضحيتها. وهكذا تسع الهوة بين المسلمين، وتعصف
فرقهم بوحدتهم وتنشا الأحزاب السياسية. ولنستعرضها بایجاز:

أولاً: الأمويون

لما قتل «عثمان»، بُويع على بالخلافة، لكن معاوية، والي دمشق
لعم وله عثمان انشق عليه، ولم يعد الحيلة لاستمالة الأعونان، فجعل يبذل
الأموال، ويطلب بدم عثمان^(٤)، ويحمل علياً جريرة مصرعه ويرفض

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة 6/8 دار الهدى. معروق = نصيب قليل .

(٢) المصدر السابق. 6/10 .

(٣) عمرو بن العاص يتهكم بتطلع الأنصار إلى الخلافة، ومالك بن عجلان يرد عليه ...
المصدر السابق 6/10 وما بعد .

(٤) القرابة بين معاوية وعثمان. هو معاوية بن أبي سفيان بن حرب، بن أمية، وعثمان بن عفان، بن أبي العاص، بن أمية .

مبايعته وينادي بالثأر من قاتلي عثمان.

ويتبين اتهام الأمويين لعلي في أبيات للوليد بن عقبة - أخي عثمان لأمه - يهدد فيهابني هاشم، ويتوعدهم، ويتهم علياً بقتل عثمان لتخلص الخلافة له، كما يتهمه بنهب أملاكه من سلاح وايل⁽¹⁾.

ويرد الفضل بن العباس بن أبي لهب عليه، مدافعاً عن علي وولايته، متهمًا الشاعر المذكور بالفسق والفحotor والخروج من الإسلام، يقول:

فلا تسألونا سيفكم إن سيفكم أضيغ وألقاه لدى الرؤوف صاحبه
وكان ولئي الأمر بعد محمدٍ عليٌ وفي كل المواطن صاحبه
عليٌ ولئي الله أظهر دينه وأنت مع الأشقيين فيما تحاربه
وقد أنزل الرحمنُ أنك فاسقٌ فما لك في الإسلام سهمٌ تطالبه⁽²⁾

وبلغ الصراع ذروته بين علي ومعاوية، إذ التقى بصفين عام 37هـ / 656م، وكاد النصر يتم لعلي، لو لا الحيلة التي لجأ إليها قائد جيش معاوية، عمرو بن العاص، فقد رفع جنده المصاحف، وكان التحكيم فخلع علي وثبت معاوية.

قامت الدولة الأموية سنة 41هـ (661م)، بعد تنازل الحسن بن علي عن حقه في الخلافة، وتعاقب الخلافة أربعة عشر خليفة، أولهم معاوية بن أبي سفيان وأخرهم مروان بن محمد قتل عام 132هـ / 750م.

ما يهمنا من إبراد الحزب الأموي، السمات العامة لسياسة هذا الحزب وتمحورها من خلال الأدب، شعراً وخطابة وكتابة وحواراً، والمرور بهذا الأدب أحياناً عن جادة الدين والسير في شعب الزندقة.

انتحل بنو أمية ودعاتهم وأشياعهم خلافة الله ورسوله، وعلى المسلمين أن يطيعوهم ويناصروهم.

(1) انظر الأبيات في الأصفهاني: الأغاني 4/177 دار الفكر عن بولاق.

(2) المسعودي: مرجو الذهب 2/356 - 357. دار المعرفة.

يدل على ذلك ما جاء في خطبة زياد عند توليه على البصرة، فقد جهر بالحق الإلهي، الذي آمن به وبالسلطان المعطى لبني أمية من عند الله، بقوله: «أيها الناس إننا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ... فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحبينا، ...»⁽¹⁾.

كما يدل على ذلك ما جاء على لسان حسن بن مالك - سيد قحطان بالشام - إذ قال لسكان الأردن عندما توفي يزيد بن معاوية، ودعا ابن الزبير لنفسه: يا أهل الأردن، ما شهادتكم على ابن الزبير، وعلى قتلى أهل الحرفة؟⁽²⁾ قالوا: نشهد أن ابن الزبير منافق، وأن قتلى أهل الحرفة في النار. قال: فما شهادتكم على يزيد بن معاوية، وقتلامكم في الحرفة؟ قالوا: نشهد أن يزيد على الحق، وأن قتلانا في الجنة⁽³⁾.

واتسم حكم الأمويين بالعصبية، عصبية للعرب ضد العجم والموالي، مما دعا العجم والموالي إلى المعاملة بالمثل، فاستشرت الشعوبية وقويت رويداً رويداً لتظهر بقوة، زمنبني العباس، وتتفتح رئتها عن زندقة وزنادقة، وعصبية (جاهلية) لليمينة على القيسية، ولبني أمية علىبني هاشم.

إن الشاعر جرير يرى أن عبد الملك هو ركن الدين ، ولو لا ما اجتمع المسلمين في مسجد، وأوامره ميمونة مطاعة، وقد فضل الله بنى أمية على غيرهم من أهل البدع، أي الأحزاب المعادية. يقول:

لولا الخليفة والقرآن يقرؤه ما قام للناس أحکام ولا جَمْعٌ
فكلُّ أمرٍ على يُمْنِنُ أَمْرَتْ به فِينَا مُطَاعٌ وَمَهْمَا قُلْتَ يُسْتَمِعُ
يَا آلَ مَرْوَانَ إِنَّ اللَّهَ فَضَلَّكُمْ فضلاً عظيماً على مَنْ دِيْنُ الْبَدْعِ⁽⁴⁾

(1) الحافظ: البيان والتبيين. دار صub 2/244.

(2) موقعة بالقرب من المدينة بين الزبيرين والأمويين .

(3) الطبرى - تاريخ الأمم والملوك 5/531. دار سعيدان .

(4) الحوفي (أحمد محمد) أدب السياسية في العصر الأموي. طبعة خامسة. دار نهضة مصر، ص 146.

والفرزدق يرى في عبد الملك صاحب الله، وخليفة أرضه، وندد بابن الزبير، واصفاً إياه بالفساد والمكر والكذب والغدر. يقول:

فالأرض لله ولأهلا خليفتة وصاحب الله فيها غير مرغوب
بعد الفساد الذي قد كان قام به كذاب مكة من مكر وتخريب..⁽¹⁾

كان كل حزب سياسي يزعم أنه حزب الله، وأن خصومه كافرون ضالون، وهذا صريح في كثير من الشعر، شعر الحزب الأموي، وشعر الأحزاب الأخرى، يقول كعب بن جعيل التغلبي وقد كان أموي النزعة:

أرى الشام تكره مُلْكَ العراق وأهل العراق لهم كارهينا
وقالوا: على إمام لنا فقلنا: رضينا ابن هنـد رضينا⁽²⁾

ويقول الأخطل هاجياً الانصار في كنایة سافرة واخزة، حيث أراد أن يقرنهم باليهود:

لعن الإله من اليهود عصابة بالجزع بين جلينجل وصرار



فذروا المكارم لست من أهليها وخذدوا مساميكم بني التجار
ذهبت قريش بالمكارم كلها وللؤم تحت عمامات الانصار⁽³⁾

أما كعب بن جابر الأزدي، الذي كان في جند يزيد عند محاربته للحسين بن علي، فإنه يرى إنه حارب بسيفه ورممه فرقه ليست على دينه، وهو على يقين بصواب ما فعل، يقول:

سللي تُخْبِرِي عنِي وانتِ ذميمةٌ غداةَ حُسَيْنِ والرماحُ شوارعُ
معي يَزَّئِي لم تَخْنَهُ كُغُوبُهُ وأبيضُ مخشوبُ الغَرَائِنْ قاطعُ

(1) المصدر نفسه، ص 148.

(2) المصدر السابق. ص 151.

(3) شعر الأخطل: تحقيق (د. فخر الدين قباوة) منشورات دار الآفاق - بيروت. طبقة ثانية 1979. ج 2. ص 483. جلينجل وصرار: جبلان بالمدينة. المساحي. الات من حديد تقشر بها الأرض .

فجردته في عصبة ليس دينهم بديني واني بابن حرب لقانع⁽¹⁾
واعشى همدان يرى أنبني أمية يحكمون بتفويض من الله وأن
خصومهم فاسقون كاذبون، أهل بدع، منافقون، ملحدون. يقول في مدح
الحجاج لما قضى على ثورة عبد الرحمن بن الأشعث:

أبى الله إلا أن يُتَمِّمْ نوره ويُطْفِئ نور الفاسقين فَيَخْمَدَا
من القول لم تصعد إلى الله مَضْعَدًا
ولكُنَّ فَخْرًا فِيهِمْ وَتَرْيَدَا
وَإِنْ كَايدُوهْ كَانَ أَقْوَى وَأَكْبَدا
مَرِيضًا وَمَنْ وَالِي النَّفَاقِ وَالْحَدَا⁽²⁾
وَالشَّاعِر كعب الأشعري يصف الأزارة، الذين حاربهم المهلب في
كرمان، بالكفر والزيغ عن الحق وابداع دين جديد يغاير الأديان السماوية،
يقول:

إِنَّا اعتصَمْنَا بِحَبْلِ اللهِ إِذْ جَحَدُوا
بِالْمُحْكَمَاتِ وَلَمْ نُكْفِرْ كَمَا كَفَرُوا
جَارُوا عَنِ الْقَضِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ وَاتَّبَعُوا
دِينًا يُخَالِفُ مَا جَاءَتْ بِهِ النُّذُرُ⁽³⁾

ثانياً: الشيعة

نستطيع أن نتأصل النشأة البعيدة لأنصار الإمام «علي بن أبي طالب»⁽⁴⁾
فردها إلى العهد الذي اختير فيه أبو بكر ثم عمر للخلافة، حيث تشيع يومئذ
علي جميع بنى هاشم وبني المطلب، وانضم إليهم الزبير بن العوام وثلاثة
عشر رجالاً من المهاجرين والأنصار، واحتجوا على تنحية علي⁽⁵⁾.

(1) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك / 5. 433. يزنى: رمح منسوب إلى ذي يزن. كعب: ما بين الأنابيب. مخثوب الغاربين: مشحوذ الحدين .

(2) المصدر السابق. 376 - 377 .

(3) المصدر نفسه / 6. 308 .

(4) لم يكن أنصار علي يسمون في بايد الأمر (الشيعة) وإنما استعملت هذه الكلمة للدلالة عليهم بعد قتلها، ابن منظور: لسان العرب. مادة (شيع).

(5) السيد محسن الأمين الحسيني العاملي: أعيان الشيعة. مطبعة ابن زيدون، دمشق، 1354هـ / 1935م. ج 1، ص 34.

كان عمر قد عهد بالشوري إلى ستة من جلة الصحابة، اختير عثمان ابن عفان خليفة من بينهم⁽¹⁾.

أغتيل عثمان وبوبع علي بالخلافة، فعارضه الزبير وطلحة وانضمما إلى السيدة عائشة، ليلتقاوا على رأس ثلاثة آلاف مقاتل مع علي في موقعة الجمل، فيقتل الزبير وطلحة، وت رد السيدة أم المؤمنين إلى المدينة معززة مكرمة⁽²⁾.

كما عارضه معاوية - والي عثمان على بلاد الشام، والمطالب بدمه - فبدأت الرسل تسفر بينه وبين معاوية، فلم يقدر لها نجاح، ثم كانت موقعة صفين، وكان التحكيم.

اتفق ثلاثة من الخوارج على قتل رؤساء الفرقـة والصراع برأيهم، علي، معاوية، وعمرو بن العاص في يوم واحد، وتـكفل عبد الرحمن بن ملجم بقتل علي، ونجح حيث أخفـق أصحابـه⁽³⁾.

تـوارى التشـيع بعد مـقتلـ عليـ منـ الكـوفـةـ حـيـنـاـ، وـانـضمـ أـهـلـهـ إـلـىـ مـعاـوـيـةـ بـعـدـ تـصـالـحـ الـحـسـنـ بـنـ عـلـيـ مـعـهـ وـتـنـازـلـهـ لـهـ عـنـ الـخـلـافـةـ⁽⁴⁾ـ، وـلـكـنـ الـحـادـثـ الـبـشـعـ الـمـنـكـرـ الـذـيـ أـدـىـ إـلـىـ مـقـتـلـ الـحـسـيـنـ بـنـ عـلـيـ فـيـ كـرـبـلاـءـ، وـذـكـرـ التـشـيعـ إـلـىـ أـقـصـيـ حدـ وـكـانـ عـامـلـاـ عـلـىـ وـحدـةـ الـشـيـعـةـ وـنـصـرـةـ مـذـهـبـهـ، وـسـبـبـاـ فـيـ ثـورـاتـهـ الـجـارـفـةـ، لـيـثـارـوـاـ مـنـ قـتـلـةـ الـحـسـيـنـ، ثـمـ كـانـ مـنـ الـأـسـبـابـ الـتـيـ نـشـرـتـ التـشـيعـ بـيـنـ الـفـرـسـ، أـصـهـارـ الـحـسـيـنـ، فـنـاصـرـوـاـ بـنـيـ الـعـبـاسـ فـيـ إـسـقـاطـ بـنـيـ أـمـيـةـ⁽⁵⁾ـ.

على أن الشـيـعـةـ قـدـ لـقـواـ مـنـ اـضـطـهـادـ بـنـيـ عـمـومـتـهـمـ ماـ هـوـ أـشـدـ وـأـقـصـىـ ماـ لـقـوهـ مـنـ بـنـيـ أـمـيـةـ مـنـ قـبـلـ، وـهـنـاـ تـلـونـ الـصـرـاعـ بـلـونـ جـدـيدـ، إـذـ انـقـسـمـ

(1) انظر أسماءـهـ فـيـ الطـبـريـ: تـارـيـخـ الـأـمـمـ وـالـمـلـوـكـ 4/ 288ـ وـمـاـ بـعـدـ .

(2) المـصـدرـ السـابـقـ 4/ 535ـ - 545ـ .

(3) المسـعـودـيـ: مـرـوجـ الذـهـبـ 2/ 423ـ دـارـ الـمـعـرـفـةـ .

(4) السـيـوطـيـ: تـارـيـخـ الـخـلـفـاءـ مـطـبـعـةـ السـعادـةـ بـمـصـرـ 1952ـهـ / 1952ـمـ، صـ192ـ .

(5) كانـ الـحـسـيـنـ مـتـزـوجـاـ شـاهـبـانـوـ بـنـ يـزـدـجـردـ مـلـكـ الـفـرـسـ. الـحـوـفـيـ: أـدـبـ الـسـيـاسـةـ، صـ41ـ .

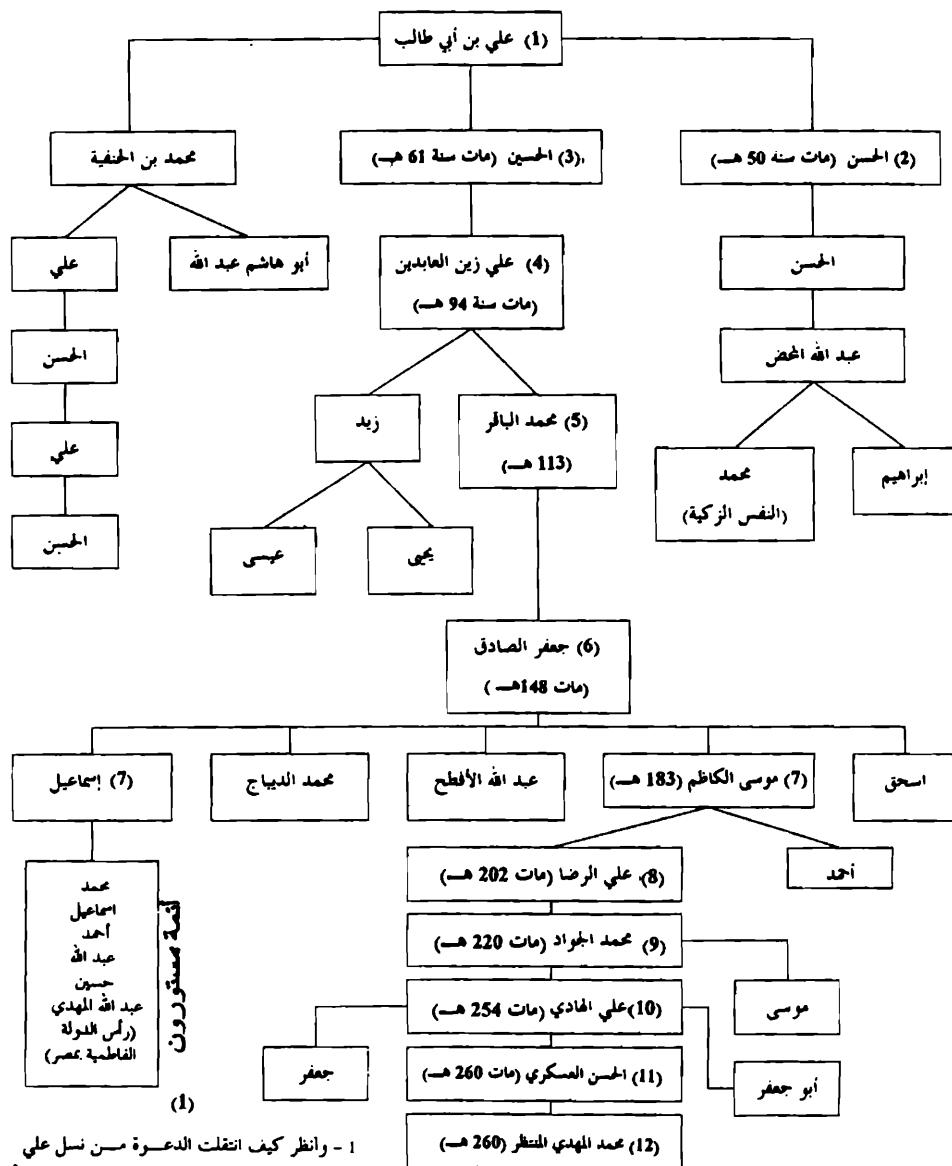
الشيعة إلى علوبيين وعباسيين، وصار التشيع هو الذي يقصر الإمامة على نسل علي بن أبي طالب^(١).

والإمامية لقب يشمل فرق الشيعة، التي أجمعـت على أن الإمامة في علي بن أبي طالب، ثم في ولديه الحسن والحسين، ثم انقسموا إلى قسمين:

- 1 - الإمامية الثانية عشرية، وهم الكثرة الغالبة الآن.
- 2 - الإمامية الإسماعيلية وكان منهم الفاطميون والقراطمة. ويتفق القسمان في الأئمة إلى جعفر الصادق.

والجدول الآتي يوضح تسلسل الأئمة في عقيبتهما:

(١) محسن الأمين: أعيان الشيعة / 16 - 19.



1 - وانظر كيف انتقلت الدعوة من نسل علي بن أبي طالب الى نسل العباس بن عبد المطلب:
ابن خلدون، للقدمة ص 196 - 202.
دار القلم، بيروت.

المصادر: أحمد أمين: ضحي الإسلام 211/3
والمرني: أدب السياسة ص 47.

وسرير بين الزنقة وفرق الروافض من الشيعة عند انتهاء الكلام عن الأحزاب.

تعبد الشيعة بحب آل البيت، وتمكن هذا الحب من قلوبهم، حتى صار كأنه ركن من أركان الإسلام. وهذا أبو الأسود الدؤلي يصرح بحبه للرسول ولعميه ووصيه علي، موقن بصوابه في اختياره. وإذا ما كان هذا الحب رشاداً في نظر الأنمة فقد هدى، وإن كان ضلالاً فإنه صواب في نظره، يقول:

أَحَبُّ مُحَمَّداً حَبَّاً شَدِيداً وَعَبَاساً وَحْمَزاً وَالْوَصِيَا
يَقُولُ الْأَرْذلُونَ بْنُو قُشَيْرٍ⁽¹⁾ طَوَالَ الدَّهْرِ، مَا تَنْسِي عَلِيَّاً؟
فَإِنْ يَكُ حُبُّهُمْ رَشِداً أَصِبَّةً وَلَسْتُ بِمُخْطِيٍّ إِنْ كَانَ غَيْباً⁽²⁾

فالدؤلي وجميع شعراء الحزب الشيعي، يشيدون بحبهم لآل البيت، ويتفجعون على موتاهم وقتلاهم، ويرثون أنصارهم، ويحتجون للشيعة مدلين على أن الخلافة حقهم وحدهم، ويحملون علىبني أمية خصومهم، ويجهرون بعقيدتهم في رجعة الإمام المتضرر.

ثالثاً: الخوارج

لما كانت وقعة صفين بين علي ومعاوية، وطلب الأخير تحكيم القرآن، اختلف أصحاب علي على هذا الأمر، ونفر منهم قوم مدعين أنه لا يجوز أن يحكم أحد في كتاب الله، وأقاموا في حروراء، وتنادوا بأن الأمر شوري، وبأن البيعة لله، وعليهم أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، وهؤلاء هم الخوارج⁽³⁾.

(1) كانوا أمربي الهوى .

(2) الحرافي: أدب السياسة. ص 184 - 185.

(3) قال أحد هؤلاء: «لا حكم إلا لله». لذلك سموا «المحكمة». وسموا أيضاً الشراة، لأنهم باعوا أنفسهم في سبيل الله، من قول القرآن الكريم: «ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاه الله»). وسموا الخوارج لخروجهم عن طاعة الإمام / وسموا أيضاً الحرورية نسبة إلى حروراء، موئلهم بعد التحكيم. المصدر السابق، ص 85 الهاشم .

كفروا عليناً وقتلوه⁽¹⁾ وحاربوا معاوية وخلفاءه حرباً متواصلة في شدة وشجاعة نادرة. كما كفروه وعثمان في نهاية حكمه، وطعنوا في أصحاب الجمل: طلحة والزبير وعائشة⁽²⁾ وقد وضعوا نظرية للخلافة، اختيار حُرّ بين المسلمين، ومن اختيار لا يتنازل ولا يحكم، ولا فرق عندهم بين قرضي وغيره، أو بين عربي وأعجمي. مخالفين بذلك نظرية الشيعة التي تقول: بانحصار الخلافة في بيت النبي، ونظرية الأمويين، الذين حصروها فيبني أمية. وكذلك العباسين فيما بعد.

اتصف الخوارج بالشدة في الدين، والإخلاص للعقيدة، والشجاعة النادرة، وهذه الصفات جعلت لهم أدباً خاصاً يمتاز بالقوة شعراً ونثراً: فمن تخير للفظ، وقوه في السبك، إلى فصاحة في الأسلوب.

ومن شعرهم الذي اتهموا فيه مخالفיהם بالكفر والإلحاد، قول أم عمران بن الحارث الراسبي في رثائه لما قتل:

الله أَيَّدَ عُمَرَانَ وَطَهَرَهُ وَكَانَ عُمَرَانَ يَدْعُو اللَّهَ فِي السُّحُرِ
يَدْعُوهُ سَرًا وَإِعْلَانًا لِيَرْزَقَهُ شَهَادَةَ بِيَدِي مُلْحَادَةُ غُدُرٍ⁽³⁾

ومن اتهامهم لخصومهم بالكفر أيضاً، قول قطري بن الفجاءة في يوم دولاب⁽⁴⁾:

لعمرك إني في الحياة لزاهدٌ وفي العيش ما لم ألقِ أَمَّ حكيمٍ



فلو شهدتنا يوم ذاك وخبلنا تبيحُ من الکفار کلَّ حريمٍ
رأت فتيةً باعوا الإله نفوسهم بجنتٍ عذنٍ عنده ونعيمٍ⁽⁵⁾

(1) المسعودي: مروج الذهب /2 423.

(2) أحمد أمين: فجر الإسلام. ص 258.

(3) الأستاذ السباعي بيومي: تهذيب الكامل للمبرد. ج 1، ص 130 ملحادة: مُغالٍ في كفره .

(4) موقعة بخارج البصرة بين نافع بن الأزرق وأتباعه من الخوارج وبين البصريين .

(5) الأصفهاني: الأغاني 6/5. دار الفكر عن بولاق .

إن الحزب الزبييري هو ثالث الأحزاب القرشية، بعد الأمويين والشيعة، ترجع نشأته الأولى إلى ما بعد مقتل «عثمان»، إذ كان الزبير بن العوام وطلحة ابن عبيد الله قد بايعاً علياً، ثم خرجا من المدينة إلى مكة بدعوى العمرة، ونفضاً بيعتهما، وانضمت إليهما السيدة عائشة، وثاروا على الإمام بدعوى المطالبة بدم عثمان.

كان عبد الله بن الزبير من أشد الدعاة إلى حرب علي، إن لم يكن أشدهم، فهو الذي ثنى خالته عائشة عن العودة إلى المدينة، وشجع أبوه على القتال يوم الجمل⁽¹⁾، وأغلب الظن أنه كان يطمع بالخلافة، حاربه يزيد وهو عائد إلى البيت الحرام، ونصب الحصين، قائد جند يزيد، المجانين على مكة والمسجد الحرام، ورماهما بالنار والنفط مع الأحجار، وانهدمت الكعبة، واحترقـت البنـية⁽²⁾. كما حاربه عبد الملك بن مروان، وأرسل إليه الحجاج بن يوسف، الذي حاصر مكة، وضربـتـ الكـعبـةـ بالـمجـانـيقـ فـاحتـرقـتـ⁽³⁾، وقتلـ ابنـ الزـبـيرـ سـنةـ 73ـ هـ وصلـبـهـ الحـجاجـ بـمـكـةـ.

تحاملـ شـعـراءـ الزـبـيرـيـنـ عـلـىـ خـصـومـهـمـ مـنـ أـمـوـيـنـ وـخـوارـجـ وـكـيـسـانـيـةـ⁽⁴⁾، وأـظـهـرـ بـعـضـهـمـ العـدـاءـ الـمـتـأـصـلـ الـمـورـوـثـ النـاتـجـ عـنـ الـعـصـبـيـةـ الـقـبـلـيـةـ، كـقـولـ «ـزـفـرـ بـنـ الـحـارـثـ الـكـلـابـيـ»ـ، عـنـدـمـاـ هـزـمـ جـيشـ اـبـنـ الزـبـيرـ فـيـ مـرـجـ رـاهـطـ سـنةـ 64ـ هـ أـمـامـ جـيشـ مـروـانـ بـنـ الـحـكـمـ:

فقد ينبع المرعى على دمن الشرى
وتبقى حزازات النفوس كما هي
فلا صلح حتى تنحيط الخيل بالقنا
وتشار من نسوان كلب نسائيـ⁽⁵⁾

(1) ابن الأثير - الكامل في التاريخ. المطبعة الأميركية / 3 / 201.

(2) الأزرقي: أخبار مكة، 1 / 65 - 66. دار الأندرس. والطبرى: تاريخ الأمم والملوك. 5 / 496 وما بعد.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ 4 / 148 المطبعة الأميركية. والمسعودي: مروج الذهب / 3 / 119 وما بعد.

(4) ستتكلـمـ عـنـهـمـ عـنـ بـحـثـاـ فـيـ الفـرقـ .

(5) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك 5 / 548.

ومن حملات شعراهم على الكيسانية. وعلى زعيمها المختار الثقفي، تكذيبهم لدعواه بأنه يُوحى إليه، ووصفه بالمخرق على أتباعه، من ذلك قول سراقة البارقي :

ألا أبلغ أباً اسحقَ أني
أري عينيَ ما لمْ تُبصِّرَاه
إذا قالوا: أقول لهم: كذبتُمْ
كفرْتُ بِوحيِّكُمْ وجعلْتُ نَذْرًا
وقول المتوكل الليبي:

أبلغ أباً اسحقَ إِنْ جَثَّهُ
أَنِّي بِكَرْسِيْكُمْ كَافِرٌ⁽²⁾
ويقول أعشى همدان في الكرسي:

شهدتُ عَلَيْكُمْ أَنْكُمْ سَبَبْنِيَ
وأَقْسَمْ مَا كَرْسِيْكُمْ بِسَكِينَةٍ
وَأَنْ لَيْسَ كَالْتَابُوتَ فِينَا وَإِنْ سَعْتَ
وَأَنِّي بِكُمْ يَا شَرْطَةَ الشَّرْكِ عَارِفٌ
وَإِنْ كَانَ قَدْ لَفَّتَ عَلَيْهِ الْلَّفَافِ
شَبَامُ حَوَالِيهِ وَنَهْدُ وَخَارِفُ⁽³⁾
وَمِنْ هَذِهِ الشَّوَاهِدُ الشَّعْرِيَّةُ نَرِي شُعَرَاءَ الزَّبِيرِيِّينَ يَحْمِلُونَ عَلَى
خَصْوَمِهِمْ، وَكَثِيرًا مَا اتَّهَمُوهُمْ بِالْكُفَّرِ، وَالْكُفَّرُ زَنْدَقَةُ، وَأَشَدُّ مَا كَانَتْ
حَمَلَاتُهُمُ التَّكْفِيرِيَّةُ إِنَّمَا عَلَى فِرْقَةِ الْكَيْسَانِيَّةِ، الَّتِي سَخَرُوا مِنْ زَعِيمِهَا
المختار الثقفي، وَمِنْ ضَلَالَاتِهِ، وَإِلَى جَانِبِ تَكْفِيرِ الْخُصُومِ نَرَاهُمْ يَغَالُونَ
فِي تَسْمِيَّةِ أَنْفُسِهِمْ بِحَزْبِ اللَّهِ، وَوَصْفِهِمْ أَتَبَاعُهُ بِاسْمِ شَرْطَةِ اللَّهِ، وَهَذَا
وَاضْحَى قَوْلُ أَعْشَى هَمْدَانَ:

وَإِنِّي أَمْرَؤٌ أَحَبَّتِ آلَّا مُحَمَّدٌ وَتَابَعْتُ وَحْيًا ضُمِّنَتُهُ الْمَصَاحِفُ⁽⁴⁾

(1) المصدر السابق 6/55. وأبو اسحق: كنية المختار. الترهات: الأباطيل. دمن الشرى: أماكن الأنعام وحظائرها. والمبرد: الكامل (1 - 2) 2/169 تحقيق محمد إبراهيم والسيد شحاته. مطبعة نهضة مصر.

(2) الطبرى: تاريخ الأمم والملوک 6/84. وقد اتَّخذ المختار كرسياً غطاءً بالديجاج، ووضعه في مقدمة الجيش، وكان يقول لجنده: قاتلوا عليه، فهو لكم كالتابوت لبني إسرائيل .

(3) المصدر السابق 6/83: شَبَامُ وَنَهْدُ وَخَارِفُ: أَسْمَاءُ لِأَحْيَاءِ مِنَ الْعَرَبِ .

(4) المصدر السابق. 6/84.

وفي قول سراقة البارقي :

جزى الله خيراً شرطة الله إنّهم شفوا من عَبَّيد الله أَمِسٍ غَلِيلِي⁽¹⁾
وفي قوله أيضاً لأنْتَابَ المختار :

كفرت بِوَحِيكُمْ وَجَعَلْتَ نَذْرًا عَلَيَّ قَاتَالُكُمْ حَتَّى الْمَمَاتِ⁽²⁾

خامساً: المرجئة

نشأ هذا الحزب بعد متصف القرن الأول للهجرة، فهو أحدث نشأة من الشيعة والخوارج، وهو مغاير في رأيه للإثنين معاً، يرى الحياد في الحكم على المتنازعين من المسلمين بعد مقتل عثمان. يدل على ذلك قول ابن عساكر: «إنهم قدموا المدينة، ... فقالوا: تركناكم وليس بينكم اختلاف وقدمنا عليكم وأنتم مختلفون، فيغضكم يقول: قتل عثمان مظلوماً، وبغضكم يقول: كان علي أولى بالحق وأصحابه، ... فتحن لا نتبرأ منهما، ولا نلعنهما، ولا نشهد عليهما، ونرجن أمرهما إلى الله، حتى يكون هو الذي يحكم بينهما»⁽³⁾.

أما تسميتهم بالمرجئة فتعود إلى سبب من أربعة:

- 1 - أرجأوا أمر الشيعة والأمويين والزبيريين إلى الله، ولم يقضوا عليهم بخطا.
- 2 - أخرموا الحكم على مرتکب الكبائر إلى يوم القيمة، وأعطوه الرجاء في المغفرة⁽⁴⁾.

(1) المصدر السابق. 6/92.

(2) المصدر السابق. 6/55.

(3) المرجنة أربعة أصناف: مرحلة الخوارج، ومرحلة القدرة، ومرحلة الجبرية، والمرحلة الخالصة. والمراد هنا الخالصة. الشهرستاني: ملل ونحل 1/187.

(4) رجع نيكلسون هذا الرأي.

Nicholson, R.A. A Literary History of the Arabs. Combridge 1956. P.220.

وال مصدر السابق: 1/195 وما بعد.

3 - قالوا: إن الإيمان تصدق بالقلب واللسان، ولا حاجة إلى الأعمال،
لأنهم قدموا القول وارجأوا العمل أي آخروه⁽¹⁾.

4 - سموا بذلك لأنهم أرجأوا أي آخروا علياً عن الدرجة الأولى إلى
الرابعة، على نقىض الشيعة⁽²⁾.

هذه الصبغة العامة لنشأة المرجنة توحى بأنهم حزب سياسي يقف من
الجميع موقف الحيدة، وقد عبر عن ذلك ثابت بن قطنة خير تعير بقصيدة
طويلة، جاء فيها:

نُرجي الأمور إذا كانت مُشبَّهَةً ونصدق القول فيمن جاز أو عَنَدَا



أما عليٌّ وعثمانٌ فإنهما عبدان لم يشركا بالله مُذْعِنَدَا
الله يعلم ماذا يحضران به وكل عَنْدِ سيلقى الله منفردا⁽³⁾
على أن خصومهم حملوا عليهم، واتهموهم بالكفر والشرك، في مثل
قول «نصر بن سيار»:

فامنخ جهاذك من لم يرجُ آخرةً
وأقتل مُوالِيهِم مِنَا وناصِرَهُم
فاقتُلُهُم غَضَبًا لله منتصراً
إرجاوكُم لرَّئُكُم والشَّرْكَ في قَرَنِ
إذ كان دينُكُم بالشَّرْكِ مقرُونا⁽⁴⁾

سادساً: المعتزلة

في نشأتها وتطورها امتداد للمرجنة، ظهرت في العراق ثم ذاعت
تعاليماها هناك وفي دمشق. تتلخص مبادئ المعتزلة في الأصول الآتية:

(1) ابن منظور: لسان العرب. الزييري: تاج العروس مادة رجاً.

(2) الشهريستاني: ملل ونحل 1/ 195 وما بعد.

(3) الأصفهاني: الأغاني: 13/ 52 دار الفكر عن بولاق.

(4) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك: 7/ 101.

- القول بالمنزلة بين المنزليتين، أي أن مرتکب الكبيرة ليس بكافر ولا مؤمن، لكنه فاسق يستحق النار.
- القول بالقدر، وإن الله لا يخلق أفعال الناس، بل الناس تخلق أعمالهم.
- القول بالتوحيد، ونفي الصفات الأزلية لله من علم وقدرة وسمع وبصر ...

4 - القول بقدرة العقل على معرفة الحسن والقبح⁽¹⁾:

أما تسميتهم بالمعتزلة فربما كان لموقف الحسن البصري من مرتکب الكبيرة وتسميته بالمنافق، ومخالفة تلميذه، واصل بن عطاء، لرأيه وتسميته بالفاسق، ومن ثم اعتزاله عنه⁽²⁾، وتتابع واصل على رأيه عمرو بن عبيد⁽³⁾. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فربما سموا كذلك، إذ زعموا أنهم اعتزلوا فتنى الضلال في نظرهم على الأقل، يريدون أهل الجماعة والخوارج⁽⁴⁾.

إن من نتاج قولهم بقدرة العقل على تمييز الحسن من القبح نظرية خلق القرآن.

يروى أن الجعد بن درهم مولىبني الحكم هو أول من تكلم في خلق القرآن بدمشق، ثم طلب فهرب إلى الكوفة، فتعلم منه الجهم بن صفوان. ويقال إن الجعد أخذ آراءه عن أبان بن سمعان، وأبان كان تلميذاً لطالوت الذي يقول بخلق التوارث، وكان زنديقاً⁽⁵⁾.

(1) أحمد أمين: فجر الإسلام: ص 297 - 298.

(2) الشهريستاني: ملل ونحل: 1/ 53 وما بعد والبغدادي: الفرق بين الفرق، ص 20. والزيدي: تاج العروس مادة (عزل). ابن منظور: لسان العرب مادة (عزل).

(3) المصدر السابق .

(4) المصدر نفسه .

(5) ابن الأثير: الكامل في التاريخ 5/ 196 المطبعة الأميرية. وابن نباته: سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون مطبعة الحلبي 1957 ص 168.

إن للمعتزلة آثار بعيدة المدى والعمق في الأدب والعلم والفكر لمسائل كثيرة جديدة في الإلهيات وغيرها. وهم أساتذة المعاشرة، وجهابذة البلاغة والخطابة، والرواد الأولون لمزج الفلسفة اليونانية بالدين، في دفاعهم عن عقيدتهم⁽¹⁾.

زندة الفرق:

أولاً: فرق الشيعة

ما يهمنا من هذه الفرق، هو الربط بين الزندة وبين ما اتّهم به بعضها من انحراف عن جادة الدين، أو الفكر، أو المجتمع، أو السياسة. وجميع فرق الشيعة مجتمعة أن الإمامة في علي بن أبي طالب، ثم في ولديه الحسن والحسين، ثم انقسموا إلى قسمين:

1 - قسم نقلها من الحسين إلى محمد بن الحنفية، وهم الكيسانية، وتوقف عنده، وبعض منهم ساقها إلى ابنه أبي هاشم ثم افترقوا بعده إلى خمس فرق، رأت إحداها أن الإمامة انتقلت من أبي هاشم إلىبني العباس⁽²⁾.

2 - قسم نقلها من الحسين إلى ابنه علي زين العابدين، ثم إلى ابنه محمد الباقر، ثم إلى ابنه جعفر الصادق. وهؤلاء انقسموا إلى قسمين:

أ - الإثنى عشرية، وهم الكثرة الغالبة.

ب - الإسماعيلية، ومنهم الفاطميون والقراطمة⁽³⁾.

وكلا الفريقين يتفقان في الأئمة إلى جعفر الصادق. لكن الإثنى عشرية يسوقونها من بعده إلى موسى الكاظم، ومن ثم بالتالي إلى (المهدي

(1) ابن النديم: الفهرست: ص 204 طبعة ليزج 1859 ومطبعة الاستقامة مصر.

(2) أنظر جدول «الإمامية» ص 127 من البحث.

(3) المصدر السابق. ص 127 من البحث.

المتظر)⁽¹⁾، وينذهب بها الإسماعيلية من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل، ومنه إلى ابنه (محمد المستور)، ومن بعده، إلى عبد الله المهدي رأس الدولة الفاطمية⁽²⁾. أشهر فرقهم:

1 - الكيسانية:

أما كيسان المنسوبة إليه «الكيسانية» فمختلف فيه⁽³⁾، وأما الثابت فهو أن المختار الثقفي تزعم الفرقة سنة 66هـ، وقد كان حافلاً بالدهاء والتقلب، بدأ حياته السياسية عثمانى التزعة لا علوى الوجهة⁽⁴⁾، ثم صار من شيعة الحسين بن علي⁽⁵⁾، ثم من أنصار ابن الزبير⁽⁶⁾ ثم دعا إلى محمد بن الحنفية⁽⁷⁾، وجداً في تقريب الموالي إليه، فتكاثروا في فرقته، وأخلصوا له، ووثقوا به⁽⁸⁾، وصفه المبرد بأنه كان خارجياً، ثم زبيرياً، ثم راضياً⁽⁹⁾. ذكر عنه كثير من الأضاليل، منها: أنه ادعى النبوة، وأن جبريل ينزل عليه، ويأتيه بوحي من الله⁽¹⁰⁾.

أما أصول مذهب هذه الفرقة، فتدور حول الإمامة والإمام. فالإمامـة -

(1) الجدول. المصدر السابق.

(2) الجدول: المصدر السابق.

(3) أبو كيسان، مولى علي بن أبي طالب الذي قتل يوم صفين؟ أم كيسان تلميذ ابن الحنفية؟ أم كيسان رئيس حرس المختار الثقفي؟ أم هو المختار نفسه المسماى كيسان والمكتنى بأبي عمرة وأبي اسحق؟ الشهريستاني: ملل ونحل 1/196 البغدادي: الفرق بين الفرق، ص 38.

(4) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك: 6/22 وما بعد .

(5) المصدر السابق .

(6) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: 2/45 و 72 المطبعة الأميرية. وابن كثير: البداية والنهاية: 8/249 .

(7) المسعودي: مرجو الذهب 3/87. والشهريستاني: ملل ونحل 1/197.

(8) الدينوري: الأخبار الطوال ص 291. مطبعة السعادة. مصر .

(9) السباعي بيومي: تهذيب الكامل: 2/367 .

(10) ابن عبد ربه: العقد الفريد: تحقيق محمد سعيد العريان. 5/365. مطبعة الاستقامة، القاهرة 1359هـ / 1401م. والشهريستاني: ملل ونحل 1/398 وما بعد .

الخلافة - واجبة على المسلمين، وحق لعلي وبنيه، ومحمد بن الحنفية هو الإمام، وهو ممتاز بين البشر، مظہر معصوم من الخطأ، علیم بالشريعة، طاعته مفروضة على الناس⁽¹⁾.

آمن الكيسانية بالتقية والرجعة قبل الحساب. وقد أظهر ذلك السيد الحميري في قوله:

وعَلَّهُ الْمَوَاطِطُ بِالْخَضَابِ
فَقُمْ يَا صَاحِبِ الْشَّبَابِ
إِلَى دُنْيَا هُمْ قَبْلُ الْحِسَابِ
وَمَا أَنَا فِي النَّشُورِ بِذِي ارْتِيَابِ
حَيْوًا مِنْ بَعْدِ دَرْسٍ فِي التُّرَابِ⁽²⁾

إِذَا مَا مَرَءَ شَابٌ لَهُ قَذَالُ
فَقَدْ ذَهَبَتْ بِشَاشَتُهُ وَأَوْدَى
إِلَى يَوْمِ تَثْوِيبِ النَّاسِ فِيهِ
أَدِينُ بِأَنَّ ذَلِكَ دِينُ حَقٌّ
كَذَاكَ اللَّهُ أَخْبَرَ عَنْ أَنَّاسٍ

2 - الزيدية:

يتتبّون إلى زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي. مذهبهم أقرب إلى الاعتدال من الكيسانية، تأثروا بأراء المعتزلة لأن زعيمهم كان تلميذاً لواصل بن عطاء⁽³⁾.

افترقوا إلى عدة فرق، أشهرها: الجارودية، السليمانية، الصالحية والبتيرية. حصرّوا الخلافة فيبني علي من فاطمة، سواء أكان من نسل الحسن أم من نسل الحسين⁽⁴⁾. رفض شيعة الكوفة رأي مؤسسيهم في عدم تكفير أبي بكر وعمر، فسموا رافضة⁽⁵⁾.

(1) المصدر السابق. والبغدادي: الفرق بين الفرق ص 38 وبما بعد.

(2) ابن خلدون: المقدمة، ص 522. تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، مطبعة البيان العربي، مصر 1376هـ / 1957م.

(3) الشهري: ملل ونحل 1/ 207 وما بعد.

(4) الحوفي: أدب السياسة: ص 59 جدول بخلفائهم.

(5) الشهري: ملل ونحل 1/ 29. تحقيق محمد بدران. مطبعة مخيمر بالقاهرة.

نشأت فرقة الرافضة من الزيدية، حيث أن بعض أصحاب زيد بن علي فارقوه، ونكثوا بيته، لما رفض تكبير أبي بكر وعمر، وقالوا: إن إمامنا منذ اليوم جعفر بن محمد بن الحنفية، وهو أحق بالأمر، ولا نتبع زيداً، فليس بإمام، فسماهم زيد الرافضة⁽¹⁾ منهم (الاسحاقية) الذين زعموا أن علياً هو الله، يظهر في كل وقت فهو الحسن في آنٍ، والحسين في آنٍ آخر، وهو الذي بعث محمداً. ومنهم (الغرابية) الذين ادعوا أن علياً هو شريك محمد في النبوة. ومنهم أيضاً (الذمامية) الذين يذمون جبريل، لأنه حسب زعمهم كان مأموراً بالنزول إلى علي فنزل إلى محمد⁽²⁾.

هذه الفرق جميعها، وإن اختلفت في اسم الإمام، فإنها اتفقت على أن الإمام الأول هو علي بن أبي طالب، كما اتفقت على رجعة المهدى المنتظر، فمنهم من سماه محمد بن الحنفية، ومنهم من قال: إنه محمد بن الحسن العسكري، ومنهم من ادعى أنه غير هذين⁽³⁾.

كان كثيرون الشاعر كيساني المذهب، يؤمن بأن محمد بن الحنفية هو المهدى الذي سيملأ الأرض عدلاً، بعد ما ملئت جوراً، وهو الذي خبر عنه كعب الأحبار، يقول:

هو المهدىُ خَبَرَنَاهُ كَعْبٌ
أَخْوَ الْأَحْبَارِ فِي الْحَقِّ الْخَوَالِيِّ⁽⁴⁾
ويصرح كثير في أحقيته علي وبنيه بالخلافة، وأن ابن الحنفية سيعود،
بقوله:

(1) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك 8/272. والحوفى: أدب السياسة: 63.

(2) ابن أبي حميد: شرح نهج البلاغة: 2/176.

(3) ابن الجوزى: نقد العلم والعلماء. ص 103. مطبعة السعادة بمصر 1340هـ. والبغدادى: الفرق بين الفرق: 21 وما بعد .

(4) الأصفهانى: الأغاني 9/16 دار الكتب .

ألا إن الأئمة من قرئي
عليٌ والثلاثة من بنبيه
فسبط سبط إيمان وبرٌ
وسبط لا يذوق الموت حتى
يقوء الخيل يتبعها اللواء⁽¹⁾
تغيب لا يُرى فيهم زماناً
برضوى عنده عسلٌ وما⁽²⁾

أما السيد الحميري الشاعر فيدين بأن ابن الحنفية لم يمت، وأنه في جبل رضوى يقيم بين نمر وأسد يحرسانه، وسيعود، بعد غيبته ليملأ الأرض عدلاً وخيراً، يقول:

أطلت بذلك الجبل المُقاما
ألا قل للوصي فَدَّثك نفسِي
إلى أن يقول:

وما ذاق ابن خولة طعم موتٍ
ولا وارث له أرضٌ عظاما⁽³⁾

ثانياً: فرق الخوارج

بقي الخوارج حزباً واحداً حتى سنة 65هـ، عندما انفضوا عن ابن الزبير⁽⁴⁾ تاركين مكة، فشخص بعضهم إلى اليمامة، وهم النجدات أتباع نجدة ابن عامر الحنفي، واتجه الباقون إلى البصرة، وهم الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق. ثم تشعبوا إلى عشرين فرقة، أشهرها:

(1) سبط الإيمان والبر الحسن بن علي. وسبط كربلاء الحسين. والسبط الحي محمد بن الحنفية.

(2) الأصفهاني: الأغاني 9/14. وكثير: الديوان 1/185 طبعة الجزائر.

(3) الشهريستاني: ملل ونحل 1/196 مطبعة مخيم بالقاهرة. وخولة: أم محمد بن الحنفية. وأنظر للسيد الحميري قصيدة يبين فيها أن ابن الحنفية حي وهو موجود بمكة إبان الحج، يرى وفود الحاج ولا يروعه. الأصفهاني: الأغاني 4/7 دار الكتب.

(4) أتوا مكة ليحاربوا مع ابن الزبير ضد بنى أمية، لظنهم أنه يدين بمعذهبهم، ولما رأوه يخالفهم في ذلك تركوه.

1 - الأزارقة:

هم أتباع نافع بن الأزرق، أكثرهم من تميم، ثم انضم إليهم كثير من الموالي⁽¹⁾، كفروا عليناً وال المسلمين جميعاً، ما عداهم، واستحلوا قتلهم. لم يستحلوا ذبائح غيرهم من المسلمين، لا يزوجون ولا يتزوجون من غيرهم، لا يقبلون بشهادتهم⁽²⁾.

كان سَبْرَةُ بن جعد، قد اتصل بالحجاج وسامره، ثم عاد إلى مذهبة الخارجي، وهو يصف مخالفيهم بالكفر ويلعنهم في قوله: فمن مبلغ الحجاج أن سميره قَلَى كُلَّ دِينٍ غَيْرَ دِينِ الْخَوَارِجَ رأى الناسَ - إِلَّا مَنْ رَأَى مِثْلَ رَأْيِهِ مُلَاعِنَ تَرَاكِينَ قَصْدَ الْمُخَارِجِ⁽³⁾

2 - النجدات:

أتبع نجلة بن عامر الحنفي، خرجوا عن الأزارقة وخالفوهم في عدة مسائل، إذ احلوا الزواج والميراث والذبائح منهم وإلى غيرهم، وتقبل شهادة المسلم الآخر⁽⁴⁾ خرج منهم (ال福德ية) و(العطوية) و(العجارة) ثم (الميمونية) التي أحلت نكاح بنات أولاد الأخوة والأخوات، بدعوى أن القرآن لم يحرمنهن، وحُكِي عنهم أيضاً أنهم أنكروا أن تكون سورة يوسف من القرآن، لأنها في زعمهم قصة إغراء⁽⁵⁾.

3 - الإباضية:

أتبع عبد الله بن إياض التميمي. نظروا إلى مخالفيهم على أنهم كفار

(1) الشهروستاني: ملل ونحل 1/109 - 122. والبغدادي: الفرق بين الفرق ص 62. مطبعة الطحي 1364هـ / 1945م.

(2) السباعي بيومي: تهذيب الكامل لل McBride 1/83.

(3) المسعودي: مروج الذهب 1/39. المطبعة البهية المصرية 1346هـ.

(4) المبرد: الكامل 12/177 - 178. تحقيق إبراهيم شحاته. مطبعة نهضة مصر. وابن عبد رببه: العقد الفريد 1/214 و 214. تحقيق محمد العريان. مطبعة الاستقامة القاهرة 40.

(5) الشهروستاني: ملل ونحل 1/116. مطبعة مخيمر بالقاهرة.

غير مشركين⁽¹⁾. ولهذا أباحوا الزواج والإرث والشهادة من مخالفتهم⁽²⁾.

4 - الصفرية:

أتباع زيد بن الأصفهري، مذهبهم مزيج من مذهب الأزرقة والنجادات والإباضية⁽³⁾، وقيل إنهم سموا صفرية لأن ألوانهم كانت مصفرة، وفي هذا يقول ابن عاصم الليثي - وكان خارجيًا ثم صار مرجحاً :

فارقت نجدة والذين تزّرقوا وابنَ الزبير وشيعة الكذاب
والصُّفْرِ الآذان الذين تخَيَّروا دينًا بلا ثقة ولا بكتابٍ⁽⁴⁾
ومن شعراء الصفرية المقدمين عمران بن حطان السدوسي وقد كان
من علمائهم وخطبائهم أيضًا، مدح ابن ملجم، قاتل علي بن أبي طالب⁽⁵⁾.
ومن شعرائهم معاذ بن جوين بن حصين سجنه المغيرة والي الكوفة
سنة 41هـ. فقال في الحبس:

الا ائها الشارون قد حان لامرئ شرى نفسه الله أن يتربلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالة وكل امرئ منكم يعاد ليقتل⁽⁶⁾

وليس لنا أن نذهب بعيداً في الربط بين الزندقة والمغالين من
الأحزاب وبعض هذه الفرق الرافضة، وأكثراهم يقول: إن الله ذو قدّ وصورة
وحده، يتحرك ويسكن، ويدنو ويبعد، ويخف ويُثقل، وإن علمه محدث،
وإنه كان غير عالم فعلم، وهو يشاء كل فاحشة ويريد كل معصية⁽⁷⁾، وكثير

(1) ابن خلدون: المقدمة ص520. مطبعة البيان العربي بمصر 1376هـ / 1957 م .

(2) الأصفهاني: الأغاني: 20/98 و 105. دار الكتب .

(3) الشهرستاني: ملل ونحل 1/123.

(4) أبو العباس محمد بن يزيد (المبرد). الكامل في اللغة والأدب: شرح المرصفي، ط: القاهرة 2/292، والشطر الأول من البيت الثاني مكسور الوزن. والكتاب: المختار الثقفي .

(5) الأصفهاني: الأغاني 16/156 وما بعد 7/6.

(6) الطبرى: تاريخ الأمم ولملوك: 5/187 دار سيدان .

(7) الخياط (أبو الحسين عبد الرحيم) الانتصار. القاهرة 1914م، ص5.

من فرقهم كانوا يشركون مع الله إلهاً آخر، أو يزعمون أن إمامهم هو الله⁽¹⁾، وفي أمثالهم يقول السيد الحميري:

قُومٌ غَلَّوا فِي عَلَيٍّ لَا أَبَا لَهُمْ وَاجْشَمُوا أَنفَاقَ فِي حُبْهِ تَعَبًا
قَالُوا هُوَ اللَّهُ، جَلَّ اللَّهُ خَالقُنَا عَنْ أَنْ يَكُونَ أَبَنَ شَيْءٍ أَوْ يَكُونَ أَبَا⁽²⁾

وي بعض الروافض من هذه الفرق كفروا بالقيامة، والجنة والنار⁽³⁾،
وي بعضهم يقول برجعة الأموات إلى الدنيا قبل القيامة، وفي ذلك يقول أحد
شعرائهم:

إِلَى يَوْمِ يَرْؤُبُ النَّاسُ فِيهِ إِلَى دُنْيَاهُمْ قَبْلَ الْحِسَابِ⁽⁴⁾

إِنْ أَغْلَبُهُمْ يَكْفُرُ الصَّحَابَةَ، أَوْ بَعْضُهُمْ، لَتَرْكُهُمْ بِيَعْتَدِ عَلَيْهِ، وَيَهْجُونَهُمْ
هَجَاءَ مِنْ⁽⁵⁾، وَلَا يَتُورَّعُونَ عَنْ سَبِ زَوْجَاتِ الرَّسُولِ⁽⁶⁾.

هذه هي بعض الملامح البارزة في زندقة هاتيك الروافض من الفرق
وغلة الأحزاب. وهناك سواها مما يمت إليها بصلة قوية، مثل إباحة
المحرمات وتحليل الشهوات، أليس في هذه الصفات تأثيرات واضحة
ولوج في ثانية المعتقد، ومذاهب التناصح وما أشبه.

إن هذه الفرق المذهبية، المختلفة في الفكر والانتماء السياسي، قد
أقامت حياتها بالإخلاص لمذهبها، تنفذ شعائره وفرضه بدقة، وتنسى في
سبيل ذلك كل ما فرضه عليها دينها من أبسط الواجبات.

(1) البغدادي: الفرق بين الفرق ص 236 وما بعد. دار المعرفة .

(2) الخياط: الانتصار ص 148.

(3) أمثال المنصورية، أتباع أبي منصور العجلاني. البغدادي: الفرق بين الفرق. ص 245.

(4) المصدر السابق، ص 59. دار المعرفة .

(5) من هذه الفرق: الجراودية، السليمانية، البتيرية، الكاملية، وغيرهم. المصدر السابق.
ص 30 - 54 .

(6) الجاحظ: الحيوان 1/119. دار صعب. أنظر قول السيد الحميري في نعت عائشة زوج
الرسول بصفات نعف عن ذكرها .

ولعل مشكلة الخلافة والإمامية كانت أولى المشكلات، التي اختلفت حولها الفرق المذهبية، يليها في الأهمية مشكلة الجبر والاختيار، وقد ظهر مدى هذا الخلاف في الشعر الذي أوردهناه في هذا الفصل، وما سترورده فيما يلي. وقد نجد من الشعراء من ينتصر لهذا الحزب أو ذاك، أو ينتصر للقدرية، أو يقف بجانب الجبرية، أو هو مذبذب الرأي بين الكل. كصالح بن عبد القدوس الذي ينفي الجبرية بقوله:

ولا أقول إذا ما جئت فاحشةٌ إني على الذنب محمولٌ ومحبُّ
أو هو متحير بين الجبر والاختيار بقوله:

لَمْ تخلُّ أفعالُنَا اللاتِي نُدَلِّ بِهَا
إِمَّا تفرَّدُ مولانا بِصَنْعِنَا
فَاللَّوْمُ يَسْقُطُ عَنَّا حِينَ تَأْتِيهَا
إِنْ كَانَ يَلْحَقُنَا فَاللَّوْمُ يَلْحَقُهُ
أَوْ كَانَ يَشْرُكُنَا فَاللَّوْمُ يَلْحَقُهُ
وَلَمْ يَكُنْ لِإِلَهٍ فِي جَنَائِتِهَا
صَنْعٌ فَمَا الصُّنْعُ إِلَّا ذَنْبٌ جَانِيَّهَا⁽¹⁾

أما أبو العتاهية فيذهب مذهب الجبرية بقوله:

الحمدُ لِللهِ يَقْضيُ مَا يَشَاءُ وَلَا يُقْضيُ عَلَيْهِ وَمَا لِلنَّاسِ مَا شَاءُوا
لَمْ يُخْلِقِ الْخَلْقُ إِلَّا لِلْفَنَاءِ مَعًا تَغْنَى وَتَبْقَى أَحَادِيثُ وأَسْمَاءُ⁽²⁾

ويشار يجري مجرى الجبرية بقوله:

خُلِقْتُ عَلَى مَا فِي غَيْرِ مُخَيَّرٍ هَوَىٰ وَلَوْ خَيْرُتُ كُنْتُ الْمُهَذِّبَا⁽³⁾
هذا من الناحية الإيمانية أما من حيث الدفاع عن حزب أو فرقة أو
مذهب وهجاء من عداتها، فخير ما يمثل ذلك قول: ثابت قطنة:

(1) الراغب الأصفهاني (أبو القاسم حسين بن محمد) محاضرات الأدباء، المطبعة الراقيية، القاهرة 1326هـ. 2/185.

(2) الديوان: ص. 1. نشر لويس شيخو. المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1914م.

(3) بشار بن برد: الديوان: تحقيق محمد عاشور لجنة الترجمة القاهرة 1950 - 1957 ـ 3 ثلات أجزاء 1/246.

يا هنْدُ فاستمعي لي إِنَّ سيرتَنا
نُرجِي الأمورَ إِذَا كَانَتْ مُشَبَّهَةً وَنَصِّفُ القولَ فِيمَنْ جَارٌ أَوْ عَنْدَهُ
إِلَى أَنْ يَقُولَ:

كُلُّ الْخَوَارِجُ مُخْطِطٌ فِي مَقَالَتِهِ وَلَوْ تَعْبَدَ فِيمَا قَالَ وَاجْتَهَدَ^(۱)
وَلَا يَنْسِي عَفْوَ اللَّهِ - وَالْمَرْجِنَةُ تَجِيزُ هَذَا الْعَفْوَ، حَتَّى مَعَ دُعَمِ التَّوْبَةِ -
مُخَالِفًا رأِيَ الْمُعْتَزِلَةِ الَّتِي تَرَى أَنَّ مَرْتَكِبَ الْكَبِيرَةِ يَسْتَحْقُ الْعَقُوبَةَ حَتَّى مَا
لَمْ يَتَبَّعْ مَرْتَكِبَهَا، فَيَقُولُ:

وَلَا أَرَى أَنْ ذَنْبًا بِالْغَيْرِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ شَرِيكًا إِذَا مَا وَحَدُوا الصَّمَدَ
وَيَظْهُرُ أَنَّ أَبَا نَوَاسَ قَدْ مَالَ إِلَى هَذَا الْمَذْهَبِ يَتَالِ عَفْوَ اللَّهِ عَنْ آتَاهُمْ،
يَقُولُ:

لَا تَحُظِّرِ الْعَفْوَ إِنْ كُنْتَ امْرَءًا حَرِيجًا فَبِأَنَّ حَظْرَكَهُ بِالدِّينِ إِزْرَاء^(۲)
وَمَا دَامَ الْعَفْوُ واقِعًا فَلَمْ لَا يَشْرُبْ وَيَرْتَوِي مِنَ الصَّهَابَاءِ، يَقُولُ:
وَثَقْتُ بِعَفْوِ اللَّهِ عَنْ كُلِّ مُسْلِمٍ فَلَسْتُ عَنِ الصَّهَابَاءِ مَا عَشْتُ مُقْصِرًا^(۳)
وَيَنْصُبُ الْمُعْتَزِلَةُ أَنْفُسَهُمْ لِلرَّدِّ عَلَى أَصْحَابِ الْضَّلَالَاتِ وَالْفَتَنِ، فَحِينَ
قَامَ بِشَارِ يَعْتَذِرُ لِإِبْلِيسِ الْلَّعِينِ فِي أَنَّ النَّارَ خَيْرٌ مِنَ الْأَرْضِ، بِقَوْلِهِ:
إِبْلِيسُ أَفْضَلُ مِنْ أَبِيكُمْ آدَمَ فَتَنَبَّهُوا يَا مَغْشَرَ الْفُجَارِ
النَّارُ عَنْصُرَهُ وَآدَمُ طِينَةُ وَالْطَّينُ لَا يَسْمُو سَمْوَ النَّارِ^(۴)
يَتَصَدِّي لِهَذِهِ الدُّعْوَةِ، صَفْوَانُ الْأَنْصَارِيُّ، شَاعِرُ الْمُعْتَزِلَةِ بِقَصْيَدَةٍ
طَوِيلَةٍ، يَدُورُ مَوْضِعُهَا عَلَى الْمَفَاضِلَةِ بَيْنَ النَّارِ وَالْأَرْضِ^(۵).

(۱) الأصفهاني: الأغاني 13/52 دار الفكر عن بولاق.

(۲) أحمد أمين: ضحي الإسلام 3/329 دار الكتاب العربي.

(۳) أبو النواس: الديوان ص 259. رواية الصولي / مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (1265).

(۴) هدارة: اتجاهات الشعر العربي. ص 332. دار المعارف بمصر.

(۵) الجاحظ: البيان والتبين 1/29 - 32 الشركة اللبنانية للكتاب.

ومما لا شك فيه أن المساجلات الأدبية - وعلى الأخص الشعرية منها - كان لها الأثر الكبير في أدب القرن الثاني. وقد وصف هذا الأثر أحمد أمين بقوله: «لقد أغنى المعتزلة الأدب من حيث المعاني وقوة العقل وسعة الذهن، وتوليد الأفكار العقلية والنظر إلى الكون والطبيعة، ... لقد نقلوا الأدب من لفظ رشيق إلى معنى عميق، ومن عبارات مجملة منمقة إلى موضوعات واسعة مسيبة. وبعد أن كان الأدب خلواً من الموضوع جعلوا له موضوعاً، فمن موضوعه: الحيوان والبخلاء والإماء والقيان، إلى غير ذلك من موضوعات لم تكن في الأدب قبل المعتزلة»⁽¹⁾.

ومهما يكن من شيء فإن شعر الفرق والأحزاب التي كفرت بعضها البعض، وكثيراً ما رمى الخصم خصمه بالزندة - كان اتجاهها جديداً حقاً في الشعر العربي، له قيمة تاريخية وفكرية كبيرة، وهو يصور الاصطراع بين المذاهب والفرق، التي كانت متعددة، لا يحيط بها حصر ولا فكر، ولعل خير ما نختتم به الكلام عن صراع الفرق، تلك الآيات التي قالها محمد بن يسir، في إظهار ضيقه بهذه الفرق والمذاهب⁽²⁾:

يا سائلني عن مقالة الشَّيْعَ³ وعن صُنُوف الأهواء والبِدَعِ
دَعْ مَنْ يَقُوْدُ الْكَلَامَ نَاحِيَةَ فَمَا يَقُولُ الْكَلَامُ ذُو وَرَعِ
كُلُّ أَنَاسٍ بَدِئِيُّهُمْ حَسَنٌ ثُمَّ يَصِيرُونَ بَعْدَ لِلشَّيْعَ
أَكْثَرُ مَا فِيهِ أَنْ يُقَالَ لَهُ لَمْ يَكُنْ فِي قَوْلِهِ بِمُنْقَطِعٍ
كَمَا أَنَّ الرِّيَاشِيَ يَنْشُدُ بَيْتَيْنِ يُؤْكِدُ فِيهِمَا رَأْيَ سَابِقِهِ مَبْلَغَ التَّاَحِرِ
بَيْنَ الْفَرَقِ وَالْمَذَاهِبِ الْمُخْتَلِفَةِ، يَقُولُ:

فِي الدِّينِ بِالرَّأْيِ لَمْ تُبَعَّثْ بِهَا الرُّسُلُ
وَفِي الدِّينِ حُمِلُوا مِنْ حَقِّهِ شُغُلُ⁽³⁾
قَدْ نَقَرَ النَّاسُ حَتَّى أَحَدُهُمَا بَدَعَا
حَتَّى اسْتَخَفَ بِحَقِّ اللَّهِ أَكْثَرُهُمْ

(1) أحمد أمين: ضحى الإسلام 3/314. دار الكتاب العربي.

(2) أبو العباس العبرد: الكامل في اللغة والأدب. نشر وليم رait. طبعة ليزيج / 1864م. ص 142.

(3) المصدر نفسه، ص 141.

زنادقة ثورية:

نستطيع قسمة حركة زنادقة إلى قسمين:

أ - قسم عملي قام فيه زنادقة بحركات ثورية بدأ أكثرها من بلاد فارس، وامتدت إلى نواحي الدولة العباسية.

ب - قسم فكري ظهر فيه زنادقة مسالمون ينشرون دعوتهم عن طريق الكتابة والشعر والفلسفة. وقد ساعد على قيام تلك الحركات الثورية عوامل كثيرة، أهمها الاضطرابات والفتنة التي نشبت بين مؤيدي الحزب العلوي، والأموي، والخوارج، وبين معارضهم، وكذلك بين العباسيين الطامعين في الخلافة، وزادها معاملة عمال الخلفاء لمرؤوسיהם، كإنقال كاهمهم بالضرائب. وانقلاب بعض خلفاء العباسيين على مناصريهم من الشخصيات والأسر الفارسية⁽¹⁾.

إن أغلب حركات زنادقة ظهرت في الطرف الشرقي للدولة العباسية، ولم يكن الخلفاء العباسيون يتصدرون لها إلا إذا وجدوا منها خطراً على ملكهم. أما زنادقة المسالمون فانتشروا وكثروا لما كانوا يدعون إليه من مبادئ مغربية، كالمساواة في الأموال، وإباحة شرب الخمر والزنا، وكان ذلك نوع من الديمocrاطية الفاسدة⁽²⁾.

ولما كنا بقصد زنادقة الثورية المسلحة، التي عبّر عنها الخلفاء العباسيون الجيوش للقضاء على دعاتها، فستعرض لهؤلاء الدعاة تباعاً.

أولاً: حركة بيهافريد

إنها طبيعة حركات زنادقة في العصر العباسي، بدأت في حياة أبي مسلم، وهدفت إلى إحياء العقائد المجنوسية القديمة، مؤسسها بيهافريد من رستاق نيسابور، وكان زمزرياً⁽³⁾، مجنوسياً، يقدس النار، ويدعي أنه يوحى

(1) كقتل السفاح لأبي سلمة الخلال، والمنصور لأبي مسلم، والرشيد للبرامكة .

(2) كما يقول حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي 2 / 115 مكتبة النهضة المصرية .

(3) الشهروستاني: ملل ونحل 2 / 80. دار المعرفة .

إليه بالسر⁽¹⁾. «وجاء أنه وضع كتاباً، وأمر أتباعه باستقبال الشمس عند السجود على ركبة واحدة، وحرم عليهم الميّة، وذبح الحيوان حتى يهرم»⁽²⁾. دعا إلى فكرة الحلول، أي أن روح الله تحل في شخص ثم تنتقل إلى آخر وهكذا، بحيث تمنع صاحبها الخلود. ونادي بفكرة الرجعة إلى الدنيا بعد موت الإنسان⁽³⁾.

ثانياً: الحركة السنبلانية

بعد مقتل أبي مسلم سنة 137هـ، ظهرت حركة «سنبلاد»، الذي ألمه مصرع زعيمه، فثار مطالبًا بالانتقام له⁽⁴⁾، أعلن سنبلاد الثورة، واستفاد من تعاليم بيهافريد من ناحية الحلول والرجعة، فزعم أن أبو مسلم لم يقتل، إنما حول نفسه إلى حمامه بيضاء هارباً من المنصور، وهو حي لم يمت.

حملت حركته طابع الإلحاد والزنقة، والتلف حوله أنصار كثيرون بعد أن انتشرت دعوته انتشاراً واسعاً، قتله أحد عمال المنصور في طيرستان⁽⁵⁾.

ثالثاً: الحركة الإسحاقية

من الزنادقة الشوار اسحق التركي، أحد أتباع «أبي مسلم»، أيضاً ظهر بين سنتي 137هـ و140هـ عقب مقتل سيده، يروي «ابن النديم» عن عقیدته روایتين: الأولى تذكر أن أبو مسلم حي يعيش في جبال الري ويخرج منها، والثانية تذكر أنه أدعى النبوة وهو مرسل من قبل زرادشت الحي⁽⁶⁾.

(1) البيروني (محمد بن أحمد): الآثار الباقية من القرون الخالية: ليزج 1878م. ص 210.

(2) الشهرستاني: ملل ونحل /2 .80

(3) Brown. Edward G.A. Literary History of Persia, (London) 1909. P.309-310.

(4) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك /7 .495. دار سعيدان .

(5) المسعودي: مروج الذهب /3 .306. دار المعرفة .

(6) ابن النديم: الفهرست، ص 483. دار المعرفة .

رابعاً: الخرمية

١ - بابك الخرمي: إن بلاد فارس التي نشأ فيها بابك الخرمي، كانت كثيرة المعتقدات والبدع، قبل الإسلام وبعده، ظهرت فيها طوائف دينية مختلفة ومنها «الخرمية»^(١)، التي أسسها مزدك في أيام قباذ والد كسرى أنوشروان، وقد نشأت من الخرمية المزدكية طائفة الخرمية البابكية، نسبة إلى بابك الذي ادعى الألوهية، وقض مضاجع الدولة العباسية في أيام المؤمنون، وحتى أيام المعتضم.

يرى بعض المؤرخين أن بابك هذا من سلالة أبي مسلم الخراساني، وقد ثار في وجه العباسيين انتقاماً له، وأن حركته استمرار لحركة المقنع الخراساني والرواندية وغيرها^(٢).

إن لمذهب الخرمية فروعًا كثيرة، لستنا بقصد حصرها في هذا المكان، وجميع فرقها مجمع على القول بالرجعة، ويقولون بتغيير الاسم وتبدل الجسم (يعني القول بالتناصح)، يعظمون أبا مسلم ويلعنون أبا جعفر لقتله، ويكترون الصلاة على مهدي بن فيروز لأنه من ولد فاطمة بنت أبي مسلم ... أصل دينهم القول بالنور والظلمة^(٣)، ومحصول أمرهم التعطيل والإلحاد، مبدأهم تاليه البشر. فالخرمية يقولون: «آمنا بك يا روح بابك كما آمنا بك يا روح جاويidan»^(٤).

رفض الخرمية جميع الفروض الدينية، كالصلاحة والصوم والحج والزكاة. وأباحوا شرب الخمر والمحرمات والاشتراكية في النساء^(٥). ويرى

(١) قيل أنهم سموا خرمية نسبة إلى (خرما) امرأة مزدك التي عملت على نشر عقائد هذا المذهب بعد قتل زوجها، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي 2 / 108.

(٢) الدينوري (أبو حنيفة، أحمد بن داود): الأخبار الطروال. ليدن 1888، ص 297.

(٣) المقدس (مظہر بن طاہر) البدھ والتاریخ. باریس 1899 - 1907، 4 / 30 - 31.

(٤) المصدر السابق 5 / 134.

(٥) نظام الملك: سیاست نامہ 2 / 298.

«فان فلوتن» أن هناك صلة بين اسم الخرمية ومعنى الكلمة (خرم): لذذ، فيقول: «إذا ما تكلمنا عن خرم دينياً، فلكي نبين أن هؤلاء كانوا لا يعرفون ديناً غير اللذة»⁽¹⁾.

نادى بابك الخرمي بمباذه فلقيت رواجاً عظيماً بين الفرس، وقام بحركة زندقة أشد خطراً من سابقاتها، وأكثر منها عنفاً، لما اكتنفها من حروب دامت نحو اثنين وعشرين عاماً سارت الخلافة العباسية بعدها قدماً نحو الضعف والانحلال.

2 - **الأفшиين والمازيار:** يشاء القدر أن يشهد عهد المعتصم حركتين من أكبر حركات الزندقة الثورية وأعنفها، وقد تحدثنا عن الخرمية التي هددت ملك المعتصم ودامت عشرين عاماً وتحدث الآن عن حركة أخرى، هي حركة المازيار والأفшиين.

إنها فرع من الشجرة الخرمية التي عملت على إحياء تعاليم مزدك المجوسية الشيوعية الفوضوية، والتي كما ذكرنا سابقاً قد بدأت في عهد قباذ، وأنعشها بابك الخرمي، وتولاها بعده المازيار ثم أيدها الأفшиين.

انتهز المازيار فرصة انشغال العباسيين بحرب بابك الخرمي، فنظم صفوفه واتصل سراً ببابك والأفшиين⁽²⁾، وعمل الثلاثة على التخلص من حكم العرب ومن الإسلام⁽³⁾، فكانت حركاتهم في الواقع ثورات دينية وسياسية معاً.

كانت عيون المعتصم منبثة في كل مكان تكشف عن الزنادقة، فكان

(1) حسن إبراهيم حسن (ترجمة) السيادة العربية. ص 99 - 100، القاهرة 1934. محمد زكي إبراهيم .

(2) كان المازيار والياً للمامون في طبرستان، كما كان الإفшиين قائداً لإحدى الفرق التي غزت عمورية زمن المعتصم .

(3) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي. ص 2/112

من الطبيعي أن ينكشف سر المازيار على حقيقته، وخياناته، واتصاله ببابك الخرمي، ورئاسته لجماعة دينية تعتقد التعاليم المزدكية. يقول البغدادي عن هذه التعاليم المازيارية: «ينسبون أصل دينهم إلى أمير كان لهم في الجاهلية اسمه شروين، ويزعمون أنه أفضل من محمد ومن سائر الأنبياء، وقد بنوا في جبلهم مساجد للمسلمين يؤذن فيها، وهم يعلمون أولادهم القرآن لكنهم لا يصلون في السر، ولا يصومون شهر رمضان، ولا يرون جهاد الكفرة»⁽¹⁾. كما يقول: براون عن الأفشين: «لم يكن في ميله ونشأته الفارسية أقل وطنية وعطفاً على الفرس من هذين الرجلين⁽²⁾، اللذين صحبا في نهايته المحزنة»⁽³⁾، ويتهمه المسعودي بوضعه أصناماً في داره، كان يعبدانها، ووجود كتب للزنادقة⁽⁴⁾، كما يتهمه والمازيار بعد أن قبض عليه، «أقر المازيار على الأفشين أنه بعثه على الخروج والعصيان، لمذهب كانوا اجتمعوا عليه ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس»⁽⁵⁾.

وقد عبر أبو تمام عن عقيدة الأفشين في هذه الآيات:

من قلبه حرماً على الأقدار
وَجَدَا كَوْجِدِ فِرْزَدِقِ بُنُوار
حتى اصطلى شرَّ الزناد الواري
مَيْتَا، ويدخلُها مع الْفُجَارِ⁽⁶⁾

قد كان بؤأه الخليفةُ جانبًا
فإذا ابنُ كافرةٍ يُسرُّ بِكُفْرِه
ما زال سُرُّ الْكُفْرِ بين ضلوعه
صلى لها حيًّا وكان وقوتها

وأتهم المعتصم الأفشين بعدة تهم عند محاكمته، منها أن أهل ولايته كانوا يكتبون إليه بعنوان «إله الآلهة، من عبده فلان بن فلان»، ومنها أكله

(1) البغدادي: الفرق بين الفرق ص 269. دار المعرفة .

(2) بابك الخرمي والمازيار.

Brouwn : Lit. Hist. For parsia 1/330. London.

(3)

(4) المسعودي: مروج الذهب 4 / 62. دار المعرفة.

(5) المصدر نفسه 4 / 61.

(6) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي. 2 / 113.

المخنوقه ورفضه الاختنان، واحتفاظه بالكتب الوثنية، وتنكيله بال المسلمين،
وادعاؤه الألوهية⁽¹⁾.

وقد علق (ميور) على محاكمة الأفшиين بقوله: «إنها تبين بجلاء
تمسك أهالي ما وراء النهر بدينهم الوثني، وإن إسلام بعض أهالي فارس
إنما كان ظاهرياً، وأنهم كانوا متمسكين بعقائدهم المجوسية القديمة،
يتهزون الفرصة للعودة إلى دينهم القديم، ومصداق ذلك ما رأيناه من ظهور
حركات سباذ، وأنصار أبي مسلم، وبابك»⁽²⁾.

خامساً: حركتا الرواوندية والسيسيية في عصر المنصور

من الحركات الزندقية التي واجهها أبو جعفر المنصور عقب مقتل أبي
مسلم حركة الرواوندية⁽³⁾، مؤسسها رجل أ'Brien يدعى (الأبلق)، دعا الناس
إلى تعاليم فاسدة «فزعهم أن الروح التي كانت في عيسى بن مرريم، صارت
في علي بن أبي طالب، ثم في الأئمة واحداً بعد واحد، إلى إبراهيم بن
محمد (سبط العباس عم محمد) وأنهم آلهة». وهكذا فإنه دعا إلى نظرية
الحلول وتناسخ الأرواح، كما أباح لأتبعه الحرمات والملذات، «فكان
كل رجل منهم يدعو الجماعة إلى منزله، فيطعمهم ويستقيهم ويبيع لهم
الحرمات»⁽⁴⁾. ظهرت خطورة تعاليمهم بعد مقتل أبي مسلم، عندما رأت
الرواوندية أن تزوج بال الخليفة في تعاليمها وتضعه موضع الهرج، فزعهموا أن
ال الخليفة المنصور هو ربهم، وهو الله⁽⁵⁾. حاربهم المنصور باعتبارهم زنادقة،
يريدون أن تعود المجوسية، أو أحد أشكالها، وقتلهم شر قتلة.

(1) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك 10 / 365 - 367 المطبعة الحسينية القاهرة.

Muir: Willian Temple. " The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall" (Edinburgh 1924). P.p. 518-519. (2)

(3) نسبة إلى مدينة راوند مهد دعوتهم القريبة من أصفهان .

(4) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك 9 / 306 - 307 المطبعة الحسينية - القاهرة.

(5) المصدر نفسه.

على أثر حركة الرواوندية في سلسلة حركات الزنادقة، قامت حركة عنيفة في جهة خراسان، تزعمها رجل يدعى «أستاذ سيس». ادعى هذا الرجل النبوة⁽¹⁾! فوجدت دعوته آذاناً صاغية، ذلك أن أهل خراسان كانوا على استعداد لتقبل أية دعوة ثورية ضد الحكم العربي، ويتجلّى ذلك في العدد الكبير الذي استجاب للدعوة.

علم المنصور بخبر هذا «الزنديق» الثائر فأرسل جيشاً قضى عليه⁽²⁾.

سايساً: حركة المقنعة

صاحب هذه الحركة رجل من «مرو» بخراسان، يسمى حكيم أو عطا أو هاشم، ويلقب بالمقنع، لأنّه كان يخفى وجهه بقناع من ذهب، ويضع على عينيه قطعة من حرير أخضر يستر بها عوره⁽³⁾.

كان المقنع من أخطر الزنادقة الثوار الذين رفعوا راية العصيان ضد الدين الإسلامي، ضد الخليفة المهدي، لذا ركز المهدي كل جهوده حتى نجح في القضاء عليه. كان المهدي من أكثر الخلفاء العباسيين تديناً وتمسكاً بأهداب الإسلام، يقول ابن طباطبا عنه: «كان المهدي شهماً فطناً، شدیداً على أهل الإلحاد والزندة، لا تأخذه في إهلاكهم لومة لائم»⁽⁴⁾.

ادعى المقنع الألوهية، وكان يقول: «الله خلق آدم فتحول في صورته، ثم في صورة نوح، ثم إبراهيم ... ثم في صورة محمد ... ثم في صورة أبي مسلم الخراساني، ثم انتقل إليه، ويقول أيضاً: «إني انتقل في

(1) اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح): تاريخ اليعقوبي. النجف سنة 1351هـ / 3 .115

(2) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك 8/ 29 - 32 و 371 دار سويدان.

(3) البغدادي: الفرق بين الفرق ص 257 - 258. دار المعرفة.

(4) ابن طباطبا (محمد بن علي، المعروف بابن الطقطقي) الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية. ص 161 فيما بعد (الفخرى). مطبعة الموسوعات، القاهرة. 1317هـ

الصور، لأن عبادي لا يطيقون رؤيتي في صورتي التي أنا عليها، ومن رأني احترق بنوري»⁽¹⁾.

أسقط المقنع الصلاة والزكاة والصوم والحج، وأباح للناس الأموال والنساء، كما أباح تعاليم مزدك، وأثر كثيراً في أتباعه فسجدوا له وعبدوه، وطلبو منه العون في الحروب بقولهم: يا هاشم أعننا⁽²⁾.

كان المقنع يمتاز عن بقية الزنادقة الثوار، بإظهار الحيل والمخارق التي لم يتمكن أهل زمانه من فهمها، كما لم تمدنا المصادر بمعلومات وافية نستطيع أن نصل بها إلى حقيقة هذه الخدع، وخصوصاً عندما أظهر قمراً يطلع ويراه الناس على مسيرة شهر، ثم يأفل⁽³⁾. وفي بدر المقنع الزائف هذا يقول أبو العلاء المعري:

افق إنما البدُّ المقنَّع رأسه ضلآلٌ وغَيْرِ مثْلِ بدر المقنَّع⁽⁴⁾
ويشير إليه الشاعر هبة الله بن سناء الملك (أبو القاسم) بقوله:

إليك فما بدرُ المقنَّع طالعاً بأسحر من ألفاظ بدر المعجم⁽⁵⁾
ولكن موت المقنع على يدي المهدي لم يضع حدأً لتعاليمه الزندقة التي سرت بين الناس سريان النار بالهشيم، ووصل أوار مثل هذه التيران إلى كثير من مدن فارس والعراق وإلى بغداد أيضاً، فتزرندق بعض وجوده القوم والأدباء والكتاب والشعراء، فضلاً عن كثير من العوام. وأدرك المهدي أن تعاليم الزندقة لم تقتصر على أشكال حركات ثورية قادها أشخاص كثيرون، كما مر سابقاً، بل تخطت ذلك، وولجت أبواب المجتمع بكل طبقاته، وهددت الإسلام ديناً ودولة، فأنشأ ديوان الزنادقة،

(1) البغدادي: الفرق بين الفرق: ص 258.

(2) ابن طباطبا: الفخرى ص 162.

(3) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي. 2 / 106.

(4) المصدر نفسه.

(5) ابن خلكان (شمس الدين الشافعي): وفيات الأعيان. ط بولاق 1282هـ. 1 / 453.

ليجتهد في «طلب الزنادقة، والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم»⁽¹⁾. وعهد بهذا الديوان إلى رجل، أطلق عليه اسم: «صاحب الزنادقة»⁽²⁾، وأمر بوضع الكتب للرد على متكلميهم ومناظرتهم، وتابعه في هذه السياسة ابنه الهادي الذي روی عنه أنه قال: «لمن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها»⁽³⁾. وعلى رغم محبة «الرشيد» للشعر والشعراء، وتجاهله ما ذهبوا إليه في مجونهم وعيثهم بالدين، فقد أبقى في وظيفة صاحب الزنادقة، وعاقب من ثبتت عليه تهمة الزنادقة - سواء كان عربياً أو أعمجياً - وقد قيل: إنه من أسباب نكبة البرامكة اتهامهم بالزنادقة⁽⁴⁾.

القسم الثالث

أنواع الزنادقة

1 - زنادقة دينية:

بعد عرضنا في الفصل السابق للزنادقة الثورية، نتحدث الآن عن نوع آخر من الزنادقة هو الزنادقة (الفكرية) شمولياً. وقد دعا إليها رجال فكر وأدب وعلم وكتاب ودين وسياسة وشعر وغيرهم ... وكانت هذه الزنادقة أشد خطراً على الدين الجديد، وعلى المجتمع، من الزنادقة الثورية.

أما الطوائف التي كانت تؤمن بهذا النوع من الزنادقة أو ذاك، فلا يمكن حصرها أو تحديدها، ولو أن بعض الباحثين قد حاول ذلك⁽⁵⁾. وينبغي التنبه إلى أن الاتهام بالزنادقة، وخصوصاً بين الشعراء، كان يستخدم

(1) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك. 6 / 289 المطبعة التجارية بالقاهرة 1949.

(2) الأصفهانى: الأغانى 3 / 73 والجهشىيارى (محمد بن عبدوس) الوزراء والكتاب، ص 156. القاهرة 1357هـ / 1938م.

(3) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك. 1 / 42، المطبعة الحسينية، القاهرة.

(4) ابن النديم: الفهرست، ص 473. دار المعرفة.

(5) عبد الرحمن بدوى: من تاريخ الإلحاد في الإسلام، ص 34.

أحياناً كسلاح من خصوم سياسيين، كما كان يستخدم من الشعراء أنفسهم
بدافع الخصومة الأدبية والفكيرية.

وقد يكون من الصعب أن نقسم زندقة الزنادقة إلى أنواع وأبواب، إذ
ربما وجد وراء كل منهم دوافع متعددة وأثار مختلفة، تارة يلجم باب الزندقة
الدينية، وطوراً يمجن ويتطهّر فيدخل ميدان الزندقة الاجتماعية. ولكننا
سنحاول ما أمكن أن تتبين الفجر من الفسق والضحى من العصر.

إن الحركات الزندقية التي شهدتها العصر العباسي الأول، قد تركت
أثراً في الحياة الدينية لذلك المجتمع المتعدد الأجناس.
أول هذه الآثار الدينية، ظهور الزهد⁽¹⁾، المتطرف أحياناً، كرد فعل
لحركات الزندقة.

ومن هذه الآثار الدينية، ظهور علم الكلام، إذ إن هذا المجتمع
المتعدد الجنسيات، والذي كان كثير من أنسائه على دين اليهودية والنصرانية
والمانوية والزرادشتية والبراهمة والصابنة والدهرية، وكانوا قد نشأوا على
تعاليم دياناتهم، ومنهم العلماء فيها ...، فقد ألبسو معتقدهم الجديد
(الإسلام) لباسهم القديم. وهذا يعلل ما نراه في كتب الفرق من أقوال ربما
ابتعدت عن الإسلام⁽²⁾ وقد انبرى جماعة من علماء المعتزلة للردة على
الزنادقة والملحدين، أمثال: واصل بن عطاء، والعلاق، وإبراهيم النظام،
وأخذ هؤلاء بمناقشة أقوال الزنادقة والردة عليهم وإلزامهم بالحجّة
والبرهان⁽³⁾. ونشأ عن هذا الجدل الديني أدب غزير.

وتبدو خطورة الزندقة في المجال الديني، في محاولة الترويج لتعاليم
«ماني» بين طبقة الزهاد والمتصوفة، يقول الجاحظ: «يظهرون التقىذ من
الصيد، ويرون أن ذلك من القسوة ... ومن لم يرحم الكلب لم يرحم الطبي

(1) ستحدث عنه لاحقاً في القسم الثاني من الفصل الخامس للبحث.

(2) أحمد أمين: ضحي الإسلام 7/3 طبعة القاهرة 1956.

(3) سميرة مختار الليبي: الزندقة والشعوبية: ص 180، القاهرة 1968.

... ومن لم يرحم العصفور لم يرحم الصبي، وصغر الأمور تؤدي إلى كبارها⁽¹⁾. وهو بذلك يلجمون إلى سبيل الغموض والإيهام والمغالطة.

ولعل أخطر أشكال الزنادقة الدينية، تلك التي تظاهر أهلها بالإسلام، إما للκκιδ له أو بمعنى أدق لهدمه. يقول المرتضى في هذا المجال: «نشأ جماعة من ينستروا باظهار الإسلام، ويحقن باظهار شعاره والدخول في جملة أهله، دمه وماله، زنادقة ملحدون وكفار مشركون، لأنهم يدخلون في الدين ويموهون على المستضعفين، بما يظهرونه من لباس الدين هم فيه على الحقيقة عار»⁽²⁾.

الأحاديث المزيفة:

أقدم المتسترلون بالدين الجديد على تزييف الأحاديث ووضع الكثير منها مُسندة إلى الثقات من الصحابة والتتابعين، بغية المغالطة والزيغ، وأشهر من فعل ذلك، عبد الكريم بن أبي العوجاء، الذي عرف باتصالاته بالحسن البصري وجعفر الصادق، ويقول البغدادي عنه: «أنه كان مانواياً يؤمن بالتناسخ، يشكك الناس في عقائدهم، ويتحدث عن التعديل والتجويد»⁽³⁾.

ويحكى عنه أنه كان يضع الأحاديث على لسان النبي فيحرم الحلال ويحلل الحرام وقد اعترف بذلك عندما قبض عليه وأيقن بالهلاك، بقوله: «لئن قتلتمني لقد وضعت في أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة مصنوعة»⁽⁴⁾.

(1) الجاحظ: الحيوان 4/136 - 137 مطبعة السعادة. القاهرة 1325هـ / 1907م.

(2) المرتضى (الشريف علي بن الحسين الموسوي العلوى) أمالى المرتضى. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، بيروت 1387هـ / 1967م. 1/127.

(3) البغدادي: الفرق بين الفرق ص 349، القاهرة 1948.

(4) المرتضى: الأمالى: 1/128، وانظر الأصفهانى: الأغانى 3/147 مطبعة التقدم بالقاهرة 1323هـ.

إن الأعاجم وضعوا أحاديث كثيرة لإظهار مكانتهم وفضلهم على العرب، وكذلك فعل العرب لإظهار تفوقهم، مثل «من غشَّ العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي». ومثل «أحبوا العرب لثلاث: لأنني عربي، والقرآن عربي، ولسان أهل الجنة في الجنة عربي»⁽¹⁾.

إنكار الأديان:

بلغت موجة الزندقة أوجها حين حاول الزنادقة إنكار الأديان كلها، ومن ضمنها الدين الإسلام، وقد عمدوا في هذا الميدان إلى إنكار الوحي الذي ينزل على الرسل والأنبياء، وإلى القول بأن العقل الإنساني هو صلة الوصل بين الإنسان وربه، داعين إلى هدم النبوات والرسالات في آن واحد⁽²⁾. ومن شواهدنا في هذا المجال ما نشره القاسم بن إبراهيم عن زندقة ابن المقفع بطرق شتى⁽³⁾:

منها: دفاعه عن النور، وذلك بافتتاحيته، حيث يقول: «بسم النور الرحمن الرحيم»⁽⁴⁾.

ومنها: نقد وتهكم باليه القرآن، حيث يقول: «انقلب عليه خلقه ... فعادوه وسبُّوه ببعث لمقاتلتهم ملائكته وجنوده»⁽⁵⁾.

ومنها: تهكم بالرسول: «يقاتل على الملك والدنيا »و« رجل من أهل تهامة».

ومنها: أنه ضد التصديق الأعمى وضد الإسلام، بقوله: «فلا نعلم ديناً منذ كانت الدنيا إلى هذا الزمان، ... أخبت زيدة كلما مغض، وأبتر

(1) الليبي: الزندقة والشعوية: ص 181 - 182.

(2) العدوي (إبراهيم): المجتمع العربي ومناهضة الشعوبية. ص 195. مكتبة نهضة مصر، القاهرة 1961.

(3) القاسم بن إبراهيم: كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع. روما 1927م.

(4) المصدر نفسه ص 8.

(5) المصدر نفسه، ص 17.

أصلاً، وأمّر ثمراً، وأسوا أثراً على أمته، وأوحش سيرة، وأغفل عقلاً،
وأعبد للدنيا، وأتبع للشهوات من دينكم»⁽¹⁾.

ومنها: نقد العقائد الإيمانية لكل الأديان، بقوله: «فصارت الغلبة
للشيطان، وقد بنى على كل صنف من أهل الأديان حائطاً حصيناً وسوراً
شديداً، حصرهم فيه ووكل بهم شيطاناً من شياطينه»⁽²⁾.

يُتهم ابن المفعع بأنه قال عندما مرّ بيته من بيوت النار:

يا بيت عاتكة الذي اتعزّلَ حذَرَ العِدَا وَبِهِ الْفَوَادُ مُوَكِّلٌ
إني لامْنَحُكَ الصُّدُودَ وَإِنِّي قَسَماً إِلَيْكَ مَعَ الصُّدُودِ لِأَمْيَلٌ⁽³⁾

اللهو والمجون طريق إلى الزندقة الدينية:

من أبرز تعاليم الأديان السماوية، الحث على مكارم الأخلاق،
والنهي عن المنكر وارتكاب المحرمات، خصوصاً الخمر والميسر والزنا⁽⁴⁾.

إن تعاطي النبيذ والخمر أدى إلى ظهور مشكلة فقهية، وأثار جدلاً
ونقاشاً، وقد اختلف الفقهاء في تحليل أو تحريم النبيذ - نظراً لأنواعه -
فقد تناول بعض خلفاء الدولتين - الأموية والعباسية النبيذ، وقالوا أنه
غير محرّم. وفرق بعض الفقهاء بين الخمر والنبيذ، فحرموا الأول
واباحوا بعض أنواع الثاني⁽⁵⁾. وقد ذهب الأئمة الثلاثة (مالك،
والشافعي، وابن حنبل)، إلى تحريم جميع أنواع الخمور والأنبذة،
وقالوا: كلها تسمى خمراً وكلها محظمة. أما الإمام: أبو حنيفة «فقد أدى
اجتهاده في هذا المجال، إلى تحليل بعض أنواع الأنبذة، كنبيذ التمر

(1) المصدر نفسه، ص 26 - 27 - 28 - 29.

(2) المصدر نفسه، ص 49.

(3) المرتضى الأمالي، 1/135.

(4) انظر النهي عن هذه المحرمات في القرآن الكريم سورة البقرة. آية 219. والمائدة آية 90 - 91.

(5) ابن عبد ربه: العقد الفريد. 6/352، القاهرة 1948.

والزبيب، وكذلك نيد العسل»⁽¹⁾.

ومن أشهر المروجين للخمر في العصر الأموي، الوليد بن يزيد، الذي قال عنه صاحب الأغاني: «كان فاسقاً خليعاً متهمًا في دينه، مرمياً بالزندة ... وله أشعار كثيرة تدل على خبئه وكفره»⁽²⁾. قوله:

اسقيني وابن حرب واسترانا بـإزار
واتركا مَنْ طلب الجنّة يَسْعى في خسار
أسوس الناس حتى يركبوا دين الحمار⁽³⁾

أما أشهر المروجين للخمر في العصر العباسي، فهو شاعر الخمر بلا منازع، «أبو نواس»، روج أبو نواس للخمر، وشجع الناس على شربها، مسترداً بالظرف، وكان الظرف حينئذ ستاراً ليخفي الزنادقة أغراضهم ومراميهم. وما إن بدأ الفقهاء نشاطهم في محاربة شرب الخمر، حتى أنشد أبو نواس:

فإن قالوا حرام، قل حرام ولكن اللذادة في الحرام⁽⁴⁾
ويحاول أبو نواس هدم جهود الفقهاء، فيدعو الناس إلى شرب الخمر
جهراً، إذا ما أتيحت الفرصة. يقول:

ala fasqni xmar, wql li hi xmar ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر⁽⁵⁾
ومن ثم ينتقل أبو نواس، إلى دعوة الناس إلى الإباحية والخلاعة،
والتعريض للدين، والسخرية به، والتهكم عليه، فينتهي إلى نوع من
الإلحاد، يقول:

(1) ابن الجوزي البغدادي: تلبيس إيلبيس. ص 229، وأحمد أمين: ضحى الإسلام 1/124، القاهرة 1956.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 7/2 و3. دار الكتب .

(3) المرتضى: الألماني: 1 - 129. دار الكتاب العربي .

(4) طه حسين: حديث الأربعاء 2/68. دار المعارف مصر .

(5) أبو نواس: الديوان. ص 28. تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى. دار الكتاب العربي، بيروت 1982 .

ورأيت إتياني اللذادة والهوى
أخرى وأخزم من تنظر آجل
علمي به رجم من الأخبار
ما جاءنا أحد يخبر أنه في جنة من مات أو في النار⁽¹⁾

كذلك كان البرامكة في مقدمة المروجين لشرب الخمر في ذلك العصر. فقد جعلوا قصورهم أماكن مختارة للمجون وشرب الخمر، الشيء الذي كان من أسباب نكبتهم.

يصف ابن طباطبا أحد مجالس جعفر البرمكي بأنه قد خصص يوماً لشرب الخمر، فإذا جتمع عدد كبير من الندماء والسمار، يجلسون في خلوة بعيدة عن أعين الرقباء، يغرقون جميعاً في شرب الخمر وسماع الغناء⁽²⁾.

وقد اعتبر الميسر والمسابقات بين الديكة والكلاب والخيول، والمراهنات عليها، ضرب من ضروب الزندقة، ولم تقتصر هذه الألعاب (المكرورة) على الطبقات العليا أو الموسرة، بل تعدتها إلى جميع الطبقات لتصل إلى حانات الفقراء⁽³⁾.

إن سباق الخيل أحدث جدلاً بين الفقهاء، فأباحوه إذا اعتبر رياضة، وليس وسيلة لكسب المال⁽⁴⁾.

إن الزندقة بمدلولاتها المختلفة، وعلى الأخص الدينية منها، لحقت بمسار المجتمع العربي، منذ جاهليته حتى العصر العباسي، وإن كانت هذه الزندقة قد لبست قولب متعددة. فمن المنكر النبوات والكتب⁽⁵⁾، إلى المنحرفين عن عبادة الله إلى عبادة أشخاص، إلى المكذبين للرسل

(1) الليثي: الزندقة والشعرية، ص 186.

(2) ابن طباطبا (الفخرى في الآداب السلطانية)، ص 187 - 188.

(3) الأصفهانى: الأغاني / 6. 75. مطبعة التقدم بالقاهرة 1323هـ.

(4) الجھشیاري: (أبو عبد الله بن عبدوس): الوزراء والكتاب. مطبعة الحلبي، القاهرة 1357هـ / 1938م. ص 207. حدث جدل الفقهاء على هذه الرياضة لأن بعض الخلفاء (كهaron الرشيد) أغروا بها.

(5) وقد سماهم «أبو العلاء المعري» الدهرين الزنادقة: المعري: رسالة الغفران، ص 215.

والمزيفين أحاديثهم، إلى القائلين أن الله جسماً وقداً⁽¹⁾، ومن المؤمنين بالتناسخ والحلولية، وخصوصاً في فرق الروافض والذين يقول أحد شعرائهم، كاشفاً عن هذا المعتقد:

إعجمي أمّنا لصرف الليالي جعلت أختنا سكينة فاره
فازجري هذه السنانيَّر عنها واتركيها وما تضم الغرارة⁽²⁾

إلى الداعين إلى ثنوية الفرس⁽³⁾، المؤمنين باليه للنور وإله للظلمة⁽⁴⁾،
ومن المنكرين على الملذات الدنيوية السائرين وراء شهواتهم الجسدية، إلى
القائلين بالدهر، الكافرين بالحساب، الناكرين القيامة والنشور الشاكين في
الجنة والنار. الممثلين بقول أبي نواس:

يا ناظراً في الدين ما الأمرُ لا قدرٌ صَحْ ولا جَبْرُ



فasherib على الدهر وأيامه فإنما يهلكنا الدهر⁽⁵⁾

2 - زندقة فكرية:

اتسع ميدان الزندقة، ليشمل، الفكر والثقافة. وقد أخذت هذه الزندقة منحى سليماً، وأخر إيجابياً، من ناحية الفكر العربي والثقافة الإسلامية.

فمن الناحية السلبية حاولت الزندقة، ودعاتها، تشويش التراث العربي من فكر ودين. ومن الناحية الإيجابية أغنت هذه الصراعات الفكرية التراث

(1) ابن الجوزي: تلبيس إيليس. ص 86.

(2) المعري: رسالة الغفران، ص 231.

(3) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص 184. دار العلم للملاتين، عن صالح بن عبد القدس. وانظر أيضاً. المرتضى: الأمالي 1/144.

(4) الفرح والتهاني بأخبار الحسن بن هاني: مصورة معهد المخطوطات - جامعة الدول العربية. رقم 632. أدب.

(5) أبو هفان: (عبد الله بن أحمد بن حرب المزمي) أخبار أبي نواس. تحقيق عبد الستار فراج. مكتبة مصر القاهرة 1953م. ص 37.

الأدبي بمختلف فروعه، ونوعته، وأدخلت عليه الكثير من مذاهب الفكر الهندي والفارسي واليوناني، وما ذلك إلا لامتزاج عناصر إنسانية كثيرة في ظل دولة إسلامية واحدة، ودخول الكثير من العنصر الغير العربي في الدين الجديد. وقد كان من هؤلاء الكتاب والأدباء والشعراء وعلماء الدين والفقه وغير ذلك.

وقد تصدّى، للكتاب والأدباء والشعراء وأصحاب الفكر الزنديقي، مفكرون أقوياء، قارعوا هذا النوع من الزندقة، وأيدت السلطات العباسية مساعيهم ورعت أفكارهم إذ أسس المأمون (بيت الحكم)، وجعل منه مركزاً لجمع الكتب التي يفيد منها هؤلاء المفكرون. كما ترجمت كتب المنطق والفلسفة اليونانية لتكون سلاحاً قوياً فعالاً في الجدل الفكري مع الزنادقة.

الزنادقة غاية العبث الفكري:

اتخذت طائفة - من الطوائف التي تدرج في صفوف هذا النوع من الزندقة - العبث الفكري وسيلة من وسائل الشك، بغية اصطدام ضعاف النفوس، وهذه الوسيلة يلجأ إليها الشكاك دائماً، يرومون من ورائها العبث بعقائد الناس⁽¹⁾، وهي حالة نفسية عنيفة تملّكهم فتدفعهم إلى ما هو أشبه باللهو الفكري والمجون الشككي منه إلى أي شيء آخر.

واتخذت طائفة ثانية (المانوية) تراها القومي مجالاً للتفاخر، إذا ما دعت الحاجة للمقارنة بين تراث العرب الفكري والديني، وترااث الفرس ودينهم⁽²⁾.

(1) عبد الرحمن بدوي: من تاريخ الإلحاد في الإسلام، ص 35 - 36. طبعة المؤسسة العربية، بيروت 1980.

(2) المصدر نفسه، ص 35.

وهناك طائفة ثالثة غلب عليها دافع الشك الفكري وتضم المتكلمين من رجال الفكر وأصحاب المذاهب وجلّ اعتمادهم على العقل دون الإيمان. يقول ابن منظور عن كفريات أبي نواس:

«اشتهى علم الكلام، فقد إلى أصحابه، فتعلم منهم شيئاً من الكلام، ثم دعاه ذلك إلى الزندقة»⁽¹⁾.

وطائفة رابعة، كانت أعظم دوافع زندقتها، النزعة الأعمجية، وليس هذا بغرير في دولة اتسعت حدودها وكثرت أعرافها.

يرى محمد بدیع شریف أن لزندقة أبي نواس أسباباً أعمجية، فهو يقول: «كان ذكياً واسع الحيلة، يعرف كيف يجد، ويعرف كيف يهزل، تأثر بالمانوية والمزدكية، استطاع بتلوره وقدرته أن يستخف بالعقيدة، وينشر الضلال والزندقة، ويتكلم دون حياء أو خجل»⁽²⁾.

وقد تنبه الجاحظ إلى هذه الصلة بين الزندقة والأعمجية فقال عن عصبيتهم: «لا تبقي ديناً إلا أفسدته، ولا دنيا إلا أهلكتها، وهو ما صارت إليه العجم من مذهب الشعوبية»⁽³⁾.

هاجمت الزندقة الفكرية الثقافة العربية من جهة، والثقافة الأعمجية من جهة ثانية⁽⁴⁾، فال الأولى بذلت كل جهدها للتغيير من شأن هذه الثقافة، وأظهرتها بقالب غير وافي بحاجات العصر، أما الثانية فقد رأت أن الثقافة

(1) ابن منظور (أخبار أبي نواس) 1/6. جزمان الأول مطبعة الاعتماد القاهرة 1924. الثاني مطبعة المعارف بغداد 1952.

(2) عباس محمود العقاد: أبو نواس. دراسة في التحليل النفسي والنقد التاريخي. مطبعة الرسالة: القاهرة، ص 171.

(3) الجاحظ: رسالة فيبني أمية: القاهرة 1342هـ / 1933م. ص 299. وانظر أيضاً المقريزي: (تقي الدين احمد بن علي): النزاع والتخاصم بينبني أمية وبيني هاشم مصر سنة 1939م. ص 101.

(4) سرى ذلك في الفصل الرابع من البحث.

الأعجمية ترتبط مباشرة ببيئة غير إسلامية، وفي هذا التقاء الخصومات الفكرية والزنقة⁽¹⁾.

إن الزنقة الأعجمية، قد اتخذت من الثقافة والفكر سلاحاً ماضياً في وجه الخصوم العرب، وانتشرت على أيدي طبقة من العلماء الذين ألبسو الكتب، المليئة بالأباطيل والخرافات ثوباً برافقاً، يستهوي الناس امتلاكها وقراءتها، فكانت هذه الكتب كما يصفها الجاحظ «لا تفيد علمًا، ولا حكمة، وليس فيها مثل سائر، ولا خبر ظريف، ولا صفة أدب، ولا حكمة غريبة، ولا فلسفه، ولا مسألة كلامية»⁽²⁾.

ونتيجة هذه الكتب المليئة بالغالطات، عقدت مجالس ومنتديات ظاهرها نشاط فكري، وباطنها نشر الزنقة. وقد أفاض الجاحظ في وصف هذه المجالس، التي يقرأ الحاضرون لها أمثال (يزدجمهر) وعهد (أردشير)، وكتاب مزدك مرجعهم الأول⁽³⁾.

ولا نبالغ إذا قلنا إن ألوان الثقافات الهندية والفارسية واليونانية وصلت العرب منذ أقدم عصورهم، ولكنها قويت بعد الفتح الإسلامي، وبلغت ذروتها زمنبني العباس. ومعروف أن جمهور الهنود وثينون يدينون بالبوذية، ومنهم براهما⁽⁴⁾، ومن عقائدهم إنكار النبات، والقول بالدهر، والإيمان بالتanax الذي دخل أفكار بعض المسلمين كتاب الخرمية، وكان يؤمن بها أحمد بن حانط، المتكلم، ويدافع عنها دفاعاً شديداً⁽⁵⁾. بالإضافة إلى الثقافة الفارسية واليونانية التي كانت أقرب وأيسر إلى عقول العرب لقرب أتباعها جغرافياً من بلاد العرب، واحتلاطهم بهم منذ العصور

(1) الدوري: الجذور التاريخية للشعوبية، ص 93.

(2) الجاحظ: ثلاث رسائل. القاهرة 1344، ص 42.

(3) الليثي: الزنقة والشعوبية، ص 201.

(4) الشهريستاني: ملل ونحل، ص 117، طبعة لندن.

(5) المصدر نفسه، 76/1.

القديمة، وكثرة المستعربين منهم بعد الفتح، كذلك كثرة الكتاب والعلماء، ولهذا راجت المانوية رواجاً كبيراً، مما حدا «المهدي» أن يوجه الفقهاء ورجال الدين لشن حملة فكرية، ضد الزنادقة الذين أثروا في الجماهير، وخدعوا الجهلة والضعفاء، وأمر المهدي أن تنشر الكتب للرد عليهم، وتعلن أسماؤهم لمهاجمتهم فكريأً. واعتمد بصورة خاصة على أهل البحث الجدليين، «لإزالة الشبهات التي روج لها المانوية والشكاك والخلعاء»⁽¹⁾.

ويشير «جب» إلى خطر هذه الزندقة بقوله:

«إن خطر العصبية الأعمجية تكمن في التشكيك الذي ولدته في نفوس المتعلمين، فإن الثقافة الآرامية - الفارسية القديمة في العراق، مركز المانوية، كانت لا تزال تحمل جرائم ذلك الضرب من التفكير الحرج الذي عرف بالزنادقة، واتضح بوجود الأفكار الثنوية في الدين، وتجلّى في الاستهتار والاستخفاف بجميع المذاهب الخلقية وعرف باسم المجنون»⁽²⁾.

إن المزج العرقي الطويل الأمد أنتج مرجأً فكريأً فعلى سبيل المثال وفي العراق، كان التشابه قوياً بين آراء المعتزلة وآراء النساطرة المتأثرة بالفلك الإغريقي، يعزز كلامنا، ما عرف عن معبد الجنبي وغيلان الدمشقي وأخذهما القدرة عن مصدر إغريقي - فارسي وما عرف عن الجعد بن درهم⁽³⁾ وتأثيره بتلاميذ طالوت الذي كان يقول بخلق التورات وكان زنديقاً⁽⁴⁾.

(1) فاروق عمر: التاريخ الإسلامي، وفكر القرن العشرين. ص 139.

(2) جب (هاملتون): دراسات في حضارة الإسلام. ترجمة عباس ونجم وزايد. دار العلم للملائين. بيروت 1979. ص 91.

(3) أول من تكلم بخلق القرآن .

(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ. دار المعارف القاهرة سنة 1867. ج 7، ص 26.

إن بحر الشعر الواسع، الذي شقت عباه سفن العرب قديماً، وسفن المستعربين جديداً، وقد حوت أشعاراً كثيرة كان بعضها نتاج التعصب العرقي، الذي اعتبر في غالب الأحيان ضرباً من ضروب الزنادقة.

إن التعصب العرقي أوجد الشعوبية التي تشمل ثلاثة معانٍ:

أ - الأول ويشمل العرب والجم معاً.

ب - الثاني يقصر الكلمة شعب (مفرد شعوبية) على العرب وحدهم.

ج - الثالث يطلق هذه الكلمة على الجم فقط، وهو الأكثر شيوعاً⁽¹⁾.

وليس أدل على عصبية العرب، واعتزازهم بأنفسهم، من قصة رفض تزويج النعمان (ملك الحيرة) - عامل الفرس - ابنته لكسري أبوريز، وإظهاره للرسول المؤمن استنكافاً للعرب في تزويج العجم⁽²⁾. أما الفرس فقد اعتبروا أنفسهم فوق العرب، إذ عدوا ملوك الحيرة تابعين لهم وعبيداً عندهم، فلا يعاملوهم معاملة الندى⁽³⁾. حتى أن كسرى أبوريز أطلق لفظة عبد على (الرسول) عندما أرسل له كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام، فقال: «يكتب إلى هذا وهو عبدي»⁽⁴⁾.

عمد الزنادقة الأعاجم إلى مهاجمة العرب، في اسلوب حياتهم، في ملابسهم، في لغتهم، في أنسابهم، في علاقتهم الاجتماعية وغير ذلك ...

(1) زاهية قدورة: الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول. ص. 9. دار الكتاب اللبناني. 1972.

(2) المسعودي: مروج الذهب 2/100 وما بعدها. دار المعرفة .

(3) المصدر نفسه .

(4) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك. المطبعة الحسينية. القاهرة 3/90.

وكان الشعر أقصى أسلحتهم، وقد ظهر شعراء شعوبيون زنادقة كثيرون، وفي مقدمتهم بشار بن برد. الذي يقول في هذا المضمار:

ونبئتُ قوماً بهم جنةٌ يقولون من ذا و كنت العلم
الآية السائلة جاهداً ليعرفني أنا أنف الكرم
نمّت في الكرام بنبي عامرٍ فروعٍ وأصلي قريش العجم⁽¹⁾

ولم تقتصر زندقة بشار على عصبيته لعرقه، بل تلمسها أيضاً في نزعته الدينية، فقد كان يؤمن بالرجعة، ويكره جميع الأئمة، ويصوب رأي إيليس في تقديم النار على الطين، يقول:

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبدة مذ كانت النار⁽²⁾

لقد كانت زندقة هذا الشاعر علمية فكرية وأدبية يشارك فيها المجان⁽³⁾، قال عنه واصل بن عطاء: «إن من أخد حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى الملحد»⁽⁴⁾.

لقد عبر الشعر عن اتجاهات زندقية متنوعة، سنعرض لها عندما نتكلّم على الشعراء الزنادقة.

3 - زندقة سياسية:

شهدنا، فيما سبق، حركات عديدة قامت بها فرق وأحزاب، منذ حروب الردة زمن أبي بكر وطوال العصر الأموي واستمرت إلى نهاية العصر الأول العباسي.

وأتصفـت معظم هذه الحركات بالخطورة، حيث قامـت ثورات مسلحة، ورفعت رايات العصيان المدنـي، وتـبلـلت العقول، وـشوـهـت

(1) الأصفهاني: الأغاني 3/21. دار الفكر.

(2) المصدر نفسه 3/24.

(3) طه حسين: حديث الأربعاء. المجلد الثاني: ص 512. وما بعد. دار الكتاب اللبناني.

(4) الليثي: الزندقة والشعوبية. ص 203.

الأفكار، وعُبِّث بعقيدة الدولة وبنظمها السياسية والاجتماعية، ونتج عنها تيارات فكرية، وثقافية مختلفة المشارب والألوان، واهتم المجتمع بكل طبقاته العامة والخاصة بهذا الصراع. واتهم أصحاب هذه الحركات بالزندقة، وبالزندة والشوعية تارة أخرى .

تركَت حركات الزندقة أثراً لها في حياة العرب السياسية وبدت واضحة في أمور مهمة أشهرها :

- 1 - موقف العنصر العربي من العناصر العربية الأخرى⁽¹⁾ .
- 2 - موقف العنصر العربي من العناصر الأعجمية وخاصة الموالي، وموقف الموالي من العرب.
- 3 - إقامة الخلفاء الأمويين نظام دولتهم السياسي على العنصر العربي.
- 4 - إقامة الخلفاء العباسيين نظامهم السياسي على أساس ديني دون تمایز في بادئ الأمر، بين العرب والعجم.
- 5 - موقف حكام العباسيين من وزرائهم.

أما إذا تدرجنا في الموقف العربي تاريخياً، وبدأنا بعرب الجاهلية فإن موقفهم معروف، صراع سياسي دائم، يتمثل بالغزو والسيب بين قبائل الصف الواحد حيناً، وبين عرب الشمال وعرب الجنوب تارة أخرى. وقد استمر هذا الموقف السياسي الزنديقي⁽²⁾، زمن صدر الإسلام والدولة الأموية، وخفت بعد ذلك ولكنه لم ينته. وشاهدنا على ذلك، الشاعر أبو القاسم علي بن الحسين المغربي، الذي نسب إلى الأزد، وتعصب لقططان على عدنان، وللأنصار على قريش، غالى كثيراً في حبه لآل البيت،

(1) بين عرب الشمال وعرب الجنوب مرة، وبين القبائل والعشائر من كليهما مرة أخرى. كبني هاشم وبني أمية .

(2) على رأي كثير من الباحثين، أمثال محمد مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربي: ص 240 وما بعد. دار المعارف، مصر .

وأفحش في هجاء أبي بكر وبني أمية، وساوى علياً بالرسول، حتى خرج بميله السياسي إلى نوع من الإلحاد والزنادقة، يقول في ذكر «يوم حنين»:

فنجاً بمهجته فلولا ذئنا عنه تنشب في مخالب ضار⁽¹⁾
 أفبحن أولى بالخلافة بعده أم عبد تيم حاملو الأوزار
 وتداولتها أربعة لولا أبو حسن لقلت لؤمٌ من استار
 من عاجزٍ ضرع ومن ذي غلظة جاف ومن ذي لوثة خوار

✿ ✿ ✿

تاله لو ألقوا إليه زمامها لمishi بهم سمحى بغير مهار
 هو كالنبي فضيلة لكنّ ذا من حظه كاس وهذا عاري

✿ ✿ ✿

ثم امتطاها عبد شمس فاغتلت هزواً وبذل ربخها بخسار
 وتنقلت في عصبة أموية ليسوا بأطهار ولا أبرار
 ما بين مأفون إلى متزندق ومداهن مضاعف وحمار
 الأبيات من قصيدة طويلة، يذكر في مطلعها أن الرسول استجار
 بالأنصار ولو لاهم لهلك، وقوله عن أبي بكر عبد تيم، ولو لا علي لقال في
 الخلفاء الراشدين الأربع استار لؤم، وإن علياً كالنبي في الفضيلة.

ثم يذكر خلفاء بني أمية، بخمس صفات سيئة، فعنمان مستضعف
 ومعاوية مداهن، ويزيد بن معاوية مأفون، والوليد بن يزيد متزندق، ومروان
 بن محمد حمار⁽²⁾.

كانت الخلافة عاملًا قويًا في عودة العصبية⁽³⁾، وهو هو الشاعر ابن
 أبي عبّرة القرشي يعبر عن هذه العصبية بعد مبايعة أبي بكر. أحسن تعبير،
 يقول:

(1) ابن أبي حميد: شرح نهج البلاغة. ج 2، ص 6 و 7، دار الهدى الوطنية، بيروت.

(2) المصدر نفسه ، 7/2 .

(3) كانت ولا تزال إيجالاً في الهوى السياسي تسيطر فيها العاطفة على العقل .

شكراً لمن هو بالثناء حقيق
ذهب اللجاجُ وبُويع الصديق
قل للألى طلبوا الخلافة زلة
إن الخلافة في قريش مالكم⁽¹⁾
ويبني شاعر آخر - أحد أبناء أبي لهب بن عبد المطلب - ليدعى أن
الخلافة في بني هاشم - أحد أفخاذ قريش - وبخاصة في علي بن أبي
طالب، يقول:

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف عن هاشم ثم منها عن أبي حسن⁽²⁾
وتتطور هذه العصبية بعد ذلك، وفي نهاية العهد الراشدي تقريراً
لتجتماع القبائل في أحزاب سياسية - كنا قد تعرضنا لها سابقاً - وحركات
سياسية ثورية أدت في أكثر حالاتها للزيغ عن المعتقد المأثور إلى
معتقدات أخرى، لها ألف سبب وسبب، وهذا الزيغ والانحراف دخل في
مجتمعات الزندقة.

أما عن مواقفي العنصرين، العربي والأعمجي، من بعضهما البعض
فإننا لا نتحرى التاريخ ونسير وموقيهما، منذ الجاهلية حتى نهاية العهد
العباسي الأول، لنرى الظالم والمظلوم بداية ونهاية، بل نتوقف أمام
انحرافات الفريقين المؤدية إلى الزندقة.

ألم تكن زندقة أوامر «قباذ»، الملك الساساني إلى الحارث الكندي
«بأن ينهض إلى مكة ويهدم البيت» ولكن الحارث يرفض ذلك، «وتتدخله
حمية العرب»⁽³⁾؟

ألم تكن زندقة مهاجمة الأعاجم لعقيدة العرب «الإسلام»؟ خاصة وإن
العروبة والإسلام كانتا ظاهرتين متلازمتين، وهذا ما يثبته الشعالي: «ومن

(1) ابن أبي حميد: شرح نهج البلاغة 2/8.

(2) المصدر السابق.

(3) كيستر: مجلة بين النهرین: «الحيرة وعلاقتها مع الجزيرة العربية». العدد السابع. بغداد
1974.

أحبّ الرسول أحبّ العرب، ومن أحبّ العرب أحبّ اللغة العربية ...»⁽¹⁾. ويقول الجاحظ في مهاجمة الأعاجم عقيدة العرب: «فإنما عامة من ارتات بالإسلام، إنما جاءه هذا عن طريق الشعوبية فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله... إذ كانت العرب هي التي جاءت بالإسلام، وكانوا السلف»⁽²⁾.

ثم ألم تكن زندقة أن يفتخر الأعاجم بقومهم فخراً عنيفاً، ويحاولون الغضّ من العرب بكل ما وسعوه؟ كمثل قول بشار بن برد:

هل من رسول مُخْبِرٍ عني جمِيعِ العربِ
بأنَّنِي ذُو حَسْبٍ عالٍ على ذي الحسْبِ
جَدِّي الَّذِي أَسْمَوْبَهُ كَسْرِي، وَسَاسَانَ أَبِي
وَقَيْصَرُ خَالِسِي إِذَا عَدَّتْ يَوْمًا نَسْبِي⁽³⁾

ألم تكن زندقة هذه الثورة، على العرب وحياتهم وتقاليدهم وفنون أدبهم، التي قام بها أبو نواس ومن لف لفته؟ في قوله:

عاج الشقيّ على رسم يسائله
يبكي على طلل الماضين من أسدٍ
لا درّ درّك قل لي: مَنْ بَنُو أَسْدٍ
وَمَنْ تَمِيمٌ وَمَنْ قَبْسٌ وَلَفْهَمَا؟⁽⁴⁾ ليس الأعرابُ عند الله من أحدٍ

ألم تكن زندقة سياسية، أن ينبذ الأمويون العرب الموالي الأعاجم ويقصوهم عن مراكز النفوذ، بحكم تعصّبهم للعرب؟ إذ اختاروا الوالي والأمير والقاضي والإمام من العرب⁽⁵⁾.

نظام العباسيين السياسي:

إن موقف الخلفاء العباسيين من العنصرين، العربي والأعجمي، تأثر

(1) فاروق عمر: التاريخ الإسلامي وفكّر القرن العشرين. ص 159.

(2) الجاحظ: البيان والتبيين: ص 401 وما بعد. الشركة اللبنانية للكتاب.

(3) بشار بن برد: الديوان. طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر.

(4) أبو نواس: الديوان. دار الكتاب العربي، بيروت.

(5) ابن عبد ربه: المقدّس الفريد 3 / 413 - 417. طبع القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

إلى حد بعيد بحركات الزندقة الثورية. فالمعروف عن الدولة العباسية أنها قامت على أكتاف الفرس بعامة، والخراسيين بخاصة، فلا غرو أن يستأثر الفرس بالمناصب الكبرى، إن في السياسة أو في الإدارة. ويتحدث (فان فلوتن) عن مركز الفرس في دولة بنى العباس الأولى بقوله: «ومنذ ذلك الحين، أصبح الخراسانيون أشد الناس ولاءً لذلك العرش الجديد، ورفع الموالي المضطهدون - الذين كانوا السبب في سقوط الأمويين - رؤوسهم، واستندت إليهم المناصب المهمة، في القصر والجيش والمالية وإمارة الولايات، حتى حسدهم العرب⁽¹⁾.

ولكن حركات الزندقة التي توالّت وقضت مضاجع العباسين، أثّرت كثيراً في تسامح العباسين وعدم تمابيزهم بين العرب والعجم، خصوصاً أن الأعاجم هم عدّة وعدد حركات الزندقة، ولذا بدأ الخلفاء العباسيون يعيدون النظر في سياستهم تجاه عناصر الشعب، وبدت هذه السياسة واضحة في عهد «المهدي» الذي شهد - وهو ولد العهد - حركة الراوندية، والسيسية، ثم واجه، بعد أن أصبح خليفة، حركة المقنع الخراساني، ولهذا نراه يرحل إلى الحجاز، ويتصلّب بوجوه العرب وبني هاشم، ويصطحب معه، خمسة منّهم، أنصاراً وحرساً خاصاً له. كما يرحل إلى الشام ويلتقي زعماء العرب ويجزّل لهم العطاء⁽²⁾.

أثر الخلفاء العباسيون⁽³⁾، سياسة حفظ التوازن بين العرب والأعاجم، وكان أثر هذه السياسة حدوث صراع بين الجناح الفارسي والجناح العربي، جعفر البرمكي على رأس البرامكة والفرس، والفضل بن الريبع يتّسع جناح العرب وتؤيده «زيyدة» زوجة الرشيد.

(1) فان فلوتن: السيادة العربية والشيعة والإسرائييليات في عهد بنى أمية. ترجمة حسن إبراهيم حسن وزكي إبراهيم. القاهرة 1934، ص 34. وأنظر: الطبرى: تاريخ الأمم والملوك: 6/115 و 130. المطبعة التجارية القاهرة.

(2) الغريبوطلي: المهدي العباسي: (سلسلة أعلام العرب). القاهرة 1966، ص 145.

(3) الأربع الأول: (السفاح - المنصور - المهدي - الرشيد).

والحقيقة أن صراع الأمين والمأمون، ولدي الرشيد، هو صراع هذين الحزبين وما اعتماد المعتصم، ولد الرشيد الثالث، على العنصر التركي، إلا محاولة منه لکبح جماح الحزبين، وملاً من صراعهما المستمر، وانتشار الزنادقة بشكل واسع ومخيف⁽¹⁾.

إن حرص بني العباس على إقامة نظامهم السياسي على أساس ديني، بادئ أمرهم، دون تمييز بين العرب والجم، أثر في نشوء حركات زندقية في الحياة السياسية.

لمسنا هذه النزعة الدينية عند الخلفاء، فأبوا جعفر يقرب الفقهاء، والمهدى يشتند على الزنادقة وينشر ديواناً للتنكيل بهم، والرشيد يحج سنة ويغزو أخرى، والمأمون والمعتصم يشتهران بالحرص على الدين ومتابعة الملحدين والزنادقة، يرى (فلهوزن) أن السياسة التي انتهجهها العباسيون تقوم على أساس ديني، بعد أن عطل الأمويون أحكام الدين في اعتقادهم، لأن الأمويين اعتمدوا القومية العربية لهذا فقد كان موقفهم حازماً من الزنادقة، فاستعملوا من يطاردهم، وأنشأوا نظاماً لامتحان عقائدهم⁽²⁾.

موقف الخلفاء العباسيين من وزرائهم:

على الرغم من إقدام «أبي مسلم الخراساني» في الدعوة لبني العباس، واستبساله في حرب «مروان بن محمد» آخر خليفة أموي، والقضاء عليه، فقد قتله المنصور، لدوره في قيام حركة زندقية⁽³⁾.

أما المهدى فقد عزل وزيره «معاوية بن يسار» عندما نمى إليه أن ابن الوزير يعتقد تعاليم الزنادقة.

(1) الليثي: الزنادقة والشعوبية، ص 173.

(2) فلهوزن: الدولة العربية: ترجمة (د. أبو ريدة) مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة، ص 531 وما بعد.

(3) انظر حركات الزنادقة فيما سبق - البحث .

وقد أراد المهدى أن يتحقق بنفسه من هذه التهمة، فاستدعاى الوزير وابنه، وسأله عن شيء من القرآن، فتلعثم، ولم يُعْرِ جواباً. فقال المهدى لوزيره: «ألم تخبرنى أن ابنك يحفظ القرآن؟ فأجاب الوزير بلى يا أمير المؤمنين، ولكن فارقني من مدة فنسى، فقال المهدى: قم فنقرب إلى الله بدمه. فقام الوزير فعثر ووقع وارتعد. فالتمس عم المهدى (العباس بن محمد) من الخليفة أن يُنقِّي الوزير من قتل ابنه، فأمر المهدى بعض من كان حاضراً فضررت عنقه»^(١).

ورأى الرشيد أن البرامكة أظهروا الإسلام وأبطنوا عبادة النيران، واحتلوا بأن قالوا للMuslimين: «ينبغى أن تجمر المساجد كلها، ويوضع عليها الند» فكان هذا سبباً من الأسباب التي دعته للقبض عليهم^(٢)، يرى ابن النديم أن جميع البرامكة زنادقة، ما عدا محمد بن خالد بن برمك^(٣).

ذم الأصمبي البرامكة بعد نكتتهم مشيراً إلى زندقتهم: بقوله:

إذا ذكر الشرك في مجلس أضاءات وجوهبني برمك
 وإن تلقيت عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مزدك^(٤)

لم تفارق الزنادقة السياسية العرب في كل عصورهم، ولطالما كفَّر بعضهم بعضاً، دفاعاً عن قبيلة، وذوداً عن حزب أو حركة، أو أخذَ بمذهب ما، أو انتماء لجنس وعرق معين، وغير ذلك ... وشاهدنا على ذلك ما رأه الكميٰ، شاعر الزيدية، في بني أمية الذين استحدثوا البدع وأحللوا الحرام وحرموا الحلال، وسفكوا دماء المسلمين، ففتحام يا رب هذا العناء؟ ... يقول:

(١) ابن طباطبا: الفخرى في الآداب السلطانية. ص 165.

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق. ص 270، القاهرة 1948م.

(٣) ابن النديم: الفهرست، ص 473، دار المعرفة.

(٤) الليثي: الزنادقة والشعوبية. ص 177.

على ملْهَةِ غَيْرِ الْتِي نَتَنَحَّلُ
فَحَتَّى مَحْتَى مَعْنَاءِ الْمَطْوَلِ
أَزَلُوا بِهَا أَتَبَاعَهُمْ ثُمَّ أَوْصَلُوا^(١)

وَعُظِّلَتِ الْأَحْكَامُ حَتَّى كَأْنَا
فَتَلَكَ مَلُوكُ السُّوءِ قَدْ طَالَ مَلْكُهُمْ
لَهُمْ كُلُّ عَامٍ بَدْعَةٌ يَحْدُثُونَهَا

كما أن أبياته التالية، تشهد بأن الكميٰت يستنفر أهل (مرء) من المرجنة للثورة على بنى أمية، فهي والحالة هذه منشور ثوري ألقى به إلى ثوار المرجنة، يقول:

فَلَا تَهْنُوا وَلَا تَرْضُوا بِخَسْفٍ
وَلَا يَغْرِّكُمْ أَسَدُ بَعْهُدٍ
إِلَّا فَارْفَعُوا الرَّاِيَاتِ سُودًا^(٢)
عَلَى أَهْلِ الضَّلَالِهِ وَالْتَّعْدِي

أما الشاعر كثير، شاعر الكيسانية التي غالٍ كثيراً في تشيعها لآل البيت، وقد سقط كثير إلى هذه الفرقـة من أفكار السببية، كالقول بالتناسخ، وأن قبس النبوة لا يزال ينتقل في علي وأبنائه فهم الآئمة وولاة الحق وأخـرـهم محمد بن الحنفية وقد تغـيبـ في جبل رضوي، وسيعود يوماً فيقوضـ الحكم الأمويـ، ويرـدـ الأمـرـ إلى نـصـابـهـ، فهو المـهـديـ المتـظـرـ^(٣)ـ، فإـنهـ يـصـورـ تـطـرفـ الكـيـسـانـيـةـ في عـقـيدـتهاـ، وـيرـاءـتهاـ مـغـتصـبـيـ الخـلـافـةــ دونـ عـلـيـ وـآلـهــ كـأـبـيـ بـكـرـ وـعـمـرـ وـعـثـمـانـ، وـمـنـ مـدـعـيـهاـ أـيـضاـ كـالـخـواـرجــ، حيثـ يقولـ:

بـرـئـتـ إـلـىـ إـلـهـ مـنـ اـبـنـ أـرـوـيـ
وـمـنـ دـيـنـ الـخـواـرجــ أـجـمـعـيـنـاـ
وـمـنـ غـمـرـ بـرـئـتـ وـمـنـ عـتـيقـ
غـدـاـ دـعـىـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـيـنـاـ^(٤)

مـاـ تـقـدـمـ، يـتـبـيـنـ لـنـاـ، أـنـ زـنـدـقـةـ سـيـاسـيـةـ عـارـمـةـ، كـانـ مـنـذـ كـانـ الـعـربـ
وـسـارـتـ بـرـكـبـهـمـ، تـضـعـفـ وـتـقوـيـ، حـسـبـ ظـرـوفـهـمـ وـأـحـوالـهـمـ، شـجـرـتـهـاـ

(١) الكميٰت: الهاشميٰت. ص 123، نشر هور ومتز.

(٢) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك. 8/ 222، القاهرة 1326هـ.

(٣) أنظر الشعر، في: كثير: ديوانه نشر ببرسالجزائر 2/ 184. والأصفهانى: الأغانى: 8/ 32، دار الفكر.

(٤) نعمان القاضى: الفرق الإسلامية في الشعر الأموي. ص 381، دار المعارف، مصر.

العصبية القبلية، وفروعها الخلافة والأحزاب والفرق والعناصر الإنسانية المختلفة.

إن المآرب الكبرى لهذه الزندقة السياسية، دفعت بمرجعيها ودعاتها إلى الثورة، وغرس بذور الفكرة الاستقلالية، التي تحققت بقيام الدولات في العصر الثاني لبني العباس.

4 - زندقة اجتماعية:

نادى الزنادقة بالحرية الاجتماعية، ومن كان منهم أعمجياً فقد تعصب لنظام مجتمعه القديم، وندد بأخلاق العرب وقيمهم. وذهب الزنادقة إلى التحلل، ونزعوا إلى المجون، ودعوا إلى أفكار اجتماعية تتعارض وما هو مأثور عند العرب والمسلمين، واستteroوا وراء الظرف والحضارة مما أدى إلى تفكك روابط المجتمع وإضعاف البنية الاجتماعية.

حاول الزنادقة هدم القيم في المجتمع العربي الذي آثراها، واعتبرها فضائل خلقية، فأظهروا المثالب الفردية بصفات عامة، وتهجموا على مفاهيم الفروسيّة والمفاهيم الإسلامية أيضاً.

ولما كان العرب يعتزون بالكرم، فقد ركز الزنادقة هجومهم على مفهوم العرب للكرم، وحاولوا تشويه البذل والتضحية⁽¹⁾. وأقدموا على تأليف رسائل في البخل، وحاولوا جعل البذل مذمة وتخليطاً⁽²⁾.

ولم يكتف الزنادقة بمهاجمة الفضائل الاجتماعية، بل راحوا يعملون على تفسيخ القيم الدينية، فأكثروا من المجون والشراب، وجاهروا

(1) الجاحظ: كتاب البخلاء. ص 215 - 218.

(2) أشهر من كتب مثل هذه الرسائل هو سهل بن هارون. انظر ابن التديم: الفهرست من 1348هـ. القاهرة 174ص.

بالخلاعة والانحراف الجنسي، معتبرين ذلك تحرراً ومثلاً في الظرف⁽¹⁾.

الظرف والحضارة من وسائل الزندقة:

استر بعض الزنادقة وراء ستار الظرف، فزعموا أنهم لا يتزندقون عن عقيدة، وإنما ليشتهروا بالظرف. من هؤلاء محمد بن زياد ويحيى بن زياد، الذي قال عنهما الأصفهاني: «كان يحيى بن زياد يرمي بالزنادقة، وكان من أظرف الناس وأنظفهم، فكان يقال أظرف من الزنديق، وكان محمد بن زياد يظهر الزندقة تظارفاً فقال فيه ابن منذر» :

يا ابن زياد يا أبا جعفر أظهرت ديناً غير ما تخفي
مزندق الظاهر باللفظ في باطن إسلام فتى عف
لست بزنديق ولكنما أردت أن توسم بالظرف⁽²⁾

تحدث الشعالي عن هذا الاتجاه الزنديقي، وربط بين الظرف والزنادقة، بقوله: «أما قولهم أظرف من الزنديق فقد صار مثلاً في زمان كثر ظرفاؤه وهو زمان المهدي، وكانتوا يرمون بالزنادقة، كصالح بن عبد القدوس، وبشار، وحماد الرواية، وحماد عجرد، ومطیع بن إیاس، وما منهم في الظاهر إلا نظيف البزة جميل الشكل ظاهر المروءة»⁽³⁾.

وهنا نرى الربط بين الظرف والزنادقة ، ونرى أن من رمي بالزنادقة كان ظريفاً، نظيف الظاهر، يستمتع بالملذات، ويعيش للدنيا، وقد كان «الصولي» صريحاً في توضيح معنى ظرف الزنادقة، حين يعلق على قول أبي نواس :

(1) انظر أخبار يحيى بن زياد ومطیع بن إیاس وحماد عجرد وبشار بن برد كامثلة على ذلك في الأصفهاني: الأغاني 12 / 95 - 96 - 100 - 102. دار الفكر. وأنظر أيضاً: الدوري الجنور التاريخية للشعوبية: ص 84 وما بعد. دار الطليعة، بيروت .

(2) الأصفهاني: الأغاني 17 / 15 دار الفكر .

(3) الشعالي: ثمار القلوب: (القاهرة 1908) ص 128 - 129.

وصيف كأس محدث، ولها تية مغنٌ، وظرف زنديق⁽¹⁾

إذ يقول: «وإنما قال ذلك لأن الزنديق لا يرُع عن شيء، ولا يمتنع
من يدعى إليه، فنسبه إلى الظرف لمساعدته على كل شيء، وقلة
خلاقه»⁽²⁾.

ومن أشير إليه بهذا المعنى «يعيى بن زياد الحارتي»، الذي عرف
بالزنديق: وكانوا إذا وصفوا إنساناً بالظرف قالوا: هو أظرف من الزنديق -
يعنون يعيى - لأنه كان ظريفاً⁽³⁾. لكن هذه الزندقة الظرفية ما لبثت أن
خرجت من نطاق الظرف إلى التهتك والانحلال الخلقي والفساد
الاجتماعي، وتدرجت بتصرفات وأفعال وأقوال، فيها معنى الكفر
والإلحاد. وقد رأى بعضهم أن ينعت أصحاب هذه الصفات بالزنادقة. لأن
«علامة الزندقة هي شرب الخمر، والرشا في الحكم، ومهر البغي»⁽⁴⁾.

دعوة التحرر والتحلل سبيل الزندقة الاجتماعية:

عمد بعض المستظرفين إلى الخروج من ريبة القيود الدينية والروابط
الاجتماعية فاغرقوا أنفسهم في دنان الخمر، وتهافتوا على الحرمات
والملذات، وغاصوا في الشذوذ والانحراف، فتهتكوا ودعروا، وتخرقوا
وفجروا، وتخربوا وعهروا.

ولقد حفل كتاب الأغاني بالكثير من القصص الغريبة، التي تشهد
فصول الانحلال الاجتماعي والخلقي، وكان أبطال هذه القصص، يعيى،

(1) أبو نواس: الديوان: (دار الكتاب العربي - بيروت 1982) ص 451. الأوصاف في البيت
للذكر، والمراد المرأة على تأويل. في الصولي: «محدث ملكا» وفي الأصفهاني: محدث
ملك».

(2) المرتضى: أمالى: 1/143، دار الكتاب العربي .

(3) المصدر نفسه .

(4) ابن عبد ربه: العقد الفريد. 2/179. دار الكتاب العربي .

ومطیع، والحمدادون، وبشار، وأبو نواس، وغيرهم ...⁽¹⁾.

كون الحمادون الثلاثة، عصبة المجان، وداروا على أندية اللهو والمجون في مدن العراق، واجتمعوا أنى تيسر لهم الاجتماع - في الدور والبساتين والحانات، وسخروا في اجتماعاتهم من أصول الديانات والأخلاق، ومن النظم الاجتماعية التي تخطر لهم⁽²⁾.

كان حماد عجرد⁽³⁾، أكثر الثلاثة تهتكاً ومجونةً وخلاعة، في عصبة المجان والزنادقة⁽⁴⁾، ومن أشعاره نرى تأثره بالمزدكية، وإياحته تعاطي النساء وتبادلهن، محلاً امرأته لسواه، وامرأة سواه لنفسه. يقول:

بكى حُرَيْثٌ فَوَقَرَهُ بِتَعْزِيَةٍ مات ابن نهياً وقد كانوا شريكيين
تفاوضاً حين شابا في نسائهما وحللا كلّ شيء بين رجلين⁽⁵⁾
كما كان مريضاً بالشذوذ الجنسي، شأنه في ذلك شأن مطیع بن
ایاس⁽⁶⁾:

قال عنه طه حسين: «كان حماد عجرد من زعماء الزنادقة، أو هؤلاء المتهمين في دينهم، وكانت لهم أندية لهم ومجالسهم، وعلام كانوا يجتمعون؟ على الشراب والغناء والعبث بالنساء والغلمان، ويسخرون من أصول الديانات والنظم الاجتماعية، وليس من شك أنهم كانوا يذكرون المانوية، و يؤثرونها على الإسلام، تفكهه وانتقاماً من هذا الدين»⁽⁷⁾.

(1) الأصفهاني: الأغاني 12 / 95 - 96 و 100 - 102. مطبعة التقدم القاهرة .

(2) المصدر السابق 5 / 166 و طه حسين: حديث الأربعاء. ص 483. دار الكتاب .

(3) ستحدث عنه بالتفصيل في الباب الذي يلي (الزنادقة) .

(4) انظر ما قال عنه وعن رفيقه ابن المعتر: طبقات الشعراء. تحقيق عبد الستار أحمد فراج. دار المعارف، مصر / ص 69، وابن قتيبة: الشعر والشعراء (دار المعارف مصر 1966) ص 779.

(5) الأصفهاني: الأغاني 140 / 324. دار الكتب .

(6) الشاشتي: (أبو الحسن علي بن محمد): الديارات ص 255 مطبعة المعارف. بغداد 1966.

(7) طه حسين: حديث الأربعاء ص 487.

كان حماد يخيف المجتمع، يخيف النساء والشعراء وكبار الناس، لأنّه ماهر في الهجاء، سريع إليه، حديد اللسان فيه. ولشدة تأثيره في ذلك فقد قطع أحدهم الصلاة ليرضيه. وذلك أنّ حماداً دعي ذات يوم للغداء، عند رجل من أشراف البصرة، وتأخّر موعد الطعام لأنّ شغال أحد الحاضرين بأداء الصلاة. فسخر حماد وأنسد:

ألا أيّهَا القانُتُ المتهجَّدُ صلاتُكَ لِلرَّحْمَنِ أَمْ لِي تَسْجُدُ
أَمَا وَالَّذِي نَادَى مِنَ الظُّفُورِ عَبْدَهُ لَمِنْ غَيْرِ مَا بِرُّ تَقُومُ وَتَقْعُدُ
فَلَمَّا سَمِعَ الرَّجُلُ هَذِينِ الْبَيْتَيْنِ، قَطَعَ الصَّلَاةَ، وَجَاءَ مُبَادِرًا، فَقَالَ
لَهُ: «قَبْحُكَ اللَّهُ يَا زَنْدِيقًا! فَعَلْتَ بِي هَذَا كُلَّهُ، لِشَرْهَكَ فِي تَقْدِيمِ أَكْلٍ
وَتَأْخِيرِهِ»⁽¹⁾.

أوليس هذا تحرراً وتحللاً من الدين وشرائعه والمجتمع وقيوده
ونظمها؟

أوليس تصرفات حماد ورفاقه زندقة؟

إن «والبة بن الحباب» كان مسرفاً في البطالة، مجاهراً بالإباحة، يتذلل ولا يتوفّر، يتعهّر ولا يستتر، قال عنه ابن المعتر: «الوالبة في المجنون والفتوك والخلاعة ما ليس لأحد، وإنما أخذ أبو نواس ذلك عنه»⁽²⁾. وقال فيه الأصفهاني: «كان ظريفاً شاعراً غزواً وصافاً للشراب والغلمان المرد»⁽³⁾.

إن شعره يوضح هذه الصفات، فيشرب ويسبح، ويخلع ويتأثر، إذ يقول:

(1) طه حسين: حديث الأربعاء، ص 487.

(2) ابن المعتر: طبقات الشعراء، ص 88.

(3) الأصفهاني: الأغاني 18/100 وما بعد. دار الكتب المصرية.



حتى إذا ما انتشينا وهزّنا ياليس رأيت أعجب شئ منا ونحن جلوسً⁽¹⁾
هذا يقُبِل هذا وذاك هذا يَبُوسٌ⁽¹⁾
ولعل ما شاع من شذوذ، وشذوذ عصبة المجان، وأمثالهم، هو
الذي دفع الأقدمين إلى اتهامهم بالزنادقة التي كانت اجتماعية أكثر منها
دينية، فوالبة يشرب ويصخب، وبهوى الغلمان ولا يستحي ولكن يلوح من
شعره قبس خافت من العبث الفكري والشك الديني. والدليل على ذلك قول
ابي سلہب الشاعر: «كان والبة بن الحباب صديقي، وكان ماجنا، خفيف
الروح، خبيث الدين، وكنا ذات يوم نشرب بغمى، فانتبه من سكره،
وأنشدني»:

شربت وفاتك مثلثي جموع
يعاطبني الرُّجاجة أزيحني
أقول له على طرب الظنني
فما خير الشراب بغير فنسق
جعلت الحج في غمى ويتنا
فقل للخمر آخر ملتقاتنا
بغمى بالكؤوس وبالبواطي
رخييم الدل بورك من معاطي
ولو بمُؤاجرِ علچ يُبَاطي
يُتابع بالزنا وباللواط
وفي قظريل أبداً رباطي
إذا ما كان ذاك على الصراط⁽²⁾

العصبية والعنصرية سبيل الزندقة:

من الزنادقة المجان، الشاعر بشار بن برد، الذي كانت نزعته
العنصرية من أكبر دوافع زندقته، أضف إلى ذلك العبث والمجون، وروح
التشاؤم والسخرية من الناس، والنزعة المانوية الواضحة⁽³⁾، حيث يلاحظ

(1) ابن المعتر: طبقات الشعراء. ص 88 - 89. والأصفهاني: الأغاني 18 / 100. دار الكتب.

(2) المصدران السابقان. وياقوت الحموي: معجم البلدان. 4 / 203. مادة غنى، دار صادر .

(3) عبد الرحمن بدوي: من تاريخ الإلحاد في الإسلام. ص 37 - 38.

أن شعره وقصائده كانت مدائح وأدعية صلاة عند أتباع ماني.

قال عنه طه حسين: «إنه يؤثر النار على الطين، ويفضل النور على الظلمة، فهو من هذه الناحية فارسي الزندقة، ثم كان في حقيقة الأمر فارسياً في كل شيء، فارسياً في زندقه، وأهوانه وميوله السياسية، لا يحب العرب، ولا يرتاح إليهم، يرى أن الفرس ليسوا أقل كرامة ولا شرفاً ولا حرية من العرب، وربما فاخر بنسبه الفارسي، ويقولون إنه اجترأ على ذلك بين يدي المهدى»⁽¹⁾.

لم يكتف بشار بدعوته إلى الفسق والمجون والإباحية، بل جهد في إحياء ديانات الفرس القديمة، التي تدعوا إلى مبادئ مزدك. كان يدين بالرجعة، ويكره الأمة كلها بعد موت (الرسول)، ولما سئل عن (علي) مثل بقول عمرو بن كلثوم:

وَمَا شَرُّ الْثَلَاثَةِ أَمْ عَمْرٌ بِصَاحِبِكَ الَّذِي لَا تَصْحِبِنَا⁽²⁾
لقد دعا بشار صراحة إلى عبادة النار، وفضل هذه العبادة على عقيدة الإسلام، فقال:

إِلِيَّسُ أَفْضَلُ مِنْ أَبِيكُمْ آدَمَ فَتَبَيَّنُوا يَا مَعْشِرَ الْأَشْرَارِ
النَّارُ عَنْ نُصُرِهِ وَآدَمَ طِينَةٌ وَالطِينُ لَا يَسْمُو سَمْوَ النَّارِ⁽³⁾
وقال أيضاً:

الْأَرْضُ مَظْلَمَةٌ وَالنَّارُ مَشْرَقَةٌ وَالنَّارُ مَعْبُودَةٌ مَذْ كَانَتِ النَّارُ⁽⁴⁾
ولكن، لماذا يفضل بشار النار وهي عنصر إيليس على الأرض التي

(1) طه حسين: حديث الأربعاء. ص 513. دار الكتاب اللبناني.

(2) المصدر نفسه.

(3) بشار بن برد: ديوانه. نشر محمد الطاهر بن عاشور. لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة.

(4) الأصفهاني: الأغاني: 3/24. دار الفكر عن بولاق.

جبل منها آدم؟ لأن النار هي معبودة آبائه وأجداده الفرس؟! ربما، وهو الذي تغنى بهم وفضلهم على العرب بقوله:

هل من رسول مخبر عنِي جميع العرب
جَدِي الَّذِي أَسْمَوْبَهُ كَسْرَى، وَسَاسَانُ أَبِي⁽¹⁾

إن شاعرنا، وهذه مشاربه، يبادر - بحكم عصبيته للفرس - إلى شن حملة شعواء على حركة الولاء التي سادت العصر العباسى، وقامت على نوع من الارتباط الاجتماعى بين العرب والعجم، وأخذ يسفه من شأن المنضمين إلى الأسر العربية، محاولاً إشاعة الفوضى في المجتمع⁽²⁾.

ومن كانت هذه أهواهه ونواياه، لا يتورع عن إذكاء نيران الفتنة بين أبناء الصف الواحد. وميمية أبي نواس التي تلون بها تلون الحرباء، فقالها لإبراهيم بن عبد الله بن الحسن مادحًا ومحرضًا له على المنصور، حولها - عندما قمع المنصور ثورة إبراهيم - وكأنه لم يمدح إبراهيم، ولم يهج المنصور، بل هجا بها أبو مسلم الخراسانى⁽³⁾ والقصيدة تبدأ:

أبا جعفر ما طول عيشِ ب دائمٍ ولا سالمٌ عما قلبِي بسالم
و فيها يقول:

لَهُ اللَّهُ قوماً رَأَسُوكَ عَلَيْهِمْ وَمَا زلتَ مَرْؤُوساً خَبِيثَ المَطَاعِمِ

الخناقون قمة التطرف في الزندقة العنصرية الاجتماعية:

تطورت الزندقة الاجتماعية تطوراً خطيراً، فبعد أن كانت مجونة وخلاعة وصراعاً عنصرياً، أقدم دعاتها على اغتيال معارضيه من أهل التقوى والورع، وعرف غلاة الزندقة هؤلاء باسم الخناقون. وظهر نشاط

(1) بشار: الديوان. القاهرة.

(2) العبدوى (الدكتور إبراهيم) المجتمع العربى ومناهضة الشعوبية. مكتبة نهضة مصر. القاهرة 1961. ص 209.

(3) طه حسين: حديث الأربعاء ص 528. دار الكتاب.

بعض فرقهم (المغيرة والمنصورية) واضحاً في عهد المهدي. يقول النوبختي عن العجلي رئيس المنصورية: «أنه كان يأمر أصحابه بخنق من خالفهم وقتلهم بالاغتيال، ويقول من خالفكم فهو مشرك فاقتلوه فإن هذا جهاد خفي»⁽¹⁾. ويقول البغدادي عن (المنصورية).

«وكفروا هذه الطائفة بالقيامة والجنة والنار، وتأولوا الجنة على نعيم الدنيا، والنار على محن الناس في الدنيا، واستحلوا مع هذه الضلالة خنق مخالفتهم»⁽²⁾.

وربما كان الاغتيال سبيلاً سلكه بعض غلاة العنصرية العجمية للقضاء على الخصوم من العرب. ويعلق الدوري على ذلك بقوله: «ومن هذا نرى أن الغلاة لم يكتفوا بالقيام بحركات ضد المجتمع العربي الإسلامي، بل لجأوا إلى وسائل الإرهاب واستخدموا الحجارة والخنق والحبال للتنكيل بالناس»⁽³⁾.

وهذا واصل بن عطاء يشكو من تصرف بشار فيقول: «أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لدست إلية من يموج بطنه في جوف منزله»⁽⁴⁾.

ولمجابهة هذه الحركات الإرهابية، التي قام بها زنادقة محترفون، تطوعت جماعة لحماية الناس والدين. قال عنهم ابن خلدون: «وتتوفر أهل الدين والصلاح على مُنْعِنِ الفساق وكف عاديهم»⁽⁵⁾. وقال عنهم الطبرى: «فلما رأى الناس ذلك، وما قد أظهروا الفساد في الأرض والظلم والبغى،

(1) النوبختي: (أبو محمد الحسن بن موسى): كتاب فرق الشيعة. استانبول 1931، ص 35.

(2) البغدادي: الفرق بين الفرق. ص 245. دار المعرفة، بيروت، وانظر أيضاً الجاحظ: الحيوان 2 / 264. مطبعة السعادة القاهرة 1907.

(3) الدوري: الجذور التاريخية للشمرية. ص 88. دار الطليعة، بيروت، ط ثانية.

(4) الأصفهاني: الأغاني 3 / 24. دار الكتب.

(5) ابن خلدون: المقدمة. ص 134 (المطبعة البهية - القاهرة).

وقطع الطريق، وأن السلطان لا يغير عليهم، قام صلحاء كل بيت وكل درب فمشى بعضهم إلى بعض⁽¹⁾.

إلى جانب هذه التيارات الزندقية المتمثلة في المجنون والفسق والعنصرية إلى الإرهاب والقتل، ظهر تيار مغاير لهذه الحركات، وتلك، ألا وهو تيار الزهد. وقد مثل هذا التيار «أبو العتاهية» خير تمثيل.

ورغم ما اشتهر به هذا الشاعر من ميل إلى الزهد، فإن المستشرق «فيدا» يرى أن أبو العتاهية يؤمن بالاثنينية بكل صراحة، ويعني بهما النور والظلمة⁽²⁾.

كما أن أحمد أمين يرى في إيمان أبي العتاهية نزعة «مانوية»، ويستند في ذلك على رأي للصولي يقول: إن مذهب أبي العتاهية الإقرار بوحدانية الله، وإن الله خلق جوهرتين متضادتين لا من شيء، وسير كل شيء إلى الجوهرتين المتضادتين، وكان يقول بالوعيد ويشعر بمذهب الزيدية البتيرة المبدعة، وكان مجرأ⁽³⁾.

ضم الاتهام بالزندة فنات متباعدة من الناس، بين عجم وعرب، في أصغر مختلفة ونتيجة عوامل كثيرة - كما بينا فيما سبق - ورمي بالزندة أناس كثيرون، من أدنى طبقات المجتمع إلى أعلىها، وعلى الأخص في القرن الثاني للهجرة. وما ذلك إلا لوجود أجناس مختلفة وأعراق متباعدة من الناس تعددت ثقافاتها وأديانها وعاداتها وتقاليدها، فاختلطت العقليات والشخصيات نتيجة حتمية لهذه المعارف الراخمة بالفلسفات والمنطق وعلم الكلام، المليئة بالمذاهب والنحل الموروثة والمستحدثة التي جعلت الفكر العربي في حالة من الشك مؤقتة أو مستمرة أحياناً عند بعض الشعراء والأدباء ورجالات العلم وذوي الشأن من أصحاب المناصب السياسية. وانضاف ذلك كله إلى عوامل أخرى سياسية واجتماعية فقوى وانتشر تيار

(1) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك: 210/8. القاهرة 1949.

(2) بدوى: من تاريخ الإلحاد في الإسلام. ص 38.

(3) أحمد أمين: ضحى الإسلام. 1/195. القاهرة 1956.

الزنادقة وكثير الزنادقة الذين عدّهم البعض أحراً⁽¹⁾. ولكن هذه الزندقة التي أرداها سير غورها، لم تكن زندقة دينية وحسب، بل تعدّت ذلك إلى الفكر والسياسة وعادات وتقاليد المجتمع وتصرفاته. وقد أوردنا شواهد عديدة على أنواع الزندقة نؤيداً بها النذر القليل. يقول أبو نواس:

وأيْسُرُ ما أبْشِكَ أَنَّ قَلْبِي بِتَصْدِيقِ القيَامَةِ غَيْرُ صَافٍ⁽²⁾
إِنَّهَا زَنْدَقَةٌ دِينِيَّةٌ حِيثُ يَنْكِرُ الشَّاعِرُ الْبَعْثَ وَالْقِيَامَةَ. وَكَمْ كَرَرَ هَذِهِ
الْمَعْانِيِّ، وَهَذَا هُوَ يَشِيرُ إِلَى عَصَبَةِ الْمَجَانِ - وَهُوَ مِنْهَا -، وَإِلَى إِيمَانِهِمْ
بِقُولِهِ:

عَادِلٌ تِي بِالسَّفَاهَةِ وَالرَّجْرِ
بَاحَ لِسَانِي بِمُضَمَّنِ السَّرِّ
وَذَاكَ أَنِّي أَقُولُ بِالدَّهْرِ
كَافِرَةِ بِالْحِسَابِ وَالْحَشَرِ
بَيْنَ رِيَاضِ السَّرُورِ لِي شَيْئُ
مُوقَنَّةٌ بِالْمَمَاتِ جَاحِدَةٌ
لِمَا رَوَهُ مِنْ ضَفْطَةِ الْقَبْرِ
وَلَيْسَ بَعْدَ الْمَمَاتِ مُنْقَلَبٌ
إِنَّمَا الْمَوْتُ بِيَضْهُرِ الْعِقْرِ⁽³⁾
وَهَذِهِ الْأَبْيَاتُ صَرِيحةٌ فِي الزَّنْدَقَةِ وَالْكَفَرِ، فَالشَّاعِرُ يَنْكِرُ الْبَعْثَ
وَالْحِسَابَ، وَيُؤْمِنُ بِالدَّهْرِ. يَشَارِكُ فِي ذَلِكَ أَفْرَانِهِ مِنَ الْمَجَانِ وَالْفَاسِقِينَ.
وَفِي الْأَبْيَاتِ كَمَا نَرَى زَنْدَقَةٌ دِينِيَّةٌ فَكَرِيَّةٌ وَاجْتِمَاعِيَّةٌ.

وعلى الرغم من المظهر الديني الذي بدأ به الزنادقة، فقد كانت الأغراض الزندقية تهدف إلى صراعات سياسية وعنصرية وعصبية، بدأت مع العرب، وعايشتهم في كل مراحل تاريخهم، وأظن أنها باقية بقاءهم إلى ما شاء الله.

(1) يوهان فوك: العربية: ترجمة عبد الحليم النجار. مطبعة دار الكتاب العربي، القاهرة، 1951م، ص 990 و 291.

(2) الراغب الأصفهاني: (أبو القاسم حسين بن محمد): محاضرات الأدباء، المطبعة الشرقية، القاهرة 1326هـ. ج 2، ص 183.

(3) الجرجاني (علي بن عبد العزيز) الوساطة بين المتبنّي وخصومه. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1951، ص 63.

الفصل الرابع

الزنادقة

(من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر العباسي الأول)

القسم الأول

زنادقة العصر الجاهلي

توصلنا في الفصل الثاني من البحث إلى إثبات وجود الزنادقة، في العصر الجاهلي، وربما لم نتوصل إلى وجود كلمة الزنادقة باصطلاحها المتأخر، ولكن الذي يقرأ أدب الجاهليين يعثر على الكثير من معانٍ للزنادقة. وسنبحث فيما يلي، في شؤون الزنادقة الذين عثرنا عليهم في بطون الكتب.

1 - جاء في كتاب «المعارف»: «أن الزنادقة كانت في قريش، وأن قريشاً أخذتها من الحيرة»⁽¹⁾، ويعرف المعربي بوجود الزنادقة في قريش، زمن ما قبل الإسلام وإبانه، ويؤيد رؤيته هذه بشعر «شداد بن الأسود الليثي»، الذي يقول:

(1) ربما عنى ابن قتيبة «المجوسية» لأن الحيرة كانت ربيبة الفرس في دنيا العرب، أو ربما عن مذهبًا من مذاهب التصارى التي كانت الحيرة أحد معاقله. (المذهب النسطوري). ابن قتيبة: المعارف، ص 621، دار المعارف.

ألا من مبلغ الرحمن عنِي
إذا ما الرأسُ زايل منكبيه ،
أيوعدنا ابن كبشه أن سنجها
أتترك أن ترَّد الموت عنِي ، وتحببني إذا بليت عظامي؟⁽¹⁾

لا يعترف الشاعر هنا بالبعث والنشور، بل يؤمن بالموت والفناء الكلبي، ويتساءل عن مدى صحة ما يسمع هو وقبيلته التي ختم بعض رجالاتها بخاتم الزندقة أمثال: «أبي سفيان بن حرب، وعقبة بن أبي معيط، وأبي بن خلف الجمحي، والنضر بن العارث بن كلدة، والعاص بن وائل السهمي، والوليد بن المغيرة المخزومي»⁽²⁾.

وما دامت الزندقة على أنواع، منها الدينية والفكرية والسياسية والاجتماعية فإننا نراها متفشية زمن الجاهلية، وربما دخلت صفوف أكثر القبائل حتى وصلت إلى قريش المؤمنة على مقدسات العرب.

فبنو حنيفة اتخذوا في الجاهلية إلهًا من (حَيْنَس)⁽³⁾، فعبدوه زمناً طويلاً، ولما حلت بهم سنوات القحط والمجاعة، أكلوا هذا الإله، فقال رجل من تميم:

أكلت ربَّها حنيفة من جُوْعٍ قدِيمٍ بها ومن إعوازٍ
وقال غيره:

أكلت حنيفة ربَّها زَمْنَ التَّقْحُمِ وَالْمَجَاعَةِ
لَمْ يَحْذِرُوا مِنْ رَبِّهِمْ سَوَءَ الْعَوَاقِبُ وَالْتَّبَاعَةُ⁽⁴⁾

أما قبيلة تميم فقد استشرت بين صفوفها «المجوسيّة» ومن الذين تمجسوا: «زرارة بن عدس التميمي، وابنه حاجب بن زراره الذي تزوج

(1) المعري: أبو العلاء: رسالة الغفران. ص 211 الشركة اللبنانيّة.

(2) محمد بن حبيب: المعتبر: ص 161. جيدر أيام 1361هـ.

(3) الحيس: خليط من الإقط (اللبن) والتمر والعسل.

(4) ابن قتيبة: المعارف، ص 621.

ابنته، والأقرع بن حابس، وأبو سود»⁽¹⁾.

وريما استشرت المجوسية في تميم من جراء اتصالها بالفرس، وقرب مضاربها منهم، والمعروف أن حاجب بن زرارة كان من جملة الذين انتقاموا النعمان بن المنذر وأرسلهم بوفد إلى كسرى⁽²⁾، وقد وفد على كسرى ثانية عندما منعت تميم من ريف العراق، وأقام عهداً مع ملك فارس بحفظه الوفاء حيث رهنه قوسه التي استعادها ابنه عطارد مع كسوة كسروية، أهداها فيما بعد للرسول فرفضها⁽³⁾.

الحارث بن عمرو الكندي: إبان حركة مزدك، كان يتولى أمر الحيرة، المنذر الثالث (506 - 554م)، فدعاه قباد ملك الفرس إلى الدخول معه في الدعوة الدينية الجديدة⁽⁴⁾، فأبى. وكان الحارث بن عمرو الكندي طاماً في ملك الحيرة، فاعتنق المزدكية وأمن بها، وأدرك قباد أن الحارث قوي الشخصية، واسع الدهاء، فعقد معه معاہدة، وملكه الحيرة، بعد أن طرد منها المنذر بن ماء السماء عام 529م⁽⁵⁾. لكن إقامة الحارث في الحيرة لم تطل، لأن مزدك قتل على يديه، فعندها آل إليه الملك عام 531م، ألغى المزدكية كدين رسمي للدولة، وأعاد المنذر الثالث إلى الحيرة، وهذا بدوره عزم على الانتمام من الحارث بن عمرو الكندي الذي هرب بماله وولده، ولكن خيل

(1) المصدر السابق.

(2) ابن عبد رب: العقد الفريد 2/9 دار الكتاب العربي.

(3) المصدر السابق 2/20.

(4) ظهر مزدك عام 487 في فارس، ودعا إلى شيوخية فرضوية، وكان يرى أن الناس ولدوا سواء فليعيشوا سواه، وأن الذي يمنع ذلك: الغيرة والحسد والغصب والحرص والقر، وقوام هذه الأفكار الشيطانية الخمس المال والنماء، فينبغي أن ياخوا بين الخلق أجمعين. وتبعه آلاف من الناس، وكذلك قباد الملك الذي تعصب له وجعل المزدكية الدين الرسمي لفارس. انظر في ذلك. الطاهر أحمد مكي: امرؤ القيس، حياته وشعره. ص.63. دار المعارف مصر، ط. ثانية 1970 .

(5) المصدر نفسه.

المنذر لحقت به وقتلت ولديه عمراً ومالكاً، كما أسر بنو تغلب ثمانية وأربعين من بني آكل المرار، قدموا بهم على المنذر فضرب رقابهم بحفر الأمالاك في ديار بني مرين العباديين⁽¹⁾.

والسؤال الذي يطرح نفسه! لماذا لاحق المنذر الحارت ومن ينتمي إليه قرابة وولاء؟ الخصومة سياسية نشأت وانتفت بسرعة، أم لاختلف في المعتقد والإيمان؟ إن من يرى المذبحة التي دبرها سيده «أنوشروان» لمزدك وأتباعه، يجد له تبريراً لضرب رقاب أربعين شخصاً ملكياً! هذه المذبحة التي رد ذكرها باسبي شعراء عديدون، على رأسهم امرؤ القيس الذي يقول⁽²⁾:

ألا يا عين بَكَيْ لِي شَنِينَا وبَكَيْ لِي الْمُلُوكُ الْذَاهِبِينَا
مُلُوكًا مِنْ بَنِي حُبْرٍ بْنَ عُمَرٍ يُساقُونَ الْعُشِيَّةَ يُقْتَلُونَا
فَلَوْ فِي يَوْمِ مَعْرِكَةِ أَصْبَبُوا وَلَكِنْ فِي دِيَارِ بَنِي مَرِينَا
عِنْدَمَا كَانَ الْحَارِثُ الْكَنْدِيُّ عَلَى مَلْكِ الْحِيرَةِ، فَرَقَ أَوْلَادَهُ عَلَى قَبَائِلِ
وَسْطِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ لِيَحْكُمُوهَا. فَرَحِبَتْ بَكْرٌ وَحَنْظَلَةُ وَقِيسُ عِيلَانُ،
وَتَغْلَبَ، وَعَدَ الْقِيسُ بِأَوْلَادِ الْحَارِثِ، تَخْلُصًا مِنْ جُورِ الْلَّخْمِيِّينَ (مُلُوكِ
الْحِيرَةِ). وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَبْنَاءُ الْحَارِثِ قدْ أَخْذُوا الْمَزْدَكِيَّةَ عَنْ أَبِيهِمْ،
وَعَنْ طَرِيقِهِمْ وَصَلَتْ إِلَى الْقَبَائِلِ الَّتِي حَكَمُوهَا وَإِلَى غَيْرِهَا فِي دُنْيَا الْعَرَبِ،
حَتَّى تَفَسَّتَ الْزَنْدَقَةُ وَدَخَلَتْ بَيْوَاتَ قَرِيشٍ، كَمَا أَسْلَفَنَا. وَلَكِنْ بَعْضُ الْعَرَبِ
وَقَفَ بِالْمَرْصَادِ لِلْدَّعْوَاتِ الْزَنْدَقِيَّةِ، وَظَلَّ مُوحَدًا رَغْمَ كُلِّ شَيْءٍ، أَمْثَالِ
النَّابِغَةِ الْجَعْدِيِّ الشَّاعِرِ، الَّذِي يَقَالُ عَنْهُ أَنَّهُ أَنْكَرَ الْخَمْرَ، زَمْنَ الْجَاهِلِيَّةِ،
وَهَجَرَ الْأَوْثَانَ وَعِبَادَتَهَا، وَقَالَ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ مَنْ لَمْ يَقُلْهَا فَنَفْسُهُ ظَلَمَ⁽³⁾

(1) مَكَانٌ بَيْنَ دِيرِ هَنْدِ وَالْكَوْفَةِ.

(2) الطاهر أحمد مكي: امرؤ القيس. ص 65. الشين أو الشن = الصب.

(3) محمد نعمان الجارم: أديان العرب في الجاهلية ص 193. القاهرة 1923.

امرأة القيس، أمير شعراء الجاهلية، هو حفيد الحارث الكندي الذي «تمزدك»، وتملك الحيرة زمن قباد، وهو ابن حجر الكندي ملك قبيلة «أسد» التي ثارت في وجه أبيه لأنها كان يغير على نسائها⁽¹⁾.

جاء في «خزانة الأدب»⁽²⁾ أن «امرأة القيس» كان يشبب بزوجة أبيه، «هرّ بنت سلامة بن عبد»، وأم الحارث بن حصين الكلبي، فقد أشار إليها كنایة في البيت السابع من المعلقة، متأنياً عن حاضره بماضيها وراجياً أن يحظى من صواحبه اليوم، ما حظي عندها بالأمس:

ك Dahlak من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسلي
ونراه يسميهما، ويشرب عندها، مذ كان فتى، حتى ذهبت بشبابه، إذ
كان يقبلها، فيجد لفمها طعم خمر معتقة مستوردة بقوافل التجار يقول:

أغادي الصبور عند هرّ وفرتني وليديا، وهل أفنى شبابي غير هرّ
إذا ذقت فاما قلت طعم مدامّة معتقة مما يجيئ به التُّجُّر⁽⁴⁾
أوليس هذه إباحية مطلقة؟ وخصوصاً إذا صحت القول أن «هر» هي
زوجة والد امرأة القيس فعلاً. أوليس ما ناره زندقة اجتماعية؟ في عصر كان
يقول فيه شاعر آخر:

وأغض طرفي ما بدأت لي جاري حتى يواري جاري مأواها⁽⁵⁾
فأين موقف هذا؟ من موقف ذاك! وكيف تفسر موقفي الشاعرين من
المرأة؟ أهو الفارق الطبقي بين ابن ملك وابن أمّة؟ أم هو السلوك الديني

(1) الطاهر أحمد مكي: امرأة القيس، حياته وشعره. ص 93. ربما كان يفعل ذلك على مذهب مزدك الذي أشاع المال والنساء.

(2) البغدادي (عبد القادر بن عمر) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. القاهرة 1930، ص 86.

(3) الزوّنji: شرح المعلقات السبع. ص 11. دار الجيل، بيروت. مأسلي: جبل.

(4) أحمد مكي: امرأة القيس. ص 91.

(5) عترة ابن شداد: الديوان. تحقيق فوزي عطوي. ص 102. دار المعرفة، بيروت 1968.

لكليهما؟ أرجح السلوك الديني، مع الإشارة إلى إباحية مزدك وسريان هذه الإباحية في مجتمع (كندة) بدءاً بجد الشاعر «الحارث بن عمرو».

إن امرأ القيس لا يتعرض لزوج أبيه عرضاً، بل هو يعني ما يقول، حيث أنها نراها، يتساءل عنها في مقدمة ظليلة: أظعنت، أم بقيت؟ ويتجاوز ذلك ليقر أن جمالها مصيدة للرجال، لا يكاد أحد يراها حتى تأسر قلبه، فيصبح أسير هواها، لقد رمته فأصابت قلبه، فوقع صريع هواها، ولكنها لم تقع هي، وأفلت منها حجر أبوه، يقول:

وفيمن أقام من الحي هرٌّ أم الظاعنون بها في الشُّطْر
وهرٌ تصيد قلوب الرجال وأفلت منها ابن عُمُرٍ حُجُرٍ
رمثني بسهم اصاب الفؤاد غداة الرحيل فلم انتصر⁽¹⁾
من غير المستبعد أن يكون الابن قد شب بأمرأ أبيه، فمن ينصب
الشباك لابنة عمه «بدارة جلجل» عاشقاً، يمكن أن يلاحق زوج أبيه
مشتهياً، وليس في أخلاق امرئ القيس - كما يصورها شعره - ما يأبى أيها
منها، وليس تأباه أيضاً مثاليات أسرة يقبل الجد الأقرب فيها مبادئ
مذهب يدعو إلى المشاع في المال والنساء، ألم يخلف امرؤ القيس أباه
حجرأ على زوجته هند بنت ربيعة بن الحارث، بعد وفاته؟... أوليس هو
القائل، مصرحاً بفجوره، عندما كان يتحين الفرص للإيقاع بابنته عمه:

ولا سيّما يوم بداره جُلْجُلٍ
واليوم دخلتُ الخدرَ خدرَ عُنْيِزةَ
فقالت لك الوليلات إنك مُرْجلي
تقولُ وقد مال الغبيطُ بنا معاً
عقربٌ بعيري يا امرأ القيسِ فائزٌ
فقلت لها سيري وارخي زمامه
ولا تُبعديني من جنائك المعلّلِ
فمثلِك حُبلى قد طرقْتُ ومُرضعٍ
والسؤال المطروح الآن عن أمير شعراء العجالة، هل كان حقاً من

(1) أحمد مكي: امرؤ القيس. ص 92.

(2) الزوزوني: شرح المعلقات السبع. ص 14 - 16. وانظر بقية الآيات حتى ص 40.

أتباع مزدك؟ إن طلب الشار في سيرته، والإسراف في الانتقام من قتلة أبيه، لا يتفق ومبادئ المذهب المزدكي، الذي جاء لينهي عن المبغضة والقتال، ويبطل الخلاف بين العقائد والأمم⁽¹⁾. وإذا لم يكن مزدكياً، فهل هو مسيحي⁽²⁾؟ وهناك صور في شعره ملتقطة من جو مسيحي. ك قوله:

يُضيئُ الظلام بالعشاءِ كأنه مَعَارَةً مَمْسَنِي راهِبٌ مُتَبَشّلٌ⁽³⁾

أم هو يهودي؟ لأنه يشير في شعره إلى صور يهودية⁽⁴⁾. أي دين كان يملأ وجдан الشاعر؟ أو ثني هو؟ وقد حج إلى الوثن «ذى الخلصة»⁽⁵⁾ واستقسم بالقداح عنده لغزوبني أسد ثاراً لأبيه.

إن شاعراً مثله، يمثل الذروة في مجال الثقافة والشعور والتفاعل مع ما حوله، وفي عصر جاهلي، لا بد أن يلم بكل الأديان المعروفة، لكن سلوكه لا يدل على أنه مسيحي بالقول والعمل، ولا ثني عندما يحطم القداح ويرمي بها وجه الصنم، ولا مزدكي، لأنه يطلب الشار بشغف وإلحاح. وإذا كان فيه بعض الإيمان بال المسيحية أو غيرها، فإيمانه ركيك للغاية. وهو أقرب ما يكون بمذهبة إلى الزندقة.

ادعاء النبوة:

أ - مسيلمة بن حبيب الحنفي:

ذكر أهل الأخبار، أن مسيلمة الحنفي كان من ادعى النبوة قبل

(1) الشهريستاني: ملل ونحل 2/ 86. دار المعرفة بيروت.

(2) الأب لويس شيخو: شعراء الصرانية.

(3) أحمد مكي: أمرؤ القيس، ص 101.

(4) المصدر نفسه، ص 104.

(5) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. 6/ 272. دار العلم للملايين وانظر الأصفهاني: الأغاني 9/ 92 - 93. دار الكتب.

الإسلام، وصنع أسجاعاً⁽¹⁾. وأنى بمخاريق كثيرة، وخدع عديدة، كإدخاله البيضة في القارورة، ووصل جناح المقصوص من الطير، وزعمه أنه صاحب الجن، وله تابع خاص⁽²⁾، ولذلك قال الشاعر، يصف مخاراته وخدعه:

بيضة قارور ورایة شادن وخلة جنی وتوصیل طائر⁽³⁾

حيث صب على بيضة خلا قاطعاً، فلان قشرها، وأدخلها في قارورة ضيقة الرأس وتركها حتى جفت وعادت إلى شكلها السابق، وأخرجها إلى جماعة من الأعراب مدعياً أنها معجزة. وكذلك الخدع الثلاث الباقية المذكورة في البيت⁽⁴⁾.

وذكر الرواة، أنه كان يسمى بـ(الرحمن) قبل مولد (عبد الله) والد (محمد)، وكانت قريش حين سمعت: بسم الله الرحمن الرحيم، قال قائلهم: دق فوك، إنما تذكر مسيلمة رحمان اليمامة». وقالت قريش أيضاً: «إنما قد بلغنا أنك إنما يعلمك رجل باليمامة يقال له الرحمن، ولن نؤمن به أبداً»⁽⁵⁾.

عمر مسيلمة طويلاً، وأدرك (الرسول)، وكان في جملة رجال (وفد حنيفة) الذي قصد (محمدأ)، لكنه بقي مع رجال الوفد، ولم يؤمن بما آمن به رفقاء، وعاد إلى اليمامة ليكتب إلى (الرسول): «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد، فإني قد أشركت معك في الأمر، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشاً لا ينصفون»، فكتب إليه (الرسول): «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي إلى مسيلمة

(1) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6/84.

(2) الجاحظ: الحيوان 4/458. دار صعب. وابن قتيبة: المغارف 405. دار المعارف.

(3) الجاحظ: الحيوان: 4/458.

(4) انظر شرحها في: جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام 6/85 وما بعد.

(5) جواد علي: المصدر السابق 6/86 عن الروض الأنف 1/200.

الكذاب، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، والسلام على من اتبع الهدى»⁽¹⁾.

ومما ذكر عن مسيلة هذا، وبعد تلقيه نبأ (قرآن محمد) أنه نظم قرآنًا يضاهيه به، وما جاء فيه: «يا ضفدع نقى كم تنقين! نصفك في الماء ونصفك في الطين إلا الماء تكدررين، ولا الشارب تمنعين»⁽²⁾.

يظهر من بعد ملاحظات الأخبارين أن مسيلة الذي ادعى النبوة، بحسب رأيهما، كان - إلى جانب مخاريقه وزيفه - يعرف (الرحمن) وليس بغرير على مثله، وفي عصر كثر فيه النزق والطيش والجهل والغباوة، أن يخلط بين عبادة السماء وعبادات الأرض، ومن يغفل ذلك يكون قد تزندق بالمفهوم المتأخر للكلمة.

قتل مسيلة على زمن أبي بكر في حروب الردة من جراء حملة قادها خالد بن الوليد على ربع اليمامة، واختلف في قاتله⁽³⁾:

وقال بعض شعراء بني حنيفة يرثيه:

لهم في عليك أبا ثماما لهفي على رُكْنَتِي تهامة
كم آبَةُ لك فيهم كالشمسِ تطلعُ من غَمامَه⁽⁴⁾

عُرف مسيلة بين أتباعه بـ(رسول الله)، وأمن به مشاييعه إيماناً شديداً، وتعصبو له. واتخذ مسيلة مؤذناً يؤذن له في أتباعه، اسمه (حجير) أو (عبد الله بن النواحة)⁽⁵⁾.

(1) الباعوفي: تاريخ. دار صادر بيروت ج 2 ص 130. والبلاذري. فتوح البلدان. دار الكتب العلمية. بيروت 1983. ص 97 وما بعد.

(2) الطبرى: تاريخ الأمم والملوک 3/ 283 وما بعد. دار سويدان.

(3) البلاذري: فتوح البلدان، ص 98.

(4) ابن قتيبة: المعارف، ص 405.

(5) الطبرى: تاريخ الأمم والملوک. 3/ 283 والبلاذري: فتوح البلدان، ص 100.

إن أخباراً كهذه، إن صدقت، تدعوا إلى التساؤل، هل كان مسيلمة يعرف برسول الله قبل مبعث (محمد) أم بعده؟ وإن كان قبله؟ فهل حوربت دعوته، وماتت أفكاره واتجاهاته قبل أن تولد؟ أم أنها ولدت وتبرعرعت في زمن ما، وبيئة ما، ثم جوبهت بالإسلام فتراجع وامتحن؟ والسؤال الآخر هل عرف الآذان قبل الإسلام؟ وحتى نجد الأوجبة الصحيحة لا بد من وثائق وحقائق، هي متعددة، وربما توصل البحاثة إلى إيجاد شيء منها... لكن الحقيقة الواضحة أن مسيلمة كان متزندقاً دينياً واجتماعياً.

ب - سجاج المتبنية:

عرفت أيضاً باسم (تميمة) و (صادر) من بنى يربوع، وكان مؤذنها (زهير بن عمرو)، ويقال: إن (شبيث بن يربعي) أذن لها أيضاً. قال فيما عطارد بن حاجب بن زراره:

أمست نبيتنا أنشى نُطِيفَ بها وأصبحت أنباء الناس ذُكرانا⁽¹⁾
ذكر أنها كانت كاهنة زمانها، تزعم أن رئيها ورئي سطيح واحد،
ادعت النبوة، واختلفت مع مسيلمة وكذبت نبوته، لكنها وهبت نفسها له
وتزوجته بعد أن اتصلت به. وزعموا أنه قال لها:

الا قومي إلى المخدع فقد هُيِّ لك المضجع
فإن شئت سلقناك وإن شئت على أربع
 وإن شئت بثلثيه وإن شئت به أجمع
فرضيت به أجمع، فضرب المثل بغلمتها، حتى قيل: أغلم من
سجاج⁽²⁾. وفيها قال قيس بن عاصم⁽³⁾:

(1) ابن قتيبة: المعارف، ص 405.

(2) جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، 95/6. عن ثمار القلوب ص 315.

(3) المصدر السابق. ونسب الشعر أيضاً لعطارد بن حاجب بن زرار.

أضحت نبيتنا أنشى نُطِيف بها
با لعنة الله والأقوام كلهم
أعني مسلمة الكذاب لا سقيت
إنا لا نعرف بين نساء العالم امرأة واحدة (نبية)، اللهم إلا النبات
التسع في العهد القديم⁽¹⁾، والشاعر هنا، يلعن ويستطر اللعنات من
مختلف الأقوام على هذه النبية المدعية، وأيضاً على مسلمة الكذاب
صاحب الإفك الذي ضلل وأضل.

ولكن جواد علي، لا يستبعد تأثر مسلمة باليهود والنصارى وأخذه
منهم، وما دعوته إلى عبادة (الرحمن) إلا صدى تأثيره باتباع أهل
الكتاب⁽²⁾.

والمتبصر للشعر المروي على لسان مسلمة إلى هذه النبية، يرى
بوضوح الإباحية المطلقة، والكلام الفاحش البذيء الذي لا يمكن أن
يصدر عننبي، ولا حتى عن إنسان عادي، أو شاعر فاحش متاخر كأبي
نواس ويشار ... وهل هناك زندقة فكرية اجتماعية أكثر من هذه؟

ج - أنبياء أدعياء آخرون:

كان هناك كثيرون، ادعوا علم الغيب، وتوخصوا بـ (الكهانة
والعرافة)⁽³⁾ اشتهر بالأولى: عزي سلمة، وشق أثمار، وسطيع بن مازن،
وختافر بن التوأم الحميري، وسوداد بن قارب الدوسى، وطريفة الكاهنة،
وزبراء، وسلمى الهمدانية، وعفيرة الحميرية، وفاطمة بنت مر الختممية.
واشتهر بالثانية: رياح بن عجلة عراف اليمامة، والأبلق الأسدي عراف
نجد⁽⁴⁾.

(1) قاموس الكتاب المقدس. أنظر أسماءهن ص 952.

(2) جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام 97 / 6.

(3) الكهانة مختصة بالأمور المستقبلة. والعرافة بالأمور الماضية.

(4) الألوسي: (محمود شكري) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب. القاهرة 1342هـ / 1924م. ج 3، ص 275. وما بعدها.

هؤلاء وأمثالهم زجروا الطير، وضرروا الحصى، وخطوا الرمل،
وضللوا الكثير من الناس، ولكن بعض الناس أنكروا الطيرة، وعارضوا
فكرة الزجر، من ذلك قول ضابيء بن العارث البرجمي:

وما أنا ممن يزجر الطير همه أصاح غراب أم تعرّض ثعلب
ولا السانحات البارحات عشية أمر سليمُ القرن أم مرأًّا عضبُ⁽¹⁾

كذلك عارضوا الطرق بالحصى لمعرفة جواب المستفسر كقول ليدي:
لَعْنُوكَ مَا تدري الضواربُ بالحصى ولا زاجراتُ الطيرِ مَا الله صانع⁽²⁾

كما استقسموا بالأذلام، برميهم القداح على ذي الخلصة وأمنوا
بـ(البحيرة والسانبة والوصيلة والحاامي)⁽³⁾، كما تعودوا حمل التمام
والتعاويذ للمداوة، أو خوفاً من الموت أو البلاء، وعلقوا الحلبي
والجلاجل على اللدغ ليشفى، وإلى ذلك يشير النابغة الذبياني:

فبئثٌ كأنني ساورتني ضئيلةٌ من الرُّقشِ، في أنيابها السُّمُّ ناقعٌ
يُسْهَدُ، من ليلِ التَّمَامِ، سليمُها، لِحْنِي النَّسَاءِ، في يديه، قعاقع⁽⁴⁾

شعراء زنادقة:

عندما نتكلم عن الزندقة، في العصور الأولى للعرب، لا نقف عند المدلول الاصطلاحي للكلمة الذي عرف في صدر الدولة العباسية، وأطلق على من اعتنق «المانوية»⁽⁵⁾، بل نتخطى هذا المدلول المحدود إلى معنى أوسع يشمل كل من خرج عن عقيدة الجماعة المتّبعة وأعرافهم وتقاليدهم

(1) علي الجندي: تاريخ الأدب الجاهلي. مكتبة الجامعة العربية، بيروت، ط ثانية 1966، ص 106.

(2) ليدي بن ربيعة العامري: الديوان. ص 90، دار صادر، بيروت.

(3) أنظرها في: الأب جرجس داود: أدیان العرب قبل الإسلام. ص 347.

(4) النابغة الذبياني: الديوان. ص 80، المؤسسة العربية للطباعة، بيروت.

(5) انظر القسم الأول من الفصل الثاني.

متجاوزين دائرة الدين إلى حلبات العبث والمجون وغيره.

والإلحاد داء قديم، وبلية خلقت مع الإنسان الأول. يرى أبو العلاء المعربي أن الزندقة قديمة قدم الإنسان، وأن الإلحاد «لم يزل في بني آدم على مرّ الدهور، حتى إن أصحاب السير يزعمون أن آدم بعث إلى أولاده فأنذرهم بالآخرة وخوفهم من العذاب فكذبوا قوله، ثم على ذلك المنهاج إلى اليوم ...»⁽¹⁾.

فالزندقة والحالة هذه، تسير سير الإنسان ترافقه في كل زمان ومكان، أفلأ تجوب معاقل العرب، وتتدخل مضاربهم، وتلتجأ أبابهم، ومن ثم تتردد على ألسنة شعرائهم؟ تنساب انسياط الرقطاء بين رمال الصحراء.

أ - الأعشى والزندقة:

إذا ما كان الخمر والمجون زندقة، فإن أعشى قيس يعتبر زنديقاً كبيراً زمن ما قبل الإسلام. إذ يقول:

نَ يَوْمَ الْمُقَامِ وَيَوْمَ الظَّعْنِ
فَقد أشرب الراح قد تعلم
وأشرب بالرِّيفِ حتَّى يُقا
لَ قَدْ طَالَ بِالرِّيفِ مَا قَدْ دَحَنَ
وأقرَرَتْ عَيْنِي مِنَ الْغَانِيَا
تِ إِمَانَ كَاحِاً وَإِمَانَ أَزَنَ⁽²⁾

فهو يشربها في الحل والترحال، وقد يدأب على شربها في الريف ليالي وأياماً. وقد أشار القدماء إلى أثر الأعشى في شعراء الخمر الذين جاءوا بعده، كالأخطل وأبي نواس. ويطول بنا المقام إذا أحصينا المعاني التي تداولها الشعرااء من بعده.

إن الأعشى في خمرياته، متلاف لا يقارنها بشمن ولا يدخل عليها بشيء.

(1) المعربي: رسالة الغفران. ص 211.

(2) الأعشى الكبير: الديوان. شرح وتعليق د. محمد حسين. نشر مكتبة الأدب. بالجاميز. قصيدة رقم 2 ص 17.

يعترف أن الخمر والنساء والإسراف في فاخر الطعام قد اتلتقت ماله. يقول:
 إنَّ الأحامرَةَ الشلَاثَةَ أهْلَكَتْ مَا لَيْ وَكُنْتُ بِهِنَّ قَدْمًا مُؤْلَعًا
 الْخَمْرَ وَاللَّحْمَ السَّمِينَ مَعَ الظَّلَى بِالْزَعْفَرَانِ وَلَا أَزَالَ مَرْدَعًا⁽¹⁾
 ويشربها الأعشى عند سقاء يهودي، معتفقة بدليل وجودها في إناء
 مختوم. يقول:

وَصَهْبَاءَ طَافَ يَهُودِيهَا
 وَقَابِلَهَا الرِّيحُ فِي ذَنْهَا
 تَمَرَّذُهَا غَيْرَ مُسْتَدِيرٍ
 وَأَبْرَزَهَا وَعَلَيْهَا خُثْمٌ
 وَصَلَّى عَلَى ذَنْهَا وَارْتَسَهُ
 عَنِ الشُّرْبِ أَوْ مُنْكِرِ مَا عُلِمَ⁽²⁾
 ولقد يصرف الأعشى شبابه من رفاق مع أصحاب اللذة والفتوك،
 يغدو معهم إلى الحانوت حيث المأكل والمشرب - وهم يعلمون «أن ليس
 يدفع عن ذي الحيلة الحيل». يقول:

وَقَدْ يَصَاحِبُنِي ذُو الشَّرَّةِ الْغَزْلِ
 شَاؤِ مِشَلٌ شَلَولُ شَلَشَلُ شَوْلٌ
 أَنْ لَيْسَ يَدْفَعُ عَنِ ذِي الْجِيلِ الْجِيلُ
 وَقَهْوَةً مُزَّةً رَأْوَوْقَهَا خَضِلُ⁽³⁾
 وقد أقود الصبى يوماً فيتبععني
 وقد غدوت إلى الحانوت يتبععني
 في فتية كسيوف الهند قد علموا
 نازَغَتْهُمْ قُضْبَ الرَّيْحَانِ مُتَكِنَّا

وقد يحاول أن ينهى نفسه عن التصابي والمجون، ولكن الشوق
 القديم إليهما يعاوده، ولكم سعي قبل مخاطبته لجارته أن يلتمس الفجور
 في القطبيع من البقر، ولا عجب بعد هذا أن يطارحها الغرام في إياحية
 مطلقة. يقول:

أَلَمْ تَنْهَ نَفْسَكَ عَمَّا بِهَا بَلِى عَادَهَا بَعْضُ أَطْرَابِهَا
 لِجَارِتِنَا إِذْ رَأَتْ لَمَتِنِي تَقُولُ لَكَ الْوَيْلُ أَنَّى بِهَا



(1) الأب لويس شيخو: شعراء النصرانية.

(2) ديوان الأعشى. تصيدة 4، ص.35.

(3) ديوان الأعشى. تصيدة 6، ص.59.

وَقَبْلِكِ سَاعِيْتُ فِي رَبِّرِبِ إِذَا نَام سَامِرُ رَقَابِهَا
تُنَازِعُنِي إِذْ خَلَتْ بُرْدَهَا مُفَضَّلَةً غَيْرَ جَلْبَابِهَا



فَطُورًا تَكُونُ مَهَادًا لَنَا وَطُورًا أَكُونُ فَيُعَلِّى بِهَا
وَكَأسٌ شَرِيقٌ عَلَى لَذَّةٍ وَأَخْرَى تَدَاوِيْتُ مِنْهَا بِهَا
لَكِي يَعْلَمَ النَّاسُ أَنِّي امْرُؤٌ أَتَيْتُ الْمَعِيشَةَ مِنْ بَابِهَا⁽¹⁾

وَمَعَ هَذَا الْفَسْقِ وَالْفَجُورِ لِلشَّاعِرِ نَرِي «أَبَا الْعَلَاءِ» قَدْ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ
بَعْدَ أَنْ تَوَسَّطَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ. يَقُولُ الْأَعْشَى: قَلْتُ لِعَلِيٍّ: وَقَدْ كُنْتَ
أَوْمَنْ بِاللَّهِ وَبِالْحَسَابِ وَأَصْدَقَ بِالْبَعْثِ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْجَهَلَاءُ، فَمِنْ ذَلِكَ
قُولِيَ :

وَمَا أَيْبُلِي عَلَى هِيَكِلٍ بَنَاهُ وَصَلَبَ فِيهِ وَصَارَا
يُرَاوِحُ مِنْ صَلَوَاتِ الْمَلِيكِ كَطُورًا سَجُودًا وَطُورًا جُؤَارًا
بِأَعْظَمِ مِنْهُ ثُقَى فِي الْحَسَابِ إِذَا التَّسْمَاتُ نَفَضَنَ الْغُبَارًا
فَذَهَبَ عَلَيِّ إِلَى النَّبِيِّ ... فَشَفِعَ لِي فَأَدْخَلَتِ الْجَنَّةَ⁽²⁾.

فَكَيْفَ تَوَقَّقُ بَيْنَ إِقْرَارِ الشَّاعِرِ بِالإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِالْحَسَابِ، وَبَيْنَ مَجُونِهِ؟
تُرِى هَلْ يَجُوزُ أَنْ يَعْدَ الْأَعْشَى زَنْدِيقًا؟ رِبَّا، إِذَا اعْتَبَرَ الْعَبْثُ وَالْمَجُونُ مِنْ
أَنْوَاعِ الزَّنْدَقَةِ. وَعِنْدَئِذٍ يَكُونُ الْأَعْشَى زَنْدِيقُ الْخَمْرِ وَنِسَاءَ، لَا زَنْدِيقُ كَفَرِ
وَرِبَاءِ، هَذَا مَعَ الإِشَارَةِ إِلَى اعْتِرَافِ الْأَعْشَى بِرَبِّي يَمْلِي عَلَيْهِ الْأَشْعَارِ،
يَرَاقِهِ وَلَا يَفَارِقُهُ، وَقَدْ سَمَاهُ مَسْحَلًا فِي مَثْلِ قُولِهِ:

دَعَوْتُ خَلِيلِي مِسْحَلًا وَدَعَوْنَا لَهُ جَهَنَّمَ جَذْعًا لِلْهَجَنِينِ الْمُلَمَّمِ⁽³⁾

(1) المصدر نفسه. قصيدة 22، ص 171 وما بعد. وانظر أيضاً القصائد رقم: 5 - 8 - 10 - 20 - 21 - 29 - 30 - 33 - 36 - 54 - 55 - 64 - 78). والربرب: جماعة البقر ما كان دون العشرة.

(2) المعري: رسالة الغفران. ص 77.

(3) ديوان الأعشى. قصيدة رقم 15، ص 125.

وليس هذا بغرير في ذلك العصر، ولكن الغرير هو تصريح الأعشى بأنه لا يتلعم بالكلام، لأن وراءه منحلاً يُسدي له القول، وهو ما شريكان صفيان موفقان، وشاهدنا على ذلك قوله:

وَمَا كنْتُ شَاحِرْذَاً وَلَكِنْ حِسْبَتْنِي إِذَا مِنْحَلُ سَدِّي لِيَ الْقَوْلَ أَنْطِقْ
شَرِيكَانِ فِيمَا بَيْتَنَا مِنْ هَرَادَةٍ صَفَيَّانِ جَنِّيٌّ وَأَنْسُ مُؤْفَقٌ⁽¹⁾

إن «المعري» في (غفرانه)، وقد أدخل الأعشى وأقرانه في زمنه جنة الله، كما أدخل بشاراً وأنداده، الجنة، يوم استحكمت الزندقة، واستفحلت فيما بعد، يجد مخرجاً لهؤلاء، وهم يتندرون ويروون غزلياتهم وخرميائاتهم بين مفاتن الفردوس، حيث يقول الأعشى:

فَظَلَّلْتُ أَرْعَاهَا، وَظَلَّلْ يَحْوِطُهَا حَتَّى دَنَوْتُ، إِذَ الظَّلَامُ دَنَاهَا
فَرَمِيْتُ غَفْلَةً عَيْنِهِ عَنْ شَأْنِهِ، فَأَصْبَتُ حَبَّةً قَلْبَهَا وَطَحَالَهَا⁽²⁾

يجد المعري المخرج فيقول: «ونحو ذلك مما روي عنه، فلا يخلو من أحد أمرين: إما أن يكون قاله تحسيناً للكلام على مذهب الشعراء، وإما أن يكون فعله ففر له. «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم»⁽³⁾. وتحسين الكلام على مذهب الشعراء، ربما يكون المعري قد عنى بذلك ما جاء في القرآن: «والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون»⁽⁴⁾. أما أن يكون قد تزندق وضلّ وغوى، فإن الله يغفر الذنوب جميعاً. وتهمة الضلال وجهها إليه النابعة الجعدي في غفران أبي العلاء، حيث يحتمل النقاش بين الشاعرين

(1) المصدر نفسه. قصيدة 33. ص 221. «شاحرداً» متعلم.

(2) المصدر نفسه. قصيدة 3، ص 27. الشاة: يقصد بها الزوجة. والمعري: رسالة الغفران: ص 97.

(3) قرآن كريم: سورة الزمر رقم 39، آية 53.

(4) سورة الشعراء، آية 224 - 226.

وتكال الاتهامات، فيقول الجعدي: «اسكت يا ضلّ بن ضلّ»^(١). فاقسم أن دخولك الجنة من المنكرات، ... لحقك أن تكون في الدرك الأسفل من النار، ولقد صلى بها من هو خير منك، ولو جاز الغلط على رب العزة، لقلت: إنك غلط بك! ألسنت القائل؟

بُ، فبَتْ دون ثيابها
من شدّة للعابها
لِ مُوجِّه يُزْمِنَ بها
ولمسَت بَظْنَ حِقَابها
كَ عَبِيرُها بِمَلَأَ بها
مرفوعة لشَرَابها⁽²⁾

فدخلت إذ نام الرقيب
حتى إذا ما استرسلت
قسمتها قسمين كـ
فَتَنِيتْ جيد غريزة
كالحُّقَّةِ الصفراء صـا
وإذا لـنا تـامـورـة

ب - سويد بن عامر المصطلقى:

أطلقت لفظة زنديق في صدر الدولة العباسية على من اعتنق (المانوية)، التي ترد العالم إلى أصلين من نور وظلمة، أو من خير وشر. ومن المرجح أن يكون هذا المدلول قد عرف في الجاهلية، وإن لم يصرّ به. وقد ورد في شعر بعضهم، يقول سعيد بن عامر المصطلقي:

إِنَّ الْمُنَايَا بِكَفَئِي كُلُّ إِنْسَانٍ
حَتَّى تَبَيَّنَ مَا يَمْنَى لَكَ الْمَانِي
وَكُلُّ زَادٍ وَإِنْ أَبْقَيْتَهُ فَانْ
بِكُلِّ ذَلِكِ يَأْتِيكَ الْجَدِيدَانِ⁽³⁾

لَا تَأْمَنَّ إِنْ أَمْسَيْتَ فِي حَرَمٍ
وَاسْلُكْ طَرِيقَكْ تَمْشِي غَيْرَ مُخْتَشِعٍ
فَكُلُّ ذِي صَاحِبٍ يَوْمًا يُفَارِقُهُ
وَالْخَيْرُ وَالشُّرُّ مَقْرُونَانِ فِي قَرَنِ

فالخير والشر مجموعان في جبل لا يفترقان ما دام الليل والنهار
متحددان دائماً.

(1) يا وارث الضلال عن آبائك.

(2) ديوان الأعشى. قصيدة رقم 39، ص 255. التامورة: إباء للخمر.

(3) الشريف المرتضى: الأمالي. دار الكتاب العربي / 1368

إن هذا الشاعر الفتى، أو ابن العشرين، أو الغلام القتيل، كما كانوا يلقبونه، نشاً يتيمًا، فانصرف إلى اللهو ومعاقرة الخمرة، ومعاشرة النساء، ينفق ماله الموروث، لا يردعه رادع ولا يصفعي إلى صوت وازع. نرى مجونه المستظرف «كظرف زنديق» في معلقته الشهيرة: إذ يقول:

ندامي بيض كالنجوم، وقيمة تروح علينا بين بزد ومجسد
رحيب قطاب الجيب منها، رقيقة بحسن الندامى، بضمّة المثلجَرَد
وما زال تشرابي الخمور، ولذتي وبينعي وإنفاقي طريفِي ومُثْلَدِي
ألا أيهذا اللامى أحضر الوغى، وأن أشهد اللذات، هل أنت مُخلدي؟



كريم يُروي نفسه في حياته، ستعلم، إن متنا غداً، أئنا الصدي
أرى قبرَ نحَامِ بخييلِ بماليه، كَبَرْ غوي في البطالة مُفسِدٍ⁽¹⁾

فهو في أبياته ينتقل بين ملتمس جسد القينة الندى البض، وبين شرب
الخمر والتلذذ من الحياة، لأنه فان ولا يعتقد بالخلود، فالموت، والنفس
مروية، خير منه وهي عطشانة إلى الملذات. لأن القبر واحد في جمعه بين
المقتول والمبذر.

وطرفة الذي سعى في حتفه بنفسه، حيث حمل بيده صحيفة مقتله،
من عمرو بن هند - ملك الحيرة إلى عامله في البحرين⁽²⁾. نراه يقسم عند
(النصب) كأنه مؤمن بما يقول:

فأقسمت عند النصب: إني لها لك بملتفة، ليست بغيظ ولا خفظ⁽³⁾

(1) طرفة بن العبد. الديوان. المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، المعلقة، ص 30 وما بعد.

(2) المصدر نفسه، ص 8.

(3) المصدر نفسه، ص 66. ملتفة: أرض ناسها أو شجرها كثير. غبط: حسن الحال والمسرة.
خفظ: لين العيش وسعنته.

هو زياد بن معاوية بن ضباب النباني، كنيته أبو أمامة، ولقبه النابغة، لنبوغه في الشعر، قال عنه ابن رشيق: إنه كان نظيف الشعر، خالياً من العيوب، لكونه شعر وهو كبير السن.⁽¹⁾

يجمعه المعري في (غفرانه) مع النابغة الجعدي وأبا بصير في جنة الله، فيقول: «أما نابغةبني جعدة فقد استوجب ما هو فيه بالحنيفية، وأما أنت يا أبي أمامة فما أدرى ما جهتك، فيقول النباني: إني كنت مقراً بالله، وحججتُ البيت في الجاهلية، ألم تسمع قولي»⁽²⁾:

فلا لعمُّ الذي قد زرَّه حججاً، وما هُرِيقَ على الأنصاب، من جَسَدٍ
والْمُؤْمِنُ العائذاتِ الطيرَ تمسحُها ركبانُ مكة بين الغَيْلِ والسَّنَدِ
والنابغة هنا كسابقه طرفة، يقسم بمن يتوجه إليه الحاج، ثم لا ينسى
النصب فيقسم بما أريق عليها من جسد والمقصود به الدماء الحمراء التي
كانت تسيل على الأنصاب.

ويتابع المعري الكلام عن مجلس المنادمة في الجنة، والنابغة فيه،
فيقول: «إِنَّمَا أَكَلُوا مِنْ طَيَّبَاتِ الْجَنَّةِ، وَشَرَبُوا مِنْ شَرَابِهَا الَّذِي خَزَنَهُ اللَّهُ لِعَبَادِهِ الْمُتَقِينَ، قَالَ: يَا أَبَا أمَامَةَ، كَيْفَ حَسِنَ لَكَ لِبُكَ أَنْ تَقُولَ لِلنَّعْمَانَ
بْنَ الْمَنْذَرِ:

زعم الهمامُ بأن فاما بارداً عذبٌ، إذا ما ذقتَه قلت ازدد
زعم الهمامُ، ولم أذقه، بأنه يُشَفَّي ببرد لثاتها العطشُ الصَّدِي
ثم استمر بك القول حتى أنكره عليك خاصة وعامة»⁽³⁾.

(1) النابغة النباني: ديوان. المؤسسة العربية للطباعة والنشر. بيروت ص.5.

(2) المعري: رسالة الغفران. ص 88 وروي في الديوان: البيت الأول: الذي مسحت كعبته.
والكلمة الأخيرة في البيت الثاني. السعد. ص 35.

(3) المعري: الغفران، ص 89.

إن في قصيدة النابغة (أمن آل مية) مجنوناً وزنقة اجتماعية فهو يعرض للمجتردة زوج النعمان بوصف لدقائق جسدها فيبيع وينكر عليه. كما وأنه يتعرض لمعتقدات الجاهليين في البوارح والسوائح من الطير، فيقول:

رَعْمَ الْبَوَارِحُ أَنْ رَحَلْتَنَا غَدَأً **وَبِذَاكَ خَبَرْنَا الْفَرَابُ الْأَسْوَدَ⁽¹⁾**

والبوارح ما تشاءم منه العرب كذلك الغراب الأسود. ثم يشني النابغة إلى وصف (مهند) الجارية⁽²⁾. فيقول:

وَالْبَطْنُ ذُو عُكْنَ، لَطِيفٌ طَيْهُ، **وَالإِتْبُ تَنْفُجُهُ بِشَذِي مُقْعَدٍ⁽³⁾**

زَعْمَ الْهُمَامُ بِأَنْ فَاهَا بَارَدٌ، **عَذْبُ مُقَبَّلُهُ، شَهِي الْمُورَدِ⁽³⁾**

ولا يكتفي النابغة بهذا القدر من جمالها، بل يقول: إنها إذا ما عرضت لناسك متبتل مسن، لترك عبادته ورنا لحسنها وأخذ بمنطقها، يقول:

لَوْ أَنَّهَا عَرَضَتْ لِأَشْمَطَ رَاهِبٍ، **عَبَدَ الْإِلَهَ، صَرُورَةَ، مُتَعَبِّدٍ⁽⁴⁾**

لَرَنَا لِبَهْجَتِهَا، وَحُسْنِ حَدِيثِهَا **وَلِخَالَةَ رُشَداً إِنْ لَمْ يَرْشُدِ⁽⁴⁾**

أوليس هذه التصرفات زنقة؟ فمن زيارة النصب والاعتقاد بها، إلى الغزل الإباحي، ثم إلى التشاؤم بالبوارح والتلاؤم بالسوائح من الطير. ولم يكتفي النابغة ونظراًه بالتطير من الطير، بل تطيروا بأشياء كثيرة: منها العطاس⁽⁵⁾. وفي ذلك يقول امرؤ القيس:

وَقَدْ اغْتَدَى قَبْلَ الْعُطَاسِ بِهِيْكِلٍ **شَدِيدٌ مِشَكُ الْجَنْبَ فَقْمُ الْمُنْطَقِ⁽⁶⁾**

(1) النابغة الذهبياني: الديوان ص 38 والبيت فيه أقواء (الضماء).

(2) ربما عن زوجة النعمان التي سقط ثوبها وهو ينادم الملك.

(3) عكن: ثنية لحم البطن. الإتب: الثوب. تنفعه: ترفعه. مقعد: المتصلب.

(4) النابغة الذهبياني: الديوان. ص 41. أشmet: خالط شعره الشيب. صرورة: متبتل.

(5) كانوا إذا عطس من يحبونه قالوا له: «عمراً وشباً» وإذا عطس من يبغضونه قالوا له: «وريًّا وقحابةً» والوري: داء يصيب الكبد فيفسدتها.

(6) أحمد مكي: امرؤ القيس، حياته وشعره. دار المعارف. ص 326.

والمعنى أنه يتنهى للصيد قبل أن يتنهى أحد، لثلا يسمع عطاساً فيتشاءم به. ومنها الغراب، ويسمونه حاتماً، لأنه يحتم بالفارق⁽¹⁾.

ومنها الجرادة، قال زيان بن منظور الفزاروي، في حديث له مع التابعية الذبياني الذي تطير من جرادة حطت عليه فرجع من الغزو، ومضى زيان فظفر وغنم:

تعلَّم أَنَّه لا طَيْرَ إِلَّا عَلَى مُتَظَّلِّرٍ، وَهِيَ الشَّبُورُ
بِلِّي شَيْءٌ يَوْافِقُ بَعْضَ شَيْءٍ أَحَابِينَا، وَبَاطِلُهُ كَثِيرٌ⁽²⁾
بِلِّي إِنَّهَا الْحَيَاةُ، كَمَا يَقُولُ الشَّاعِرُ، الَّذِي دَخَلَ بِكُفْرِهِ وَفَلْسِفَتِهِ إِلَى
صَمِيمِ الْوَاقِعِيَّةِ.

فَلِمَ هَذِهِ الْأَوْهَامُ وَالْأَبَاطِيلُ؟ أَلَا نَرَى أَنَّهَا لَا تَزَالُ فِي عُقُولِ النَّاسِ
وَتَصْرِفَاتِهِمْ حَتَّى الْيَوْمِ؟

إنَّ كَثِيرًا مِّنْ هَذِهِ الْانْحرَافَاتِ الْزَّنْدِقِيَّةِ، نَفَاهَا شَاعِرٌ قَدِيمٌ فَقَالَ لِزَيَّانَ
الْمَذْكُورُ:

لَا يَمْتَعَّثُكَ مِنْ بَعْدِ
الْخَيْرِ تَغْفَأُ الدَّيْمَائِينَ
لَا، وَالتَّشَاؤُمُ بِالْعُطَا
سِ وَلَا التَّيَامُنُ بِالْمَقَاسِمِ
وَلَقَدْ غَدُوتُ وَكُنْتُ لَا
أَعْدُو عَلَى وَاقِ وَحَاتِمَ
إِذَا الأَشَائِمُ كَالْأَيَا
مِنِّي، وَالْأَيَامُنُ كَالْأَشَائِمِ
رِ الْأَوْلَيَاتِ الْقَدَائِمِ⁽³⁾.

هـ - زنادقة آخرون:

جاء في القرآن الكريم: «يُوْمٌ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا
انظُرُونَا نَقْبَسْ مِنْ نُورِكُمْ قَبْلَ ارْجَعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَّمَسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ

(1) ابن رشيق: العمدة (1 - 2). دار العجيل. ط الرابعة 1972. ج 2، ص 260.

(2) المصدر السابق، ص 262.

(3) المصدر السابق. ص 262. الواق: طائر. وحاتم: صفة للغراب.

بصور له بابٌ باطنه فيه الرَّحْمَةُ وظاهره من قبيله العذاب. ينادونهم ألم نكن
معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وترِيَضُّم وارتَبَّم وغَرَّتُم
الأماني...»^(١).

إذا نظر في جحيم غفران، أبي العلاء، يفهم أنه يتمثل الصور
القرآنية، وكذلك يفعل في جنة غفرانه، وزراه يركز بما جاء على السنة
الشعراء من تشبيب بالمحبوبة وتشراب الخمور واعتقاد بالجن والأوثان
والنصب. ولا فرق عنده بين شعراء الجنة وشعراء النار ... والذين دخلوا
الجنة، دخلوها، لأن الله غفور رحيم. ويستعير أبو العلاء صوراً من الشعر
الجاهلي يمثلها في جحيمه مشخصة.

1 - عترة العبسي:

وننظر فإذا عشرة العبسي متلذذ في السعير، فيقول: مالك يا أخا
عيس؟ كأنك لم تنطق بقولك:

ولقد شربت من المدامَة بعدما ركَّدَ الْهَوَاجِرُ، بالمشوف المُعْلَم
بزجاجة صفراء ذات أسرةٍ قُرِنَتْ بأشهرَ في الشَّمَالِ مُفَدَّمٍ^(٢)
فكأنَّ المعري يعاتب عترة ويغمز إلى أن مثل هذا القول قد أدخله
النار ويتبع: لقد شق علي دخول مثلك إلى الجحيم. ولكن أذنه تصفي إلى
قينات الفساط وهي تفرد بقول عترة:

لو أن ذا منك قبلَ الْيَوْمِ مَعْرُوفٌ
أَمْنَ سَمِيَّةَ دَمَعِ الْعَيْنِ تَذْرِيفُ
كأنها صَنَمٌ يَعْتَادُ مَعْكُوفٌ
تجلَّلَشَنِي إِذْ أَهْوَى الْعَصَمَ قَبْلِي
لا شَكَّ لِلْمَرْءِ أَنَ الدَّهْرَ ذُو خُلُفٍ
فيه تَفَرَّقَ ذُو إِلْفٍ، وَمَالُوفٌ^(٣)

(١) سورة الحديد: آية ١٣ - ١٥.

(٢) المعري: رسالة الغفران: ص 158. ركَّدَ الْهَوَاجِرُ: سكنت الهاجرة، هدا الحر. ذات
أسرة: ذات خطوط كخطوط اليد. أشهر: أبريق. مقدم: مسدود الرأس بالقدام.

(٣) عترة بن شداد: الديوان تحقيق فوزي عطوي. دار المعرفة - بيروت ط أولى 1968.
ص 181.

فعنترة الذي اتهم بسمية زوج أبيه وضرب بالعصا ضرباً مبرحاً ر بما استحق دخول الجحيم بنظر أبي العلاء على الأقل، إما انتقاداً وإما افتخاراً. أو ربما الذي لاقاه عنترة وأمثاله البعيدون زمناً عن أبي العلاء، هو نفسه الذي لاقاه بشار والحمدادون وغيرهم، من الاتهام بالزندة ورميهم في جحيم الحياة - القريبون حياة منه.

2 - علقة بن عبدة:

ينظر المعربي فإذا علقة بن عبدة في جهنم عابس يُستضحك⁽¹⁾، فيقول: «لو شفعت لأحد أبيات صادقه ليس فيها ذكر الله، سبحانه، لشفعت لك أبياتك في وصف النساء، أعني قولك:

فإن تسألوني بالنساء فإنني بصير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأسُ المرأة، أو قللَ مالُه، فليس له في ودهن نصيب⁽²⁾
يرِدْنَ ثراءَ المال حيث علِمْتَه، وشرخَ الشباب عندهن عجيب⁽³⁾
ثم يتبع المعربي كلامه، فيقول: وإن في نفسي لحاجة من قولك:

كأس عزيز من الأعناب عتقها لبعض أربابها حانية حُوم
يهدي بها أكلفَ الخَدَّين مختبر من الجمال كثير اللحم عيثوم⁽³⁾
ترى! لماذا أدخل المعربي علقة إلى جهنم؟ لأنه كان زنديق نساء
وخر وغلمان، كما يظهر من الأبيات السابقة؟ أم أدخله جحيمه لسبب آخر
لتشفع له هذه الأبيات، وربما عنها المعربي أو أوردها بسخرية وتهكم؟
الشيء الذي لن يفوتنا هو أن صاحب الغفران أوجز في وصف العذاب،
وألجم خياله عن التصوير والتشخيص، فأخيالنا يقدم الشعراً في جهنم
بعبارات تصف عذابهم وصفاً سريعاً موجزاً، وكأنه لا يريد أن يراهم في
مثل هذا الألم، لأنهم لا يستحقونه.

(1) المعربي رسالة الغفران: ص 161. بنت الشاطئ: الغفران: ص 138.

(2) المعربي: رسالة الغفران: ص 161.

(3) المصدر السابق: ص 162. العيثوم: السريع الجري.

3 - عمرو بن كلثوم التغلبي:

ليت شعري، ماذا فعل هذا الشاعر حتى أدخله المعرى في جحيمه؟
ربما لأنه اصطبغ بصحن الغانية، واغتبق من الدنيا الفانية. حيث بدأ
معلقته:

الا هُبَيْ بِصَحْنِكَ فَاضْبَحَنَا لا تُبْقِي خَمُورَ الْأَنْدَرِينَا
وَكَأسٌ قَدْ شَرِبْتُ بِبَغْلَبْنَكَ وَأَخْرَى فِي دِمَشْقَ وَقَاصِرِينَا⁽¹⁾

أم لأنه شَبَّ فافحش وأسفه فأوحش، بقوله:

تُرِيكَ إِذَا دَخَلْتَ عَلَى خَلَاءٍ وَقَدْ أَمِنْتَ عَيْنَ الْكَاشِحِينَا



وَتَذَيَا مِثْلَ حُقُّ الْعَاجِ رَخْصَا حَصَانًا مِنْ أَكْفَ الْأَمْسِينَا



الا لا يَجْهَلُهُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا⁽²⁾

4 - الحارث البشكري: بن حلزة⁽³⁾:

وإذا ما كانت عبادات بعض الجاهليين للأصنام والأوثان والنصب، -
من دون الله .. زندقة. وكذلك بعض عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية، فإن
الحارث البشكري يعد زنديقاً لقوله:

لَا تُكْسِعَ الشَّوْلَ بِأَغْبَارِهَا، إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَنِ النَّاتِحُ
وَاحْلُبْ لِأَضِيافِكَ أَلْبَانِهَا، فَإِنَّ شَرَّ الْلَّبَنِ الْوَالِجُ⁽⁴⁾

(1) الزويني: شرح المعلقات السبع. دار الجيل، ص 165 و 167. (الأندرلين) قرى بالشام.

(2) المصدر السابق. ص 168 و 169 و 178.

(3) في بعض المصادر «الحرث» وليس الحارث. ابن منظور: لسان العرب 8/310.

(4) ابن منظور: لسان العرب: 8/310. وكسع الناقة بغيرها: ترك في خلفها بقية من لبن.
والوالج: الذي يلتج في ظهورها من اللبن المكسوع.

وفي الجاهلية كسعوا ناقة الميت على قبره، وزعموا أنه إذا نهض ليوم حشر، وجدتها قد بعثت له، فيركبها ويحف إلى حيث شاء⁽¹⁾.

5 - تابط شرآ:

وثابت بن جابر بن عمیل⁽²⁾، ألا يكون زنديقاً، وهو الذي لها بفتاة عذراء، نازعته في كأسه، ونكح الغول لاعتقاده أنها تقمص جسم إنسان، يقول:

ما ظلَّ فِيهِ سُمَاكٌٰ وَلَا جَادَ
بَكْرٌ تَنَازَعَنِي كَأْسًا وَعَنْقَادًا
عَصْرَ الْمُشَبِّبِ، فَقُلْ فِي صَالِحٍ: بَادَا⁽³⁾
أَنَا الَّذِي نَكَحَ الْغَيْلَانَ فِي بَلَدٍ
وَقَدْ لَهُوتُ بِمَصْقُولٍ عَوَارِضَهَا
ثُمَّ انْقَضَى عَصْرَهَا عَنِي وَأَعْقَبَهُ
وَهُوَ الْقَاتِلُ أَيْضًا:

فِيَا جَارَتَا لَكَ مَا أَهْوَلَ
عَلَيَّ وَحَاوَلْتُ أَنْ أَفْعَلَا
فَمَنْ كَانَ يَسْأَلُ عَنْ جَارِتِي فَإِنَّ لَهَا بِاللَّوْيِ مَنْزَلًا⁽⁴⁾
جَاءَ فِي الْأَغَانِيَ أَنْ «تَابَطَ شَرًا» لَقِيَ الغُولُ فِي لَيْلَةِ مَظْلَمَةٍ، فِي
مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ: رَحْيٌ بَطَانُ، فَقَطَعَتْ عَلَيْهِ الطَّرِيقُ، فَقَتَلَهَا وَبَاتَ عَلَيْهَا،
وَلَمَّا أَصْبَحَ حَمْلَهَا تَحْتَ إِيْطَهُ وَجَاءَ بِهَا أَصْحَابُهُ، فَقَالُوا: تَابَطَ شَرًا،
فَقَالَ يَصْفُ مَا فَعَلَ، وَيَصْفُ الغُولُ:

بِمَا لَاقِيتَ عِنْدَ رَحْيٍ بَطَانُ
بِسَهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانُ
لَا نَطَرَ مِضْبَحًا مَاذَا أَتَانِي⁽⁵⁾
كَرَأْسَ الْهَرَّ مِشْقُوقٍ اللِّسَانُ
أَلَا مِنْ مَبْلُغٍ فَتِيَانَ فَهُمْ ،
وَأَئْنِي قَدْ لَقِيتَ الغُولَ تَهْوِي
فَلَمْ أَنْفَكَ مَتَكَنًا عَلَيْهَا
إِذَا عَيْنَانَ فِي رَأْسِ قَبِيْحٍ

(1) المعري: الغفران. ص 165.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 18/209. وابن عامل في: ابن قتيبة: الشعر والشعراء 1/229.

(3) المعري: رسالة الغفران: ص 179.

(4) الأصفهاني: الأغاني: 18/210.

(5) المصدر السابق.

ومجمل القول أن الزنادقة بكل تعريفاتها ومدلولاتها كانت منذ كان الإنسان ورافقته في كل أعصر حياته ... وتنتفي الزنادقة إذا لم يكن هناك زنادقة، وما أكثرهم في أعصر بحثنا.

وقد نكتفي بزنادقة «الجاهلية» الذين أوردناهم حتى لا يطول بنا البحث ونكون قد مخرنا البحر واستوقفتنا رحلة المحيط.

القسم الثاني

زنادقة العصر الإسلامي والأموي

جاء على لسان الشريف المرتضى، أنه «كان في الجاهلية قبل الإسلام، وفي ابتدائه قوم يقولون بالدهر، وينفون الصانع، وأخرون مشركون يعبدون غير خالقهم، وقد نشا بعدهم جماعة، يتسترون بإظهار الإسلام» للمحافظة على حياتهم وأموالهم، «زنادقة ملحدون وكفار مشركون»، منهم سلطان الإسلام من الجهر وإظهار ما يضمرون، ولجأوا خوفاً من القتل إلى التستر والخفية»⁽¹⁾.

وجاء في رواية عن عمرو بن دينار، قال: «أدركت تسعة من أصحاب رسول الله، يقولون: من قال: القرآن مخلوق فهو كافر»⁽²⁾.

وروى سفيان الثوري عن عمر، قال: «بلغني عن عمر أنه كتب إلى بعض عماله، أوصيك بتقوى الله عز وجل، واتباع سنة رسوله، ... وترك ما أحدث المحدثون بعده بما قد كفوا مؤنته»⁽³⁾.

فمن هذه الروايات نستشف أن مسيرة الزنادقة ظلت متواترة بالرغم من سيطرة الإسلام سيطرة تامة على كامل أجزاء شبه الجزيرة العربية،

(1) الشريف المرتضى: الأمالى / 127.

(2) ابن الجوزي: تلبيس إيليس، ص 89.

(3) المصدر السابق.

والنفاذ من أطرافها إلى معاقل الأمم الأخرى، وبسطه المعتقد الجديد بالترغيب تارة، والترهيب طوراً.

ومن كلام الشريف المرتضى يتبيّن أن ثمة أناساً - في صدر الإسلام - يعتقدون بالدهر، وأخرين ينفون الخالق، وغيرهم يشركون بعبادة الله ... وبعض هؤلاء الناس يظهر الإسلام ويطنّ ما يؤمّن به ... هم زنادقة.

وفي رواية ابن دينار: نلاحظ أن قوماً قالوا: بخلق القرآن، لذلك كفروا - وما روي عن عمر، أن أناساً أحدثوا ما يغاير الإيمان الجديد، ومن خرج عن إيمان الجماعة اعتبر «زنديقاً» لكونه غيرهم في سلوكه ومعتقداته وأحدث جديداً.

وفيما يلي نقدم بعض زنادقة هذا العصر وسنعرض لما جاء في مسلكه ومعتقداته من زندقة.

1 - الحطيبة (٤٥هـ)^(١)

شاعر هجاء، أفحش بالقول في أعراض المسلمين، تحدثنا عنه^(٢)، عند تعرضنا للزندقة في صدر الإسلام.

كان ذا شرّ وسفه، أسلم ثم ارتد، وقال في ذلك:

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر
أiyorثها بكرأ إذا مات، بعده وتلك لعمر الله فاصمة الظهر^(٣)
يتساءل الحطيبة، ما لأبي بكر، ويعجب من هذا الذي حصل، وقد
أطاع «الرسول»، لكن بموت الرسول انتفت هذه الطاعة. حتى إنه يخاف من
أن تورث الخلافة، فتنتقل من الخليفة الأول إلى ابنه بكر.

(١) شاعر مخضرم من فحول الشعراء، جاهلي أدرك الإسلام فأسلم ثم ارتد، اسمه جرول بن أوس بن مالك. لقبه الحطيبة: الأصفهاني: الأغاني 43 / 2 دار الفكر عن (بولاقي).

(٢) راجع البحث ص 100.

(٣) الأصفهاني: الأغاني 43 / 2.

هجا الحطينة فأفحش، ولم تسلم أمه من لسانه السلطان، وكذلك الرجل الذي تزوجته. يقول:

ولقد رأيتك في النساء فسُؤْتني وأبا بنيك فسأئني في المجلس
ويقول أيضاً في هجائها:

جزاك الله شرّاً من عجوز ولقاءك العقوق من البنين
لسانك مبرد لا خير فيه وذرك در جارية دهين^(١)
روى عنه صاحب الأغاني أنه هجا الزبيرقان بن بدر^(٢)، بقوله:

جار لقوم أطالوا هون منزله
وغادروه مقيناً بين أرماس
ملوا قراه وهرّته كلامُهم
وجرّحوه بأنباب وأضراس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها
واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي^(٣)
من يفعل الخير لا يعدم جوازَه
لا يذهب العرف بين الله والناس
فشكاه الزبيرقان إلى عمر، فاستفتى فيه حسان بن ثابت الذي قال:
«إنه هجاء وسلح عليه». فسجنه عمر، وقال: «والله لو لا أن تكون سنة
لقطعت لسانك»^(٤) لأنك تقول الهجو، وتنسب بالحرم، وتمدح الناس،
وتذمّهم بغير ما فيهم.

لكن عمراً عاد وأطلق الحطينة بعدما أنسده:

ماذا تقول لأفراح بدبي مرح زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
إلى آخر القصيدة

ويقول عمرو بن العاص: «ما أظللت الخضراء، ولا أقلت الغبراء
أعدل من رجل يبكي على تركه الحطينة»^(٥).

(١) المصدر نفسه 45/2.

(٢) ولاه الرسول علماً، وأتره (أبو بكر) في عمله، وكذلك (عمر). المصدر السابق 52/2.

(٣) المصدر السابق 54/55. وانظر سبب هذا الهجاء.

(٤) الأصفهاني: الأغاني 55/2 وما بعد.

(٥) المصدر السابق 57/2.

ونتوقف عند قول عمرو في عمر لنسأله هل أعجب ابن العاص في
عدل عمر وفي عطفه وحنانه على صغار الحطينة، وبكمائه عند سماع
ذكرهم؟ أم أعجب ببكائه على فك قيود الشاعر؟ وهو لا يستحق هذا
الحنان العمري؟! ربما نجد جواباً عن تساؤله عندما نعرف أن عمراً لما
أطلق الحطينة، أراد أن يؤكد عليه الحجة، فاشترى منه أعراض المسلمين
جميعاً بثلاثة آلاف درهم، فيقول الحطينة:

وأخذت أطراف الكلام فلم تدع شتماً يضرُّ ولا مديحاً ينفعُ
وحميتي عرضَ اللثيم فلم يخف ذمي وأصبح آمناً لا يفزُّ⁽¹⁾

كما نجد الجواب عند أبي هريرة «وما رواه عن الرسول»: «كل
المسلم على المسلم حرام، دمه وعرضه وما له»⁽²⁾. وعند «أبي الدرداء»،
عن الرسول: «من ردَّ عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم
القيمة»⁽³⁾.

والحطينة الذي هجا أمه، ونسى أو تناهى وصية الله بها وهجا
الزبرقان وغيره، وقال قوله الأخيرة، بعدما اشتري منه عمر أعراض
المسلمين، ألم يكن يدرى - وهو يحيا بظهورانية الإسلام - ما جاء في القرآن
من تحريم الشتم والسب بغير حق: «والذين يُؤذون المؤمنين والمؤمنات
بغير ما اكتسبوا، فقد احتملوا بُهتاناً وإنما مُبیناً»⁽⁴⁾.

أو ما جاء على لسان الرسول: «سباب المسلم فسوق، وقتاله
كفر»⁽⁵⁾.

(1) المصدر السابق.

(2) صحي الصالح: منهل الواردين، شرح رياض الصالحين. دار العلم للملايين. بيروت، ط
ثانية 1973. حديث رقم 1525، ص 832.

(3) المصدر السابق. حديث رقم 1526. ص 833.

(4) القرآن الكريم: سورة الأحزاب، آية 58.

(5) صحي الصالح: منهل الواردين: حديث رقم 1557، ص 860.

لعله يدرى بذلك، إن ما رواه صاحب الأغاني عن مجيئه إلى مجلس ابن عباس، والطلب إليه أن يفتتنه، فيقول ابن عباس: «لا يصلح الهجاء، لأنه لا بد لك من أن تهجو غيره من عشيرته فنظلم من لم يظلمك وتشتم من لم يشتمك وتبغى على من لم يبغ عليك». يثبت أن الحطينة يرفض فتوى ابن عباس ويقول ثانية في الزيرقان:

والزيرقان ذناباهم وشرهم ليس الذنابي، أبا العباس، كالراس⁽¹⁾

لقد كان الحطينة زنديقاً في إسلامه، وما قاله قبل وفاته خير دليل على ذلك. إلى جانب ما أوردناه عنه.

حضرت الحطينة المنية، واجتمع إليه أهله ليواسوه، وسأله بعضهم بأن يوصي، فتحدث عن الشعر والشعراء وأخذ يسمى أشعر القبائل وأشعر العرب. ولما ألحوا عليه بالوصية للإماء، قال فيهم: إنهم عبيد قن ما عاقب الليل النهار وعن ماله، قال: «للأنثى من ولدي مثل حظ الذكر». فقالوا: ليس هذا قضاء الله. فقال: لكنني هكذا قضيت. قالوا فما توصي لليتامي؟ قال: كلوا أموالهم⁽²⁾، ... أمها لهم.

وكان الحطينة وهو على فراش الموت قد تناهى ما جاء في القرآن: «إن الذين يأكلون أموال اليتامي ظُلماً إنما يأكلون في بُطونهم ناراً، وسيضلُّون سعيراً»⁽³⁾.

مات الحطينة «زنديقاً» بعد أن عاش جشعًا سُوءاً، دنيء النفس، كثير الشر، قليل الخير، بخيلاً، مغموز النسب، فاسد الدين⁽⁴⁾.

(1) الأصفهاني: الأغاني 2/85.

(2) مكان النقاط كلمة سافلة. المصدر السابق 2/60.

(3) سورة النساء، آية 10.

(4) الأصفهاني: الأغاني. 2/46.

الوليد بن عقبة أخو عثمان لأمه⁽¹⁾، من فتيان قريش وشعرائهم وشجاعتهم وأجوادهم لكنه خليع ظهر فسقه عندما ولاه عثمان أمر الكوفة، قال عنه المسعودي: «إنه كان يشرب مع ندماهه ومغنية من أول الليل إلى الصباح، ولما آذنه المؤذنون بالصلاحة خرج متفضلاً في غلاته، فتقدما إلى المحراب ...، فصلى بهم أربعاً، وقال: أتريدن أن أزيدكم؟ وقيل: إنه قال، في سجوده وقد أطلاه: إشرب واسقني، فقال له عتاب بن غيلان الثقفي: ما تزيد لا زادك الله من الخير، والله لا أعجب إلا من بعثك والياً إلينا وأميراً علينا»⁽²⁾.

إن هذا الحديث دفع الحطيئة للقول عنه:

تكلّم في الصلاة وزاد فيها علانية وجاهر بالنفاق
ومجّ الخمر في سنن المصلى ونادي الجميع إلى افتراق
أزيدكم على أن تحمدوني وما لكم وما لي من خلاق⁽³⁾
وريما كان الحطيئة يسخر من الوليد، أو أنه لجا إلى ذلك وأبان
فساده وهو من هو من أمير المؤمنين ليبرر فجوره وزندقه.

خطب الوليد الناس في المسجد - وكان ثملاً - فحصبه الناس،
فدخل قصره يتربع ويردد أبياتاً لتأبط شراً:

ولستُ بعيداً عن مُدام وقينة ولا بصفا صلد عن الخير معزٍ
ولكنني أروي من الخمر هامتي وأمشي العلا بالساحب المتسلسل⁽⁴⁾
فهذا والي من قرابة (عثمان) يستهين بشعائر الدين، يزني ويشرب
الخمر، ويتنقيا في المحراب، ويقرأ في الصلاة رافعاً صوته:

(1) أروى بنت البيضاء بنت عبد المطلب. المصدر السابق 4/ 177.

(2) المسعودي: مروج الذهب 2/ 344. دار المعرفة.

(3) الأصفهاني: الأغاني 4/ 178.

(4) المسعودي: مروج الذهب 2/ 344.

علق القلبُ الرباباً بعدما شابت وشابة⁽¹⁾

ألا نسميه زنديقاً؟ ولو اعتذر عنه الحطينة، بقوله:

شهد الحطينة يوم يلقى ربه أن الوليد أحق بالغُذر⁽²⁾

فلعل اعتذار الحطينة له، إنما جاء، لكونهما من طينة واحدة، ولكون الحطينة مات فاجراً فاسقاً الدين، كما أسلفنا.

والذي يقوض ركناً من أركان العبادة ويستخف بالصلوة، ويدخل بيت الله ثملاً، لا يعرف، أو قل لا يعي ما يفعل ويفسد هذا الركن، يعد بالتالي زنديق دين. لأن صلاة الجماعة قد انتهت، والوليد هذا، إن صحت الرواية، يسأل المصليين أَزِيدُكُمْ؟ ولو أنهم أرادوا لأوصل الصلاة إلى العشر، كما يقول رجل من بنى عجل:

نادي وقد تمت صلاتُهُمْ أَزِيدُكُمْ ثملاً ولا يدرى ليزيدُهمْ خيراً ولو قبلوا لقرنت بين الشفع والوتر فآبوا، أبا وهب، ولو فعلوا وصلت صلاتَهُمْ إلى العشر⁽³⁾

ألم يقرأ القرآن أخو (عثمان)؟: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرِبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سَكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ...» وأيضاً: «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعْلَكُمْ تَفْلِحُونَ»⁽⁴⁾..

لا بد أنه قرأها، ولكنه فاسق زنديق كما شهد بذلك (علي) عندما أقام الحد عليه، أمام أخيه الخليفة (عثمان)،⁽⁵⁾ وكما شهد أيضاً الفضل بن العباس بن أبي لهب، بقوله:

(1) الأصفهاني: الأغاني 4/179.

(2) البحث ص 217 والمصدر السابق. المسعودي: مروج الذهب 2/344. انظر تتمة الآيات وفي الأغاني بعض الاختلاف في الرواية.

(3) الأصفهاني: الأغاني 4/179.

(4) قرآن كريم: سورة النساء، آية 43. والمائدة آية 90 و 91. والبقرة، آية 212.

(5) الأصفهاني: الأغاني 4/185. المسعودي: مروج الذهب 2/345.

وأنت امرؤٌ من أهل صفواء نازحُ فما لكَ فينا من حميم تعاتبُه
وقد أنزل الرحمنُ أئنك فاسقٌ فما لكَ في الإسلام سهم تطالبه⁽¹⁾

3 - أبو محجن الثقفي (30 هـ / 650 م)

شاعر مخضرم، أسلم في السنة التاسعة للهجرة⁽²⁾، ولكنه كان منكباً على شرب النبيذ. حده عمر على ذلك مراراً، ثم نفاه إلى جزيرة في البحر، فهرب ولحق بسعد بن أبي وقاص، وهو نازل بالقادسية. فقبض عليه وحبسه لشربه الخمر⁽³⁾، ولشعره في الخمر، ومنها قوله:

إذا مثُ فاذفنِي إلى أصل كرمةٍ تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفننِي في الفلاةِ فإنني أخافُ إذا ما مثُ ألاً أذوقها
وثرُوي بخمر الحصْ لحدِي فإنني أسيِّ لها من بعْدِ ما قد أسوقها⁽⁴⁾

ولكم تمنى أبو محجن، أن ترافقه الخمرة ولا تفارقه في حياته ومماته، فهو يوصي بأن يدفن بجانب كرمة عسى أن تصل جذورها إلى عظامه فترويها. ولكننا نراه يموت شهيد الإسلام في إحدى معارك العراق، ويلحد مع الشهداء⁽⁵⁾.

وبهذا يكون الثقفي قد عاش زنديق خمر، ملاحقاً من الخليفة والأمراء، ومات، ربما شهيد دين، أو شهيد عصبية عربية دعته لمحاربة الفرس.

4 - النعمان بن عدي بن نضلة (30 هـ / 650 م)

شاعر صحابي هاجر مع أبيه إلى الحبشة في بدء الإسلام، يوليه

(1) المصدر السابق 2/357.

(2) الزركلي (خير الدين): الأعلام. دار العلم للملاتين. بيروت ط خامسة، 1980، ج 5، ص 76.

(3) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك 3/573.

(4) المصدر السابق 3/549.

(5) الزركلي: الأعلام 5/76.

«عمر» على «ميسان»، لاعتقاده في صلاحه، ثم يبلغه قوله :

فإن كنت ندمني فبالأكبر اسقني ولا تسقني بالأصغر المثلّم،
لعلَّ أميرَ المؤمنين يسوؤه تnadُّمنا في الجوسم المتهدّم
فيستقدمه عمر، ويقول : «وأيم الله لقد ساعني ذلك ، وقد عزلتك «ولكته
يرد مستعطفاً» والله ما كان من ذلك شيء ، وإنما هو فضل شعر قلتة»⁽¹⁾
والقصيدة أرسلها «ابن عدي» إلى زوجته التي أبت الخروج معه إلى
ميسان ، وقد بدأها :

الا هل أتى الحسنة أن حليلها بميسان يُسقى في زجاج وحنث
إذا شئت غنثني دهاقين قرية وصناجة تجشو على حرف منسي⁽²⁾
ربما لم يفعل الشاعر ما قال ، حسب اعتقاده أمام عمر ، لكنها زنقة
ظرف ومجون ، وتتيجتها كانت ، عزله من الولاية وغريته إلى البصرة.

5 - ابن أرطاة (عبد الرحمن بن سيحان) 50 هـ / 670 م:

شاعر إسلامي عاقر الخمرة والشراب ، وتغزل كثيراً ، كان نديماً للوليد
بن عثمان بن عفان ، وحليفاً لبني حرب⁽³⁾ ، آنس ابن عثمان ، ربما ، لأنه
صاحب شراب مثله . قال فيه وفي الوعاء الذي زوده به إبیان رجوعه إلى
أهلها ، وقد كان بصحة الوليد في الحجاز :

لا تبعذن اداوة مطروحة كانت حدثاً للشراب العاتق
إن تصبحي لا شيء فيك فربما أترعت من كأس تلذ لذائق
بأبى الوليد وأمّ نفسي كلما بدت النجوم وذرّ قرن الشارق
 فإلى الوليد إليه حثّت نافتي تهوي . بمغبر المتون سمالق⁽⁴⁾

(1) البحث ص 101 والزركلي : الأعلام : 8/38.

(2) ياقوت الحموي : معجم البلدان 5/243. دار صادر.

(3) الأصفهاني : الأغاني 2/80. دار الفكر عن بولاق.

(4) المصدر السابق 2/81.

وَجَدَهُ مِرْوَانُ بْنُ الْحَكْمَ - وَالِي الْحَرْمَنِ فِي أَيَّامِ مَعَاوِيَةَ - خَارِجًا مِنْ دَارِ الْوَلِيدِ وَهُوَ سَكَرًا، فَأَقَامَ الْحَدَّ عَلَيْهِ، وَضَرَبَهُ ثَمَانِينَ سَوْطًا^(١).

لَكِنْ «ابن أَرْطَأْة» لَمْ يَشْرُبْ الْخَمْرَ وَحْدَهُ، بَلْ كَانَ يَشْرُبُهُ مَعَ ابْنِ عُثْمَانَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عَقْبَةَ بْنِ أَبِي سَفِيَّانَ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكْمَ، وَيَزِيدَ ابْنِ مَعَاوِيَةَ.

وَالْعَجْبُ كُلُّ الْعَجْبِ، مَا رَوَاهُ صَاحِبُ الْأَغَانِيِّ عَنْ مَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفِيَّانَ، الَّذِي قَصَدَهُ هَذَا الشَّاعِرُ، فَأَبْطَلَ الْحَدَّ عَنْهُ وَكَتَبَ إِلَى الْوَلِيدِ بْنِ عَتَّبَةَ، وَإِلَى مِرْوَانَ بْنَ الْحَكْمَ بِذَلِكَ وَأَمْرَهُمَا بِمَكَافَأَتِهِ، يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ عَبْدِ اللَّهِ مَعَاوِيَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْوَلِيدِ بْنِ عَتَّبَةَ، أَمَا بَعْدُ فَالْعَجْبُ لِضَرِبِكَ ابْنَ سِيَحَانَ فِيمَا تَشْرُبَ مِنْهُ مَا زَدَتْ عَلَى أَنْ عَرَفَتْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مَا كَنْتَ تَشْرُبُ بِهِ، مَا حَرَمَ عَلَيْكَ، فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِيَ هَذَا، فَأَبْطَلَ الْحَدَّ عَنْ ابْنِ سِيَحَانَ ... وَطَفَ بِهِ فِي الْمَسْجَدِ، وَأَخْبَرَ مَنْ فِيهِ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ أَبْطَلَ ذَلِكَ»^(٢).

وَإِذَا مَا صَحَّتْ رِوَايَةُ الْأَصْفَهَانِيِّ يَكُونُ مَعَاوِيَةَ قَدْ غَايِرَ فِي تَصْرِفِهِ هَذَا مَا فَعَلَهُ (عَلَيْهِ) مَعَ الْوَلِيدِ بْنِ عَقْبَةَ^(٣)، مَعَ اعْتِرَافِهِ صِرَاطَةً بِتَحْرِيمِ الشَّرِبِ، إِضَافَةً إِلَى الْمَكَافَأَةِ. وَمِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ نَعْزُوَ تَصْرِيفَ مَعَاوِيَةَ مَعَ ابْنِ سِيَحَانَ إِلَى حَلْفٍ قَدِيمٍ كَانَ بَيْنَ وَالِيِّ الشَّاعِرِ وَحَرْبِ بْنِ أَمِيَّةِ جَدِّ مَعَاوِيَةَ، وَالِيِّ قَوْلِ الشَّاعِرِ فِي هَذَا الْحَلْفِ وَمَدْحِهِ بْنِي أَمِيَّةِ بِأَبِيَاتٍ يَقُولُ فِيهَا:

وَإِنِّي أَمْرَقْتُ أَنْمِيَ إِلَى أَفْضَلِ الْوَرَى
عَدِيدًا إِذَا أَرْفَضَتْ عَصَا الْمُتَحَلَّفِ
إِلَى نَضَدِّ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ كَأَنَّهُمْ
.....
غَطَّارَفَةً سَاسُوا الْبَلَادَ فَأَحْسَنُوا
سَمْوَا فَعَلَوْا فَوقَ الْبَرِّيَّةِ كُلُّهَا

(١) المَصْدُرُ عَيْنَهُ 2/81 وَمَا بَعْدُ.

(٢) المَصْدُرُ السَّابِقُ 2/82.

(٣) وَالِيِّ عُثْمَانَ عَلَى الْكَوْفَةِ وَآخْرُهُ لِأَمِّهِ الْبَحْثُ مِنْ 218.

(٤) الْأَصْفَهَانِيُّ: الْأَغَانِيُّ 2/83.

ومن المعروف أن العصبية القبلية، والأحلاف بين العشائر، وإن تكن قد انعدمت زمن الرسول، وختت بعض الشيء، أيام الراشدين، فقد عادت إلى زخمها الجاهلي إبان حكم الأمويين، وفي طليعتهم معاوية بن أبي سفيان. وكلا الشيئين - الخمر والعصبية - مغاير للإسلام، ويعد زندقة⁽¹⁾. وقد نهى عنهما الدين: جاء في القرآن: «... فلا تُزكوا أنفسكم، هو أعلم بمن اتقى»⁽²⁾، كما جاء في الحديث عن عياض عن (الرسول) قال: «إن الله أوحى إلي: أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد»⁽³⁾.

أكتب ابن سيحان على الشراب ومنادمة الوليد بن عثمان، حتى أنه كان يقضى الليالي الطوال عنده، خوفاً من أن يظهر وهو سكران فيُحد فعاتبته امرأته على ذلك، واتهنته بالزواج والمبيت عند غيرها، فقال لها:

لا تعديني نديماً ماجداً أنفا
أمسى أعاطيه كأساً لدّ شربها
كالمسك حفت بنسررين وريحان
سبينة من قرى بيروت صافية
أو التي سبنت من أرض بيسان
إنا لنشربها حتى تميل بنا
كما تميل وسنان بوسنان⁽⁴⁾

وابن سيحان يريد الخمرة التي تسكر وهو يعلم اليقين أنها حرام عليه، إذ يأمر ابن عم له بشربها وترك نبيذ الزيبيب، يقول: «يا ابن سريع إن كنت تشربه على أن نبيذ الزيبيب حلال، فإنك أحمق، وإن كنت تشربه على أنه حرام تستغفر الله منه وتتو夷 التوبة، فاشرب أجوده فإن الوزر واحد، ثم قال:

(1) انظر البحث (هامش رقم 1) ص 220 البحث القرآن والخمرة.

(2) سورة النجم، آية 32. وسورة النساء، آية 49. «فلا تُزكوا أنفسكم أى لا تمدحوا أنفسكم، ولا يمدح بعضكم بعضاً».

(3) صبحي الصالح: منهل الواردين: حديث رقم 1587، ص 874. ويعني: يستطيل.

(4) الأصفهاني: الأغاني 2/ 86 و 88.

دع ابن سريع شرب ما مات مرة
تدعك على ملك ابن ساسان قادرًا
فشتان بين الحي والميت فاعتزم
وخذلها سلافاً حية مزة الطعم
إذا حرمت قراؤنا حلب الكرم
على مزة صفاء راوهقها يهمي⁽¹⁾

عاش هذا الشاعر إذاً زنديق خمر يفتش عن جيدها، في قرى بيروت
وأرض بيسان، وهو خبير بمذاقها ولونها، وأوقات شربها. ويدعو إلى
معاقرتها جهراً. يقول لنديمه الوليد:

أصبح نديمك من صهباء صافية
حتى يروح كريماً ناعماً البال
واشرب هديث أبا وهب مجاهرة
واختل فإنك من قوم أولي خال⁽²⁾

٦ - طويس (عيسي بن عبد الله) 92هـ:

طويس، أول من غنى بالعربي بـ (المدينة)، وأول من تخنث بها،
ظريف يقر الدف ويهزج:

كيف يأتي من بعيد وهو يخفيه القريب
نازح بالشام عتنا وهو مكسال هيوب
قد براني الحب حتى كدث من وجدي أذوب⁽³⁾
هرب من وجه مروان بن الحكم - أمير المدينة يومذاك - حتى نزل
السويداء لأن الأمير أمر بقتل مخنث يقال له النغاشي، وقال: من جاءني
مخنث فله عشرة دنانير.

فلماذا هرب طويس المغني، المخنث من وجه مروان؟ لأن الغناء
حرام في الإسلام؟ أو أن التخنث هو الذي وقع عليه فعل التحرير؟
الجواب يأتينا من ابن عباس الذي روى عن (الرسول) قوله: «العن
رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المخثين من الرجال، والمترجلات من النساء»⁽⁴⁾.

(1) المصدر السابق 2/82.

(2) المصدر السابق 2/87.

(3) الأصفهاني: الأغاني 2/170 دار الفكر عن بولاق.

(4) صبحي الصالح: منهل الواردين. حديث رقم 1629، ص 896.

وما روي عن أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلَ، أَنَّهُ قَالَ: «كَسْبُ الْمُخْنَثِ خَيْثٌ يَكْسِبُهُ
بِالْغَنَاءِ»⁽¹⁾.

وما رواه اسحق بن عيسى، قال: «سألت مالك بن أنس عن ما
يترخص فيه أهل المدينة من الغناء». فقال: «إنما يفعله الفساق»⁽²⁾.

وما روي عن أبي حنيفة. أنه كان يكره الغناء و يجعل سماعه من
الذنوب مع إياحته شرب النبيذ.

وما روي عن الشافعى، قوله: «خلفت بالعراق شيئاً أحدهته الزنادقة
يسمونه التغيير يشغلون به الناس عن القرآن...» ويردف: «الغناء لهؤُلَا مكروه
يشبه الباطل، ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته»⁽³⁾.

ولعل أولئك الفقهاء قد استدلوا على أحکامهم هذه بالقرآن والسنّة.
جاء في القرآن: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهُ الْحَدِيثَ لِيُضْلِلَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَخَذَهَا هَزْوًا أَوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ»⁽⁴⁾.

أما في السنّة، فقد روت عائشة عن (الرسول) أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ
وَجَلَ حَرَمَ الْمَغْنِيَةَ وَبَيَعَهَا وَثَمَنَهَا وَتَعْلِيمَهَا وَالْاسْتِمَاعَ إِلَيْهَا ثُمَّ قَرَأَ وَمِنَ
النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي ...»⁽⁵⁾.

وروى سهل بن سعد عن الرسول، قوله: «يكون في أمتي خسف
وقذف ومسخ، ... إذا ظهرت المعاذف والقينات واستحلت الخمر»⁽⁶⁾.

مما تقدم، يظهر لنا السبب في هروب طويس المغني، والمختنث
الظريف من مروان. لأن الشعر الذي كان يغنى به وأمثاله ليس تواشيح دينية

(1) ابن الجوزي: نلبس إبليس، ص 229.

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر نفسه ص 230.

(4) سورة لقمان، آية 6.

(5) ابن الجوزي: نلبس إبليس ص 229.

(6) ابن الجوزي: نلبس إبليس، ص 234.

ترتبطهم بحبل الله وتبعدهم عن حبائل الشيطان كأغنية أهل المدينة لقدمه
الرسول :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعاه الله داعي
بل هي أشعار توصف فيها المستحسنات والخمر، كقول الشاعر:

ذهبى اللون تحسب من وجنتيه النار قتىج
خروفونى من فضيحته ليته وافى وأفتضى⁽¹⁾

وستفزع فيها المشاعر، فتأرق العين ويهدى القلب، وتتحرك
الأحساس فيتشي القائل والراوي والسامع. يردد طويس شعر خولة بنت
ثابت، - أخت حسان بن ثابت - ويعنيه، تشبيهاً بعمارة بن الوليد بن المغيرة
المخزومي :

يا خليلي نابني سهلي لم تنم عيني ولم تكدر
كيف تلحوظي على رجل أنسٌ تلتنذه كبدى
مثل ضوء البدر طلعته ليس بالزمالة النكدر⁽²⁾

ترى هل كان طويس فاسقاً زنديقاً بدلالة ما قدمنا؟ لعله كذلك وبما
تضيف، إذ تراه يستل دفه من حضنه وينقره ويغنى شعراً لابن زهير
المخت⁽³⁾، يعرض فيه لمختة تمر قبل انبلاج الفجر، بها يتزين عيد الفطر
ويزدان الأضحى، يقول:

إن المختة التي مرت بنا قبل الصباح
في حلقة موشية مكبة غرثى الوشاح
زين لهم مشهد فطهرهم وتزيئهم يوم الأضحى⁽⁴⁾

(1) المصدر السابق، ص 226.

(2) الأصفهاني: الأغاني 173/2. والزمالة: الضعيف - الجبان - الرذل.

(3) المصدر السابق 174/2.

(4) المصدر السابق. غرثى الوشاح: خميصة البطن، دققة الخضر.

فهذا المعني المختىء تراه لا يرعوي عن ملاحقة الجواري ومطاردتهم وإن صدوه⁽¹⁾، معارضًا بذلك ما رواه عمر بن الخطاب عن (الرسول): «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ... ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هجر إليه»⁽²⁾. ومبعدًا في زندقته عن الشرف العربي والإباء والأنفة، والحفاظ على العرض، وحتى عن مثل وأخلاق العربي في جاهليته، ألم يقل عنترة في حفاظه على أعراض الناس:

وأغضُّ طريف ما بدَّت لي جارتي حتى يُواري جاري مأواها⁽³⁾
فطweis الشاعر المسلم، يبتعد في أغانيه عن أخلاق الرجل المسلم،
ويبتعد في تصرفاته عن تعاليم الإسلام، فهو يلاصنق الخمرة ويتبع الغواني
ويصبح فيه ما صح في نعنه بالزنديق.

7 - الأخطل (غياث بن غوث التغلبي) 19 - 640 هـ / 708 م:

هو شاعر نصراني من بني تغلب، وأحد الثلاثة المشهورين في صدر الإسلام. وكنيته «أبو مالك». قال عنه مسلمة بن عبد الملك: «ثلاثة لا أسأل عنهم، أنا أعلم العرب بهم: الأخطل والفرزدق وجرير، فالأخطل يجيء سابقاً أبداً، والفرزدق يجيئ (مرة سابقاً ومرة ثانياً)، وأما جرير فيجيء سابقاً مرة وثانياً مرة وسُكتاً مرة»⁽⁴⁾.

ربما لقب بالأخطل لسفاهته، وخبث دينه، ومع كونه نصرانياً

(1) المصدر السابق.

(2) صبحي الصالح: منهل الواردين: حديث رقم 1 ص 39. إلى ما هاجر إليه: المراد أن الغاية التي هاجر إليها حقيقة مهينة.

(3) عنترة بن شداد: الديوان: دار المعرفة. ص 102.

(4) ابن قتيبة: الشعر والشعراء: 1/ 393. وفخر الدين قباوة: شعر الأخطل. دار الآفاق الجديدة. بيروت ط ثانية 1979. 1/ 13. والأصفهاني: الأغاني 7/ 169. دار الفكر عن بولاق. والزركلي: الأعلام: 5/ 122. والمرزباني: معجم الشعراء ص 22.

والنصارى لا تقسم بالأصنام فقد أقسم باللات والعزى، استخفافاً بدينه⁽¹⁾.

لقد كان الأخطل زنديقاً في دينه، زنديقاً في مسلكه، فقد طلق امرأته، وتزوج بامرأة مطلقة غيرها⁽²⁾، ومن الطبيعي أن تذكر هذه الزوجة زوجها الأول وبخاصة عندما ترى إساءة من الثاني لم تعهد لها في الأول. ويدرك ذلك الأخطل في شعره قائلاً:

كلانا على همٍ يبيت كأنما بجنبه من مسٌ الفراش قروح
على زوجها الماضي تنوح وإنني على زوجتي الأخرى كذلك أنوخ⁽³⁾

حبسه «القس» في إحدى كنائس دمشق، لكونه فاسقاً يشتم أعراض الناس ويهجوهم، فتوسط له أحد القرشيين، فأطلقه القس رافعاً عصاه في وجهه قائلاً: «يا عدو الله أتعود تشتم الناس وتهجوهم وتقدّف المحسنات؟»⁽⁴⁾. فيجيب لست بعائد ولا أفعل. ولكننا نراه يعود إلى سيرته، حين يطلب من امرأته - وكانت حاملة - وقد مر بها الأسقف يركب حماره، أن تلتحقه وتتمسح به تبركاً⁽⁵⁾، فلا تستطيع الوصول إلا إلى ذنب الحمار وتعود، فيقول لها هازنا: «هو وذنب حماره سواء»⁽⁶⁾.

والأخطل، وهو شاعر بني أمية بلا منازع⁽⁷⁾، لا يتورع عن شرب الخمر، وادمانه، حتى السكر الشديد⁽⁸⁾، يجاهر بهذه المعصية في حضرة

(1) الأصفهانى: الأغاني / 170 و 171 واللات والعزى: صنمان مشهوران عند العرب في جاهليتهم. الأب جرجس داود: أديان العرب قبل الإسلام: ص 300 - 301.

(2) المسيحية تنهى عن الطلاق. جاء في الإنجيل المقدس: «من طلق امرأته إلا لعلة الزنا يجعلها تزني، ومن يتزوج مطلقة فإنه يبني». متى 5/32 و 9/19 و 12/10. وم Marcos 10/11 و لوقا 16/18.

(3) الأصفهانى: الأغاني / 177.

(4) الأصفهانى: الأغاني / 183.

(5) هي من عادات المسيحيين في كل الأزمات.

(6) الأصفهانى: الأغاني / 183.

(7) المصدر / 7.

(8) حرم الإنجيل السكر: «اكورتونس 5/11 و 6/10. وغلاطية 5/21. وأفسس 5/18».

ال الخليفة «عبد الملك بن مروان» حين يعرض عليه الإسلام بقوله: «ألا تسلم فنفرض لك في الفيء ونعطيك عشرة آلاف قال الأخطل: «وما تصنع بالخمر؟ فيقول الخليفة: إن أولها لَمْرٌ وأخرها لسکر فيجيب الشاعر: إن بين هاتين لمنزلة ما ملكك فيها إلا كعلقة ماء من الفرات بالإصبع»⁽¹⁾.

وبين أولها وأخرها وفي هذه المنزلة يقول الأخطل، غير خائف من تحريم السكر في الإنجيل، ولا ينظر إلى دخول الملوك، ولا يخاف عبد الملك:

صريحُ مُدَام، يرفعُ الشَّرْبُ رأسَه
شربِتُ، ولا قاني لحلِّ الْيَتَيِّ
قطارُ، ترَوَى من فسليطينَ، مُثْقَلُ
فقلتُ: أصَبْحُونِي، لا أباً لأبيكم!
وما وضعوا الأثقالَ، إلا ليفعَلُوا
وجاؤوا ببِيسانِيَّة، هي - بعدهما
يَعْلُ بها الساقِي - الْذُّ، وأسهَلُ
تمَرُّ بها الأيدي سنيحاً، وبارحاً
وتَوَضَّعُ بـ«اللَّهُمَّ حِيٌّ»، وَتُخَمَّلُ⁽²⁾

فهذا الشاعر، الذي أدام شرب الخمر وأوغل فيه، فدببت الخمرة في عظامه وصرعته، وكادت أن تسكت لسانه الذي يقول لعبد الملك، عندما سأله، ما بلغ منك الشراب؟ «يا أمير المؤمنين، إذا شربتها فملكك أهون على من شسع نعلي!» ثم ينشد بعدهما هدد بضرب عنقه:

إذا ما نديمي علَّني، ثم علنَي هديرُ
ثلاث زجاجاتِ، لَهُنَّ هديرُ
خرجتُ أجرُ الذَّيلَ زَهواً، كأنني⁽³⁾ عليهَ، أميرَ المؤمنين، أمير

يتبيّن لنا من هذه الأبيات، أن الأخطل كان جريئاً في حضرة الخليفة، وربما كانت له حظوة عندبني أمية لم يتلها شاعر غيره لهجاته

(1) الأصفهاني: الأغاني: 174/7.

(2) فخر الدين قباوة: شعر الأخطل. 1/15. وما بعد. وانظر القصيدة من السطر 4 حتى 20: والشرب: الشاريون. مفصل: اللسان. آلية: قسم. بيسانية: منسوبة إلى بيسان. يعل: يشرب مثلث وثلاث.

(3) فخر الدين قباوة: شعر الأخطل 2/180. الحاشية.

(الأنصار) وتجرؤه على مقاماتهم⁽¹⁾، ومن جرأته قوله لعبد الملك عندما عرض عليه الإسلام: «إن أنت أحللت لي الخمرة، ووضعت عني صوم رمضان، أسلمت «فيفرض الطلب، ويقول الأخطل:

ولست بصائم رمضان، طوعاً ولست بأكل لحم الأضاحي
بمكّة، أبتغي فيه صلاحي»⁽²⁾
ولست بقائم، كالعيর، يدعوا لدى الإاصباح: حي على الفلاح
ولكنني سأشربها، شمولاً وأسجد، عند مُثبلج الصباح⁽³⁾

فهو سيشرب الخمرة، ولن يصوم (رمضان) ويزور مكة حاجاً، ويستهجن النهوض باكراً، والأذان في الناس «حي على الفلاح» وكل ذلك في حضرة الخليفة، المؤمن على العقيدة والمدافع عن الإيمان.

يفاخر في شربها، ويصفها بشراب الملوك، وذلك عندما يستدعيه عبد الملك ليسمع مدح جرير للخليفة ويحاول جرير هجاء الأخطل بقوله: «يا أمير المؤمنين إن رائحة الخمر لتفوح منه «فيجب الأخطل على الفور». صدق يا أمير المؤمنين وما اعتذاري من ذلك:

تعيبُ الخمر، وهي شرابُ كسرى ويشربُ قومُك العجبَ العجيباً
منئي العبدِ، عبدِبني سواجٍ أحقُّ من المُدامَة، أن تعيباً⁽⁴⁾

ينغمس الأخطل في هذه اللذة الزندقة⁽⁵⁾، ويكثر من شرب الخمرة التي تفقد العقل، ولا يعود مدمتها يعي الحياة. ولكن الأخطل الشاعر الكبير الذي كان جليس الخلفاء، يفقه ما يقول: من أنه وندماءه - لعلهم

(1) سنذكر ذلك فيما بعد.

(2) المصدر السابق. هامش 2/756.

(3) المصدر السابق.

(4) الأصفهاني: الأغاني: 7/181 والعجب العجيب: هو مني العبد الذي سقاه أبو سواج ر. «صرد بن جمرة» منبني يربوع رهط جرير. انتقاماً لتعدي صرد على امرأة أبي سواج. المصدر السابق 7/182.

(5) شربها كفر وزندقة في الإسلام. وادمانها حرام وزندقة في المسيحيية.

كانوا مسلمين - قد شربوا حتى الإعياء والموت، ولكنها ميّة جاهلية.

ربما ، لأن من عاقرها وانتشى .. ، بعد عن كل شرائع الأديان ودساتير الإنسان، فيموت وكأنه في زمن ما قبل الإسلام، ولم يسمع ما يسمع بشر به (محمد) وأنذر. ولكن هذا الموت لا يعني النهاية المعروفة، والفناء الكلبي، لأن المخمور، الفاقد الوعي، يعود إلى رشهده، فيحيا بعد موته دونما حشر وموعد بهذا الحشر. وشتان هذا الموت وهذا المَحْيَى، فكلاهما لذيد. يقول الأخطل :

شرينا، فمُتنا ميّةً جاهليةً
مضى أهلها، لم يعرفوا: ما محمد؟
ثلاثة أيام، فلما تنبأـت
حشاشات أنفاسِ أثـنا، ترددَـت
حيـبينا حـيـاةً، لم تـكـنـ عنـ قـيـامـةـ
علـيـنـاـ، ولاـ حـشـرـ، لـنـاـ بـهـ موـعـدـ
تمـيـتـ وـتـحـيـيـ بـعـدـ موـتـ، وـموـتـهـ
لـذـيـدـ، وـمـخـيـاـهـ أـلـذـ، وـأـمـجـدـ⁽¹⁾

وفي هذا المعنى أيضاً، وكان الخمرة قد أصبحت في نظره (إلهها)
يميت ويحيي ومن شربها، أو سقيها من الأموات، بعث وعادت إليه الروح
يقول :

عـانـيـةـ، تـرـفـعـ الـأـرـوـاحـ نـفـحـتـهاـ
لوـ كـانـ تـسـقـىـ بـهـ الـأـمـوـاتـ قـدـ نـشـرـوـاـ⁽²⁾
إـلـيـ جـانـبـ هـذـهـ الـمـعـرـفـةـ بـعـالـمـ الـخـمـرـةـ، فـلـعـلـ الـأـخـطـلـ اـعـتـقـدـ بـتـصـيـبـ
نـفـسـهـ سـيـدـ شـارـبـيـهـاـ، حـيـنـ تـدارـ الـأـكـوـسـ وـتـصـدـحـ الـقـيـنـاتـ بـصـوـتـ أـبـحـ، كـثـيـراـ
ما طـرـبـ إـلـيـ وـتـاهـ فـيـ مـعـاـقـرـ الـرـاـحـ. يـقـولـ :

وـقـدـ أـكـوـنـ عـمـيـدـ الشـرـبـ، تـسـمـعـ بـحـاءـ، تـسـمـعـنـاـ
لـفـتـيـةـ، يـشـهـوـنـ الـلـهـرـ وـالـغـلـزـ⁽³⁾
مـنـ الـقـيـانـ، هـتـوـفـ، طـالـمـاـ رـكـدـ

(1) قبارة: شعر الأخطل 2/164.

(2) المصدر السابق 2/141. والعانية: خمرة منسوبة إلى عانة بلد في شمال سوريا.
الأرواح: جمع روح. الفحة: الرائحة.

(3) المصدر عينه 1/155. بحاء: في صوتها بع. الصحل: البح.

ولم يكن الأخطل زنديق راح وحسب، فتراءه عندما يتعرض للنساء ليتغزل بهن، يفحش ويفجر. فشعره إلى الإباحة أقرب مما هو للتعفف الذي نادت به شرائع السماء، فهو دائمًا وراء الغانيات والخمر. يقول:

بَانِ الشَّبَابُ، وَرَبِّيَا عَلَّلْتُهُ
بِالْغَانِيَاتِ، وَبِالشَّرَابِ الْأَصْهَبِ
وَلَقَدْ شَرِبَتُ الْخَمْرَ فِي حَانُوتِهَا
وَلَعْبَتُ بِالْقَيْنَاتِ كُلَّ الْمَلْعُبِ⁽¹⁾

وهو يبيت عندهن، ولا إثم في ذلك، يفعل ما يريد ولسن بصاده عما يغيّي، وما ذلك إلا لمنزلته الرفيعة بينهن. يقول:

وَلَقَدْ أَكَوْنُ، مِنَ الْفَتَاهَ بِمَنْزِلٍ
فَأَبَيْتُ لَا خَرِجْ، وَلَا مَحْرُومٌ
وَلَقَدْ تَبَاكَرُنِي، عَلَى لَذَاتِهَا
صَهْبَاءُ، عَارِيَةُ الْقَنْدِيِّ، خَرطُومُ⁽²⁾
وَتَظَلُّ تَنْصُفُنَا، بِهَا قَرْوَيَّةُ
إِبْرِيقُهَا، بِرْقَاعُهَا، مَلْثُومُ

كما أنه يتمنى أن تعود الليلالي الحمراء، ليالي نعيم الشاعر، في بيت معشوقته، ينزع حلتها، ويعبث بها، يعتنقان ويتراقان كالطير. يقول:

مِنْهَا، وَبَا لِيلَتِي فِي بَيْتِهَا، عُودِي
بَعْدَ اعْتِنَاقٍ، وَتَقْبِيلٍ، وَتَجْرِيدٍ
مَطْوَقَانِ، أَصَاحَّا بَعْدَ تَغْرِيدٍ
كَالْمَسِكِ، دُرَّا عَلَى مَاءِ الْعَنَاقِيدِ⁽³⁾
يَا يَوْمَا عَنْهَا، عَذْ بِالْتَّعِيمِ لَنَا
إِذْ بَتْ أَنْزَعْ عَنْهَا حَلْيَهَا، عَبْثَا
كَمَا تَطَاعَمَ، فِي خَضْرَاءِ نَاعِمَةِ،
وَقَدْ سَقَثَنِي رُضَابَا، غَيْرَ ذِي أَسِنِ

ألا يرعوي هذا الشاعر الفاحش، ويقف عند حرمة المنازل، ويغضض الطرف ويستمع إلى قول الإنجيل: «من نظر إلى امرأة ليشهيدها في قلبه فقد زنى»⁽⁴⁾. هذا إذا كان نصرانيًّا حقًّا، لا كما يبدو، إذ كان زنديقاً في النصرانية، فقد شرب الخمرة حتى الشمالة، وأفحش في جريه وراء المرأة، طلق امرأته، وتزوج مطلقة، مستهترًا بالدين المسيحي، هازئًا برجاته ...

(1) المصدر عينه: 1/88. علته: ألهي. الأصهاب: الأحمر. القينة: الأمة المغنية.

(2) المصدر: 1/383 و 382. خرطوم: سلافة تسيل قبل العصر.

(3) المصدر 2/554.

(4) إنجيل مقدس. متى: 5/28.

ولم يقف عند هذا الحد، إذ تعرض بهجائه اللاذع إلى صحابة (الرسول)، وذلك ليس تعصباً لدين النصارى، بل جريأة وراء هوسي سياسي، قبلى، أو هدف مادى بحث، فهجم عليهم إرضاء ليزيد بن معاوية، كما هجا شاعر الأنصار، عبد الرحمن بن حسان بن ثابت⁽¹⁾. يقول:

ذهبَتْ قريشُ بالِمَكَارِمِ وَالْعُلَىِ
فَذَرُوا الْمَكَارِمِ، لَسْتُمْ مَنْ أَهْلِهَا
وَخُذُّوا مَسَاجِيْكُمْ، بَنِي النَّجَارِ
وَإِذَا نَسَبْتَ ابْنَ الْفُرِيزَةَ خَلْتَهُ
كَمَا هَجَا جَرِيرًا هَجَاءَ مَقْدُعًا، تَعْرُضُ لَأَبِيهِ وَأَمِهِ وَلِقَبِيلَتِهِ أَيْضًا وَقَدْ
كَانَ بَيْنَ قَبِيلَتِي الشَّاعِرِينَ عَدَاءً مَسْتَحْكِمًا. يقول:

إِذْ كَانَ مَنْزُلُكَ الْمَرْوُثَ، مَنْجِرَةً يَا ابْنَ الْمُرَاغَةَ، يَا حُبْلَىَ، بِمُخْتَارٍ



أم، ليئمْ نَجْلِ الْفَحْلِ، مُقْرَفَةً أَدَتْ لِفَحْلِ، لَنِيمِ النَّجْلِ، شَحَّارِ⁽³⁾
قَوْمٌ، إِذَا اسْتَبَحَ الْأَضْيَافَ كُلَّهُمْ قَالُوا لِأَمِّهِمْ: بُولِي عَلَى النَّارِ
فَتُمْسِكُ الْبَوْلَ، بُخَلَّا أَنْ تَجُودَ بِهِ وَمَا تَبُولُ لَهُمْ، إِلَّا بِمَقْدَارِ⁽⁴⁾
وَلَيْسَ جَرِيرٌ وَرَهْطُهُ بِمَنْزِلَةِ الْأَخْطَلِ وَآلِهِ، وَأَنِي لَجَرِيرٌ أَمْ وَابْ
يُسْتَطِيعُ أَنْ يَفْخَرَ بِهِمَا أَقْرَانَهُ، فَأَمِهِ لَيْسَ أَصِيلَةً فَكِيفَ تَسْبِقُ؟ وَمَنْزِلَ
أَبِيهِ يَشْبِهُ عَلْبَةً مَدُورَةً، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لَأَنَّهُ قَمَلٌ أَجْرَبَ «فَأَفْرَدَ إِفْرَادَ الْبَعِيرِ
الْمَعْبُد»⁽⁵⁾. يقول:

(1) شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي: ص 133.

(2) قيارة: شعر الأخطل: 2/ 483 - 184. المساجي آلات العديد لنقب الأرض. الفريعة: أم حسان بن ثابت.

(3) المصدر السابق. 2/ 641. المروث: موضع. المراجعة: لقب أم جرير. جبلٌ بمختار: جعله جبلٌ عن رضى واختيار. لأنَّه شرب مني العبد. انظر البحث هامش رقم 1 ص 232.

(4) المصدر عينه. وانظر الأصفهاني: الأغاني 7/ 187. وقد قيل أنَّ البيت (3) هو أهنجي بيت شعر قيل بالعربية.

(5) المعبد: المطلي بالقطران. الزوروني شرح المعلقات السبع. دار الجيل. معلقة طرفة بن العبد، ص 81.

ولقد شدَّذَتْ، على المراوغةِ، شَرْجَهَا حتى نَزَغَتْ، وأنْتَ غَيْرُ مُجِيدٍ⁽¹⁾
وأبُوكَ ذو مَحْنِيَّةٍ، وعَبَاءَةٍ قَمِيلٌ، كَأْجَرَبَ، مُفْتَسِيٌّ، مَؤْرُوذٌ⁽²⁾
لم يقف الأخطلل في تعرضه بالهجاء الفاجر، لجرير وأمه وأبيه، عند
حد فتراه يتعرض أيضاً لقبيلة جرير، ويفحش في إظهار سوءات نسائهم
فيظهورهن مسرعات إلى الفجور، مستعملاً في ذلك بذئ الكلم وأحط
الألفاظ، مما يأبه الخلق، ويحرمه الدين، أي دين سماوي كان، يقول:
فلا تَدْخُلْ بَيْوَتَ بْنِي گُلَيْبٍ ولا تَقْرَبْ لَهُمْ، أَبْدَا، رِحَالًا
تَرِي فِيهَا اللَّوَامِعَ مُبْرِقَاتٍ يَكَدْنَ، ...، بِالْحَدَقِ، الرِّجَالَا
قَصِيرَاتِ الْحُطَّا عَنْ كُلِّ خَيْرٍ إِلَى السَّوَاتِ مُسِمَّحَةً، رِعَالًا⁽²⁾
ومن هذه الألفاظ النابية والسباب اللثيم - الذي لا يستعمله إلا
الزنديق نراه يقول إلى جرير:

أصِخْ، يا بنَ ثَفَرِ الْكَلْبِ، عَنْ آلِ دَارِمٍ فَإِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِعَ تِلْكَ الرَّوَابِيَا⁽³⁾
فَالَّذِي يَنْحُطُ إِلَى هَذَا الدَّرَكَ مِنَ التَّهْتِكَ بِأَعْرَاضِ النَّاسِ، يَعْدُ زَنْدِيَاً،
وَزَنْدِيَّاً كَبِيرًاً، وَبِالْأَخْصِ إِذَا انتَمَى إِلَى الْمَسِيحِيَّةِ - كَالْأَخْطَلِ - وَالْمَسِيحِيَّةِ
تَقُولُ: «لِيَكُنْ كَلَامُكُمْ نَعَمْ نَعَمْ، وَلَا لَا، وَمَنْ زَادَ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ مِنْ
الشَّرِيرِ»⁽⁴⁾.

فَكَمْ بِالْحَرَيِّ إِذَا دَعَا الْمَسِيحِيَّ إِلَى السُّبِيِّ وَالْقَتْلِ، مِنْتَاسِيَاً مَا جَاءَ
عَلَى لِسَانِ السِّيدِ الْمَسِيحِ: «لَا تَقاوِمُوا الشَّرَّ بِالشَّرِّ، مِنْ ضَرِبِكَ عَلَى الْأَيْمَنِ
فَدَرَ لَهُ الْأَيْسِرِ ...»⁽⁵⁾. كَمَا فِي دُعْوَةِ الْأَخْطَلِ، إِظْهَارِ هَجُومِ رَهْطِهِ عَلَى

(1) قبادة: شعر الأخطلل: 2/ 519 - 521.

(2) المصدر 1/ 134 وبنو كلب من يربوع رهط جرير. رحال: منزل. اللوامع: المرأة الفاجرة تلمع بيده. الرعال: الجماعة. سمححة: متقدمة مسرعة. ومكان النقط في البيت الثاني لفظة يمحها الذوق السليم فلم تذكرها.

(3) المصدر 1/ 352. والثفر: الفرج.

(4) إنجيل مقدس: متى 5/ 37.

(5) المصدر السابق: لوقا 6/ 29. ومتى 5/ 39 - 42.

عشيرة «كلب» إحدى العشائر التي ينتمي إليها جرير، وسببيهن النساء وقد تمزقت سراويلها، وظهرت عوراتها، يقول:

كم قد هجمنا عليهم، من مُسْوَمَةٍ شُغْثِ، فوارسُها البيضُ، البَهَالِيلُ
نسبي النساء، فما تنفكُ مُرِدِفَةً قد أنهجَتْ عن مَعَارِيْها السَّرَابِيلُ⁽¹⁾
هل نسي هذا الزنديق النصراني وصبة سيده المسيح، : «لا تقتل»؟ إذ
يقول:

شفى النفس قتلى من سُلَيْمٍ وعامِرٍ ولم تُشفِّها قَتْلَى غَنِيٍّ، ولا جَسْرٍ⁽²⁾
أو تناساها لأنه لا يعرف من المسيحية إلا اسمها، ويؤمن بما أمن به
العربي قبل الإسلام؟ إذ زجر الطير، ليعرف من طيرانها الفأْل، أخير هو أم
شر. أوليس هو القائل:؟

فهلاً زجرت الطَّيْرَ، ليلة جَثَّهِ بِضَيْقَةٍ بَيْنَ النَّجْمِ، والدَّبَرَانِ⁽³⁾
وخلاصة القول: فإن من كانت هذه حياته وصفاته في إدمان المسكر
 وإنفاحات القول في الناس، وحبه لإراقة الدماء، لا بد أن يكون زنديقاً،
زنديقاً في هوا السياسي، زنديقاً في عدم استقامة سيرته، إن في الحياة
الاجتماعية، أو في ضعف معتقده الديني.

هذا هو شأن أحد ثلاثة الكبار، عصربني أمية، فما هو شأن
الآخرين؟ وكيف كانت حياتهما. هل تزندق جرير والفرزدق، أم لا؟
الجواب يأتينا فيما يلي.

8 - جرير بن عطية اليربوعي (28 - 640 هـ / 728 م):

- إذا كان الهجاء إشراكاً والاشتراك زندقة⁽⁴⁾، فإن «جريراً» - وهو من

(1) قباوة: شعر الأخطل / 1. 63. مسومة: معلمة لعتقها. بهلول: سيد جامع كل خير. أنهج:
بلبي وتعزق.

(2) المصدر السابق / 1. 181.

(3) المصدر: 1/ 293. النجم التربا. والدبران: نجم معروف.

(4) حسب قول «كعب بن جعيل» التغلبي الشاعر. أنظر ابن قتيبة: الشعر والشعراء: 1/ 394.

أعظم الشعراء الهجائين في الإسلام - يعد من أكبر زنادقة العصر الأموي.

- وإذا كان شرب الخمر كفراً وضلالاً - وهل الزندقة أشد إيلاماً من الكفر والضلال؟ - فإن جريراً، العفت الدين⁽¹⁾، فهو من الزنادقة لأنه شرب⁽²⁾، ما أوصى الإسلام باجتنابه⁽³⁾.

- وإذا كان التفاخر والتباكي بالأنساب والقبائل، من مفاخر الجاهلية وأعراها، وقد نفاه الإسلام على لسان (رسوله)، حيث قال: «أيها الناس! إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالأباء، كلكم لأدم وآدم من تراب...»⁽⁴⁾، فإن جريراً بنقائضه قد فاخر وتباكي، ولم يصمت أذنيه عن ملاحة قرينه - الأخطل والفرزدق - وغيرهما، بل تراه قد أغلقهما عن سماع قول رسوله، أفلا يكون زنديقاً؟ وأغلقهما عما روي عن (النبي): «من تعلم القرآن ثم نسيه لقي الله تعالى يوم القيمة وهو أجذم»⁽⁵⁾.

كان جريراً من أشد الناس هجاءً⁽⁶⁾، هجا فأفحش وأقذع، وفتح عن كلمات هجائه فجاءت فاجرة دائرة، يعف لسان المؤمن، بأديان السماء، عن ذكرها .. ويا لكثرة ما رددتها في تعرضه لرهط الأخطل والفرزدق وغيرهما. إنه يقول:

غضَّ السُّرْنَدَى عَلَى تَشْلِيمِ نَاجِدِهِ مِنْ أُمٌّ عِلْقَةَ بَظَرَا عَمَّهُ الشَّعْرُ
وَغَضَّ عِلْقَةَ لَا يَأْلُو بِعَزْعَرَةٍ مِنْ بَظَرِّ أُمِّ السُّرْنَدَى وَهُوَ مُنْتَصِرٌ⁽⁷⁾

(1) حسب روایة أبي عبيدة عن أبي عمرو. الأصفهاني: الأغاني 7/38. دار الفكر عن بولاق.

(2) المصدر السابق 7/49.

(3) القرآن: المائدة 5/90 و 5/91 والبقرة 2/219.

(4) شوقى ضيف: التطور والتجدد. دار المعارف، ص 110.

(5) الشريف المرتضى: الأمالي 1/5. وابن منظور: لسان العرب 12/87 مادة (جذم) والأجذم: المقطوع اليه.

(6) ابن قيبة: الشعر والشعراء: 1/376.

(7) عبد الله الصاوي (محمد إسماعيل): شرح ديوان جريراً. دار الأندلس. ص 288. وعلة، والسرندي شاعران كانوا يعيثان عليه خصومه.

ترى! أليس زنديقاً من يفتش عن عورات الإنسان ليلاحتي بها
خصومه؟ لعل جريراً كان كذلك. أليس هو القائل في هجاء الراعي النميري
وعشيرته:

لَلْقُمْ بَابَ عِضْرِطِهَا التَّرَابا
كَعْنَقَةَ الْفَرِزْدَقْ حِينَ شَابَا
يُغَرِّقُ مَاءَ نَخْبَتِهَا الذِّبَابَا
كَانَ عَلَى مَشَافِرِهِ حُبَابَا
إِذَا مَا (...) فِي أَسْتِ أَبِيكَ غَابَا^(١)

إِذَا سَعَلْتَ فَتَاهُ بَنِي تَمِيم
تَرَى بَرَصَا بِمَجْمَعِ إِنْكَتَنِيهَا
وَمُفَرْقَةَ الْأَهَازِمْ مِنْ عِقَالِ
تُواجِهُ بَغْلَهَا بِعُضَارَطِي
أَجْنَدِلْ مَا تَقُولُ بَنِو نَمِيرِ

ترى أن جريراً استعمل في هجائه هذا - إلى جانب وحشية الكلام -
أقذع الألفاظ وأحطها، ولم يتورع عن ذكر عورات الرجل والمرأة على حد
سواء، ومثل هذا كثير في شعره. قال يهجو الitem:

وَيَتَمِيمَةَ حِزْيَى مَحْلُّ إِزارَهَا إِذَا الْقُنْبُ تَحْتَ الرُّكْبَتَيْنِ تَذَبَّنِي
وَلَوْلَا لَنَا تَمِيمَةَ تَحْتَ قُنْبَهَا لَقَدْ كَرَهَ الْحَرْقُوصُ أَنْ يَتَعَرَّبَا^(٢)

فما هو هذا الأسلوب الفاحش البذيء الذي اتبعه جرير؟ ألم يسمع
ما رواه الترمذى عن ابن مسعود عن (الرسول): «ليس المؤمن بالطعان،
ولا اللعن، ولا الفاحش، ولا البذيء»^(٣).

فكيف به إذا قرن الفحش والبذاءة بال تعرض للدين سماوي اتبعه
الأخطل أحد خصومه، فلم تسلم أم هذا من لسانه السليط، وقد نعتها
بأسف النعوت، فجاءت داعرة، يشبه عنقها عنق خنزيرة، تعمل في تغذية

(١) المصدر السابق ص 69 وما بعد. العضرط: الفرج الرخو. مجتمع اسكنبيها: بأسفل أو
بجانب أسكنبيها. ماء نخبتها: الماء: السلح. نخبة: الدبر. العباب: يشبه الزيد. أست:
حلقة الدبر. ومكان النقط في البيت الأخير كلمة نالية. وانظر ترجمة الراعي النميري (أبي
جندل) في: ابن قتيبة: الشعر والشعراء. 327. 1/1.

(٢) الصاوي: ديوان جرير. ص 15. القنب: بظر المرأة. اللثا: الوسخ. الحرقوص: خنيفس
صغير.

(٣) صبحي الصالح: منهل الورادين، ص 938. حديث رقم 1732.

وتربية صغار الخنازير، يعلق شعار دينها «الصلب» على (مؤخرتها)، توليها القبلة، وتسجد للشيطان.

أمكنا وبكل بساطة يتهكم جرير على دين المسيح، الذي قال فيه القرآن الكريم: ﴿بِإِنَّمَا مَرِيمَةً إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُ بِكُلِّمَا مِنْ أَسْمَهُ الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنُ مَرِيمٍ﴾⁽¹⁾. ألا يروعي وهو يهجو الأخطل:

ألم ترَ أَنَّ التَّغْلِبَيْةَ لَمْ تَبِتْ حَصَانًا، وَلَا جَذَلَانَ مِنْ يَسْتَفِدُهَا
يَلْعُبُ صَلَبِهَا اللَّذَانَ عَلَى اسْتِهَا وَجِيدُ التَّيْ نَفْلُ الْخَنَانِيَصَ جَيْدُهَا
تُولَّي اسْتِهَا الْوَجْهَ الَّذِي أَمْرَثَ بِهِ وَتَسْجُدُ لِلشَّيْطَانِ خَابَ سَجْودُهَا⁽²⁾
ويقول أيضاً:

إِنَّ الْأَخْيَطَلَ حَنْزِيرًا أَطَافَ بِهِ إِحْدَى الدَّوَاهِيَّاتِي تُخْشِي وَتُشَتَّرِّطُ
ويعكِفُ إِلَى رَهْطِ الْأَخْطَلِ، كَأَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُوزِعَ سَابِهِ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا:

رَجُسْ يَكُونُ إِذَا صَلَّوْا آذَانُهُمْ قَزْعُ النَّوَاقِيسِ لَا يَذْرُونَ مَا السُّورَ
تَلْقَى الْأَخْيَطَلَ فِي رَكِبِ مَطَارِفِهِمْ بُرْقُ الْعَبَاءِ وَمَا حَجَّوْا وَمَا اعْتَمَرُوا
بَظَرُ طَوِيلٌ وَفِي بَاعِ ابْنَهَا قَصَرُ نَسَوانُ تَغْلِبَ لَا جِلْمُ وَلَا حَسَبُ
مَا كَانَ يَرْضَى رَسُولُ اللَّهِ دِينَهُمْ وَالْطَّيْبَانَ أَبُو بَكْرٍ وَلَا عُمَرُ⁽³⁾

فهذا الذي أخرج نصارى تغلب - رجالاً ونساء - من الإيمان بالله ونصب نفسه - لسانه على الأقل - مكان (الرسول) وأبي بكر وعمر، برفض الجميع دين (عيسى) المسيح، ألا يكون زنديقاً. لعله كذلك، خاصة عندما يتَّضحُ بـشعائر دين سماوي إلى مذلة ألفاظ سفيحة عاهرة عندما يقول:

(1) سورة آل عمران 45. وانظر القرآن أيضاً البقرة 87 / 2 وآل النساء 253 / 2.

(2) الصاوي: ديوان جرير، ص 157.

(3) المصدر السابق. ص 260 وما بعد. وانظر أيضاً ص 313 في هجائه أم الأخطل .

فاما النصارى العبادون صليبيهم فخابوا وأما المسلمين فأفلحوا



إذا جُرِدت لاح الصليب على استئنافها
ولم تمسح البيت العتيق أكفُها ولكن بقربان الصليب تُمسح⁽¹⁾
ولا ضير في هجاء هذا الشاعر الزنديق، لشاعر آخر ليس من دينه،
إذا ما رأيته يقف للآخرين من معاصريه وعلى رأسهم الفرزدق، وبالكاد
يخلص أحد من حبائله، - موقف الصياد المتربيض للطريدة ليرميها في شباك
هجائه.

تراه ينظر إلى الفرزدق - أحد ثلاثة الكبار - ويأخذ عليه تقربه إلى
النصارى واليهود، بقوله:

خرجت من المدينة غير عُفت وقام عليك بالحرام الشهود
تحبُّك يوم عيدهم النصارى ويوم السبت شيعتك اليهود⁽²⁾
كما ويأخذ عليه فحشه وفجوره، لذا فهو نجس وإن تطهر ودخل
المسجد، نجس لتقربه من نصارى تغلب، الذين يحجون إلى الصليب
ويقربون القربان وأكلون الخنزير، بقوله:

إن الفرزدق حين يدخل مسجداً رَجِسْ فليس طهوره بظهورِ
رهُط الفرزدق من نصارى كذباً دعاوة زور⁽³⁾
وَخُجُوا الصليب وقرّبوا قربانكم وخذلوا نصيّركم من الخنزير
ولا يكتفي بهذا التجريح والإيذاء، بل تراه يتهم خصمه بدینه، بعد أن
اتهمه بجدته بقوله:

(1) المصدر السابق. ص 111 وما بعد. الزهم: رائحة الشحم.

(2) المصدر السابق. ص 161.

(3) المصدر ص 193 - 194.

أبني قَفِيرَةَ قَدْ أَنَاخَ إِلَيْكُم
كُنْتُمْ بْنِي أُمَّةً فَأُغْلِقَ دُونَكُم
لَا تَفْخَرُنَّ إِنَّ دِينَ مُجَاشِعٍ
بِوْمَ التَّقَاسُمِ لُؤْمُ آلِ نَزَارٍ
بَابُ الْمَكَارِمِ يَا بْنِي التَّخْوَارِ
دِينُ الْمَجَوسِ تَطَوْفُ حَوْلَ دُواَرِ⁽¹⁾

إِنَّمَا كَانَ الْفَرِزْدَقُ الْمُسْلِمُ قَدْ زَاغَ عَنِ الْإِيمَانِ⁽²⁾، فَهَلْ يَعْقُلُ أَنْ
قَوْمَهُ جَمِيعاً قَدْ زَاغُوا؟ وَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يُجْرِحَ رَجُلُ مُسْلِمٍ بِآخَرِينَ مُسْلِمِينَ؟
أَلَمْ يَحْرِمِ الْقُرْآنُ احْتِقارَ الْمُسْلِمِ لِلْمُسْلِمِ؟ بِقَوْلِهِ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
يَسْخُرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ، عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ... وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا
تَنَابِزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفَسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ...» وَبِقَوْلِهِ أَيْضًا: «وَلِلْأَيَّامِ
كُلِّ هُمَزةٍ لُّمَزَةٌ»⁽³⁾. أَلَمْ يَنْهِ رَسُولُهُ عَنْ سَبِ الْأَمْوَاتِ⁽⁴⁾، أَلَمْ يُرِّوْ عَنْهُ:
«الْمُسْلِمُ مِنْ سَلْمِ الْمُسْلِمِوْنَ مِنْ لِسَانِهِ وِيدِهِ...»⁽⁵⁾، إِنْ جَرِيرًا تَجَاهَلَ كُلَّ
هَذَا، أَفَلَا يَكُونُ زَنْدِيَّاً؟

إِنْ مِنْ هَجَا وَأَفْحَشَ، وَلَمْ يَتُورَّعْ عَنِ ارْتِكَابِ الْكَبَائِرِ، يُؤْكِدُ زَنْدِقَتِهِ،
فَمِنْ هَذِهِ الْكَبَائِرِ: شَرِبِهِ لِلْخَمْرِ، حَتَّى السُّكْرُ الشَّدِيدُ⁽⁶⁾، وَإِيمَانُهُ أَنَّ الشِّعْرَ
تَعَاوِيْدُ وَرْقِيِّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَأَنْ تَابِعَهُ جَنِيٌّ رَاقٌ، وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ فِي عُمَرَ بْنِ
عَبْدِ الْعَزِيزِ:

وَجَدْتُ رُقَى الشَّيْطَانَ لَا تَسْتَفِرُهُ وَقَدْ كَانَ شَيْطَانِي مِنَ الْجِنِّ رَاقِيَاً⁽⁷⁾
وَقَدْ شَهَدَ بِذَلِكَ أَحَدُ مُعاَصِرِيِّهِ، رَاعِيِّ الْإِبْلِ الَّذِي قَالَ: «أَقْسَمَ بِاللَّهِ

(1) المصدر ص 319 - 320 وقفيرة: هي جدة الفرزدق لابيه، وكانت أنها أمها وهيها كسرى لوزارة ووزارة وهيها لهند بنت عديس فعجلت من أخي زوجها «زنبي» وولدت قفيرة هذه التي عاب جرر الفرزدق بها. أنظر ابن قتيبة: الشعر والشعراء 1/381.

(2) سبب ذلك فيما بعد.

(3) سورة الحجرات 49، آية 11. وسورة الهمزة 104، آية 1. ولمز: طعن. همزه لمزة: الغيبة والتجریح.

(4) صحي الصالح: منهل الواردين: ص 862. حديث رقم 1562.

(5) المصدر حديث. رقم 1563.

(6) الأصفهاني: الأغاني 7/49. وقد شرب باطية نيد وشوهد عرياناً.

(7) المصدر 7/58.

أن لجرير لأشياعاً من الجن»⁽¹⁾.

ومن كباره أيضاً تباهيه وتفاخره على أقرانه من الشعراء، وعلى قبائلهم وعشائرهم، مدعياً أنه النهار والليل، والمسلمون يشهدون له بذلك، يقول للفرزدق ورهطه:

إني لَتُحِرِّقُ مِنْ قَصَدْتُ لِشَمِّيْ نَارِيْ وَلَحَفْتُ بِالْغُواةِ سُعَارِي



ما ذا تقول وقد عَلَوْتُ عَلَيْكُمْ والمسلمون بما أقول قَوَارِي
فأنا النهارُ علا عليك بضمئيْ وَاللَّيلُ يَقْبِضُ بَسْطَةَ الْأَبْصَارِ⁽²⁾

ومن كباره أيضاً تفضيله لفتة من الناس على الآخرين. فقد كان أموي الهوى، رأى أن الخلافة قدرهم وسلطتهم مستمددة من سلطة الله، إيمانهم إيمان صدق وحق، ودين ما سواهم من العالمين دين تفرقة وضلال. يقول في عبد الملك:

يَا آلَ مَرْوَانَ إِنَّ اللَّهَ فَضَلَّكُمْ فَضْلًا عَظِيمًا عَلَىٰ مَنْ دَيْنُهُ الْبَدْعُ⁽³⁾
فَمَنْ هُمْ أَصْحَابُ الْبَدْعِ فِي نَظَرِ جَرِيرٍ؟ لَعَلَّهُمْ شِيعَةُ (عَلِيٍّ) أَوْ
الْخَوَارِجُ، أَوْ أَتَابُاعُ ابْنِ الزَّبِيرِ، وَكُلُّهُمْ مُسْلِمُونَ. وَلَكِنَّ الْجَمِيعَ ضَالُّونَ، مَا
عَدَا بَنْوَ أُمَّيَّةِ الَّذِينَ لَهُمُ الْحَقُّ الْإِلَهِيُّ فِي الْخِلَافَةِ، لَأَنَّهَا قَدْرُهُمْ، وَقَدْ وَلَدُوا
لَهَا، طَبْقًا لِلنَّبُوَاتِ الْوَارِدَةِ فِي الزَّبُورِ وَالْتُّورَاةِ، يَقُولُ فِي مَدْحِ أَيُوبَ بْنَ
سَلِيمَانَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ:

أَنْتَ الْخَلِيفَةُ لِلرَّحْمَنِ يَعْرُفُهُ أَهْلُ الزَّبُورِ وَفِي التُّورَاةِ مَكْتُوبٌ
اللَّهُ فَضَلَّهُ وَاللَّهُ وَفَقَهُ تَوْفِيقُ يُوسُفَ إِذْ وَصَاهُ يَعْقُوبُ⁽⁴⁾

(1) المصدر السابق. 50/7

(2) الديوان: ص 318. وقرار: الذين يتبعون أقوال الناس ويشهدون.

(3) المصدر السابق. ص 356.

(4) المصدر السابق، ص 35.

ولا يملّ جرير تكرار هذه النغمة في مدائحه لبني أمية، ومن حين إلى حين يعرض لخصومهم وأنهم ضلوا سواء السبيل، فمثلهم مثل قوم نوح وهود وثمود، من مثل قوله في يزيد بن المهلب، حين ثار وقتله الأمويون:

آل المهلب فرطوا في دينهم وطغوا كما فعلت ثمود فباروا⁽¹⁾

فهذا الذي يوزع الاتهامات يمنة ويسرة ويجرح بعقائد الناس وأعراضهم يسف في القول ويفحش في الكلام، ألا يعد زنديقاً؟ الجواب عند هشام بن عبد الملك يسأل (سبة بن عقال) وعنده ثلاثة الكبار⁽²⁾، ألا تخبرني عن «هؤلاء الذين مزقوا أعراضهم وهتكوا أستارهم، وأغرروا بين عشائرهم في غير خير ولا بُر، أيهم أشعر؟»⁽³⁾.

9 - الفرزدق، همام بن غالب (110هـ / 728م):

أحد الثلاثة الكبار، في الإسلام، نبيل من أهل البصرة، عظيم الأثر في اللغة. كان يقال: «لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب ولو لا شعره لذهب نصف أخبار الناس»⁽⁴⁾. هو صاحب الأخبار مع قرينه جرير والأخطل، وملحاظتهم أشهر من أن نذكرها. كثي في شبابه بأبي مكية، وهي ابنة له، لقوله:

شاهد إذا ما كنتَ ذا مخيبةٍ بسَدَارٍ مَيِّأْهَ ضَبْيَةٍ
صَمَّخَمَحٌ مُثْلِّ أَبِي مَكْيَةَ⁽⁵⁾

لقب بالفرزدق⁽⁶⁾، وعمر حتى المائة. لعله كان أكثر الثلاثة زندقة لفسقه واستهتاره وفجوره، بالإضافة إلى هجائه اللاذع وميله السياسي،

(1) المصدر السابق. ص 219.

(2) جرير والفرزدق والأخطل.

(3) الأصفهاني: الأغاني. 7/73.

(4) الزركلي: الأعلام: 8/93.

(5) الشريف المرتضى: الأمالي 1/62 الحاشية.

(6) المصدر السابق: إما لجهادة وجهه وغلظه، وإما لشبهه بقطعة العجين.

وفخره بنفسه وعشيرته. فمن فجوره وفسقه وحبه لغير حلاله ما نراه منه وقد لاحق عشيقته، فاختبأ في مكان لا تراه أعين الرقباء حتى يجن الليل، ودللت له بحبل يصعد إليها بواسطته، فعاقدا خمرة (دارين)، ويلذ له المقام، لولا خوفه من الفضيحة. ثم نرى معشوقته تستعين بوصيفة لها وتدللاته بحبل من علو يقارب الثمانين قامة. وكل هذا في سبيل لذة جانحة، ونفس ميالة إلى العهر والخيانة، نرى ذلك في قوله:

بِهِ الْوَحْشُ، مَا يُخْشِي عَلَيْهِ عَوَاثِرُ
إِلَيْهَا، وَلِيَلِيْ قد تَخَامَصَ آخِرُهُ
ذَكَرِيْ أَبِيْ مِنْ أَهْلِ دَارِينْ تَاجِرُهُ
الَّذِيْ قَرِيْ لَوْلَا الَّذِيْ قَدْ نَحَادَرُهُ
أَرِيْ الْلَّيلَ قَدْ وَلَىْ وَصَوَّتَ طَائِرُهُ
قَسِيمَةَ ذِي زُورِ مَخْوَفِ تِرَاتِرُهُ
أَحَيِيْ يُرْجَى أَمْ قَتِيلُ نُحَا ذَرُهُ؟
وَوَلِيْتُ فِي إِعْجَازِ لَيْلٍ أَبَا دَرُهُ
كَمَا انْقَضَ بازِ أَقْتَمُ الْرِيشِ كَاسِرُهُ
كَثِيرٌ دَوَاعِيْ بَطْنِهِ وَقَرَاقِرُهُ
لَنَا بُرْتَاهَا بِالَّذِيْ أَنَا شَاكِرُهُ
فَكُلْ ذُنُوبِيْ أَنْتَ يَا رَبِّ غَافِرُهُ⁽¹⁾

أَتَيْتُ لَهَا مِنْ مُخْتَلَ كَنْتُ أَدْرِي
فَمَا زَلْتُ حَتَّى أَضْعَدْتُنِي حَبَالُهَا
فَلَمَّا اجْتَمَعْنَا فِي الْعَلَالِيِّ، بَيْنَنَا
فَلَمْ أَرْ مَنْزُولًا بِهِ بَعْدَ هَجَعَةَ
فَقَلَّتْ لَهَا: كَيْفَ النَّزُولُ؟ فَإِنِّي
فَجَاءَتْ بِأَسْبَابِ طَوَالِ وأَشْرَفَتْ
فَلَمَا اسْتَوْتُ رَجْلَايِ فِي الْأَرْضِ نَادَتِنَا:
فَقَلَّتْ: ارْفَعَا الْأَسْبَابَ لَا يَشْعُرُوا بِنَا
هَمَا دَلْتَانِي مِنْ ثَمَانِينَ قَامَةَ
وَيَاتَتْ كَدُودَاةَ الْجَوَارِيِّ، وَيَعْلَهَا
وَيَحْسَبُهَا بَاتَ حَصَانَا، وَقَدْ جَرَّتْ
فِي رَبِّ إِنْ تَغْفِرْ لَنَا لِيَلَةَ النَّقَا،

لم تبت هذه المرأة حصانا، كما يظن زوجها، وفجر بها الفرزدق،
زير الغوانى⁽²⁾، فسمع «عمر بن عبد العزيز» بفجوره وفسقه فنفاه عن
المدينة⁽³⁾، وكان جريراً كان له بالمرصاد، الريشة بيده، واللوحة أمامه،
يفتن في إخراجها، صورة قرد يتسلق العبال، لا يأمن مسلم شره، فهو

(1) سايمز (المستشرق جيمس د) شرح ديوان الفرزدق. مكتبة الثقافة العربية - بغداد، ص 113.

(2) الزركلي: الأعلام 8/93.

(3) ابن قيبة: الشعر والشعراء 1/399.

فاجر في صباحه، فاجر في شبيهه، يقول جرير:

لقد ولدت أمُ الفرزدق فاجرًا
وما كان جارٌ للفرزدق مُسلمٌ
يوصلُ حبليه إذا جنَّ ليه
أتىت حدودَ الله مذ أنت يافعٌ
تبَعَ في الماخور كلَّ مُربِبةٍ
تدلىت تزني عن ثمانين قامةً
لقد كان إخراجُ الفرزدق عنكم طهورًا لما بينَ المصلى وواقامٍ^(١)

فكيف يلاحق الفرزدق النساء؟ وقد نهى الإسلام عن ذلك: «إذا سالتهمهن متاعاً فاسالوهن من وراء حجاب»^(٢). «إياكم والدخول على النساء» و«لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي محروم»^(٣).

لم يعر الفرزدق هذا الكلام أي اهتمام وتراء يجري وراء شهواته لم يردعه شبيهه، بقوله:

وتقولُ: كيف يميل مثلُك للصبا
وعليك من سمةِ الكبير عذارٌ
والشيبُ ينهض في الشبابِ كأنه
ليلٌ يصبحُ بجانبيه نهارٌ^(٤)

هذا عن فجوره وعهره، أما عن فسقه واستهتاره وجريه وراء الخمرة يشربها صرفاً، مستهيناً بما جاء في القرآن عن رجاستها^(٥)، فقد تستدل على ذلك بما رواه «ابن قتيبة»، حيث مر الفرزدق بيعيى بن الحسين الرقاشي، فقال له: يا أبا فراس هل لك في جدي سمين، ونبيذ زبيبجيد؟ فانطلق به يحيى وبابن عم له فأكلوا، ثم دعا بالشراب، فقال الفرزدق: اسكنني صرفاً يا غلام» ثم قال:

(١) الصاوي: ديوان جرير: ص 560. اللهازم: خالط الشيب خديه.

(٢) قرآن كريم: الأحزاب، آية 13.

(٣) صبحي الصالح: منهل الواردين ص 895. حديث رقم 1626 - 1627.

(٤) الديوان، ص 90 سايمرز (المستشرف جيمس د) مكتبة الثقافة العربية. بغداد.

(٥) قرآن كريم 219 / 2 و 90 / 5.

اسقني خمساً وخمسة
من عُقَارِ كِدْمِ الْجَوِيْنِ
واسقِ هذين ثلاثةٍ ثلائينِ
فِي حَرَّ الْكُلَيْتَيْنِ
بَرَوْحَا مَرَحَّينِ⁽¹⁾

ونستدل على معاشرته للخمرة، وانكبابه عليها - حتى اتهامه بالزندة
وابتعاه دين المجنوس - من نفائض جرير، حيث نجده يرمي الفرزدق من
هذا الجانب، ويرمي قومه معه، من مثل قوله:

إن المواجه من بناتِ مجاشعِ
إنَّ الْبَعِيثَ وَعَبْدَ⁽³⁾ آلَ مُقايسِ
وتَبَيَّثَ تَشَرُّبُ عِنْدَ كُلِّ مُقَصَّصِ
لا تَفْخَرْنَ فَإِنَّ دِينَ مجاشعِ
ماوى اللُّصوصِ وَمَلْبَبُ الْعَهَارِ
لا يَقْرَآنَ بِسُورَةِ الْأَحْبَارِ
خَضِيلُ الْأَنَامِلِ وَاكِفُ الْمِغَصَّارِ
دِينُ الْمَجُوسِ تَطْرُفُ حَزْلَ دُواَرِ⁽²⁾

وإذا ما صح زعم جرير فإن الفرزدق وصاحبـه البعـيث لا يحفظـان
القرآن، ولا يـسـيرـانـ على السـراـطـ المستـقـيمـ، وـنـرـاهـ يـصـورـ فـسـقـ الفـرزـدقـ
وـمـلـازـمـتـهـ لـبـيوـتـ الـخـمـارـينـ منـ أـهـلـ الـذـمـةـ، وـادـعـانـهـ أـنـ دـينـ مـجاـشـعـ كلـهاـ دـينـ
المـجـوسـ، وـإـنـ غالـىـ كـثـيرـاـ فـيـ هـذـاـ الـادـعـاءـ ... ولـكـنـ! مـهـماـ يـكـنـ الـأـمـرـ فإنـ
الـفـرزـدقـ شـرـبـ الـخـمـرـ وـلـمـ يـتـقـ اللهـ، عـارـضاـ عـمـاـ فـرـضـتـهـ عـلـيـهـ الشـرـيـعـةـ. جاءـ
فـيـ الأـغـانـيـ: أـنـ الـأـخـطلـ قـالـ لـهـ عـنـدـمـاـ تـعـارـفـاـ: «أـنـتـمـ مـعـشـرـ الـحـنـيفـيـةـ لـاـ
تـرـوـنـ أـنـ تـشـرـبـواـ مـنـ شـرـابـنـاـ، فـقـالـ لـهـ الـفـرزـدقـ: خـفـضـ قـلـيلـاـ وـهـاتـ منـ
شـرـابـكـ، فـاسـقـنـاـ، وـأـخـذـاـ فـيـ شـرـابـهـماـ وـتـنـاـشـدـهـماـ حـتـىـ عـمـلتـ الـرـاحـ فيـ أـبـيـ
فـرـاسـ»⁽⁴⁾.

إذن شرب الفرزدق الخمرة حتى الشـمـالـةـ، وـلـاحـقـ النـسـاءـ حـتـىـ
الـدـعـارـةـ، أـنـشـدـ سـلـيـمانـ بنـ عـبـدـ الـمـلـكـ:

(1) ابن قبيـةـ: الشـعـرـ وـالـشـعـراءـ / 1 385.

(2) الصـاويـ: دـيـوانـ جـرـيرـ: صـ 319ـ 320ـ المـقـصـسـ. الـذـيـ جـزـتـ نـاصـيـتـهـ.

(3) يـقـضـدـ الـفـرزـدقـ.

(4) الأـصـفـهـانـيـ: الأـغـانـيـ 7 / 187.

ثلاث واثنتان فهنَّ خمسٌ
فبُشِّنَ جَنَابَتَيْ مُطَرَّحَاتٍ
كَانَ مَفَالِقَ الرُّمَانِ فِيهِ
وَجَمَرَ غَضَّاً قَعْدَنَ عَلَيْهِ حَامٍ^(١)

فقال له سليمان: أقررت عندي على نفسك بالزنا، وأنا إمام، فلا بد لي من إقامة الحد عليك نزولاً عند قوله عز وجل: «الزانية والزانى فاجلدوا كلَّ واحدٍ منهما مائة جلدة»^(٢). قال الفرزدق: لكن كتاب الله يدرؤه عني^(٣)، وهكذا فإن لم يكن الفرزدق قد تزندق فعلاً، فقد فعلها قوله قولًا هجا فأفحش، وأسف في هجائه لجرير ورهطه، في مثل قوله، لجرير:
ابن المراوغة كيف تطلب دارماً وأبوك بين حمارٍ وحمارٍ

ولقوم جرير:

مثل الكلابِ تبولُ فوقَ أنوفها يُلْحَسِنُ قاطرَهُنَّ بِالْأَسْحَارِ^(٤)
ولجرير أيضًا:

تصاغرت يا ابن الكلب لما رايته
مع الشمس في صعبٍ عزيزٍ معاقله
تركتنا جريراً وهو في السوق حابسٌ
فاللهم: رَدَ الْحَمَارَ، فَإِنَّهُ أَبُوكَ، لَثِيمٌ رَأْسُهُ وجحافلهُ^(٥)
وبهذه الألفاظ والنعوت قذف الفرزدق خصمه، وإن كانوا مسلمين^(٦)
وحطَّ بهم إلى درجة الحيوان، يبقى هو ونسبة في مرتبة الإنسان العليا، إنه
يقول:

(١) ابن قتيبة: الشعر والشعراء 389 / 1.

(٢) القرآن الكريم: سورة النور آية 2.

(٣) والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كلِّ وادٍ يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون،
سورة الشعراء آية 224.

(٤) ديوان الفرزدق: ص 77 - 78.

(٥) المصدر السابق: ص 186.

(٦) إن سب المسلم من المسلم حرام. انظر البحث من 238 - 240.

بأيْ أبِ يا ابنَ المراغةِ تبتغيِ رهاني إلى غاياتِ عمي وحالياً⁽¹⁾
وقد تعالي الفرزدق بفخره على الناس أجمعين، وساوى بين قومه
وبيْن بيتي عبد شمس وهاشم، عندما قال:

لنا غير بيتي عبد شمس وهاشم
ألسنا أحقَ الناس حين تقاييسوا إلى المجد بالمستأثرات الجسامِ⁽²⁾
ولكن الأمر الأهم من كل ما قدمنا، هو اعتراف الفرزدق وإقراره
بغوايته وضلاله. ففي غوايته يقول:

على أثر الغاوين كلَّ مكانٍ
فأصبحت لا أدرِي أتبعُ ظاعناً، أم الشوقُ متى للمقيمِ دعاني⁽³⁾
ويقول أيضاً:

ثلاثين عاماً ما أرى من عمایة، إذا برقت، إلا شددت لها رحلبي⁽⁴⁾
أما ضلاله وكفره، فنراه في الحديث الذي جرى معه وهو على فراشِ
الموت، إذ قيل له وهو يفارق: أذكر الله، فسكت طويلاً ثم قال:

أرؤني من يقوم لكم مقامي إذا ما الأمرُ جُلَّ عن الخطابِ
إلى من تفزعون إذا حشوْتم بأيديكم علىَ من التُّرابِ
فأجابته مولاة له، نفع إلى الله، فقال آخرجووا هذه من الوصية⁽⁵⁾،
فإذا ما صحت هذه الرواية، يكون الفرزدق ضالاً، يموت على الكفر، بعد
أن عاش زنديقاً، إن لم يكن كل حياته فعلى الأرجح أكثرها.

ومما يثبت، أن الفرزدق عاش أكثر حياته زنديقاً، قضيده الطويلة
التي يعاهد فيها الله بأن لا يسب مسلماً ما عاش، بعد أن حبس نفسه وقيد

(1) الفرزدق: الديوان. ص 292. وهنا يفخر على جرير. وفخره كثير في ديوانه، وهذا أيضاً منهى عنه في الإسلام.

(2) المصدر السابق: ص 232.

(3) المصدر السابق: ص 275.

(4) المصدر السابق. ص 191.

(5) الأصفهاني: الأغاني 19/44. وابن قتيبة: الشعر والشعراء 1/386.

رجليه وعاهد الله أن لا يفكهما حتى يحفظ القرآن⁽¹⁾، وهو يعترف صراحة بقذف المحسنات بسوء الكلام، ويعرف بترك الله والزيف عن طريقه. وابتعاه لوساوس الشيطان زهاء سبعين سنة، لا يتركه عدو الإنسان اللدود. فتارة يكون وراءه وطوراً أمامه، وكم منه بالعيش الرغد الهنيء وعدم الموت ... إن الشيطان الذي أخرج آدم وحواء من جنتهما، وزين لهما مخالفة الخالق، هو نفسه قد تفل في فمي، وقادني إلى سب الناس وشتم الأعراض ... يقول:

لبيـن رـتاج قـائـم وـمـقام⁽²⁾
 ولا خـارـجاً مـن فـي سـوء كـلام
 وـما كـان يـعـطـي النـاسـ غـير ظـلامـ
 فـلـمـ اـنـتـهـى شـبـيـيـ، وـتـمـ تـمـامـيـ
 مـلـاـقـيـ لـأـيـامـ الـمـنـونـ حـمـامـيـ
 أـبـوـ الجـنـ إـيـلـيـسـ بـغـيرـ خـطـامـ
 يـكـونـ وـرـائـيـ مـرـةـ وـأـمـامـيـ
 سـيـخـلـدـنـيـ فـيـ جـنـةـ وـسـلـامـ
 لـهـمـ بـعـذـابـ النـاسـ كـلـ غـلامـ
 عـلـىـ النـابـحـ الـعـاوـيـ أـشـدـ رـجـامـ⁽³⁾

أـلمـ تـرـنـيـ عـاهـدـتـ رـبـيـ، وـإـنـيـ
 عـلـىـ قـسـمـ لـأـشـتـمـ الـدـهـرـ مـسـلـمـاـ ،
 بـتـوـبـةـ عـبـدـ قـدـ أـنـابـ فـوـادـ ،
 اـطـعـتـكـ يـاـ إـيـلـيـسـ سـبـعـينـ حـجـةـ ،
 فـرـرـتـ إـلـىـ رـبـيـ، وـأـيـقـنـتـ أـنـيـ
 أـلـاـ طـالـ مـاـ قـدـ بـثـ يـوـضـعـ نـاقـتـيـ
 يـظـلـ يـمـتـنـيـ عـلـىـ الرـحـلـ وـارـكـاـ ،
 يـبـشـرـنـيـ أـنـ لـنـ أـمـوـتـ، وـأـنـهـ
 وـإـنـ اـبـنـ إـيـلـيـسـ إـيـلـيـسـ أـلـبـنـاـ
 هـمـ تـفـلـ فـيـ فـيـ مـنـقـوـصـهـماـ ،

فـهـذـاـ الشـاعـرـ الزـنـديـقـ، وـقـدـ رـأـيـاـ مـنـ سـلـوكـهـ ماـ رـأـيـاـ، يـزـنـيـ بـالـنـسـاءـ وـلـاـ
 تـشـبـعـ غـرـيزـتـهـ وـمـيـولـهـ الـحـيـوانـيـةـ، وـيـصـفـ مـطـارـحتـهـنـ الغـرامـ بـشـعـرـ إـيـاحـيـ⁽⁴⁾ ،
 نـعـفـ عـنـ ذـكـرـهـ لـسـفـاهـتـهـ وـبـذـائـتـهـ، يـنـسـلـ إـلـىـ حـجـلـاتـهـ⁽⁵⁾ ، دـوـنـمـاـ رـادـعـ
 أـخـلـاقـيـ أـوـ دـيـنـيـ، يـشـرـبـ النـبـيـذـ الـمـسـغـبـزـ، وـيـشـتـهـيـ الـغـنـاءـ الـذـيـ يـفـتـقـ

(1) الأصفهاني: الأغاني 19/2 وما بعد. والشريف المرتضى: الأمالي 1/63.

(2) يشير إلى حبس نفسه ليخفظ القرآن.

(3) الديوان: ص 259 - 261.

(4) الأصفهاني: الأغاني 19/19.

(5) حجلة: مخدع. المصدر 19/34.

السمع⁽¹⁾، ومن الجانب الآخر نراه شيعي الهوى، يميل إلى بنى هاشم⁽²⁾ يجاهر بعقيلته ومذهبها، حين حج (علي بن الحسين) واستجهر الناس جماله، وجعلوا يقولون: من هذا؟ وكان هشام بن عبد الملك موجوداً، فقال الفرزدق:

والبيت يعرف البطحاء والحلُّ والحرَّم
هذا التقيُّ النقِيُّ الطاهِرُ العلَّمُ
طابت مغارسُه والخيمُ والشيمُ
من عشرَ حبِّهم دينٌ، ويغضُّهم كفرٌ، وقرُبُّهم منجى ومُعتصِّمٌ
وقد نال هذا الشاعر جزاء مجاهرته بحب (آل البيت)، من هشام
الذى كان يحج بالناس زمان أبيه عبد الملك، الغضب والحبس، فلم يسكت
ولم يتورع ويتعظ، بل تراه أطلق لسانه في هجاء الأمير، ابن الخليفة:

أَتَخْبِسُنِي بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالْمَدِينَةِ
إِلَيْهَا قُلُوبُ النَّاسِ يَهُوِي مِنْبِهَا
يُقْلِبُ رَأْسًا لَمْ يَكُنْ رَأْسَ سَيِّدٍ
وَعِنَّا لَهُ حَوْلَاءُ، بَادِ عِيوبُهَا⁽⁴⁾
إِنَّ هَذَا الشَّاعِرَ الزَّنْدِيقَ، الَّذِي يَتَرَّحُ مَعَ الرِّيحِ، تَارَةً يَحْبُّ آلَ الْبَيْتِ
وَيَهْجُو بَنِي أُمِّيَّةَ - بَشَّاصَ هَشَامَ .. وَطُورَّا يَعُودُ لِيَمْدُحُهُمْ - بَشَّاصَ الْوَلِيدَ
بْنَ عَبْدِ الْمُلْكَ .. وَرِيمَا كَانَ ذَلِكَ لِلتَّكْسِبِ وَهُوَ الْأَغْلَبُ، أَوْ رِيمَا كَانَ
لِتَعْصِبَهُ - الْلَّادِينِيُّ وَالْزَّنْدِيقِ - لِلْإِسْلَامِ ضَدَّ الْمَسِيحِيَّةِ. يَقُولُ مَادِحًا الْوَلِيدَ
مَشِيدًا بِعَمَلِهِ الْعَظِيمِ - اسْتِيلَاثِهِ عَلَى مَا تَبَقَّى مِنْ كَنِيسَةِ الْقَدِيسِ يُوحَنَّا
الْمَعْدَانَ⁽⁵⁾، فِي ضَمِّ الْكَنِيسَةِ إِلَى الْمَسْجَدِ، وَذَاماً النَّصَارَى مَشْهَرًا
بِيَامِهِمْ، نَاعِتاً إِيَّاهُمْ بِأَهْلِ الصَّلِيبِ وَعَبَادِ الصَّنْمِ:

أَمَا الْوَلِيدُ، فَإِنَّ اللَّهَ أُورَثَهُ
بَعْلَمَهُ فِيهِ مُلْكًا ثَابَتَ الدُّعَمِ

(1) المصدر 19/36 والمسعير: الكثير.

(2) المرتضى: الأمالي 1/66. انظر حكاياته مع الشاعر الكبيت.

(3) المصدر: 1/67. والأصفهاني: الأغاني 19/41. والديان 205.

(4) الأصفهاني: الأغاني 19/41 المرتضى: الأمالي 1/69 والديوان ص 207.

(5) الجامع الأموي اليوم.

فرّقت بين النصارى في كنائسهم، والعبادين مع الأشجار والعتم
وهم معاً في مُصلاتهم وأوجههم شتى، إذا سجدوا الله والصنم
وكيف يجتمع الناقوسُ يضر به أهل الصليب مع القراء لم تنِ
وكأنه لم يسمع كلام القرآن: «يا أيها الذين آمنوا ... لا تعتدوا إن الله
لا يحبّ المعتدين» وأيضاً: «... ولتجدُنَّ أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين
قالوا إنا نصارى ذلك بأنَّ منهم قيسِيين ورُهباناً وأنَّهم لا يستكرون»⁽²⁾.
وخلاصة القول في الفرزدق أنه أكثر الثلاثة زندقة، عاش ومات فيها.

10 - الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان: (88 - 707 هـ / 744 م)
أحد خلفاء بني أمية، (وأحد ملوكهم)⁽³⁾، كان شجاعاً جواداً، ولكنه
انغمس في الملذات، وانهض في اللهو وسماع الغناء، حتى ضلَّ وألحدَ
وتزندق⁽⁴⁾، ويبلغ من مجونه وإلحاده، أنه أراد أن يبني على الكعبة بيته
يجلس فيه للهو، ووجه مهندساً لهذه الغاية⁽⁵⁾، ومع أنه كان أميراً من
العائلة المالكة ومن ثم (الخليفة) على رأس الهرم، وببيده مفتاح الحل
والربط، فقد أطرح الدين جانباً غير محظوم في القول والفعل، وغير وجلي
من عين مراقب. فتراه ينادي بالإباحية المطلقة التي لم يصل إليها مزدك
الزنديق الكبير، فيتغاضى عن النساء ليصل إلى الرجال، في مثل قوله:

اسقياني وابن حربٍ واستُرْانَا بِإزارٍ
واترُكًا من طَلَبِ الجنةِ يَسْعى في خَسَارٍ
سَاسُوسُ النَّاسِ حتَّى يركبوا دينَ الحمارِ⁽⁶⁾

(1) الديوان: ص 268.

(2) قرآن كريم: 5/78 و 5/82.

(3) الزركلي: الأعلام 8/123.

(4) الشريف المرتضى: الأمالي 1/128 وما بعد.

(5) اليعقوبي: تاريخ: دار صادر المجلد الثاني. ص 333.

(6) المرتضى: الأمالي: 1/129 ويركبوا دين الحمار: أي ينزلو بعضهم على بعض كما
تنازي الحمير.

شكك بما جاء في القرآن عن يوم الحشر والحساب، ووصل به الجبروت إلى تمزيقه ورميه بالسهام والنبل، إنه يقول:

تُذَكِّرُنِي الحسابَ وَلَسْتُ أَدْرِي أَحَقًا مَا تَقُولُ مِنَ الحسابِ
فَقُلْ لَهُ يَمْنَعُنِي طَعَامِي وَقُلْ لَهُ يَمْنَعُنِي شَرَابِي
وَعِنْدَمَا فَتَحَ الْمَصْحَفُ ذَاتَ يَوْمٍ، وَرَأَى فِيهِ: «وَاسْتَفْتُهُوا وَخَابَ كُلُّ
جَبَارٍ عَنِيدٍ»⁽¹⁾. رماه بالنبل حتى مزقه، وهو يقول:

أَثْوَعُدُ كُلَّ جَبَارٍ عَنِيدٍ فَهَا أَنَا ذاك جَبَارٌ عَنِيدٍ
فَإِنْ لَاقِيْتَ رَئِيكَ يَوْمَ حَشْرٍ فَقُلْ يَا رَبُّ خَرَقْنِي الْوَلِيدٍ⁽²⁾

فهل هناك كفر أكثر من ذلك؟ يجاهر به خليفة المسلمين وأمير المؤمنين. لا يؤمن المسلم أن القرآن الكريم هو كتاب مُنزَّل ووحي من رب العالمين؟⁽³⁾. لا شك في ذلك .. ولكن الوليد وقد كشف قناع التزندق إلى أبعد الحدود. يبغى لذة الحياة الدنيا، ولا يهمه ما يأتي في الآخرة، زد على ذلك أنه يسأل الله غير هياب أن يكون وقوداً لنار جهنم، مقابل قبلة من فتاة نصرانية. فلنسمعه يقول:

مَا زَلْتُ أَرْمُقْهَا بَعْيَنَنِي وَأَمِقْ
حَتَّى بَصُرْتُ بِهَا ثُقَبَلُ عُودَا
عُودَ الصَّلِيبِ، فَوَيْنَحَ نَفْسِي مِنْ رَأْيِ
مَنْكُمْ صَلِيبًا مُثْلَهُ مَعْبُودًا!
فَسَأَلْتُ رَبِّي أَنْ أَكُونَ مَكَانَهُ
وَأَكُونَ فِي لَهَبِ الْجَحِيمِ وَقُوْدَا⁽⁴⁾

فهذا الذي استخف بالدين، وهتك حرمة - بتمزيقه القرآن - . لا يكون زنديقاً؟ كيف لا؟ والوليد تربى وتأدب على يد عبد الصمد بن عبد الأعلى الذي رمي بالزندة⁽⁵⁾، وإذا ما صاح قول العلاء البندار فإنه كان ثنياً أيضاً،

(1) سورة إبراهيم، آية 15.

(2) المرتضى: الأمالي: 1/130.

(3) القرآن الكريم: سورة البقرة، آية 4 تدل على ذلك.

(4) المرتضى: الأمالي 1/131. الهاشم.

(5) الأصفهاني: الأغاني 6/102.

آمن بمانبي نافياً نبوة كل الأنبياء قبله وبعده⁽¹⁾، مع أننا نشك بهذا القول، لأن هناك هوة كبيرة بين فساد الوليد وإياحيته وبين زهد ماني ودعوته إلى تحرير القتل والزنا ...⁽²⁾، ربما كان الوليد، - نظراً لتصرفاته - أقرب إلى المزدكية⁽³⁾، من المانوية.

لم يتورع هذا الخليفة عن لفجوه بالغناء وظربه الشديد له، حتى إتيانه بأقبح الأفعال⁽⁴⁾، حيث أمر ذات يوم، جارية له، - بعدما واقعها وهو سكران - أن تخرج وتصلب بالناس⁽⁵⁾.

لم يتعظ الوليد وهو رأس الهرم في دولة بني أمية - وينهض بما يملئه عليه شرع دينه، بل تراه ينساق وراء شهواته ولذائشه، فينتهك المحرمات فيشرب الخمور حتى الثمالة، وينكح أزواج أبيه، ويستخف بأمر الله⁽⁶⁾.

وهو لا يرى صلاحه في الدنيا ورشاده إلا في الخمرة، يقول:

لَيْتْ حَظِّيَ الْيَوْمَ مِنْ كُلِّ
قَهْوَةٍ أَبْذُلُ فِيهَا
فِيظَلُّ الْقَلْبُ مِنْهَا
إِنْ فِي ذَاكَ صَلَاحَيِ
مَعَاشِي لَيْ وَزَادَ
طَارَفِي ثُمَّ تَلَادَى
هَائِمًا فِي كُلِّ وَادٍ
وَفَلَاحِي وَرَشَادِي⁽⁷⁾

ويريد لها خمرة معتقة، ولم لا؟ وهو مؤمن بعدم دخوله النار ، ربما، لأنه موقن بالفناء ولا يؤمن بالحشر، وما دام الأمر كذلك، فلم لا يعاقرها

(1) المصدر السابق / 6 . 135.

(2) الشهرياني: ملل ونحل: 2 / 81 - 85.

(3) التي تدعو إلى الإباحة في العمال والنساء. المصدر السابق / 2 . 86 وما بعد.

(4) الأصفهاني: الأغاني / 6 . 124. وقد كشف عن عورته، وأمر أشعب المعني أن يسجد لها.

(5) المصدر السابق.

(6) المصدر السابق / 6 . 139.

(7) المصدر / 6 . 134.

كل الناس ويزنون لا بالنساء وحسب، بل بالرجال أيضاً⁽¹⁾، تاركاً طالبي
الجنة يسعون للهلاك حتماً، يقول:

أدرِ الْكَأسَ بِمِيَّنَا
اسقْ هَذَا ثُمَّ هَذَا
من كَمِيتِ عَتْقُوهَا
خَتَمُوهَا بِالْأَفَاوِيِّ
فَلَقِدْ أَيْقَنْتُ أَنِّي
سَارُوا لِنَارٍ حَتَّىٰ
وَذَرُوا مِنْ يَطْلُبُ الْجَنَّةَ
لا تدرها باليسار
صاحب العود النضار
منذ دهر في جرار
وكافور وقار
غير مبعوث لنار
يركبوا (...) الحمار
ة يسعى لثَبَار⁽²⁾

شرب الخمرة صرفاً، لما أتاه نعي أمير المؤمنين، هشام، وطرب
لغاء قينة ثم لها بها. يقول:

طاب يومي ولذ شرب السلافة
إذ أتاني نعي من بالرصافة
فاصطبخنا من خمر عانة صرفاً⁽³⁾
ولهوننا بقينة عزففة

وما اكتفى هذا (الخليل) بإقامة ليلة حمراء، فرحاً بموت الخليفة، بل
تراه يتهم على بناته، ويدعو نفسه بالمخنث إن لم يواقعهن. يقول:

إِنِّي سَمِعْتُ بِلِيلٍ وَرَا الْمَصَّلَى بِرَتَّهِ
إِذَا بَنَّتْ هَشَامٌ يَنْدِبِنَ الْدَّهَنَ
أَنَا الْمَخَنَّثُ حَقَّاً إِنْ لَمْ⁽⁴⁾

لا عجب في ذلك، وقد شهد هو بنفسه على عهره وفجوره وفسقه،
حيث قال:

(1) المصدر 6/124. تكلم بعض جلسائه، والمعنى تقني، فكره ذلك، فقال بعض جلسائه:
قم (فلط) به، ففعل أمام الناس.

(2) المصدر 6/123 وفي السطر القليل الآخر مكان (...) كلمة سفيهه نعف عن ذكرها.
وتبار: الهلاك.

(3) المصدر 6/109.

(4) المصدر السابق. ومكان النقطة كلمة بذرية.

أشهد الله والملائكة أَبَرَارَ وَالْعَابِدِينَ أَهْلَ الْصَّلَاحِ
 كَأُسِّيْ وَالْعَضَّ لِلْخَدُودِ الْمَلَاهِ
 أَنِّي اشتهي السَّمَاعَ وَشَرِبَ الْأَبَرَارِ
 وَالنَّدِيمَ الْكَرِيمَ وَالْخَادِمَ الْفَارِ

(٢)

فمن كانت هذه صفاتـه، وقد أفضـنا في التـمثيل عن ذلك لا يعقل إلا أن يكون زنديـق دـين، وزنديـق فـكر، وزنديـق اجتماعـياً كـبيراً، وربـما كان لـحياة التـرف والـدلـال أـثـرـ كبيرـ في سـلوـكـهـ. فيـزـيدـ أبوـهـ اـشتـهـرـ بـحـبهـ لـمـبـاهـجـ عـصـرـهـ، وـلـمـ تـكـنـ المـبـاهـجـ حـيـنـتـذـ سـوـىـ الـخـمـرـ وـالـغـنـاءـ وـالـثـيـابـ الـحرـيرـةـ وـالـنـسـاءـ. وـصـفـهـ أـبـوـ حـمـزـةـ الـخـارـجـيـ بـ«ـأـنـهـ يـشـرـبـ الـخـمـرـ، وـيـلـبـسـ الـحـلـةـ قـوـمـتـ بـأـلـفـ دـيـنـارـ ...ـ جـبـاهـةـ عـنـ يـمـيـنهـ، وـسـلـامـةـ عـنـ يـسـارـهـ، تـغـيـانـهـ»ـ(٢)ـ.ـ فـيـنـ مـؤـدـبـ زـنـديـقـ، شـبـ الـولـيدـ، لـاهـيـاـ، مـاجـنـاـ، خـلـيـعاـ، تـحـبـطـ بـهـ بـطـانـةـ مـنـ الـمـغـنـيـنـ وـالـجـوـارـيـ وـالـفـتـيـانـ، وـتـحـولـ قـصـرـهـ -ـ قـصـرـ الـخـلـافـةـ -ـ إـلـىـ مـقـصـفـ الـخـمـرـ وـالـعـزـفـ وـالـغـنـاءـ، وـجـعـلـ اللـذـةـ الـحـسـيـةـ مـذـهـبـاـ لـهــ(٣)ـ،ـ يـمـارـسـهـاـ فـيـ الـقـصـرـ وـخـارـجـهـ،ـ يـزـورـ الـأـدـيرـةـ وـالـحـانـاتـ فـيـ بـطـانـةـ لـهـ،ـ فـيـشـرـبـ وـيـرـتـويـ ثـمـ بـقـولـ :

حـبـذاـ لـيـلـتـيـ بـذـئـرـ يـؤـنـاـ
 كـيـفـمـاـ دـارـتـ الزـجاـجـةـ دـُنـنـاـ
 يـحـسـبـ الـجـاهـلـونـ أـنـاـ جـنـيـناـ
 وـجـعـلـنـاـ خـلـيـفـةـ اللـهـ فـطـرـوـ

(٤)

ولـعلـ زيـارـةـ هـذـاـ الدـيرـ وـغـيرـهـ مـنـ الـأـدـيرـةـ،ـ كـانـ لـهـاـ بـعـضـ الـانـطبـاعـاتـ فـيـ نـفـسـ هـذـاـ الشـابـ الـأـدـيبـ الـغـنـيـ الـمـتـرـفـ،ـ فـهـوـ يـمـجـنـ وـيـفـكـرـ فـيـ حـقـيـقـةـ الـأـدـيـانـ:

(١) المصـدرـ عـنـهـ 6/112.

(٢) الجـاحـظـ:ـ الـبـيـانـ وـالـتـبـيـنـ:ـ صـ276ـ.ـ الشـرـكـةـ الـلـبـانـيـةـ

(٣) شـوقـيـ ضـيفـ:ـ الـطـورـ وـالـتـجـدـيدـ:ـ صـ297ـ.

(٤) المصـدرـ السـابـقـ صـ304ـ.ـ عـنـ دـيوـانـهـ صـ56ـ.

ولعل اختلاطه بغير المسلمين، وبمؤدبه، الحق به بعض الشك، فالرصافة كانت تمور بأجناس كثيرة من البشر، لكل منها حضارتها وثقافتها، ودمشق كانت تتأثر بالثقافة اليونانية عن طريق المسيحيين أمثال يوحنا الدمشقي⁽¹⁾، فكان هذا وما يضارعه، يترك بعض الظل في نفس الوليد الميالة بعد ذاتها، إلى الدعاية والمجون، وربما إلى شيء من الإلحاد، وقد رد على الخليفة هشام - وهو لا يزال أميراً - عندما قال له: «ويحك يا وليد! والله ما أدرى أعلى الإسلام أنت أم لا! ما تدع شيئاً من المنكر إلا أتيته» فكتب إليه الوليد⁽²⁾:

يا أيها السائل عن ديننا نحن على دين أبي شاكر
نشربها صرفاً وممزوجة بالسخن أحياناً وبالفاتر⁽³⁾
فمثل هذا الشعر، وما سبق أن تمثلنا به، يعطي شيئاً من نزعة الشك في عقل الوليد، وهو صدى التحول في العقلية العربية، وما أصابها تحت تأثير البحث في العقائد والأراء ...

لعل المساوى التي ذكرها يزيد بن الوليد في كتابه إلى أهل العراق، بعد مقتل الوليد، وإلصاقها به، تلقي بعض الأضواء على عقيدة الوليد، يقول يزيد: «ثم أفضى الأمر إلى عدو الله الوليد، المتلهك للمحارم التي لا يأتي مثلها مسلم، ولا يقدم عليها كافر، مع أمور فاحشة ، ... وإن عدو الله لم يكن يرى من شرائع الإسلام شيئاً إلا أراد تبديله، والعمل فيه بغير ما أنزل الله ...»⁽⁴⁾.

ولعلنا نستشف بعض مذهب الوليد من خطبة يزيد، خليفة وقاتله،

(1) شوقي ضيف: التطور والتجدد: ص 304.

(2) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك: 7/ 210 دار سويدان.

(3) المصدر السابق. وأبي شاكر: كتبة مسلمة بن هشام المرشح للخلافة بعد أبيه.

(4) المصدر السابق. 276/7.

وابن عمه، وذلك عندما قام خطيباً بعد مقتل الوليد: «أيتها الناس ... إنني خرجت غضباً لله ودينه، لما هدمت معالم الهدى، وأطفئ نور التقوى، وظهر الجبار العيند المستحل لكل حرمة، والراكب لكل بدعة، مع أنه والله ما كان يؤمن ب يوم الحساب، ولا يصدق بالثواب والعقاب ...»⁽¹⁾.

ربما استحل الوليد المحرمات⁽²⁾، وغريب، وفجر، ولها، لكن اتهامه من خصومه، مسألة فيها نظر، لأن الحسد والبغض والتناطح على السلطة يفضي بالإنسان لإلصاق أشنع وأبغض التهم بخصمه.

ومع كل هذه التهم فإن للوليد قلب المحب الولهان، يصدر عنه شعر في المحبوبة يلتج المسامع، ولوح الموسيقى العذبة الرنانة، التي يعشقها ذوق الأحسيس الرقيقة، فمعشوقته «سلمي»⁽³⁾ تستحق أن تكون إماماً، وأن يسجد لها ويحج، وليس في ذلك حرج، أوليست قمراً؟ وهو القائل فيها:

شاعَ شِعْرِي فِي سُلَيْمَى وَظَاهَرَ
وَتَهَادَّهُ الْغَوَانِي بَيْنَهَا
لَسَجَدْنَا أَلْفَ الْفَ لِلأَثَرِ
وَاتَّخَذْنَاهَا إِمامًا مُرْتَضِي
إِنَّمَا بَنْتُ سَعِيدَ قَمَرَ
وَرَوَاهُ كُلُّ بَنْدُو وَخَضَرَ
وَتَغَنَّيْنَ بِهِ حَتَّى انتَشَرَ
وَلَسَجَدْنَا حَجَنَا وَالْمُغْتَمِرَ
هَلْ حَرِجْنَا إِنْ سَجَدْنَا لِلْقَمَرِ

فمثل هذه المقطوعة الرشيقية وغيرها، التي تختص بالعشق والهياج أحياناً، وبالخمر وسقاتها ووصف آلاتها أحياناً أخرى، ظهر إبداع الوليد في الشعر العربي. وربما كان الوليد رائد هذا الفن المتخصص القائم بذاته

(1) الجاحظ: البيان والتبيين: ص 284.

(2) ابن قتيبة: عيون الأخبار 2/ 42 دار الكتاب العربي - بيروت. وقد قال سليمان آخره: «لن الله الوليد أخي فإنه كان فاجراً، والله لقد أرادني على أن يفعل بي».

(3) هي أخت زوجته سعدى: بنت سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان. ابن عبد ربه: العقد الفريد 4/ 452.

(4) المصدر السابق 4/ 454.

على موضوع واحد في القصيدة الواحدة. وهو الذي أثر من خلال فن الخمريات، فيمن جاءوا بعده وبخاصة أبي نواس⁽¹⁾، وسنعرض للوليد وخمرياته في الفصل الأخير من هذا الباب، عندما نتكلم عن النصوص المختارة لشعراء زنادقة.

وخلاصة الكلام عن الوليد بن يزيد، الذي أبدع في تشبيه بنت سعيد بالقمر والذي لا يترجح من السجود للقمر. أن هذا الخليفة ماجن حتى الزندقة، تأثر بيته المترفة، وبعائلته الحاكمة، ومحبته المثقف، تسري في عروقه دماء الجاهلية - وهو غير بعيد عنها - التي تعبدت للأوثان ومنها القمر الذي ظل له أثر بالغ في حياة الناس بعد الإسلام، من حيث الإمساك والإفطار في رمضان. وتعيين العيد، كما يكتسب من الثقافات والحضارات الأجنبية المتواجهة في حاضرة مملكته فينكب على لذته التي يعتبرها مثله الأعلى والأوحد في حياته، ويموت وهو وراء هذه اللذة التي استحوذت عليه مشاعره وأنسته نذير الآخرة، فمات زنديقاً.

11 - عبد الله بن معاوية: (129هـ / 746م)⁽²⁾

عربي قريشي، كسابقه الوليد بن يزيد، لكنه من النبعة الطالبية الهاشمية، كان جواداً شاعراً، طلب الخلافة بالكوفة عام (127هـ)، في أواخر دولة بني أمية، واستفحى أمره في العراق وفارس ... أسر وقتل على يدي أبي مسلم الخراساني⁽³⁾.

لم يكن عبد الله بن معاوية، بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، محمود المذهب في دينه، ورمي بالزندة، وكثيراً ما استغل بسبها، لأنها كانت نقطة ضعفه⁽⁴⁾.

(1) انظر الأصفهاني: الأغاني 6/102. وما بعد المقطرات الرشيقية في الخمر .

(2) الزركلي: الأعلام: 4/129.

(3) المصدر السابق والطبرى: تاريخ الأمم والملوك 7/302 - 309. دار سويدان.

(4) الأصفهاني: الأغاني: 11/72.

استكتب (عمارة بن حمزة) الزنديق، ونادم مطبيع بن إياس⁽¹⁾ - وكان زنديقاً مشهوراً - والبقلة⁽²⁾، وأقام على شرطته قيساً وكان دهرياً لا يؤمن بالله معروفاً بذلك. دخل قيس هذا يوماً، على ابن معاوية، فلما رأه قال ابن معاوية وكان معه نديمه مطبيع بن إياس:

إن قيساً وإن تقئَّع شيئاً لخَبِيثُ الْهُوَى عَلَى شَمْطِهِ
ابن تسعين منظراً ومشيناً وابن عشر يُعَدُّ في سقطه

ثم نظر إلى نديمه مطبيع، وقال قل أنت، فقال:

وله شرطة إذا جنه اللب ملْ فَعُوذُوا بِاللهِ مِنْ شَرْطِهِ⁽³⁾

وحيث يعترف ابن معاوية بأن رئيس شرطه خبيث الهوى، فكيف يأمن له ويجعله رئيس حرسه إن لم يكن فيه نفس المعتقد.

ادعى ابن معاوية، بأنه يوحى له، وشهد بذلك رجل بحضورته، غضب عليه من قبله وضرب بالسياط، فناداه: «يا زنديق أنت الذي تزعم أنه يوحى إليك»⁽⁴⁾.

عاشر قريباً له، وصادقه وأخاه، وهذا الصديق القريب هو الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، وقال الناس فيهما: إنما تصافيا على الزندقة، ولكن الوذ لا يدوم، فتهاجرا، فقال ابن معاوية:

وَإِنْ حُسَيْنَيَا كَانَ شَيْئًا مَلْفِفًا فَمَحَصَهُ التَّكْشِيفُ حَتَّى بَدَا لِيَا
وَعَيْنُ الرَّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ وَلَكِنْ عَيْنُ السُّخْطِ تُبَدِّي الْمَسَاوِيَا
وَأَنْتَ أَخِي مَا لَمْ تَكُنْ لِي حَاجَةٌ فَإِنَّ عَرَضْتَ أَنْ يَقْنَعَنْ لَا أَخَالِيَا⁽⁵⁾

(1) ستحدث عنه في الفصل التالي، عندما تذكر زنادقة العصر العباسي.

(2) سمي بذلك، لأنَّه كان يقول الإنسان كالبقلة، فإذا مات لم يرجع.

(3) المصدر السابق: 75/11.

(4) المصدر عينه.

(5) المصدر السابق 76/11.

وهكذا نرى أن ابن معاوية، قد تزندق، لأن ندماءه وأهل بطانته اتهماه في دينهم. ومن هنا فربما كانت زندقة زندقة دينية، وهي أخطر أنواع الزندقة.

12 - الأحوص (عبد الله بن محمد) (105 هـ / 723 م):⁽¹⁾

شاعر من سكان المدينة، جد أبيه (عاصم بن ثابت) من الأنصار، وهو حمي الدبر⁽²⁾.

شاعر هجاء، صافي الديباجة، معاصر لجرين والفرزدق والأخطل، رمي بالأبنة وسوء المعتقد والزنا.

جلده سليمان بن عبد الملك لأنه قال: «إذا أخذت صريري لم أبال أي الثالثة لقيت، ناكحاً أو منكحاً أو زانياً»⁽³⁾.

وفد على الوليد بن عبد الملك ليمدحه، فكان يراود الخبازين في القصر على أنفسهم، ويريدهم أن (يلوطوا به)، فأرسله الوليد إلى عامله بالمدينة وأمره أن يجعله مائة سوط، ويصب على رأسه زيتاً، ويقيمه على البلس، فيصرخ قائلاً:

ما من مُصيبة نكبة أمنى بها إلا شرفني وتعظِّمْ شاني
إني إذا خفي اللئام وجئتني كالشمس لا تخفي بكل مكان⁽⁴⁾
إن مثل هذا الزنديق المأبون، لا يهاب صولة الحاكم وقصاصه،
ويعتبر القصاص على فجوره، شرفاً وتعظيماً.

تخنث⁽⁵⁾، ولا حق المغنيات يطارهن العشق والهوى، ضافياً على

(1) الزركلي: الأعلام: 4/116.

(2) الأصفهاني: الأغاني 4/41. والدبر: النحل والزنابير التي حمت جته كي لا يمثل بها.

(3) المصدر السابق: 4/43.

(4) المصدر السابق: 4/44. وابن قتيبة: الشعر والشعراء: 1/426.

(5) المصدر السابق: 4/52. شهد بذلك عبد الملك بن مروان.

من لا يفعل ذلك صفة الصخر الذي لا يشعر ولا يحس. إنه يقول:

إذا أنت لم تعشق ولم تدرِ ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جلماً⁽¹⁾
فمن كانت الحياة في رأيه عشقاً وهوى، وقد تحول إلى كل مغنية في
مدينته يحاول أن يشرب معها كأس الحب متربعة، ألا نسميه زنديقاً؟ لقد
هام بحبابة وسلامة اللتين اشتراهما فيما بعد، يزيد بن عبد الملك، كما
عشق عقبيلة والذلفاء التي لا يخشى في حبها عذل عاذل، حبها داء في
القلب، وهي أحسن بني البشر. يقول فيها:

إِنَّمَا الْذَّلِفَاءُ هَمْمٌ فَلَيَدْعُنِي مَنْ يَلُومُ
أَحْسَنُ النَّاسِ جَمِيعاً حَبْنَ تَمَشِي وَتَفْوُمُ
حُبُّهَا فِي الْقَلْبِ دَاءٌ مَسْتَكِنٌ لَا يَرِيمُ⁽²⁾

نفاه عمر بن عبد العزيز إلى قرية بحرية في اليمن، ولما كلمه فيه
بعض الأنصار - لمكانة جد أبيه - قال عمر: من القائل:

أَدُورُ وَلَوْلَا أَنْ أَرَى أُمَّ جَعْفَرٍ بِأَبِيَاتِكُمْ مَا درَثُ حِيثُ أَدُورُ
قالوا: الأحوص، قال فمن الذي يقول:

سُبْلِي لَكُمْ فِي مُضَمِّرِ الْقَلْبِ وَالْحَشَا سَرِيرَةُ حُبٌّ يَوْمَ ثُبَّلَ السَّرَائِرُ
قالوا: الأحوص، قال فمن القائل:

اللهُ بِيَنِي وَبِيَنَ قِيمَهَا يَفْرُّ مِنِي بِهَا وَأَئِيَّ
قالوا الأحوص. قال عمر: لا ردته إلى المدينة ما كان لي
سلطان⁽³⁾.

فالذي يغضب عليه عمر بن عبد العزيز، - وهو خامس الخلفاء

(1) المصدر السابق: 13 / 151. طبعة السادس.

(2) المصدر السابق: 8 / 200 طبعة دار الكتب.

(3) ابن قيبة: الشعر والشعراء. 1 / 424 - 425.

الراشدين الأربعـة - ألا يكون فاسقاً زنديقاً؟ لعله هكذا! وهو الذي يرى أن الحياة هي ما تلذ وتشتهي، وهو ليس وحيداً في هذا المضمار. لكنه يجهـر بعقـيـدـتـهـ، يقول ويـفـعـلـ وغـيـرـهـ يـفـعـلـ ويـسـتـرـ أولـيـسـ هوـ القـائـلـ؟

وـماـ العـيـشـ إـلاـ مـاـ تـلـذـ وـتـشـتـهـيـ
إـنـ لـامـ فـيـهـ ذـوـ الشـنـانـ وـفـئـداـ
بـكـيـتـ الصـباـ جـهـداـ فـمـنـ شـاءـ لـامـنـيـ
وـمـنـ شـاءـ وـاسـيـ فـيـ الـبـكـاءـ وـاسـعـداـ
وـأـلـمـ أـلـمـ أـلـمـ لـسـتـ فـيـ الـحـبـ أوـ حـدـاـ⁽¹⁾
وـإـنـيـ وـإـنـيـ عـيـرـتـ فـيـ طـلـبـ الصـباـ

أولـيـسـ هوـ القـائـلـ أـيـضاـ؟

وـإـنـيـ لـأـهـواـهاـ وـأـهـوىـ لـقـاءـهاـ
كـمـاـ يـشـتـهـيـ الصـادـيـ الشـرـابـ المـبـرـداـ
عـلـاقـةـ حـبـ لـجـ فـيـ سـنـ الصـباـ
فـأـبـلـىـ وـمـاـ يـزـدـادـ أـلـاـ تـجـدـداـ⁽²⁾

وـمـنـ حـبـ الـعـاهـرـ إـلـىـ فـخـرـ بـجـدـ أـبـيهـ عـلـىـ فـخـرـ سـكـيـنـةـ بـنـتـ الـحـسـينـ
بـجـدـ أـبـيهـاـ - الرـسـوـلـ -، رـوـىـ الـأـصـفـهـانـيـ، أـنـ الـأـحـوـصـ كـانـ يـوـمـاـ عـنـدـ
سـكـيـنـةـ فـأـذـنـ الـمـؤـذـنـ، وـلـمـ قـالـ: أـشـهـدـ أـنـ مـحـمـداـ رـسـوـلـ اللهـ، فـخـرـتـ سـكـيـنـةـ
بـمـاـ سـمـعـتـ، فـقـالـ الـأـحـوـصـ:

فـخـرـتـ وـأـنـتـمـ فـقـلـتـ ذـرـيـنـيـ
لـيـسـ جـهـلـ أـتـيـتـهـ بـبـدـيـعـ
فـأـنـاـ اـبـنـ الـذـيـ حـمـثـ لـحـمـهـ الدـبـ
رـُـقـتـيـلـ اللـحـيـانـ يـوـمـ الرـجـيـعـ
غـسـلـتـ خـالـيـ الـمـلـاـنـكـةـ الـأـبـ
رـارـ مـيـنـاـ طـوـبـيـ لـهـ مـنـ صـرـيـعـ⁽³⁾

وهـكـذـاـ عـاـشـ الـأـحـوـصـ الـمـأـبـونـ، الـمـتـهـمـ فـيـ دـيـنـهـ، الـزـنـدـيقـ فـيـ سـيـرـتـهـ،
وـرـاءـ الـلـذـةـ الـجـسـدـيـةـ، مـطـارـدـاـ مـنـ خـلـفـاءـ بـنـيـ أـمـيـةـ⁽⁴⁾. يـجـلـدـ تـارـةـ وـيـسـجـنـ
وـيـنـفـيـ طـورـاـ، وـلـاـ يـخـرـجـ مـنـ السـجـنـ، إـلـاـ عـلـىـ زـمـنـ يـزـيدـ بـنـ عـبـدـ الـمـلـكـ،
الـذـيـ يـطـرـبـ لـغـنـاءـ سـمـعـهـ مـنـ حـبـيـةـ كـانـ شـعـرـاـ لـلـأـحـوـصـ، فـيـعـفـيـ عـنـهـ
وـيـسـتـقـدـمـ إـلـىـ دـمـشـقـ، حـيـثـ يـمـوتـ وـأـيـاتـهـ تـرـدـدـ عـلـىـ السـنـةـ النـاسـ فـيـ لـيـالـيـهـ

(1) المصـدرـ السـابـقـ.

(2) المصـدرـ السـابـقـ: 426 / 1.

(3) الأـصـفـهـانـيـ: الـأـغـانـيـ: 4 / 43.

(4) سـلـيـمـانـ وـالـوـلـيـدـ اـبـنـ عـبـدـ الـمـلـكـ، وـعـمـرـ بـنـ الـعـزـيزـ.

المعسولة بين أحضان الحبيب، في قوله:

لي ليلتان، فليلةٌ معسولةٌ ألقى الحبيب بها بنجم الأسعد
ومريحةٌ همتي علىي كأنني حتى الصباح معلق بالفرقد⁽¹⁾

13 - إسماعيل بن يسار النسائي: (130هـ / 748م)

فارسي الأصل، مولى لبني تيم بن مرة (تيم قريش)، زبيري الهاوي
ومن ثم أموي، مدح عبد الملك والخلفاء من ولده⁽²⁾. ومع مدحه للزبير
والمروانيين، فقد اشتهر بشدة تعصبه للعجم، يفتخر بهم حتى في حضرة
ال الخليفة⁽³⁾. هذا التعصب العجمي على العرب، والذي عرف باسم
(الشعوبية)، ربما أخذه ابن يسار عن أبيه ورضعه مع حليب أمه - وللوالدين
أثر كبير في تربية الولد وتنشنته، وتوجيهه مسلكه .. فقد روى صاحب
الأغاني عن لسانه، رداً على سؤال سائل: «أي مروانية كانت لك أو
لأبيك؟» قال: «بغضنا إياهم. امرأته طالق، إن لم تكن أمه تلعن مروان وأله
كل يوم مكان التسبيح، وإن لم يكن أبوه لما حضره الموت، وقيل له:
قل: لا إله إلا الله، فقال: لعن الله مروان تقرباً بذلك إلى الله تعالى وإيدالاً
له من التوحيد»⁽⁴⁾.

وإذا ما كانت العصبية - قبلية كانت أو عرقية - زندقة⁽⁵⁾ ، فإن ابن
يسار قد تعصب لأبناء بجدته وفخر بهم على العرب، مشيداً بخُولته
وأعمامه وأصله، معللاً تسميتهم بالفرس لكونهم الفوارس الشجعان، هاجياً
العرب لرأدهم بناتهم، وهن أحياء. يقول:

(1) المصدر السابق: 4/55.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 4/119.

(3) الزركلي: الأعلام: 1/329.

(4) الأصفهاني: الأغاني: 4/120.

(5) الإسلام يقول: لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتفوى، ويقول أيضاً: إن الله أذهب
عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالأباء، كلهم لآدم، وأدام من تراب. أنظر البحث ص 238.

رَبِّ خَالِ مُتَوَجِّلِي وَعَمْ
إِنَّمَا سُمِّيَ الْفَوَارِسُ بِالْفَرِ
إِذْ نَرِبِّي بِنَائِنَا وَتَدُسُّو
ما جَدِّ مُجْتَدَى كَرِيمِ النَّصَابِ
سِيِّ مُضاهَاهَةِ رَفْعَةِ الْأَنْسَابِ
نَسْفَاهَا بَنَاتِكُمْ فِي التَّرَابِ⁽¹⁾

وهذا الفخر المقرن بالعصبية الشديدة للفرس، قوم الشاعر، لم يتورع عن إعلانه أمام هشام بن عبد الملك، الخليفة العربي، عندما استنشده ليり مدحه له، فإذا به ينشد قصيدة طويلة يفتخر فيها بالعجز، منها :

أَصْلِي كَرِيمٌ وَمَجْدِي لَا يُقَاسُ بِهِ
أَحْمَى بِهِ مَجْدُ أَقْوَامٍ ذُوِي حَسْبٍ
مِنْ مُثْلِ كَسْرَى وَسَابُورِ الْجَنْوَدِ مَعًا
هُنَاكَ إِنْ تَسْأَلِي ثُنْبِي بِأَنَّ لَنَا
وَلِي لِسانٌ كَحْدُ السَّيْفِ مَسْمُومٌ
مِنْ كُلِّ قَرْمٍ بِتَاجِ الْمُلْكِ مَعْمُومٌ
وَالْهَرْمَزَانُ لِفَخْرٍ أَوْ لِتَعْظِيمٍ
جَرْثُومَةٌ قَهْرَتْ عَرَّ الْجَرَاثِيمِ⁽²⁾

فمن عظمته كعزمة كسرى؟ ومن شجاعته كشجاعة سابور والهرمزان؟ وكل هذا والخليفة على بلاد حدودها شرقاً السندي وغرباً المحيط الأطلسي، يسمع، فيغضب ويقول: «يا عاضن بظر أمه أعلى تفخر، وتمدح نفسك واعلاج قومك، غطوه في الماء، فغطوه في البركة حتى كادت نفسه تخرج»⁽³⁾.

وإلى جانب زندقة ابن يسار الشعوبية، نرى فيه زندقة من نوع آخر، فهو يفحش بغزله للنساء، ولسان حاله يقول:

دار هند وهل زمانني بهند عائد بالهوى وصفو الجناب
غادة تستبي العقول بعدن طيب الطعم بارد الأنیاب⁽⁴⁾

ويأتي معشوقته متستراً بسواد الليل، والأخ والخال والحمو نiam، لا

(1) الأصفهاني: الأغاني: 4/120.

(2) المصدر السابق: 4/125.

(3) المصدر السابق: 4/125.

(4) المصدر السابق: 4/120.

يرعوي من أن يصرح بأن رفيقه إليها هما الله وسيفه الصارم، ألا يفقه هذا الزنديق معنى كلامه؟ ... وهل يرافق الله ويواافق الإنسان في هتك الأعراض؟ كلا، فإن الله يوفر العمل القبيح إلى يوم الحساب. ولنسمعه يقول:

أَخَافُّ الْمُشَيَّ حَذَارُ الْعَدَا
وَاللَّيْلُ دَاجٌ حَالِكُّ مُظَلِّمٌ
وَلَيْسَ إِلَّا اللَّهُ لَيْ صَاحِبٌ
إِلَيْكُمُ وَالصَّارِمُ اللَّهُمَّ
فَبِثُّ فِيمَا شِئْتَ مِنْ نِعْمَةٍ
يَمْنَحِنِيهَا نَحْرُهَا وَالْفَمُ
حَتَّى إِذَا الصَّبَحَ بِدَا ضَوْءَهُ
وَغَارَاتُ الْجَوَزَاءِ وَالْمِرْزَمُ
خَرَجَتُ وَالْوَطَأُ خَفِيًّا كَمَا
يَنْسَابُ مِنْ مَكْمَنِهِ الْأَرْقَمُ⁽¹⁾

فهذا الذي لا يخاف الله في فعلته، ويُخاف أعين الرقباء من البشر، فيخرج من دار من أشبع غريزته، منسابة دونما حركة كانسياب الأرقام من حجره، أفلا يكون زنديقاً؟!

14 - مروان بن محمد (آخر خلفاء بنى أمية) (72 - 132 هـ / 692 - 750 م)
والجعد بن درهم (118 هـ / 736 م)

لم نصل إلى شيء من زندقة مروان بن محمد، إلا أنه - وهو صغير - كان يتادب على أيدي الجعد بن درهم، أحد رؤساء (المانوية)،⁽²⁾ وقد أعدم (هشام بن عبد الملك) الجعد هذا لزندقته، حيث كان من طلائع نشاط المانوية⁽³⁾.

وبعد هذا العدد الذي أبرزناه من زنادقة عصر صدر الإسلام والعصر الأموي، لا بد من كلمة أخيرة في زندقة هؤلاء الزنادقة، فمنها ما كان تشكيكاً في الدين، وتجريحاً لرموزه، كزنادقة الوليد بن يزيد وعبد الله بن

(1) المصدر السابق: 4/123. والمرزم: نجم.

(2) انظر المانوية وتعاليمها في: الشهريستاني: الملل والنحل: 2/81 و85. دار المعرفة.

(3) الدوري: الجذور التاريخية للشمولية: ص22. دار الطليعة.

معاوية ومنها ما كان استهتاراً ومجوناً وتخلفاً بأخلاق الجاهلية كزندقة الشعراة الثلاثة الكبار، والخطيئة وأبي ممحجن الثقفي، ومنها ما كان تهتكاً وتدرجأ في هذا التهتك إلى الخروج عن الدين أحياناً بالفاظ ماسة، ثم المغالاة في ذلك إلى أقوال فيها معنى الإلحاد من غير نظر أو تفكير⁽¹⁾، مما يحدو بنا إلى تسميتها زندقة، كزندقة الآخرين.

هذا وفي بحثنا فيما بعد عن شجون وشؤون زنادقة العصر العباسي، سنتحدث أيضاً عن عدد من الزنادقة المخضرمين، الذين عاشوا بعض حياتهم زمن بنى أمية، وعاشوا بقيتها في عصر بنى العباس، وسنرى أن بعضهم من مشاهير الزنادقة، وهذا ينفي الكلام عن عدم وجود زنادقة في العصر الأموي والعصور التي سبقت⁽²⁾، بالإضافة إلى ما قدمنا آنفاً، حيث رأينا أن الزندقة قد نمت في عروقهم، وسببت بهلاك بعضهم، كما لاقى الجعد بن درهم حتفه على يد هشام، الخليفة الأموي⁽³⁾، بسبب آرائه في خلق القرآن، وقد أخذ الجعد آراءه عن أبيان بن سمعان - تلميذ طالوت، تلميذ ابن الأعصم اليهودي، الذي قال بخلق التوراة، وكان زنديقاً⁽⁴⁾. الذي يشتم من اسمه أنه كان نصراانياً.

وهكذا نرى أن الفكر المسيحي، والفكر اليهودي، على اختلاف المذاهب فيما، قد لعب دوراً كبيراً في عقل المفكرين واتجاهاتهم في المدن الإسلامية، وبخاصة في دمشق والكوفة والبصرة، وبغداد بعدها. وما ذلك إلا لتمازج الشعب العربي بسكان تلك المدن من نصارى ويهود ومجوس. وأيضاً لامتزاجه بالأعاجم من فرس وهنود وروم.

(1) أحمد أمين: ضحى الإسلام: 146 / 1 - 150 مكتبة النهضة المصرية طبعة 1961 .

(2) عطوان (حسين): الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول. دار الجيل - بيروت، ص 17.

(3) بعضهم قال: إن قاتل الجعد هو خالد القسري، والي الكوفة من قبل هشام. (ابن نباته): سرح العيون في شرح رسالة ابن خلدون. م الحلبي: القاهرة 1861م. ص 166 - 188 .

(4) ابن الأثير (عز الدين): الكامل في التاريخ. م المعارف. القاهرة 1867م. 7 / 26.

ومن الضروري أن نذكر هنا أن بعض المسلمين قد اطّلعوا على العقائد المسيحية، واليهودية، وما صنعتها من مذاهب، اختلف أصحابها في نظرتهم إلى الخالق والمخلوق.

تأثير بعضهم بنظريات تلك المذاهب، وأخذوا يدرسوها، ويتحدثون عنها، فشذوا عن إيمانهم وسنة نبيهم، واعتبروا زنادقة. من أولئك على سبيل المثال لا الحصر المغيرة بن سعد العجلاني، الذي قال بخلق القرآن⁽¹⁾، وجهم بن صفوان الذي أخذ عن الجعد بن درهم وقال بخلق القرآن أيضاً، كما قال ببناء الجنة والنار، وكان جبرياً لا يثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً⁽²⁾. وعمر المقصوص الذي ظهر بدمشق، وكان مؤدياً لل الخليفة معاوية بن يزيد بن معاوية، هو من القدرة التي كانت تثبت أن للإنسان قدرة على افعاله وحرية في اختيارها⁽³⁾. قتله الأمويون بتهمة إفساد الخليفة⁽⁴⁾.

ومعبد الجهنمي الذي تكلم كثيراً في البصرة نافياً القدر، عذبه الحجاج وصلبه بأمر عبد الملك بن مروان⁽⁵⁾.

وغيلان الدمشقي، أخذ آراءه من معبد الجهنمي في نفي القدر، وبخه على ذلك، عمر بن عبد العزيز وكتب إلى عماله في مختلف الأمصار بمراقبة أمثاله وملحقتهم، ترك غيلان للسانه العنان في نشر معتقده بعد موت عمر، قبض عليه هشام بن عبد الملك وامتحنه فأقر ببني القدر، فأمر

(1) المصدر السابق: 5/82. قتله خالد القسري.

(2) ابن بناه: سرح العيون، ص 159.

(3) الديبوري (ابن قتيبة): تأويل مختلف الحديث في الرد على أعداء أهل الحديث. القاهرة، 1925م، ص 98.

(4) ابن العبرى (أبو الفرج المطلي): تاريخ مختصر الدول. بيروت 1890م. ص 191.

(5) المقرizi: (تقي الدين) الموعظ والاعتبار بذكر الخطوط والآثار. القاهرة 4/181. فيما بعد: الخطوط.

به فقطعت يداه ورجلاه، ومات مصلوياً على باب دمشق⁽¹⁾.

سمى ابن قتيبة غيلان هذا بغيلان القبطي⁽²⁾، وبه نهي فصل زنادقة بنى أمية، لتنقل زمناً ومكاناً وخلافة إلى زنادقة بنى العباس في عصرهم الأول.

القسم الثالث

زنادقة العصر العباسى الأول

لم تتوقف مسيرة الزنادقة بسقوط دولة الأمويين، وانتصار العباسيين، بل قويت شوكتها، وتعددت ألوانها لغير سبب .

فقد استعاد الموالي حريتهم وحقوقهم بعد معركة الزاب⁽³⁾ الفاصلة، وصار الفرس يتقلدون المناصب الرفيعة في دولة بنى العباس، كما حلت محل الأستقرارطية العربية طبقة من الأجناس كافة، واحتلوا الموالي بالعرب، وانتقل مركز العالم الإسلامي من الشام إلى العراق⁽⁴⁾. وتبه الفرس إلى قوتهم بانتصارهم الساحق على «مروان بن محمد» آخر خلفاء بنى أمية، فأثر ذلك كثيراً في بعث الوعي العربي عندهم، وتهيئة الظروف لنشاط الحركات الدينية كالزرادشية، والمانوية، والمزدكية والخرمية، والسيسيية⁽⁵⁾.

وفي العراق نشط الزنادقة نشاطاً واسعاً، بعد قيام دولة العباسيين، وأصبحوا يشكلون حركة منظمة قوية واسعة، لأسباب عده، منها: طبيعة

(1) ابن بناته: سرح العيون. ص 157 - 158 .، وابن قتيبة: عيون الأخبار. 2 / 345.

(2) ابن قتيبة: المعارف. ص 625.

(3) حدثت بين الأمويين والخراسانيين عام 131هـ وانتصر فيها «أبو مسلم الخراساني على مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية».

Lammens: S.J. "Etudes sur le Siecle des omayyads" (Beyrouth, 1936) p. 488. (4)

(5) أكثر أفراد هذه الحركات، يظهرون الإسلام ويقطنون ديانات الفرس القديمة.

التركيبة البشرية في العراق، إذ كان إلى جانب العرب أجناس مختلفة من الناس، لكل جنس دينه وثقافته وحضارته، فاختلطت هذه الأجناس، وتباينت، وبدت ظاهرة الزندقة ضرورة حتمية لذلك⁽¹⁾. ومنها النهضة العلمية التي حركت العقول، وشحنت الذهن وأعطت حرية التفكير في الفلسفة والمنطق، فتاه أصحابها بين العقل المفكر والمحلل، وبين القلب المصدق وال المسلم، وساروا في مفاوز من الضياع والإلحاد⁽²⁾، يستلون سيف العبث الفكرى، والمجون الشكى، يرثون من وراء ذلك العبث بعقائد الناس وإبعادهم عن الصراط المستقيم⁽³⁾.

- ومنها الجو الاجتماعي الظاهر بألوان الترف، من قصور وأديار وخمارات، الذي أنتج زنادقة ظرف ومجون⁽⁴⁾.

- ومنها التشنج والمع갈ة في الهوى السياسي والمذهبى. إذ لا سبيل إلى إنكار ذلك وتأثيره في الزندقة، فمن جسم الله وأله الأئمة وأمن بحلول الأرواح وتناسخها، ورجعتها أيضاً، لا مجال لنفي زندقته الدينية والاجتماعية⁽⁵⁾.

ولكن أهم هذه الأسباب، سببان أساسيان أديا إلى نشأة الزندقة واستفحال خطرها، أولهما ديني، والثاني سياسى. أما السبب الأول فقد مال «جورج فيدا» إلى الاعتقاد بأن المانوية هي أصل الزندقة، ومصدرها الأول، وأن أنصارها آمنوا بها عن رغبة دينية مخلصة، واتخذوها عقيدة لهم، يحافظون عليها أشد الحفاظ⁽⁶⁾.

(1) اللبناني (إبراهيم عبد المجيد): الفلسفة والمجتمع: ط النهضة المصرية. القاهرة 1950 ص 71-72.

(2) المسعودي: مروج الذهب: مطبعة السعادة مصر 1958 / 4 . 314.

(3) بدوى: من تاريخ الإلحاد في الإسلام: ص 35 و 36.

(4) هدارة: اتجاهات الشعر العربي. ص 240.

(5) المصير نفسه. ص 238.

(6) عبد الرحمن بدوى: من تاريخ الإلحاد في الإسلام. ص 31 وما بعد.

ولكنه يبدو أن الزندقة الدينية الحقيقة لا تنتهي إلى المانوية وحدها، بل تعود إلى الملل الأعجمية المختلفة، كالمرقونية⁽¹⁾، والديسانية⁽²⁾، والمزدكية⁽³⁾، والمجوسية⁽⁴⁾، بشكل عام، حيث ذكر المسعودي، أن المهدى حarb المانوية وأنباء الديانات الفارسية الأخرى⁽⁵⁾.

والسبب الثاني المهم هو سياسى، فقد رأى بعض الموالى أن انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسين لم يتحقق لهم ما يبغون، من أن تكون الحكومة فارسية في حقيقتها وسلطتها، ولغتها وديها، إذ أن كلا الحكومتين - الأموية والعباسية - إسلامية عربية، فأخذوا يعملون لنشر معتقداتهم القديمة، ظاهراً إن أمكن، وباطناً إذا اشتد الأمر عليهم⁽⁶⁾. وقد أشار الجاحظ إلى أثر العصبية العرقية الفارسية في ظهور الزندقة وتفشيها⁽⁷⁾.

والزندقة بهذا المفهوم، استشرت في العراق، في العصر العباسى الأول، حيث العناصر الفارسية الكثيرة، والمعتقدات والمذاهب التي يجمعها مفهوم الزندقة.

فالعراق ملتقي العرب والعمجم - وما يمثلون من جنس ولغة ودين وحضارة - منذ ما قبل الإسلام وحتى يومنا هذا⁽⁸⁾، حيث كانت الحيرة مملكة عربية رائدة، وفي الوقت ذاته خاضعة لسلطان الفرس⁽⁹⁾، تتأثر

(1) الشهريستاني: الملل والنحل. 2/89.

(2) المصدر نفسه 2/88.

(3) المصدر نفسه 2/83.

(4) المصدر نفسه 2/73.

(5) المسعودي: مروج الذهب: 4/315. دار المعرفة.

(6) أحمد أمين: ضحى الإسلام 1/139. دار الكتاب العربي، بيروت.

(7) الجاحظ: الحيوان 7/220. مطبعة الحلي، مصر 1938.

(8) انظر البحث: القسم الأول.

(9) الأب جرجس داود. أديان العرب: مملكة الحيرة. ص 115 وما بعد. وياقوت: معجم البلدان 2/331.

سياسة ملوكها وشعبها ومعتقداتهم بما يكون عليه الحاكم السياسي⁽¹⁾.

ويأتي العصر العباسي، فتستبدل الحيرة بالكوفة وبالبصرة وببغداد، وتصبح هذه المدن بالعرب وتضج بالعجم وتظهر الزندقة بالكوفة مختلطة بأنواع المجنون والتهتك والإباحة، أما البصرة فتبرز فيها نزعة عدم المبالاة بالدين، استناداً إلى وجود عدد كبير من المسلمين العجم، الذين جاء إسلامهم مشوشًا نتيجة آراء دينية مختلفة، إما موروثة عن الأجداد أو حاصلة بالاختلاط والامتزاج العرقي⁽²⁾.

وعلى العموم، يمكننا القول إن العراق بحكم موقعه، وظروفه المختلفة، كان كالقرس الذي تخرج منه سهام الزندقة في الجاهلية وصدر الإسلام وعصر الدولتين الأموية والعباسية. يقول «طه حسين» مبيناً نوع زندقة القرن الثاني وأصلها وسببها: «إن وجدت ذكرأً للزندة ولللعبث والعابثين آخر أيام بنى أمية، فإنك واجد، أن هذه الزندقة وهذا العبث والمجنون إنما حمل كله من العراق إلى الشام بأمر الوليد بن يزيد، وغيره، من مجان بنى أمية. الزندقة إذن عراقية لأنها فارسية... وقد تجد شيئاً غير قليل من تأثير اليبنان وفلسفتهم في زندقة هؤلاء الزنادقة، وإباحة هؤلاء الشعراء... وزندقة القرن الثاني للهجرة ضرب من السخط على العرب وعاداتهم وأخلاقهم ومحافظتهم ودينهن بنوع خاص... ومن الكلف بحياة الفرس وعاداتهم ولذاتهن وحضارتهم وما ذاع فيهم من عقيدة دينية... والزندة الأدبية كانت في عصر بنى أمية ضعيفة متعددة متسرعة... فلما اجترأ خليفة من خلفاء بنى أمية على أن يجهر بالفجور قويت واستطاعت أن تظهر. ثم انتصر الفرس فانتصرت معهم»⁽³⁾.

فهذا النص يشير بوضوح إلى ألوان الزندقة، ومصدر تفجرها - إلا

(1) كما تأثر العارث الكندي بمعتقد قباد. فمزردك وتزندق. أنظر البحث ص 92.

(2) فون كريمر: الحضارة الإسلامية ومدى تأثيرها بالمؤثرات الأجنبية: ترجمة مصطفى طه بدر. نشر دار الفكر العربي. القاهرة 1947. ص 99.

(3) طه حسين: حديث الأربعاء. دار المعارف، مصر 1958 : 2 / 161-162-163.

أنتا نضم أقطاراً أخرى غير العراق⁽¹⁾، اختلط فيها العرب بالعجم - وربطها بحركة الشعوبية والفكر اليوناني، وجعلها أثراً من آثار المذاهب الفارسية المختلفة.

وما من شك في أن الارتياح في الدين مرحلة تظهر في كل حضارة إنسانية عند انتقالها من حالة فكرية إلى أخرى، أو عندما تلاقى الثقافات لشعوب متباعدة. فعندما دخلت الثقافات الأجنبية في الممالك العربية، وقد كانت تعتمد على النظر العقلي، التقت بالثقافة الإسلامية القائمة على الإيمان. ولما كان الانتقال من الموروث من العقائد والتقاليد إلى الحرية العقلية لا يتم إلا تدريجاً، كانت الخطوة الأولى في هذا السبيل هي خطوة الشك، فظهرت في العالم العربي تيارات فكرية مختلفة. نتيجة لهذا التلاقي الثقافي، وظهر بين العلماء والأدباء طائفة من الشكاك مثل بشار بن برد⁽²⁾. فالشك إن كان بالدين أو بالمجتمع وعاداته وتقاليده، ربما ينبع عن التقاء الثقافات والعلوم والمعارف، ويؤدي إلى الزندقة بأحد ألوانها⁽³⁾.

وما دامت ظاهرة الشك والإلحاد والظرف والمجنون، والتمسك بالإيمان الجديد أو العودة إلى إيمان الآباء والأجداد ظاهرة طبيعية في كل مجتمع يجتاز الظروف التي مرّ بها المجتمع العربي الإسلامي في قرونه الأولى فينبغي أن لا نعزّو الزندقة في جميع فروعها إلى الأعاجم، خصوصاً حين نجد من العرب بل من الهاشميين من اتهم بالزندة، أمثال عبد الله بن معاوية... بن أبي طالب، والحسين بن عبد الله... بن عبد المطلب⁽⁴⁾، وأدّم

(1) الشام واليمن في الجاهلية.

(2) المبيان (إبراهيم عبد المجيد): الفلسفة والمجتمع الإسلامي. مكتبة التهفة المصرية. القاهرة 1950، ص 71-72.

(3) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية. الطبعة الثالثة، مطبعة الهلال، القاهرة 1936 .51 / 2

(4) الأصفهاني: الأغاني 11/75. دار الكتب.

بن عبد العزيز الأموي⁽¹⁾، وابن داود بن علي ويعقوب بن الفضل وهما هاشميان، وقد وجد المهدي بنتاً ليعقوب هذا واسمها فاطمة حبلى من أبيها، وقد اقرت بالزنادقة فقتلت وقتل أبوها⁽²⁾.

أولاً: الزنادقة من غير العرب وغایياتهم:

إن أغلب الزنادقة، على اختلاف الدوافع التي ساقتهم إلى الزنادقة، وتبادر الغایيات التي رموا إليها، كانوا من غير العرب، وكان منهم موظفون كبار في الدولة العباسية. ويروي ابن النديم: أن البرامكة جميعهم إلا محمد ابن خالد بن برمك كانوا زنادقة، وكذلك الفضل بن سهل وأخوه الحسن، ومحمد بن عبيد الله كاتب المهدى اعترف بزنادقته فقتل⁽³⁾.

وكان هناك الشعراء الكثيرون⁽⁴⁾، أمثال الحمادين الثلاثة⁽⁵⁾، ومطیع بن إیاس⁽⁶⁾، وبشار بن برد⁽⁷⁾.

وكانت غایيات هؤلاء الزنادقة متشعبة ومتعددة. منها تفسیخ الدولة العربية الإسلامية. ومنها نسف الإسلام لأنه عاصمه الدولة وركيذتها. وإذا ما نجحوا فقد يحيون تراثهم الديني والثقافي السياسي. ولبلوغ أهدافهم فقد ساروا في شعب ثلاث :

أ - بعث الديانات الفارسية القديمة، عن طريق ترجمة كتبها وإشاعتها في المجتمع العربي، كما هو واضح في كتب ابن المقفع، الذي قال

(1) المصدر نفسه: 287 / 15.

(2) الطبرى: تاريخ 191 / 8.

(3) ابن النديم: الفهرست: ص 473. دار المعرفة.

(4) ستعرض لكل واحد بمفرده فيما بعد.

(5) ابن المعتر (عبد الله) طبقات الشعراء تحقيق عبد الستار أحمد فراج. طبع دار المعارف بمصر، ص 69. والأغاني 14 / 322. دار الكتب.

(6) المصدر نفسه، ص 96. والأغاني 13 / 279. دار الكتب.

(7) ابن المعتر: الطبقات، ص 21.

المهدي عنها: «ما وجدت كتاب زندقة قط إلا أصله ابن المتفق»⁽¹⁾.

ب - تشويه الدين الإسلامي، إذ أجادوا العربية وتفقهوا في الدين فأعلنوا الإسلام، وأبطنوا الكفر⁽²⁾. متسترين ببعض شعائر دينهم المانوي المشابهة لشعائر الإسلام كالصلوة والصوم⁽³⁾.

ج - إغراء الشباب في المجتمع الإسلامي بالفجور والتغافل وإدمان الخمر، وطلب اللهو واللذة والتغزل بالمذكر، واللواط بالغلمان، واستباحة المحرمات واتهاك الأعراض⁽⁴⁾.

أدرك خلفاء بنى العباس نيات الزنادقة، فتصدوا لهم، وجاهدوهم جهاداً صارماً، وشهروا السيف لمحاربتهم في عهد المنصور، ثم جد في طلبهم والبحث عنهم في الآفاق ابنه المهدي، وولى أمرهم «عمر الكلوازي»، فقطع رؤوس كثير منهم⁽⁵⁾. وتعقبهم ابنه الهادي أيضاً، وصرع جماعة منهم⁽⁶⁾، وكذلك فعل الرشيد⁽⁷⁾، وابنه المأمون من بعده⁽⁸⁾.

ولم يكتف العباسيون بشهر السيف في وجه الزنادقة، بل تراهم يأمرؤن أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب، للرد على الملحدين والجاحدين، وإقامة البراهين للمعاندين، وإزالة شبههم، وإيصال الحق للمشككين⁽⁹⁾.

فمن هم هؤلاء الزنادقة:

(1) المرتضى: الأمالي: 1/134.

(2) المصدر نفسه: 1/127.

(3) ابن النديم: الفهرست، ص 465.

(4) ابن المعتر: الطبقات، ص 69.

(5) البيعقي: تاريخ 2/400. دار صادر. والطبرى: تاريخ الأمم والملوك: 165/1. والمسعودى: مروج الذهب 4/315.

(6) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك 8/167.

(7) المصدر نفسه 8/266.

(8) المصدر نفسه 8/297.

(9) المسعودى: مروج الذهب: 4/315. أنظر ما فعله المهدي.

١ - أبي دلامة (161هـ / 778م):

هو زند بن الجون الأسيي بالولاء، شاعر مطبوع من أهل الظرف والدعابة، نشأ في الكوفة، واتصل بالخلفاء من بني العباس، اتهمه أبو الفرج بالزنادقة، وقال عنه: «كان فاسد الدين، رديء المذهب، مرتكباً للمحارم، مضيئاً للفروض، مجاهاً بذلك»^(١).

ولم يتهمه غير أبي فرج بالزنادقة صراحة^(٢)، واتهم بالمجون والخلاعة، والاستهانة بالدين، والتحلل من أركانه. وربما كانت زندقته زندقة اجتماعية اتخذها أصحابها وسيلة للتطرف، وحسن المناهة، والتحرر والانطلاق من قيود المجتمع^(٣).

إن كثيراً من تصرفات أبي دلامة تنطق بمثل هذه الزندقة الاجتماعية، إذ نراه وقد دعاه موسى بن داود العباسي للحج معه، ويدفع له عشرة آلاف درهم، فأخذها وهرب، وجعل ينفقها بالخلاعة والمجون وشرب الخمر، ولما التقاه موسى بطريقه إلى الحج، وكان سكراناً، أمر بتقييده وطرحه في محمل بين يديه، فاستعطفه بإطلاقه، مصرحاً أنه لا يرغب في حج طريقه خالية من العحانات، - وهو لا يصبر عن الخمر - وقد فسد حيث لا وسيلة إلى إصلاحه وهديه طريق الحق، يقول:

إني أعودُ بـداودِ وأغْظُمُهُ من أن أُكلَّفَ حَجَّاً يا ابن داود
خُبِّرْتُ أَنَّ طَرِيقَ الْحَجَّ مُغْطِشَةً من الشراب وما شُرْبَيْ بـتَضْرِيدِ
وَالله ما فيَّ مِنْ أَجْرٍ فـتَطْلِبَهُ ولا الشَّنَاءُ عَلَى دِينِي بـمُحَمَّدٍ
فـخَلَّى عَنِّي موسى لـيَعُودَ إِلَى قـصْفِهِ وـمَجْوِنِهِ. وـتَرَى أبا دلامة لا يـتَورَعُ

(١) الأصفهاني: الأغاني 9/120. دار الفكر عن بولاق.

(٢) ابن قيبة: الشعر والشعراء: ص 660. وابن المعتر: طبقات الشعراء: ص 54.

(٣) هدارة: اتجاهات الشعر العربي، ص 244.

(٤) الأصفهاني: الأغاني: 9/126.

عن الكتابة إلى الخليفة أبي جعفر المنصور الذي أمره بلزم الجمعة في مسجد قصره، بعد أن بلغه أنه معتكف على الخمر، ولا يحضر صلاة في مسجد - متوسطاً إلى المهدى أن يوصل أمنيته إلى أبيه، مردداً أنه لا يريد الصلاة ليغفر الله له ذنبه، بل يريد أن يبقى منغمساً في لذاته من مجون وخمر، ولا يهمه أن يحمل آثام البشر جميعاً :

بمسجده والقصر ما لي وللقصراً
أعلُّ فيه بالسماع وبالخمر
يُحظِّ بها عنِّي المثاقيلَ من وزري
ولم ينشرخ يوماً لغشيانها صدري
ولا البرُّ والإحسانُ والخيرُ من أمري
لو أنْ ذنوبَ العالمينَ على ظهري⁽¹⁾

كما تراه يضرع إلى «ريطة» زوجة ابن المهدى أن تشفع له عند عمها ليعفيه من الصلاة في شهر رمضان، هذا الشهر الذي يستقله، ويمقت ليلة القدر مقتاً شديداً. بقوله :

كنت عباداً لأبيها
وأوصى بي إليها
مشيةً ما أشتاهيها
ركاني أبتغيها
في فيافي وجوها
لضباب اشتويها
في علاب احتسيها
ولا تسمعنيها
نها وأجري لك فيها⁽²⁾

ألم ترِي أن الخليفة لرئي
فقد صدَّني عن مسجد استلذَه
يكملُّوني من بعد ما شبَّتْ توبَة
لقد كان في قومي مساجدَ جمَّةٌ
ووالله ما لي نِيَّةٌ في صلاتِه
وما ضرَّه والله يغفرُ ذنبَه

أبلغَتْ ظَهَرَةَ آنِي
فمضى يرحمه اللَّهُ
 جاء شهرُ الصوم يمشي
قائداً لي لليلةِ القدر
ولقد عشتْ زماناً
قاعدَاً أوقد ناراً
وصبَّوح وغبَّوق
ما أبالي لليلةِ القدر
فاطلبي لي فرجاً و

(1) المصدر نفسه: 9/127. وابن المعتر: الطبقات. ص.61. وابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبي بكر): وفيات الأعيان وأبناء آباء الزمان: دار صادر، بيروت: 2/232.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 9/128.

وهكذا نرى أبا دلامة يعيش للمجون، متحللاً من فرائض الدين، عابثاً، أوليس هو القائل في ليلة القدر :

ما ليلة القدر من همي فأطلبه إني أخاف المنياها قبل عشرين
لا بارك الله في خير أو ملئه في ليلة بعد ما قمنا ثلاثين⁽¹⁾

أليس هو المتمبني أن يحل الصوم بأرض غير أرضه؟ وأن لا يرى المسجد أبداً، حيث يخونه النظر إليه، ربما كان تهكمـاً منه على بيوت العبادة، يقول:

أضحي الصيام منيحاً وسط عرصتنا
إن صحتْ أو جعنى بطنى وأقلقنى
أضـرـنـي بـصـرـ قد خانـهـ العـمـشـ⁽²⁾
ليـتـ الصـيـامـ بـأـرـضـ دونـهـ حـرـشـ
بـيـنـ الـجـوـانـجـ مـسـ الجـوـعـ والـعـطـشـ
وـإـنـ خـرـجـتـ بـلـيلـ نحوـ مـسـجـدـهـمـ
فـزـنـدـقـةـ أـبـيـ دـلـامـةـ،ـ وـحـالـتـهـ هـذـهـ،ـ إـنـماـ تـعـدـ زـنـدـقـةـ اـجـتـمـاعـيـةـ.

2 - الحفاظون الثلاثة:

أ - حماد الرواية (95 - 155 هـ / 714 - 772 م): هو حماد بن سابور بن المبارك، أبو القاسم، أول من لقب بالرواية، لقوله للوليد بن يزيد الأموي، عندما سأله ما مقدار ما تروي من الشعر؟ إني أنشدك على كل حرف من حروف المعجم منه قصيدة كبيرة سوى المقطعات، من شعر الجاهلية دون الإسلام⁽³⁾. وهو من مخضرمي الدولتين - الأموية والعباسية -، تقدم عند بنى أمية، وجفاه وأهمله العباسيون.

كان مشهوراً بالكذب في الرواية وصناعة الشعر، وإضافته إلى شعراء متقدمين، قال فيه الرواية: قد أفسد حماد الشعر، فاختلط لذلك الصحيح بالسقيم، وهذا الفعل منه، وإن لم يكن دالاً على الإلحاد، فهو فسق

(1) الأصفهاني: الأغاني: 9/128.

(2) المصدر نفسه 9/130 - 131.

(3) الزركلي: الأعلام: 2/271. والأصفهاني: الأغاني: 5/164 - 165.

وتهاون بالكذب والسرقة.

ومن فسقه وخلالعنه، أنه ترك سنة الله⁽¹⁾. وكان يلوط بالغلمان⁽²⁾. ويجتمع مع رهط من أمثاله على الشرب وقول الشعر، يهجو بعضهم ببعضًا، وكل منهم متهم في دينه⁽³⁾. ومن هذا الهجاء قول «أبي الغول» فيه، وقد اتهمه في معرفة دينه وإقامة شعائره وجريه وراء الخمر يعبّ منها حتى تهدل شفاته ويصفر وجهه:

نعم الفتى، لو كان يعرف ربّه ويقيم وقت صلاتِه حماد
هدلت مشافرَة الدنانُ فأنفُه مثلُ القدوم يستنها الحدادُ
وابيضَ من شرب المدامَة وجُهُه فبياضه يوم الحساب سوادُ⁽⁴⁾

وجملة القول: إن زندقة حماد الرواية كانت في أكثرها زندقة اجتماعية وفي أقلها زندقة دينية.

ب - حماد عجرد (161هـ / 778م): أحد الحماديين الثلاثة الذين عاشوا بالكوفة «يتنادون ويتعاشرون، كأنهم نفس واحدة، ويرمون جميعاً بالزندقة»⁽⁵⁾.

شاعر من الموالي، ومن مخصوصي الدولتين - الأموية والعباسية - نادم الوليد بن يزيد الزنديق، لكنه لم يشتهر إلا زمن العباسيين، حيث كانت بيته وبين بشار بن برد أهاج فاحشة⁽⁶⁾. شهرته في الضلال كشهرة نديه وفوق

(1) روي عن (الرسول) قوله: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل... ولا يفضي الرجل إلى الرجل في قرب واحد...» صبحي الصالح: منهاج الواردين: ص 895. حديث رقم 1625.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 5/170.

(3) المرتضى: الأمالي: 1/131.

(4) الأصفهاني: الأغاني: 5/171.

(5) ابن قتيبة: الشعر والشعراء: 2/663.

(6) الزركلي: الأعلام: 2/272.

ذلك رمي بالثنية⁽¹⁾. وبالمانوية الواضحة⁽²⁾، خصوصاً إذا ما لوحظ أن شعره وقصائده كان يتغنى بها وتستعمل في صلوات الزنادقة⁽³⁾، ومن المحتمل أن يكود حماد عجرد قد تزندق بعد اطلاعه على المذاهب المجوسية، اطلاعاً واسعاً مما أتاح له أن يضع المؤلفات فيها، مروجاً لتلك المذاهب⁽⁴⁾، ولكن الرواة لم يحددوا نحلة هذا الزنديق فربما كان ثنوياً لقول بشار فيه:

يَا ابْنَ نَهْيَا رَأْسُ عَلَيْيِ ثَقِيلٌ وَاحْتِمَالُ الرَّأْسِينَ خَطْبُ جَلِيلٍ
فَادْعُ غَيْرِي إِلَى عِبَادَةِ رَبِّيْنَ نِفَانِي بِوَاحِدٍ مَشْغُولٌ⁽⁵⁾
أَوْ رِبِّيْمَا كَانَ مَزْدِكِيَا، لِإِيمَانِهِ بِيَابِحَةِ النِّسَاءِ، مَحْلًا امْرَأَتِهِ لِسَوَاهِ، وَامْرَأَةِ
غَيْرِهِ لِنَفْسِهِ. فِي شَهَادَةِ بَشَارٍ فِي هِينِ مَاتَ وَتَعْزِيَتَهُ لِحَرِيبٍ صَدِيقِهِ بِقَوْلِهِ :
بَكَى حُرَيْبٌ فَوْقَرَةً بِتَعْزِيَةِ مَاتِ ابْنِ نَهْبَيِ وَقَدْ كَانَا شَرِيكِيْنَ
تَفَاوْضَا هِينَ شَابَا فِي نِسَانِهِمَا وَحَلَّا كُلَّ شَيْءٍ بَيْنَ رِجْلِيْنَ⁽⁶⁾
وَلَعِلَّهُ كَانَ مَانِوِيَا دِيَصَانِيَا بِحَسْبِ شَهَادَةِ «مَسَاوِرُ الْوَرَاقِ» فِيَهُ :

لَوْ أَنَّ مَانِي وَدِيَصَانَا وَعُصْبَتَهُمْ جَاءُوا إِلَيْكَ لَمَا قَلَنَاكَ زَنْدِيَقُ
أَنْتَ الْعِبَادُ وَالْتَّوْحِيدُ مُذْخَلُقَا وَذَا التَّزْنِدُقُ نِيرَنْجُ مَخَارِقُ⁽⁷⁾
إِنْ أَهَاجِي خَصُومِهِ فِيهِ تَدْلِيْلٌ عَلَى ضَعْفِ عَقِيْدَتِهِ، وَفَسَادِ دِيْنِهِ، فَهُمْ
يَنْعَتُونَهُ بِأَرْتِكَابِ الْمُنْكَرَاتِ وَالْمُعَاصِيِّ، وَتَرْكِ الصَّلَاةِ، وَالشَّذُوذِ الْجَنْسِيِّ،
قَالَ بَشَارٌ فِيَهُ :

(1) المرتضى: الأمالى: 1/133.

(2) بدوي: من تاريخ الإلحاد في الإسلام. ص 38. قول فيدا.

(3) الأصفهاني: الأغاني 13/74.

(4) المسعودي: مروج الذهب: 4/315.

(5) المرتضى: الأمالى: 1/133. والأغاني 13/74 وقد روى نهبي بدلاً من نهيا والاثنين بدلاً من رين.

(6) المصدر نفسه.

(7) المرتضى: الأمالى: 1/134.

ما لمت حماداً على فسقه يلومه الجاهلُ والمائُ
ما بات إلا فوقه فاسقٌ (...) أو تحته فاسقٌ⁽¹⁾
وقال فيه أيضاً، راسلاً أبياته التالية للربيع بن يونس الذي كلف حماداً
بتأديب ولده ميناً شذوذة:

يَا أَبَا الْفَضْلِ لَا تَنْهِ
إِنْ حَمَادَ عَجَرْدٌ
بَيْنَ فَخْدَنِيْهِ خَرْبَةً
إِنْ خَلَا الْبَيْتُ سَاعَةً
مَجْمَعَ الْمِيمَ بِالْقَلْمَ⁽²⁾

هذا كلام خصمه فيه، فما شهادته هو في نفسه؟ لنراه يكتب لصديقه
يحيى بن زياد الذي هجر المجنون والخلاعة وأظهر تورعاً ونزوعاً عما كان
عليه :

هَلْ تَذَكَّرَنْ دَلْجِسِي إِلَيْ
أَيَامَ تُعْطِيْنِي وَتَأْ
فْلَطَالْمَا زَكِيَّتِنِي
وَأَنَا وَأَنْتَ عَلَى ارْتَكَا⁽³⁾
فَهُوَ يَشْرِبُ مَعَ صَدِيقِهِ وَيَرْتَكِبُ الْمَعَاصِي وَالْمَوْبِقَاتِ، مَجَاهِراً بِتَفْوِيقِ
شِعْرِهِ عَلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ⁽⁴⁾، هَاجِيًّا خصْمَهُ بِأَفْحَشِ الْقَوْلِ، وَبِخَاصَّةً عِنْدَ
هِجَاءِ بَشَارِ :

وَاللَّهِ مَا الْخِنْزِيرُ فِي النَّئْنِ أَوْ خَمْسِيْهِ
وَوَجْهُهُ أَحْسَنُ مِنْ وَجْهِهِ
وَعُودُهُ الْكَرْمُ مِنْ عُودِهِ⁽⁵⁾

(1) الأصفهاني: الأغاني: 13/77 ومكان النقاط (...) كلمة يمحها الذوق.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه: 13/79.

(4) المرتضى: الأمالي: 1/134.

(5) المصدر نفسه.

فأقوال خصومه فيه وأقواله هو لا تدلان إلا على زندقة ر بما أسميناها زندقة «دينية اجتماعية فكرية». حيث أن حماد عجرد لم يزل معنًا في إيتذاله وضلالته حتى قتله محمد بن سليمان العباسي على الزندقة⁽¹⁾.

ج - **حماد بن الزبرقان**: هو ثالث الحمادين المشهورين بالزندة، وربما دان هذا بدين الخرمي، وهم أهل التناصح⁽²⁾، وكان متهكماً فاجراً ضالاً، نادم سمّيَّة على الشراب، وتناشد الشعر، ورمي معهما بالزندة⁽³⁾، ولعل زندقته كانت دينية - اجتماعية.

3 - مطبيع بن إياس: (783هـ/166م):

شاعر من مخضري الدولةتين أيضاً، كان ظريفاً، ماجناً، متهماً في دينه، مدح ونادم الوليد بن يزيد الزنديق في العصر الأموي، ولازم جعفر ابن المنصور زمن العباسيين. صادق حماد عجرد وحماد الرواية المتهمين بالزندة⁽⁴⁾.

نسب إليه الاتهام بالزندة ضمن مجموعة كبيرة من شعراء عصره، حيث كان وإياهم يتندمون كأنهم نفس واحدة، يقول الأصفهاني في ذلك: «كان مطبيع بن إياس، ويحيى بن زياد الحارثي، وابن المقفع، ووالبة بن الحباب، يتندمون ولا يفترقون، وكانوا جميعاً يرمون بالزندة»⁽⁵⁾.

والشيء الذي يثبت زندقته، ما رواه أحمد بن إبراهيم الكاتب عن أبيه أنه قال: «رأيت بنتاً لمطبيع بن إياس أتى بها الرشيد مع جماعة من

(1) ابن خلkan: وفيات الأعيان: 213 / 2.

(2) المرتضى: الأمالي: 132 / 1. وانظر التناصحية في الشهرياني: الملل والنحل 2 / 91.

(3) ابن قيبة: الشعر والشعراء: 663 / 2. وابن المعتز: الطبقات: ص 69.

(4) الزركلي: الأعلام. 7 / 255.

(5) الأصفهاني: الأغاني: 80 و 81 / 12. والشابشي: الديارات: مطبعة المعارف بغداد. ط. ثانية.

الزنادقة، فأقرت بالزنادقة، واعترفت بقراءة كتابها، وقالت: هذا دين علمي أبي، وتبت، فقبل الرشيد توبتها وردها إلى أهلها^(١).

فإذا ما صحت هذه الرواية تكون زندقة مطیع زندقة دینیة، لا ریب فيها، فهو يقرأ كتب الزندقة، ويلزم ابنته أن تقرأها، ولكننا لم نتوصل إلى لون هذه الزندقة، وإن كنا نجزم بأنها نوع من الأنواع التي كان يشملها معنى الزندقة كالمانوية أو المزدكية أو ما أشبه.

وإذا كنا لم نستطع أن نعثر على شعر له، فيه ما يكشف النقاب عن ملته التي كان يبطئها، فنحن لا ننفي عنه زندقة أحداها، مع معرفتنا بأن مثل هذه الأشعار - إن منه أو من غيره - التي تروج لعقيدة لا تبيحها الدولة، تكافح وتصادر ويزور عنها الرواية.

ومع هذا فإننا وقعا على بعض الشواهد من أشعاره تؤكد رأينا في زندقته التي تسلخه من الإسلام الذي ازدراء، واستغل عنه بالارتماء في أحضان اللذة؛ فقد كان يمجن، ويفحش في الصلاة مع يحيى بن زياد والكثير من أصحابه وهم سكارى. روى صاحب الأغاني: أنهم قاموا للصلاه، فأذن مطیع وقال للمعنى: «تقدمي فصلي بنا» فتقدمت، و«كانت بلا سراويل وعليها غلالة رقيقة. فلما سجدت انكشف متاعها، فوثب إليه مطیع فقبله، ثم قال»:

ولما بدا هنّها جائماً كراس حليق ولم تعتمد سجّدت له ثم قبّلته كما يفعل العابد المجتهد^(٢)

ومطیع لا يبالی بالدين، ولا بفريشه، مؤثراً الانهماك في شرب الخمر - هو ورفيقه يحيى بن زياد، بدیر زراره قرب الكوفة - على أداء

(١) الأصفهاني: الأغاني: 12/89 والمرتضى: الأمالي: 1/142. 1966. ص 250.

(٢) الأصفهاني: الأغاني: 12/105. والشابشي: الديارات ص 252 - 253.

فريضة الحج، إذ يقول :

وكان الحجُّ من خير التجارة
فمال بنا الطريقُ إلى زرارة
فأب الناسُ قد غنموا وحجوا
وأبنا مُوقرينَ من الخسارة⁽¹⁾

ومطیع مشهور بجريه وراء الغلمان، يلوط بهم، ويلوطون به في أن،
مدعياً أنها لذة مضاعفة⁽²⁾، يدعو صراحة إلى اقتراف الفواحش والموبقات،
حيث يقول:

نعم لنا نبیٌّ
وخيرنا كثیر
وكلنا من طرب
ولهمونا الذي^ي
إن تشتته فساداً
أو تشتهي غلاماً
ما إن به الشّواء عنة ولا يعاد⁽³⁾

وتراه يبحث الناس في أبيات أخرى، داعياً إلى الانغماس في
الانحلال والفحور، ناصحاً بتعاطي الخمرة، وسماع القيان، وتحقيق أكبر
متعة في هذه الحياة القصيرة:

اخْلِعْ عذارك في الْهَوَى
وَشَرِبْ معيْنَةَ الدَّنَان
وَصَلِّ الْقِيَانَ مَجَاهِراً
لَا يُلْهِيَنَّكَ غَيْرُ ما تهوى فإنَّ الْعُمَرَ فَانِ⁽⁴⁾

وكان زندقته بهذه الأبيات زندقة فكرية، التي تتطلب تحرر الإرادة

(1) الأغاني: 12/91. والديارات. ص 248.

(2) الأغاني: 12/107. والديارات. 254.

(3) الأغاني: 12/90. والديارات 253 وما بعد. في خبره مع أبي الإصبع.

(4) الديارات: ص 256. وجرونيباوم (جوستاف فون) شعراء عباسيون (مطیع بن إیاس سلم الخاسر، أبو الشمقن) دار مكتبة الحياة، بيروت 1959. ص 76.

الإنسانية وتقود الفرد أن يفعل ما يهوى ويلذ، كما في قوله: (لا يلهينك غير ما تهوى). ويمكننا أن نلمح بعض عناصر هذه الزندقة الفكرية لمطيع في قوله :

قَبْلِيْنِي سعادُ بِاللهِ فُبْلِهِ وَاسأْلِيْنِي لَهَا فَدَيْتُكَ نَخْلَةٌ فَوَرَبُّ السَّمَاءِ لَوْ قَلْتِ لِي صَلٌّ لَوْجَهِي جَعْلُتُكَ الدَّهْرَ قِبْلَةٌ⁽¹⁾
فتراه متحرراً كثيراً حتى الإفحاش والمرroc، لا يخاف لومة لانم، ولو كان هذا اللام أهله وذويه⁽²⁾، وأعز أصدقائه، فهو يقول لعمر بن سعيد الذي عاتبه في أمر قينة، فضح أهله وعابهم وغيرهم بشأنها:

قد لامني في حبيبتي عمر
واللوم في غير كنهه ضجر
قال: أفيق قلت: لا، فقال بلى
قد شاع في الناس عنكما الخبر
قلت: قد شاع فاعتذاري مما
ليس لي فيه عندهم عذر
أعشق وحدى فبيؤخدون به كالترك تغزو فيقتل الخزر⁽³⁾

فهذا الذي كانت أحب الأشياء إلى قلبه «صهباء صافية تمزجها غانية
بماء غادية»⁽⁴⁾، والذي يبادر لشتم الملائكة⁽⁵⁾، والذي قال عنه المهدى:
«خيث الدين، فاسق، مستحل للمحارم»⁽⁶⁾، وقال عنه جرونباوم: «لا يبالي
بالدين وسلوكه منحرف»⁽⁷⁾، والذي يعق أباه ويبغضه وبهجوه⁽⁸⁾ ولا يقول:
لا إله إلا الله عندما تحضره الوفاة، باللحاح من أهله، بل ينشد:

لَهُفْ نَفْسِي عَلَى الزَّمَانِ وَفِي أَيْ زَمَانٍ دَهَشْنِي الْأَزْمَانُ⁽⁹⁾

(1) الأغاني: 13/85. دار الكتب.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 12/82.

(3) المصدر السابق: 12/84.

(4) المصدر نفسه 12/94.

(5) المصدر نفسه 12/100.

(6) المصدر السابق.

(7) شعراء عباسيون: ص 18.

(8) الأغاني: 12/103.

(9) أمالي المرتضى: 1/142.

والذى يستبدل صلاة ليلة الأضحى بانشاده:

قد شربنا ليلة الأضحى وساقينا يزيد⁽¹⁾
ماذا يكون؟

لا ريب في أنه زنديق في دينه ومجتمعه وفكره و سياساته أيضا وهو يقول:

أمسيت جمًّا بلا بل الصذر دُهْرًا أزْجِيَّهُ إِلَى دَفَرِ
إن فُهِتُ طُلَّ دمي وإن كُتِمَتْ وَقَدَتْ عَلَيَّ تَوْقِدَ الْجَمَرِ
مَا جَنَاهُ عَلَى أَبِي حَسَنٍ عُمَرٌ وَصَاحِبُهُ أَبُو بَكْرٍ⁽²⁾
ولولا منافقته لأبي جعفر المنصور، يوم بوعي ابنه محمد ولباً للعهد،
وترويجه لحديث أنه المهدى المنتظر⁽³⁾، لقتل على الزندقة، كأمثاله من
أعلامها.

4 - والبة بن الخطاب: (470هـ / 786م)

شاعر غزل، ظريف، ماجن، وهو أستاذ أبي نواس، رآه غلاماً يبرئ العود، فاستصحبه معه⁽⁴⁾، حدث عنه «أبو سلوب الشاعر» قال: «كان والبة صديقي، وكان ماجناً طبعاً خفيف الروح خبيث الدين»⁽⁵⁾، عده الجاحظ⁽⁶⁾، من الزنادقة واتهمه أبو الفرج في دينه مع آخرين كثيرين⁽⁷⁾. جعله الخطيب البغدادي من المجان الخلقاء⁽⁸⁾، ووصف ابن المعتر بطالته

(1) الأغاني: 89/12.

(2) المصدر السابق 88/12. وشعراء عباسيون، ص 49.

(3) الأغاني: 101/12.

(4) الأصفهاني: الأغاني: 150/16 والزرکلي: الأعلام: 19/8.

(5) الأصفهاني: الأغاني: 150/16.

(6) الجاحظ: الحيوان. تحقيق عبد السلام هارون. طبع مصطفى البابي الحلبي بمصر 1938. 4/447.

(7) الأصفهاني: الأغاني: 16/148 - 149.

(8) الخطيب البغدادي (الحافظ أبو بكر محمد بن علي) تاريخ بغداد. مطبعة السعادة القاهرة 1931: 13/518.

وإياحته، ورأى أن مسرته في مجالس لهوه وخرمه، فهو متكسر متأنث،
خليل متختن⁽¹⁾، وذلك لقوله:

قد قابلتنا الكؤوسُ
حتى إذا ما انتشينا
رأيت أعيجَبَ شيءٍ
هذا يُة بِلُ هذا
ودايرَثنا النحوسُ
وهزَّنا إيليس
منا ونحن جلوسُ
وذاك هذا يبسُ⁽²⁾

وتراء، في شعره، متھتكاً داعراً، ومتخرماً عاهراً، ولواطياً فاجراً، إذ

يقول:

قلت لساقينا على خلوةٍ
أدنٌ كذا رأسك من رأسي
وادنٌ فضع صدرك لي ساعةٍ
إنني أمرؤ أنكخُ جلاسي⁽³⁾

فإذا ما كانت هذه حالة والبة، وإذا صح ما روی عنه ونقل، فإن زندقته زندقة اجتماعية في أكثرها، فهو يشرب ويطرب، ويصخب ويعريد، ويبادر الغلمان المرد. وربما لاح في قليل من شعره العبث الفكري والشك الديني، يقول:

شربت وفاتك مثلٍ جموعٍ
يعطيني الرُّجاجة ازيحئي
أقول له على طربِ: الظني
فما خيرُ الشرابِ بغيرِ فشق
جعلت الحجَّ في غُمَى وبنا
فقـل للخمسِ آخرُ مُلتقاتنا
بعـمَى بالكؤوس وبالبواطي
رخيمُ الدلَّ بورك من مـعـاطـي
ولـو بـمـؤـاجـر عـلـيـج نـبـاطـي
يـتابـعـ بالـرـنـاءـ وـبـالـلـوـاطـ
وـفـي قـظـرـيـلـ أـبـداـ رـبـاطـي
إـذـاـ ماـ كـانـ ذـاكـ عـلـىـ الصـرـاطـ⁽⁴⁾

(1) ابن المعتر: طبقات الشعراء: ص 88.

(2) المصدر السابق: والأغاني: 16 / 151.

(3) طبقات ابن المعتر: ص 89 والأغاني 16 / 148.

(4) الأغاني: 16 / 151 وغمى وبنا وقطربيل: أسماء أمكنة.

5 - يحيى بن زياد الحارثي: (160هـ / 776م)

شاعر ماجن أيضاً، من أهل الكوفة، رمي بالزندة مع زنادقة عصره، الذين كانوا يتندمون، ويجتمعون على الشراب، ويهجو بعضهم بعضاً⁽¹⁾، ولكننا لم نجد له من الشعر ما يثبت أو ينفي هذه التهمة، ولعله كان كافراً، مجرد فتى عابث ماجن يجاهر بحربيته الفردية، وقدرته على ارتکاب الفواحش برغم قيود وتقالييد المجتمع الذي كان فيه، علمًا أنه قريب لأبي العباس السفاح⁽²⁾، ولعل خفة روحه هي التي جعلت الناس يرمونه بالزندة، يقول الشريف المرتضى عنه: «كان يحيى يعرف بالزنديق، وكانوا إذا وصفوا إنساناً بالظرف قالوا: هو أظرف من الزنديق - يعنون يحيى - لأنَّه كان ظريفاً»⁽³⁾.

ولكنه فيما يبدو، غير طريقة حياته، فنزع عن المجنون وأظهر تورعاً، وهجر حماداً وأشباهه لتهتكهم وفجورهم، فلم يرق ذلك لحماد الذي كتب إليه:

هَلْ تَذَكَّرُنِ دَلْجِي إِلَيْيَكَ عَلَى الْمُضْمَرَةِ الْقَلَاصِ
أَيَّامَ تَعْطِيْنِي وَتَأْخُذُ مِنْ أَبْارِيقِ الرَّصَاصِ
وَأَنَا وَأَنْتَ عَلَى ارْتِكَابِ الْمُوبِقاتِ مِنْ الْحَرَاسِ⁽⁴⁾
فلم يسكت يحيى على معايبة حماد له، وهجائه، بل نسب حماداً إلى الزندة ورماه بالخروج عن الإسلام، فقال حماد، يعرض بإيمان يحيى ويشكك بما يضمراه في صدره في صدره من الإيمان:

لَا مُؤْمِنٌ يُعْرَفُ إِيمَانُهُ وَلَيْسَ يَحْيَى بِالْفَتَنِ الْكَافِرِ
مُنَافِقٌ ظَاهِرُهُ نَاسِكٌ مُخَالِفُ الْبَاطِنِ لِلظَّاهِرِ⁽⁵⁾

وربما كان حماد على حق فيما قاله عن نفاق يحيى في انه يظهر غير

(1) المرتضى: الأمالى: 1/131.

(2) ابن خاله.

(3) المصدر السابق 1/143.

(4) الأصفهانى: الأغانى: 13/79.

(5) المصدر نفسه. وانظر الأمالى 1/143.

ما يبطن لأن من يرفض شهادة: لا إله إلا الله، ونفسه تخرج من جسده
يعتبر مارقاً عن الإسلام⁽¹⁾.

ولكن الغالب على زندقة يحيى هو الظرف والتحلل من القيم
الاجتماعية.

٦ - أبان بن عبد الحميد اللاحقي: (٢٠٠١٥ هـ / ٨١٥ م)

شاعر بصري، من الموالي، اتصل بالبرامكة، فأكثر من مدحهم،
ونظم لهم «كليلة ودمنة» شعراً، وكتباً أعممية أخرى، منها كتاب مزدك⁽²⁾.
سماه الجاحظ زنديقاً، دون أن يبين لون زندقته⁽³⁾، وأشار صاحبه
المعدل بن غيلان إلى لون زندقته فنعته بالمانوية، حيث يهجوه ويقول:
رأيت أباناً يوم فطير مصلياً فقسمَ فكري واستفزني الطرب
وكيف يصلّي مظلِّم القلب دينه على دين مان إن ذاك من العجب⁽⁴⁾
ونسبه أبو نواس إلى المانوية أيضاً، وأكثر من ذلك، فقد أظهره
بهجائه له - مادياً لا يؤمن بغير ما يرى، ورافضاً للأنبياء ورسالتهم، كافراً
هازناً بكتاب الله، قال أبو نواس فيه:

جالست يوماً أبانا
حتى إذا ما صلاة الأ
قال كيف شهدتم
لا أشهدُ الدهرَ حتى
فقلتُ سبحانَ ربِّي
فقلتُ عيسى رسولُ

لا درَّ درَ أبانا
ولدى دَنَى ث لَوَانِ
بذا بغير رَيَانِ؟
تعايَنَ العَيْنَانِ
فقال سُبحَانَ ماني
فقالَ مَنْ شَيْطَانِ



(1) المصدر نفسه.

(2) الزركلي: الأعلام ١/٢٧.

(3) الجاحظ: الحيوان ٤/٤٤٧. طبعة البابي مصر ١٩٣٨.

(4) الأصفهاني: الأغاني ٢٠/٧٤.

وَقَمْتُ أَسْحَبْ ذِيلِي عَنْ هَازِلِ بِالْقَرآنِ
عَنْ كَافِرِ يَتَمَرَّى بِالْكَفَرِ بِالرَّحْمَنِ⁽¹⁾
لَكِنْ «الصَّوْلِي» يَرَاهُ حَسْنَ السِّيرَةِ، حَافِظًا لِلْقُرْآنِ، عَالِمًا بِالْفَقْهِ⁽²⁾،
وَهَكُذَا رَأَاهُ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ⁽³⁾.

وَتَجَاهَ هَذَا الاضطِرَابُ فِي أَخْبَارِهِ، نَتَبَعُ سِيرَتَهُ وَأَشْعَارَهُ لِنَرِى مَدِى
صَحَّةِ الْأَقْوَالِ فِيهِ، وَإِلَى أَيِّ نَوْعٍ زَنْدَقَى اَنْتَمُ.

يَبْدُو أَنَّ أَبْيَانَ بْنَ عَبْدِ الْحَمِيدِ، كَانَ عَالِمًا مَنْطَقِيًّا⁽⁴⁾، فَرِبِّيْما اتَّهُمْ
بِالْزَنْدَقَةِ لِمَا دَاعَ عَنْ مَعْرِفَتِهِ بِعِلْمِ الْكَلَامِ وَالْمَنْطَقِ، كَفِيرِهِ مِنَ الشَّعَرَاءِ الَّذِينَ
اتَّهُمُوا، لِنَظَرِهِمُ الْفَلَسْفِيَّةُ، وَجَدَلُهُمُ الْمَنْطَقِيُّ، وَعَبِيْثُمُ الْفَكَرِيُّ، وَشَكَمُهُمُ
الْدِينِيُّ، حَيْثُ عَمِلَ الْقَصِيْدَةُ الَّتِي ذَكَرَ فِيهَا مَبْدَأُ الْخُلُقِ وَأَمْرُ الدِّينِ وَشَيْئًا مِنَ
الْمَنْطَقِ، وَسَمَاهَا ذَاتُ الْحَلْلِ⁽⁵⁾.

وَرِبِّيْما اتَّهُمْ بِالْزَنْدَقَةِ أَيْضًا، لِأَنَّهُ أَجَادَ الْفَارَسِيَّةَ، وَنَقَلَ آثارَهَا شَعْرًا
كَمَا بَيْنَا أَعْلَاهُ، وَلَازَمَ الْبِرَامِكَةَ فَكَرِمُوهُ كَثِيرًا، حَيْثُ أَنَّ مَادَحِيهِمْ مِنَ
الْشَّعَرَاءِ، لَمْ يَحْصُلُوا عَلَى أَعْطِيَاتِهِمْ إِلَّا مِنْ خَلَالِهِ، وَبِوَاسِطَتِهِ يَفْرَقُ الْمَالُ
عَلَى الشَّعَرَاءِ، وَمِنْ بَيْنِهِمْ «أَبُو نَوَّاسُ»⁽⁶⁾، وَرِبِّيْما لَاحَظَ الْجَاحِظُ هَذَا
الْتَّعَصُّبُ لِتَرَاثِ الْفَرْسِ⁽⁷⁾، كَمَا أَدْرَكَ «فِيدَا» هَذَا الاتِّجَاهُ الْعَرَقِيُّ، فَقَرَرَ أَنَّهُ
أَبْرَزَ أَنْوَاعَ زَنْدَقَتِهِ، يَقُولُ:

«كَانَ يَعْرِفُ الْفَارَسِيَّةَ، وَيَتَرَجَّمُ عَنْهَا، وَكَانَ عَلَى اطْلَاعٍ وَسِعَةٍ عَلَمٍ

(1) المصادر السابق: 20/73. وانظر: أبو نواس: الديوان ص.543. دار الكتاب العربي.

(2) الصولي (أبو بكر، محمد بن يحيى) الأوراق، قسم أخبار الشعراء. مطبعة الصاوي القاهرة 1934. ص.2.

(3) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد: 45/7.

(4) ابن المعتر: طبقات الشعراء. ص.241.

(5) الأغاني: 2/73. والصولي: الأوراق، ص.1. وتاريخ بغداد: 7/44.

(6) الأصفهاني: الأغاني: 20/77. وطبقات ابن المعتر ص.202.

(7) الجاحظ: الحيوان: 4/451. طبعة البابي مصر 1938.

بأدب الفرس القديم، فكان ذلك داعياً له إلى التعلق بتراث الفرس، والتغني به في جميع مظاهره⁽¹⁾، وإضافة إلى ذلك فإننا نرى زندقة أبان، زندقة اجتماعية فكرية عرقية، أكثر منها زندقة دينية، فقد كان من الشعراء الظرفاء⁽²⁾، هازلاً عابثاً، يخالط عصبة المجنان، ويمازح القيام⁽³⁾، ويعشق بعض الغلمان، لكنه كان يتستر في ذلك، ولا يجهر به، قال أبان بن سعيد «أحد حفته: اشتري جارًّا لجدي أبان، غلاماً تركياً بـألف دينار، وكان (جدي) يهواه ويخفى ذلك عن مولاه، فقال فيه:

رُورُ مَنْ عُرِّبَ لَنِي
وَهُوَ جَارِي بِبَيْتٍ
إِنِّي حَيٌّ كَمَنِي
رَبُّ مَنْ رَاحَ كَمَنِي
هُوَ فِي كَيْتٍ وَكَنِي⁽⁴⁾

لِيَتَنِي وَالْجَاهِلُ الْمَغْ
نَلَثُ مَمْنَنْ لَا أَسْمَي
قَبْلَةُ تُنْعَشُ مَيْتًا
نَتْسَاقِي الرِّيقَ بَعْدَ الشَّ
لَا أَسْمَيْهُ وَلَكِنْ

7 - علي بن الخليل:

شاعر كوفي، مولى لمعن بن زائدة الشيباني⁽⁵⁾، من الذين اتهموا بالزنادقة في القرن الثاني للهجرة، اتهمه بها أبو الفرج⁽⁶⁾، ربما لأنه كان يعاشر صالح بن عبد القدس، وأخذ معه إلى سجن الزنادقة.

واتهمه الجاحظ بالزنادقة أيضاً⁽⁷⁾، وابن النديم⁽⁸⁾، والشريف المرتضى⁽⁹⁾، ويبدو أنه رمي بالزنادقة لسببين:

(1) بدوي: من تاريخ الإلحاد في الإسلام: ص 38.

(2) ابن المعتر: طبقات الشعراء: ص 241.

(3) الأصفهاني: الأغاني: 20/76 - 77.

(4) المصدر السابق: وكان اسم الغلام «يتك».

(5) الأصفهاني: الأغاني: 13/14.

(6) المصدر عينه.

(7) الجاحظ: الحيوان: 4/447. ط مصر 1938.

(8) ابن النديم: الفهرست، ص 437.

(9) المرتضى: الأمالي: 1/146.

أ - أولهما، أنه كان من رابطة المجان المشهورين. أمثال الحمادين الثلاثة، ومطيع بن إياس، ووالبة بن الحباب... وغيرهم⁽¹⁾. الذين عاشوا القصف واللهو والمجون حتى الثمالة.

كان علي بن الخليل يطارد الخمرة، وتتولع نفسه بها، ويقول في ذلك:
أولعت نفسي بليلتها ما ترى عن ذاك إقصارا
ولا يتورع في طلب الراح العتيق من مولاه، معن بن زائدة، فيشرب
وتطيب نفسه فيقول:

يا صاح قد انعمت إصباحي ببارد السلسال والراح
قد دارت الكأس برقرارة حياة أبدان وأرواح⁽²⁾
ب - وثانيهما، مرافقته الدائمة لصالح بن عبد القدس، الذي انهم بالزنادقة
وقتل عليها. روى «الشريف المرتضى» أن الرشيد تعقبه حين تعقب
الزنادقة فتوارى منه، ثم وفد عليه بالرقبة، واعتذر إليه، فعفا عنه،
وكتب إلى «حمدودية» (صاحب الزنادقة) ألا يعرض له⁽³⁾.

وقد مدح علي بن الخليل الرشيد عند الاعتزاز إليه، بقصيدة، يبين
فيها صفاته التي من أجلها طورد كزنديق. فهو يقر بمجنونه وخلاعته، وتتبعه
الحسان، ولهوه مع الفتى، حيث يقول:

نجُب الرُّكَابِ بِمَهْمَمِهِ جَلِسٍ
من يومك الماضي وفي أمسِ
كان التوكلُ عنده ثُرُسي
اصبو إلى يَقْرَرُ من الأنسِ
صهباءً مثل مُجاجة الْوَزْسِ
نظمَ كَطْيَيْ صَحَافِيْ الْفُرْسِ
يا خيرَ من وَحَدَتْ بِأَرْحَلِهِ
خِيرُ الْخَلَافِ أَنْتَ كُلُّهُمْ
إِنِي رَحَلْتُ إِلَيْكَ مِنْ فَزْعِ
مَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّنِي رَجُلٌ
وَأَجَاذِبُ الْفَتِيَانَ بِيَنَّهُمْ
لِلْمَاءِ فِي حَافَاتِهَا حَبَّ

(1) الحيوان. 447 / 4

(2) الأغاني: 13 / 17

(3) الأمالي: 1 / 147

ولكنه، مع كل هذا يعترف باتمامه الفروض الدينية الإسلامية في بيته الأخير، فيقول:

وَاللَّهُ يَعْلَمُ فِي بَنَيَّتِهِ مَا إِنْ أَضَفْتُ إِقَامَةَ الْخَمْسِ⁽¹⁾

فمن قصيده هذه، ومن قوله للمهدي أنه تاب عن معاقرة الخمرة، نستدل أن زندقته كانت زندقة اجتماعية لا دينية، وإن كان الفصل بينهما صعب للغاية.

أما قصيده التي قالها للمهدي، وفيها يبين توبته وتوديعه للذات ووصل الغانيات والقيبات. فنأخذ منها قوله:

عَلَى الْلَّذَّاتِ وَالرَّاحِ السَّلَامُ تَقْضِي الْعَهْدُ وَانْقِطَعَ الدَّمَاءُ
مَضِي عَهْدُ الصَّبَا وَخَرَجَتْ مِنْهُ كَمَا مِنْ غَمْدِهِ خَرَجَ الْحُسَامُ
وَقَرَّتْ عَلَى الْمَشِيبِ فَلَيْسَ مِنْيَ وَصَالُ الْغَانِيَاتِ وَلَا الْمُدَامُ
كَمَا وَلَى الْلَّهُ وَالْقَبِنَاتُ عَنِي وَلَى الْلَّهُ وَالْقَبِنَاتُ عَنِي⁽²⁾

8 - صالح بن عبد القدس: (160هـ / 777م)

شاعر حكيم، متكلم، وعظ الناس في البصرة، ناظر العالم الفقيه «أبا الهذيل العلاف»⁽³⁾ جعله ابن المعتز من الزنادقة⁽⁴⁾، وقال فيه الشريف المرتضى: «إنه كان يؤمن بمذاهب الثنوية»⁽⁵⁾، أما الخطيب البغدادي فuded من مشاهير الزنادقة⁽⁶⁾. واتهم أبو الفرج مع عبد الكريم بن أبي العوجاء بالثنوية، وجعلهما من أصحاب الكلام⁽⁷⁾.

(1) الأمالى: 1/147. والأغانى: 13/15.

(2) الأغانى: 13/17.

(3) الزركلي: الأعلام: 3/192.

(4) ابن المعتز: طبقات الشعراء، ص 90.

(5) المرتضى: الأمالى: 1/144. ولكنه لم يشر إلى لون مذهبة.

(6) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد: 9/303.

(7) الأصفهانى: الأغانى: 3/24.

وريما كان صالح من المتكلمين الذين يظهرون الإسلام ويبطئون الزندقة⁽¹⁾ ومما يؤيد كلامنا مناظرته ومجادلته لأبي الهذيل العلاف وجوابه له عندما سأله، على أي شيء نعزم يا صالح؟ فقال: أستخير الله وأقول: بالإثنين⁽²⁾. وعندما ناظره أبو الهذيل في مسألة مشهورة في المزج بين النور والظلمة، الذي ر بما، اعتقده صالح وغلب في هذه المناقضة، أنشأ يقول:

أبا الهذيل هداك الله يا رجلٌ فانت حقاً لعمري مُعْضِلٌ جَدِيلٌ⁽³⁾

والحقيقة أن زندقة هذا الرجل التي اتهم بها، تدرج في سياق الزندقة الدينية، فهو يؤمن بإحدى عقائد الثنوية - لا مجال لتحديد نوعها - التي هي شعار المانوية والمزدكية والديصانية والمرقونية⁽⁴⁾.

وريما يكون صالح بن عبد القدوس قد تأثر بالفلك والفلسفة اليونانية عندما ألف كتاباً للشكوك، وجدع على موت ابنه جرعاً شديداً، لأنه فارق الدنيا ولم يقرأه، لأن: «من قرأه شك فيما كان حتى يتوهם أنه لم يكن، وفيما لم يكن، حتى يظن أنه قد كان»⁽⁵⁾.

لقد كان صالح يخشى السجن والعذاب والقتل، إذا افتضح سره الذي يخفيه في صدره، عندما يقول:

**رَبِّ سِرْ كَتَمْتُه فَكَأْنِي أَخْرَسْ أَوْ ثَنِي لِسَانِي خَبْلُ
ولَوْ أَنِي أَبْيَثُ لِلنَّاسِ عِلْمِي لَمْ يَكُنْ لِي فِي غَيْرِ حَبْسِي أَكْلُ**⁽⁶⁾
ولهذا تراه يصلبي أتم صلاة وأحسنها، وعندما يسأل: «أتصلى ومنذهبك معروف؟ يقول: سنة البلد، وعادة الجسد، وسلامة الأهل والولد»⁽⁷⁾.

(1) ابن النديم: الفهرست. 473.

(2) المرتضى: الأمالي: 1/144.

(3) المصدر السابق.

(4) حدثنا تعريفها فيما سبق.

(5) ابن نباته: سرح العيون، ص 227.

(6) المرتضى: الأمالي: 1/145.

(7) المصدر نفسه 1/144. وابن المعتر طبقات الشعراء، ص 91.

لقد خاف السجن والقتل، فهرب من وجه المهدى عندما تعقب الزنادقة، واستخفى في دمشق زمناً، ولكن المهدى عرف مكانه، فقبض عليه، وألقى في أحد سجون بغداد، ففزع وتألم وقال:

فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى
خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها
طوى دوننا الأخبار سجن ممئع
له حارسٌ تهدا العيونُ ولا يهدا
قبرنا ولم تدفن فنحن بمعزلٍ
من الناسِ لا نخشى فتغشى ولا نعشى
الا أحذ يأوي لأهل محلٍ
مقيمين في الدنيا وقد فارقا الدنيا⁽¹⁾

وكاد المهدى يأمر بتخلية سبيله، لولا أن تذكر مقولته:

كالعود يُسقى الماء في غرسه
وإنَّ من أذبَّه في الصبا
من بَغْدَادِ ما أبصرت من يُنسِّه
حتى تراه مُورقاً ناضراً
حتى يُواري في ثَرَى رَفِيسه
والشيخ لا يترك أخلاقَه
كذِي الضَّنَا عاد إلى نُكْسِه
إذا ارعنى عاد إلى جهله
فامر المهدى بقتله... ونتساءل لماذا؟

الأنه خاف من السجن؟ وهرب ! أم لأنَّه تفلسف وتمتنطق بكلام اليونان والهنود والفرس؟ وتكلم وناقش ونظر، فحُسِيدَ أما أن أبياته التي سقناها كشواهد، على اتهامه، فمن سبقنا، هي التي أنت على نسمة الحياة فيه هل يغضب عليه الخليفة لأبياته، أعلاه، التي تعج بالحكمة، وتجعل منه إليها متناساً؟ لا أصدق ذلك، ولا أقره، إذا ما عرفنا أن صالحًا له ما لأحد في الزهد في الدنيا، والترغيب في الجنة، والبحث على طاعة الله، والأمر بمكارم الأخلاق⁽³⁾.

ومن كان قاتل صالح على الزندقة؟ المهدى أو الرشيد - سيان -

(1) الأمالي : 1/145 . وابن قتيبة: عيون الأخبار: 1/81 . وابن المعز: الطبقات، ص 92.

(2) ابن المعز: الطبقات: ص 90 . والخطيب البغدادي: تاريخ بغداد: 9/303 . وعلى بن الحسن بن عبد الله (أبو القاسم) تهذيب تاريخ ابن عساكر: دار المسيرة، بيروت: 1975 : 6/373 . وابن خلkan: وفيات الأعيان: 2/492 .

(3) ابن المعز: الطبقات: 91 و 92 .

فسبب اعتقاله وقتله أكبر مما ذكرنا وأكثر مما تخيرنا له من أشعار، حاولنا استطلاع زندقته منها. فربما كان قتله على الزندقة لعرضه لمقام الرسول، واتهامه بالمعشار حيث يقول:

غَصَبَ الْمَسْكِينَ زَوْجَتَهُ فَجَرَّتْ عَيْنَاهُ مِنْ دُرَدَةٍ
مَا قَضَى الْمَسْكِينُ مِنْ وَظِيرٍ لَا وَلَا الْمَعْشَارُ مِنْ وَطَرَةٍ
عَذْتُ بِاللَّهِ الْلَّطِيفِ بِنَا أَنْ يَكُونَ الْجَوْزُ مِنْ قَدَرِهِ^(۱)

فإذا ثبت أن سبب قتله هو قوله لهذا الشعر في (الرسول) عند تزوجه (بزيتب بنت جحش) الأسدية بعد أن طلقها مولاها زيد بن حارثة، وما نزل في ذلك من القرآن، فإن زندقته دينية - اجتماعية.

٩ - بشار بن برد: (95 - 167 هـ / 784 - 714 م)

مولىبني عقيل، أفحص في شعره عن فسقه وفجوره، وإلحاده وكفره؛ ربما تزندق لاطلاعه الواسع على الديانات الفارسية القديمة، حيث نرى «حمد عجرد» يصفه، بأنه «أعلم بالزنادقة من ماني»^(۲).

كان بشار من أكبر شعراء القرن الثاني الهجري، متهمًا بالزنادقة، إذ كان (يدين بالرجعة ويكرر جميع الأمة)^(۳). جعله عبد القاهر البغدادي كاملياً^(۴) لقوله: أن الصحابة «وعليها» معهم قد كفروا متمثلاً بقول عمرو بن كلثوم:

وَمَا شَرُّ الْثَّلَاثَةِ أَمَّ عَمَرٌ بْ صَاحِبِكَ الَّذِي لَا تَصْبِحِينَا^(۵)

(۱) ابن عبد البر (أبو عمر يوسف): الاستيعاب في معرفة الأصحاب: تحقيق علي محمد الbagawi: نهضة مصر - القاهرة. ص 1849. والشيباني: أسد الغابة 5/463.

(۲) الأصفهاني: الأغاني: 13/76. دار الفكر عن بولاق.

(۳) الجاحظ: البيان والتبيين. ص 28 و 41. الشركة اللبنانية للكتاب.

(۴) من أتباع «أبي كامل» الذي كفر جميع الصحابة لتركهم بيعة علي، وكفر «عليها» لتركة قتالهم. البغدادي: الفرق بين الفرق. ص 54.

(۵) المصدر السابق. ص 55.

ولشهادة صفوان الأنصاري، قوله فيه:

أتهجو أبا بكرٍ وتخلعُ بعدهَ علِيًّاً وتعزوَ كُلَّ ذاكَ إِلَى بُرْزِدٍ
كأنك غضبانٌ على الدين كلهِ وطالبُ دُخُل لا يبيتُ على حِقْدٍ⁽¹⁾

صفوان هذا ينسب بشاراً إلى الزندقة الفكرية في سخطه على الدين
عامة كما يضعه في صف أتباع الناعظية⁽²⁾، ومن المؤمنين بالتناسخ
والرجعة، حيث يقول فيه:

أَجْعَلْ لِيلَى النَّاعِظَةِ نَخْلَةً وَكُلَّ عَرِيقٍ فِي التَّنَاسُخِ وَالرَّدِّ⁽³⁾
فبشار، مخضرم الدولتين، الذي ولد أعمى من أبي وأم أعمى،
وتربى في أحضان العرب، وولج المساجد في صغره، وقصد الbadia بعد
ذلك ليجيد الفصحى، وتنتفع بمعارف عصره من الفلسفة والمنطق وعلم
الكلام، جعله كل ذلك حائراً متخبطاً مخلطاً في عقيدته وتصرفاته⁽⁴⁾، فتارة
تراه أعمجياً حاقداً كارهاً للعرب كرهها شديداً، وطوراً تراه يهاجم الفرس
ويتدح العرب.

تارة تراه يهاجم الإسلام برجاله وكتابه ورسوله، وطوراً تراه يحترم
الدين ويحاول إقامة شعائره⁽⁵⁾.

فالعناصر التي أسفلنا، والتي تكونت منها شخصية بشار، دفعته إلى
التزندق الديني حيناً والفكري والاجتماعي والسياسي، حيناً آخر. وليس
ضرورياً، أن نعرو زندقه إلى هذا المذهب أو ذاك من المذاهب الدينية
الثنوية، لأننا نراه، واضربأبه، قد عكف في فكره وسلوكه على كثير منها.

(1) المصدر السابق. ص 56.

(2) امرأة كوفية عاشت زمن «ابن الحنفية» ولما انتهت ثورة المختار، استقبلت كل مغالي في
الدين سراً. هدارة: اتجاهات الشعر العربي: ص 272. هامش 1.

(3) الجاحظ: البيان والتبيين، ص 30.

(4) الأصفهاني: الأغاني: 24/3. وما بعد.

(5) المصدر عينه. والمرتضى: الأمالى: 1/138.

ولأجل ذلك نراه مشوشًا في حياته وعقيدته، لا يؤمن إلا بما وقعت عليه حواسه، إذ يقول:

طُبِعْتُ عَلَى مَا فِي هَوَىٰ وَلَوْ خُبِرْتُ كُنْتُ الْمَهْدِيَا
أَرِيدُ فَلَا أُعْطِي وَأُعْطِي وَلَمْ أَرِدْ
فَأَصْرَفَ عَنْ قَصْدِي وَعِلْمِي مَقْصَرْ
وَأَمْسِي وَمَا أَغْبَثْ إِلَّا التَّعْجِبَا

(¹) لقد قدس بشار النار، ونوه بعبادتها، وفضلها على الأرض، عندما قال:

الْأَرْضُ مَظْلِمَةٌ وَالنَّارُ مَشْرَقَةٌ وَالنَّارُ مَعْبُودَةٌ مَذْ كَانَتِ النَّارُ

وقدم «إبليس» لأنه مخلوق من النار، على آدم المخلوق من التراب،

وصوب رأي إبليس في عدم سجوده لآدم، عندما قال:

إِبْلِيسُ خَيْرٌ مِنْ أَبِيكُمْ آدَمَ فَتَنَبَّهُوا يَا مَعْشَرَ الْفُجَارِ
إِبْلِيسُ مِنْ نَارٍ وَآدَمَ طِينَةٌ ذُو الْأَرْضِ لَا تَسْمُو سُمُّوُ النَّارِ

وريما كان إيمانه هذا، واستخفافه بالدين الإسلامي، واتهام الناس له بالزندة قد حداه للحج كذباً، إذ عرج، ونديم له، على قرية تدعى «زرارة»، قضيا وقتهم بين القيان والخمر، والفسق والعهر، حتى عودة الحجيج، إذ حلقا رأسيهما، واندسا بين الجماعة عائدين، وتلقاهم الناس مهتئين، فقال نديمه سعد بن القعقاع:

وَكَانَ الْحَجُّ مِنْ خَيْرِ التِّجَارَةِ
فَمَالَ بَنَا الطَّرِيقَ إِلَى زَرَارَةِ
وَأَبَنَا مُوْقَرِينَ مِنَ الْخَسَارَةِ

أَلَمْ تَرَنِي وَيَشَارِأَ حَجَجَنَا
خَرَجَنَا طَالَبَنِي سَفَرٌ بَعِيدٌ
فَأَبَابُ النَّاسُ قَدْ حَجُّوا وَبَرُّوا

(1) الأصفهاني: الأغاني: 3/62 والأمالي: 1/139. وقد رويت بعض كلمات السطر الثاني مختلفة عن الأغاني.

(2) الأغاني: 3/24. والأمالي: 1/138 مع تبديل في مواضع الكلمات. والبيان والتبيين. ص 24.

(3) ديوان بشار بن برد: 4/78. نشر محمد الطاهر بن عاشور. طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة.

(4) الأصفهاني: الأغاني: 42/3.

وإلى جانب استخفافه بفرضية الحج، تراه يستخف بفرضية أخرى، وهي الصلاة، إذ يقول بعض أصحابه: «حضرت الصلاة، صلاة الظهر والعصر والمغرب ولم يصل» وقد قال عندما سئل عن ذلك: «إن الذي يقبلها تفاريق يقبلها جملة»⁽¹⁾، ولكنه لم يمارسها تفاريق وجملة، إذ يقول أصحابه: «إذا حضرت الصلاة، قمنا إليها، وجعلنا على ثيابه تراباً حتى نظر هل يقوم يصلي، فكنا نعود والترب بحاله وما صلى»⁽²⁾. ويطرد بشار عند سماعه غناء جارية، تردد شعره، فيستخفه صوتها ويقول: «والله هذا أحسن من سورة الحشر»⁽³⁾ مبيناً استهتاره بالقرآن الكريم.

وكم سخر بشار من القصاصين الدينيين، وعلى الأخص، عند وصفهم اتساع دور الجنة واستقبالها العابدين الخاسعين، بقوله: «بنتت والله الدار هذه في كانون الثاني»⁽⁴⁾.

وتراه يهزاً من الحزاني والمعذبين الشاكرين الله⁽⁵⁾، ولم يكتف بشار بتکفير جميع المسلمين وإدانته بالرجعة والتناصح، وتصويب رأي إيلیس في تقديم النار على الطين، وسخریته بالصلاوة والحج... ليكون زنديق دین وحسب، بل تراه زنديقاً في العرق والسياسة أيضاً.

تارة يفتخر بولائه لقيس⁽⁶⁾، وأكثر أطواره يتبرأ من ولاء العرب، عازياً انتسابه إلى الله تعالى، وربما كان ذلك لاعتراف العرب المسلمين صراحة بأن «الله أكبر» في مثل قوله:

أصبحت مولى ذي الجلال وبعضهم مولى العريب فجذ بفضلك فافخر

(1) المصدر عينه. 43 / 3.

(2) المرتضى: الأمالي: 1 / 138.

(3) الأصفهاني: الأغاني: 3 / 55.

(4) المصدر السابق: 3 / 30.

(5) المصدر عينه: 3 / 31.

(6) المصدر: 3 / 21.

مولاك أكرم من تميم كلها أهل الفعال و من قُريشِ العشر⁽¹⁾
وكم فاخر العرب بأعجميته، مدعياً أنه من بني الأحرار، مسمياً
العرب أبناء الرعاة، في مثل قوله لأعرابي :

سأخبرُ فاخرَ الأعراب عنِي وعنِه حين تأذن بالفخارِ
تفاخر يا ابن راعية ورَاعٍ ببني الأحرار حسبُك من خسارَ
وكنت إذا ظمنتَ إلى قرَاجٍ شركَ الكلب في ولغ الإطار⁽²⁾
 فهو من خراسان، من بيتِ كريم، من فرع ناضر يسمو إلى العلا، إذ
يقول :

من خراسان وب بيتي في الذرى ولدى المسعاة فرعوي قد سبق
ويقول :

ولاني لَمِنْ قومٍ، خراسان دارُهم، كرام، وفرعي فيهم ناضرٌ بَسْقٌ⁽³⁾
ولكنه، كما أسلفنا، وقد كان حائراً في تصرفاته مخلطاً في عقيدته،
ذلك كان في انتقامه. في مثل قوله :

ونبئتُ قوماً بهم جُنةٌ يقولون من ذا وكنتُ العلم
نَمَتْ في الكرام ببني عامرٍ فروعٍ، وأصلي قريشُ العجم⁽⁴⁾
إذن تزندق بشار دينياً، وتزندق سياسياً، وزاد على ذلك بزندة
اجتماعية، لعلها كانت سبب مقتله.

ومن المظاهر البينة لزندقته هذه، خلاعته ومجونه، وإفحاشه في غزل
فاجر إفحاشاً شديداً، نهاية المهدى عنه⁽⁵⁾، لإفساده به الفتيان. يظهر هذا
التعهر والفحور في قصيدة صور فيها تغريه بفتاة صغيرة، وعبيه بها

(1) المصدر : 21 / 3

(2) المصدر 3 / 33

(3) الجاحظ : البيان والتبيين : ص 41

(4) الأغاني : 3 / 21

(5) الأصفهاني : الأغاني : 3 / 41

ومضاجعه لها، واحتراعه حيلة دلها لتبرأ أمام أمها، وتراه لا يرعى فيها حرمة دين، ولا يخشى سلطاناً ويصف مبادرته للمرأة وصفاً سهلاً مفصلاً، محبياً إليها الانجراف في تيار الإنم والفسق والميل نحوه، واللين له، والتلهك على لذته، يقول⁽¹⁾:

واللَّوْمُ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ ضَجَرٌ
قد شاعَ فِي النَّاسِ مِنْكُمَا الْخَبَرُ
لَيْسَ لِي فِيهِ عِنْدَهُمْ عُذْرٌ
مِنِي وَمِنْهُ الْحَدِيثُ وَالنَّظَرُ
بِأَسْأَسٍ إِذَا لَمْ تُخْلِلْ لِي الْأَرْزُ
فَوْقَ ذِرَاعِي مِنْ عَضْهَا أَثْرٌ
وَالبَابُ قَدْ حَالَ دُونَهُ السُّتُّرُ
لَتْ إِيمَاهُ عَنِي وَالدَّمْعُ مُنْهَدِرٌ
أَنْتَ وَرِبِّي مَغَازِلَ أَشِرُّ



ذُو قُوَّةٍ مَا يُطَاقُ مُقْتَدِرٌ
وَيُلِي عَلَيْهِمْ لَوْ أَنَّهُمْ حَضَرُوا
أَمْ كَيْفَ إِنْ شَاعَ مِنْكُمْ ذَا الْخَبَرُ
لَا بِأَسَاسٍ إِنَّمَا مُجْرِبُ خَبَرُ
إِنْ كَانَ فِي الْبَقْ مَا لَهُ ظُفُرٌ
وَكَمَا أَغْرَى الْمَرْأَةَ بِالْتَّهَافَتِ عَلَى الرَّجُلِ، كَذَاكَ أَغْرَى الرَّجُلِ
بِالْتَّهَافَتِ عَلَيْهَا، وَالْمَتَاعُ بِهَا مِبْيَانٌ أَنْ صَدَهَا هُوَ وَصَالَ الرَّجُلَ وَبَذَلَ نَفْسَهَا
لَهُ، يَقُولُ:

لَا يُؤَيْسِنَكَ مِنْ مَخْبَأٍ قَوْلٌ تَغْلُظُهُ وَإِنْ جَرَحَا
غُسْرُ النِّسَاءِ إِلَى مُيَاسِرَةٍ وَالصَّفَبُ يُمْكِنُ بَعْدَمَا جَمَحاً⁽²⁾

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر: 69 / 3

ويمضي بشار في غزله الفاجر، يقوله أمام الخليفة المهدى، الذى رأى جارية تستحم فلما رأته «حضرت ووضعت يدها على فرجها» فأنشأ يقول: نظرت عيني لحيني، ثم ارتعج عليه فسأل من بالدار من الشعراء؟، قالوا بشار فأذن له وقال له أجز، فقال بشار⁽¹⁾:

نظرت عيني لحيني نظراً وافق شيني
سترت لما رأتني دونه بالراحتين
فضلت منه فضول تحت طي العكنتين
فتمنيت وقلبي للهوى في زفترتين
إبني كنت عليه ساعة أو ساعتين⁽²⁾

ولعرقة بشار في الغزل الإباحي، حاول الاحتجاج للمعصية، فأحل القبلة والملامسة واقتطاف ثمرات الجسد، دونما حياء و خفر، فالحياة فرص للذلة لا يملك هذه الفرص إلا المقدم الجسور، يقول:⁽³⁾

لا خير في العيش إن كننا كذا أبداً لا نلتقي وسبيل المُلتقى نهج
قالوا حرام تلاقينا فقلت لهم ما في التلاقي ولا في قُبلة حرج
من راقب الناس لم يظفر ب حاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهم

وإذا ما اجتنزا غزل بشار التهتكى الإباحي الفاجر، وخمرياته وجونه⁽⁴⁾، نصل بزندقته الاجتماعية إلى هجائه اللاذع ولسانه السليط في هذا الميدان، فنراه وقد هاجم المجتمع بكل طبقاته، حتى توصل إلى رأس الهرم في الدولة العباسية، إذ أنسد في حلقة يونس النحوي أبياتاً شنيعة هجا فيها المهدى وزوجه الخيزران⁽⁵⁾. فحملت الأبيات إلى الوزير يعقوب بن

(1) المصدر: 64/3.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 64/3.

(3) المصدر السابق: 49/3. نهج: الطريق الواضح.

(4) المصدر السابق: 66/3.

(5) المصدر السابق: 70/3. في الأبيات كلمات داعرة نف عن ذكرها. وانظر هجاءه للعلماء .50/3

داود وكان قد وجد على بشار لقوله فيه:

بني أميّة هبوا طائِنُوكُم إنَّ الخليفة يعقوبُ بنُ داود
ضاعت خلافتكم يا قومُ فالتمسوا خليفة الله بين الزقُّ والعود⁽¹⁾

وحملها الوزير إلى المهدى في حقد وإغراء عليه، وشهد أمام الخليفة
بزندقته فأمر أن يضرب ضرب التلف، وبسبب هذا الضرب، مات بشار⁽²⁾.

ومجمل القول في هذا الشاعر، الذي سئل مرة، أي متع الدنيا أثر
عندك؟ فقال: طعام مز وشراب مز وبنت عشرين بكر⁽³⁾. هو ما رأه فون
كريمر «من أن بشاراً لم يستطع أن يتخذ له وجهة معينة، فكان بين الشك
واليقين وعلى الأغلب ملحداً حتى آخر حياته، اعتنق الإسلام ظاهراً، ونفاه
باطناً⁽⁴⁾. فيكون والحال كما قدمنا زنديق دين واجتماعية وسياسة.

10 - آدم بن عبد العزيز:

شاعر عربي قريشي، حفيد لعمرو بن عبد العزيز⁽⁵⁾، الخليفة الأموي
الذي عد في مصاف الخلفاء الراشدين لزهده وتقواه. عاش شبابه خليعاً
ما جناً ظريفاً، منهوكاً في الشراب، أخذه المهدى وضرره ثلثمائة سوط على
أن يقر بالزنادقة، فقال: «والله ما أشركت بالله طرفة عين، ومتى رأيت
قرشاً تزندق»⁽⁶⁾. ولكن الذي يتبع ما روی له من أشعار، يشتم منها رائحة
زنادقة اجتماعية في مثل قوله:

(1) المصدر عينه.

(2) طه حسين: حديث الأربعاء. دار الكتاب اللبناني 1980. ص 531.

(3) الأغاني: 50 / 3.

(4) فون كريمر: الحضارة الإسلامية ومدى تأثيرها بالمؤثرات الأجنبية. ترجمة مصطفى طه
بدر. نشر دار الفكر العربي. القاهرة. 1947. ص 101.

(5) هو آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، وأمه بنت سفيان بن
عبد العزيز بن مروان بن الحكم. الأصفهاني: الأغاني 14 / 60.

(6) المصدر السابق: 14 / 61.

اسْقِنِي وَاسِقْ عُصَيْنَا
لَا تَبْعَدْ بِالنَّقْدِ دِينَا
اسْقِنِي هَا مُرَّةً الطَّعْنَا^(١)
مُثْرِيكَ الشَّيْنَ زِينَا

فهو يريد الخمرة له ولغصين، معتقة، طعمها مرّة. ويشتم من قول له آخر رائحة زنقة اجتماعية دينية، حيث ينكب على شرب الخمر طيلة الليل، مفرطاً في سكره ومجونه، لا يخاف لومة فقيه، وتراء يدعوه إلى تركها والانسياق وراء إيمانه في رجاء الآخرة، هذه الآخرة التي لن يحصل فيها الفقيه إلا البكاء على ما مرّ من عيش لذيد لم يحياه في حياته الدنيا، يقول:

اسْقِنِي وَاسْقِ خَلِيلِي
فَهُوَ صَهْبَاءُ صِرْفَاً
فِي مَدَى الْلَّيلِ الطَّوِيلِ
سُبَيْتَ مِنْ نَهَرِ بَيْلَ



في لسان المرأة منها
مثل طعم الزنجبيل
من ينزل منها ثلاثة
ينس منهاج السبيل
فمتى مانأ خمساً
تركته كالفتيل



قل لمن يلهاك فيها
أنت دعها وارجع أخرى
تعطش اليوم وتُسقى
من فقيه أو نبيل
من رحيم السُّلَيْبِيل
في غدِّ نعمت الظلول⁽²⁾

لعلَّ آدمَ بنَ عبدِ العزِيزَ لمْ يشكِ باللهِ، ولمْ يكُفِرْ بهِ، كما قالَ في
حضرَةِ المَهْدِيِّ: «كُنْتُ فتىً مِنْ فتَيَانَ قَرِيشٍ أَشَرَبَ النَّبِيَّدَ، وَأَقُولُ مَا قُلْتَ
عَلَى سَبِيلِ الْمَجُونِ، وَاللهِ مَا كَفَرْتَ بِاللهِ قَطَّ، وَلَا شَكَكْتَ فِيهِ»⁽³⁾، وَلَكِنَّهُ
شَكَكَ بِالْدِينِيَا الْآخِرَةِ، وَبِهَذِهِ الْمُحْرَمَاتِ الَّتِي فَرَضَتْ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَهِيَ

(1) المصدر عينه.

(2) المصدر عينه.

(3) المصدر عنه.

بنظره مستحلات، فيها لذة الإنسان وسروره، فهو يطلب الخمرة، كؤوساً بعد كؤوس من مدامنة معتقة، ومن لامه على ما يفعل نعنه بأفحش السباب عند العرب. يقول:

اسقني يا معاوية سبعة أو ثمانية
اسقنيها وغنّني قبل أخذ الزيانية
اسقنيها مدامنة مُزة الطعم صافية
ثم من لامنا عليه يها فذاك ابن الزانية⁽¹⁾

11 - سلم الخاسر: (168هـ / 802م)

شاعر خليع ماجن، من أهل البصرة من الموالى⁽²⁾، أبغض الكفر وأظهر الإسلام، فرمي بالزنقة⁽³⁾، روى ابن المعتز⁽⁴⁾، أنه كان فاسقاً ماجناً، وأنه سمي (خاسراً) لأنَّه باع مصحفَه ورثَه عن أبيه، واشتري بثمنه طنبوراً، فقيل له: «ويلك! في الدنيا أحد فعل ما فعلت؟ تبيع مصحفَه وتشرى بثمنه طنبوراً؟ فقال: ما تقرب أحد إلى إيليس بمثل ما تقربت إليه، فإني أقررت عينه»!!.

وإذا ما صحت هذه الرواية فإنَّ سلماً يكون زنديق دين، حيث يعترف صراحة بأنه أقر عين إيليس بابتعاده عن القرآن وما يحوي بين دفتيره من تقرب إلى الله، وملازمه الغناء لشرائه الطنبور بثمن القرآن.

وسلم هذا اغرق في التهتك، وأوغل في الإباحة والخلاعة والفسق والفحotor⁽⁵⁾، ولا سيما أنه كان من تلامذة بشار، السالف الذكر، فتعلم على مثاله، وسار سيره، طبعاً ومذهباً وشعرأً. هذا في الشطر الأول من

(1) المصدر عينه.

(2) الزركلي: الأعلام: 3/110.

(3) ابن النديم: الفهرست: ص473.

(4) ابن المعتز: طبقات الشعراء، ص93. دار المعارف مصر 1956.

(5) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد: 9/136.

حياته، أما في الشطر الثاني فقد طلب اللهو والهزل والظرف⁽¹⁾، ليندرج اسمه أيضاً في مصاف الزنادقة الاجتماعية.

ويبدو أن شعره في المجنون والخلاعة والفسق قد ضاع، لكننا نستخلص من بعض أهاجيه، أنه كان يقنع في الكلام، ويطعن في الأعراض، ويزري في الإفحاش، من ذلك قوله في والية بن الحبابة، وقد تناfra وتهاجرا:

يا والبَ بن الْحُبَابِ يا حَلَقِي لَسْتَ مِنْ أَهْلِ الزَّنَاءِ فَإِنْ طَلَقْتَنِي
تُدْخِلُ فِيهِ الْغُرْمُولَ تُولِّجْهُ مُثْلَّوْلَجِيَّ المُفْتَاحِ فِي الْغُلْقِ⁽²⁾
وَفِي أَخْبَارِهِ الْفَاحِشَةِ الْمَزْرِيَّةِ، أَنَّهُ طَلَبَ مِنْ أَبِي مُحَمَّدِ الْبَرِيْدِيِّ أَنْ
يَهْجُوَهُ تَمَاجِنًا وَتَعَابِثًا، فَهَجَاهُ هَجَاءَ خَبِيثًا، اتَّهَمَهُ بِالْتَّنَكُرِ لِوَالِدِيهِ،
وَبِاللَّوَاطِ، فَهَتَّكَ حَرْمَتَهُ وَكَرَامَتَهُ، حِيثُ يَقُولُ:

عَقَ سَلْمٌ أَمَّةَ صِغَرَاً وَأَبَا سَلْمٍ عَلَى كَبَرِهِ
كُلَّ يَوْمٍ خَلَفَهُ رَجُلٌ رَامِحٌ يَسْعَى عَلَى أَثْرِهِ
يُولِّجُ الْغُرْمُولَ سَبَّيْهُ كَوْلِجُ الضَّبِّ فِي جُحْرِهِ⁽³⁾
وَسَلَمُ الْمَوْلَى الْأَعْجَمِيُّ الْأَصْلِ يَمْدُحُ الْبَرَامِكَةَ فِي شَخْصِ يَحْيَى بْنِ
خَالِدٍ⁽⁴⁾، وَيَدْعُوْهُمْ إِلَى الْإِقْبَالِ عَلَى مَتْعِ الدُّنْيَا وَمَلَذَاتِهَا، وَانْتَهَازُ فَرَصَهَا،
آخِذًا مَعْنَى اسْتَاذِهِ بِشَارِ فِي قَوْلِهِ: «مِنْ رَاقِبِ النَّاسِ» بِصِياغَتِهِ هُوَ:
مِنْ رَاقِبِ النَّاسِ مَاتَ هَمًا وَفَازَ بِاللَّذْدَةِ الْجَسُورِ
وَيَبْدُو لَنَا مِنْ أَشْعَارِهِ التِّي وَصَلَّتْنَا أَنْ زَنْدَقَتِهِ كَانَتْ زَنْدَقَةً اجتماعية،
وَرِبِّيَّا دِينِيَّةً عَلَى رَأْيِ الرَّوَاةِ.

(1) ابن المعتر: طبقات الشعراء: ص100. والبغدادي: تاريخ بغداد: 9/139. وابن خلكان: وفيات الأعيان 2/352.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 16/261 طبعة ساسي. الحلقي: من قولهم: آثار حلقة، إذا تداولها الحمر حتى أصابها داء في حرمها. الغرمل: الذكر.

(3) المصدر السابق: 19/271. السبة: الاست.

(4) المصدر: 3/49. دار الفكر عن بولاق.

الحسن بن هانئ، مولى عبد الله الحكمي، شاعر العراق في عصره، ورجل اللغة والفصاحة، أول من نهج للشعر طريقته الحضرية وأخرجه من اللهجة البدوية، تنقل بين أفنان الشعر، وحط على فن، لزاجه رحيق الحياة وأنفاسه عطر المدامة⁽¹⁾.

لم يسلم من تهمة الزندقة، التي قرفة بها بعض أهل عصره، وكثير من القدماء، لسبب أو لآخر. فالفضل بن الربيع، رماه بها، ليوقع به، وينال منه بعد أن عرض بنسبة، فجمعه في حلقة مع الفقهاء - والشعراء حاسديه .. بين يدي الرشيد، ثم قال له: ألسنت القائل:

يا أَحْمَدُ الْمُرْتَجِي فِي كُلِّ نَائِبٍ قَمْ سَيِّدِي نَعْصِ جَبَارَ السَّمَاوَاتِ
 قال: بلى، قال: يا أمير المؤمنين، كافر، ثم أخذ رأي الفقهاء والشعراء فواافقوه ولكن الرشيد صدقه وسفه خصومه عندما قال: «أني يكون زنديقاً من يقر أن للسماءات جباراً!!»⁽²⁾. وأما الفضل فما زال يرصده بعد ذلك حتى سمع عنه أنه قال:
 ما جاءني أحدٌ يُخْبِرُ أَنَّهُ فِي جَنَّةٍ مَّنْ مَاتَ أَوْ فِي نَارٍ
 فحبسه بهذا البيت⁽³⁾.

وسليمان بن أبي جعفر العباسى، اتهمه فى مجلس الرشيد، بالإلحاد وإنكاربعث والحساب، وإدمان الشراب، والإغرار فى المجنون، وروى شيئاً من شعره الذى يؤيد كلامه، فقال الرشيد للفضل «برئت من المنصور

(1) الزركلي: الأعلام 2/225.

(2) أبو هفان (عبد الله بن أحمد بن حرب المهزمي) أخبار أبي نواس: تحقيق عبد الستار أحمد فراج. نشر مكتبة مصر بالقاهرة 1953. ص 106 وأحمد المذكور: غلام كان أبو نواس يعششه.

(3) المصدر عينه.

إن لم يبيت هذا الكلب في المظيق!»⁽¹⁾.

وال الخليفة (الأمين)، نسبه إلى الزندقة لظرفه وهزلة، ~~لجهاته~~ مع عنه تهمة الكفر بالله، واعترف بإقامة الصلوات، والتطهر، ولكنه اعترف أيضاً بمعاقرته للخمرة، إذ يقول:

أصلي صلاة الخمس في حين وقتها وأشهد بالتوحيد لله خاصعاً وأحسن غسلاً إن ركبت جنابة وإن جاءني المسكين لم أكُ مانعاً
واني وإن حانت من الكأس دعوة إلى بنية الساقي أجبت مسارعاً⁽²⁾
ومهلل بن يموت - وهو من القرن الرابع - يكتب عن كفريات أبي
نواس. وابن منظور يكتب عن زندقته⁽³⁾. فهل كان أبو نواس زديقاً؟ وما
نوع الزندقة التي عاشها؟

إن صاحب «الفرح والتهاني» ينسبه إلى الثنوية دون تحديد نوعها⁽⁴⁾. وقد حددتها محمد بديع شريف بالمانوية والمزدكية، ونقل عن فون كريمر قوله في أبي نواس: «إنه كان واسع الحيلة، فاستطاع بذلك أن يستخف بالعقيدة، وينشر الضلال والزنادقة ويتكلم بما يريد دون حياء أو خجل» ثم عقب على ذلك بقوله: «إننا نجد في شعر أبي نواس مظهراً واضحاً من مبادئ المانوية والمزدكية من حيث إثارة الشك في العقيدة ومحاجمة الدين، والإباحة المطلقة، والغزل بالمذكر، وتعصبه لقومه والحط من شأن الدين والأدب العربي»⁽⁵⁾.

(1) المرزباني: (أبو عبيد الله، محمد بن عمران): الموضع في مأخذ العلماء على الشعراء: تحقيق علي محمد الجاوي. طبع دار نهضة مصر 1965. ص 426. فيما بعد الموضع.

(2) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 7/ 440. طبع مكتبة الخانجي بمصر 1931.

(3) هدارة: اتجاهات. ص 254.

(4) الفرح والتهاني بأخبار الحسن بن هاني، (مجهول المؤلف)، مصورة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية رقم 632. ورقة 15.

(5) محمد بديع شريف: الصراع بين الموالي والعرب. دار الكتاب العربي. مصر 1954. ص 93 وما بعدها.

ومحمد جابر عبد العال، يراه ناكرًا للبعث والحساب، محلًا الخمر،
ومبيحًا النساء والغلمان واقتناص الملذات، رافعًا ممدوحه - علي بن موسى
الرضا - إلى مصاف الآلهة، حيث أن «جبريل» قد خدم أباه، في قوله:

أنا لا أستطيع مدحَّ إمامٍ كان جبريلُ خادمًا لأبيه⁽¹⁾
وابن قتيبة بكفره أو يكاد، لقوله:

تعلل بالمنى إذ أنت حيٌّ وبعد الموتِ من لَبَنِ وَخَمْرٍ
حياةً ثم موتٌ ثم بعثٌ حديثُ خُرافةً يا أمَّ عَمْرَو⁽²⁾
ولكن إلى أي مدى وصل أبو نواس في شعره الذي اتهم بالزندة
بسبيبه؟ إن أول ما نراه من هذا الشعر إنكاره للبعث والنشور، إنكارًا تاماً،
 فهو يقول:

وأيسُّرْ ما أبْثُكَ أَنَّ قَلْبِي بِتَصْدِيقِ الْقِيَامَةِ غَيْرُ صَافٍ⁽³⁾
ويقول في موضع آخر:

قلتُ وَالْكَأسُ عَلَى كَفَيِّ تَهْوِي لَا لِتَشَاهِي
أَنَا لَا أَعْرِفُ ذاكَ الْيَوْمَ فِي ذاكَ الرَّحْمَانِ⁽⁴⁾
كما نراه ينكر القدر والجبر، ويظهر إيمانه بالموت والفناء فحسب⁽⁵⁾

بقوله:

ما صَحَّ عَنِّي مِنْ جَمِيعِ الَّذِي يُذَكَّرُ إِلَّا الْمَوْتُ وَالْقَبْرُ

(1) محمد جابر عبد العال: حركات الشيعة المتطرفين، وأثرهم في الحياة الاجتماعية والأدبية لمدن العراق، إيان العصر العباسي الأول. مطبعة السنة المحمدية. القاهرة 1954. ص 273.

(2) ابن قتيبة: الشعر والشعراء: 2/ 691.

(3) الراغب الأصفهاني: (أبو القاسم حسين بن محمد): محاضرات الأدباء - المطبعة الشرقية - القاهرة - 1326هـ: 2/ 183.

(4) مهلل بن يموم بن المزرع: تحقيق محمد مصطفى هدارة. سرقات أبي نواس: دار الفكر العربي - القاهرة 1957. ص 144.

(5) العرجاني (علي بن عبد العزيز) الوساطة بين المتibi وخصومه. نشر دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1951م. ص 63.

ويكرر هذه المعاني، مشيراً إلى عصبة المجنان التي ينتمي إليها لأن أفرادها جميعهم مؤمنون بأفكاره، يقول:

عاذلتي بالسَّفَّافَةِ وَالرَّجْرِ
باَح لسانِي بِمُضَمَّرِ السَّرِّ
وَذَاكَ آتَيْتُ أَقُولُ بِالدَّهْرِ
كَافِرَةً بِالْحَسَابِ وَالْحَشَرِ
بَيْنَ رِبَاضِ السَّرُورِ لِي شَيْئَعَ
مُوقَنَّةً بِالْمَمَاتِ جَاحِدَةً
لِمَا رَوَّهُ مِنْ ضَغْطَةِ الْقَبْرِ⁽¹⁾

وأبياته هذه صريحة في زندقتها وكفرها، لأنه ينكر البعث والحساب، ويؤمن بقول الدهرية، إن حالة الإنسان إلى فناء وزوال، كحالة الحيوان والنبات، وشك في الجنة والنار ومثلها قوله:

بِالْجَهْلِ أُوْثَرُ صُخْبَةَ الشَّطَّارِ
إِنِّي لِأَغْرِفُ مَذْهَبَ الْأَبْرَارِ
وَصَرَفْتُ مَعْرِفَتِي إِلَى الْإِنْكَارِ
وَتَعْجَلَتِي مِنْ طِبِّ هَذِي الدَّارِ
عَلِمْتُ بِهِ رَجْمُ مِنَ الْأَخْبَارِ
فِي جَنَّةٍ مُذْمَاتٍ أَوْ فِي نَارٍ⁽²⁾
وَمُلِحَّةً بِالْعَذَلِ تَحِسِّبُ أَنِّي
بَكَرَتُ عَلَيَّ تَلَوْمُنِي فَاجْبَثُهَا
فَدَعَيِ الْمَلَامَ فَقَدْ أَضَعْتُ غُوايَتِي
وَرَأَيْتُ إِيْشَارِي الْلَّذَادَةَ وَالْهَوَى
أَخْرَى وَأَخْرَمَ مِنْ تَنْظُرِ آجِلِي
مَا جَاءَنَا أَحَدٌ يُخْبِرُ أَنَّهُ

في كلامه هذا ضرب من الزندقة الدينية، وفي بيته الأخيرين نشم رائحة زندقة فكرية فلسفية منطقية، وربما يكون أبو نواس قد اطلع على مثل هذه العلوم ودرسها وتعمق فيها، وبيان أثرها في أشعاره، كما يذكر صاحب «الفرح والتهاني» الذي يقول: «صاحب أبو نواس إبراهيم النظام واشتهر الكلام فبان ذلك في أشعاره»⁽³⁾، وتأثير هذه العلوم في نفسه ربما أدى به إلى ذلك الشيء من الشك والارتياح، فتمرد على الدين، وأظهر القول

(1) المصدر السابق.

(2) أبو هفان: أخبار أبي نواس: ص 37 و 21. وأنظر المرزباني (أبو عبيد الله، محمد بن عمران): الموضح في مأخذ العلماء على الشعراء، تحقيق علي محمد البحاوي - طبع دار النهضة، مصر، 1965، ص 429.

(3) الفرح والتهاني بأخبار الحسن بن هاني: ورقة 4 (مخطوط).

بالدهر وأعلن الكفر بالنشر والحساب، غير مصدق للثواب والعقاب. ويستخرج ابن منظور هذا المعنى للزندقة، وينص على أنه أقوى وجوه زندقة أبي نواس، مبعداً إياه عن الزندقة الدينية ومضيده إلى الزندقة الفكرية⁽¹⁾.

وأبو نواس، الشاك في البعث والحساب، والرافض لعقيدة الجنة والنار، والقاتل بالدهر، لم يكتف بمثل هكذا زندقة، بل تراه سكيراً ماجنا فاجراً، تعدى جريه وراء المرأة إلى تصرف شاذ، حيث يعلق قلبه بالغلمان المرد، فيبعث بهم بما يخالف سنة الحياة وطبيعة الإنسان. ولنسمع قوله في غلام شادن، مصوراً نفسه يبكي، ليس شوقاً وتلهفاً إلى جنة موعدة فيها حور العيون، ولا خوفاً من هول قبر، بل يبكي عندما يرى بكاء غلام يحبه، ويود أن يتقيه بنفسه:

لَمْ أَبْكِ فِي مَجْلِسِ مُنْصُورٍ شَوْقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْحُورِ
وَلَا مِنَ الْقَبْرِ وَأَهْوَالِهِ وَلَا مِنَ النَّفْخَةِ وَالصُّورِ
لَكُنْ بِكَانِي لِبُكَا شَادِنْ تَقِيهِ نَفْسِي كُلَّ مَحْذُورٍ⁽²⁾

وفي شعر آخر من غزله الشاذ بالغلمان المرد، تراه يفحص ويثير على الدين، فيجدد البعث والقيمة، ويرتاب بالحساب والعقاب، ولو لا خوفه من إمام ينعته بالفسق والفحور لأحب أن يتبع هذا الحبيب ويدخل حتى في دينه ودين جماعته. يقول:

تَرْجُوا إِنْتَابَةَ ذِي مُجْوِنٍ مَارِقٍ
غَيْرُ الْمَعَادِ وَمَذْهَبِي وَخَلَائِقِي
مُخْتَارُ دِينِ أَقْسَى وَجَثَالِقِي
أَنْ أَبْتَلِي بِإِمامٍ جَزَرِ فَاسِقِي
بِبَصِيرَةٍ مِنِي دَخُولَ الْوَامِقِ
وَمُلْحَّةٌ بِالْعَذَلِ ذَاتِ نَصِيبَةٍ
بَكَرَتْ تَخْوُفِنِي الْمَعَاوَةَ وَشَيمَتِي
فَأَجْبَتْهَا كَفِي مَلَامِكِ إِنْتِي
وَاللَّهُ لَوْلَا أَنِّي مُتَحَرِّفٌ
لِتَبْعَثُهُمْ فِي دِينِهِمْ وَذَخَلْتُهُمْ

(1) ابن منظور (جمال الدين بن مكرم المصري أبو الفضل): أخبار أبي نواس: الجزء الأول، مطبعة الاعتماد القاهرة 1924. والثاني، مطبعة المعرف، بغداد 1952. 6/1.

(2) الحسن بن هانئ: (أبو نواس) الديوان: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى، دار الكتاب العربي، بيروت 1982، ص392.

وَمُدَامَةٌ مِثْلُ الْخَلُوقِ، عَتِيقَةٌ
بَاكِرُهَا مِنْ كُلِّ أَغِيدَ شَادِينَ ،
لَنَبَذَتْ دِينَكَ كُلُّهُ مِنْ حَالِقِ⁽¹⁾

وَمَا دَمْنَا فِي غَزْلِهِ الْإِبَاحِيِّ الْمُتَهَتِكِ تَارَةً بِالْغَلْمَانِ، وَطَوْرَاً بِالنِّسَاءِ،
فَلَنْرَ مَا يَقُولُهُ فِي (جَنَانَ)، الَّتِي كَلَفَ بِهَا وَأَسْرَفَ فِي حَبْهَا، وَوَرَطَ نَفْسَهُ فِي
كَثِيرٍ مِنَ الْإِثْمِ بِسَبِّ مَلْتَقَاهَا، وَأَيْنَ؟ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ! يَتَلَامِسُ
الْخَدَانِ، وَيَتَهَامِسُ الْعَشِيقَانِ، بَدْلًا مِنَ التَّخْشُعِ وَالسُّجُودِ فِي مَكَانٍ تَرْنُوا إِلَيْهِ
أَنْظَارُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ بَقَاعِ الْأَرْضِ، يَقُولُ :

وَعَاشِقَيْنِ التَّفَّ خَدَاهُما عَنْدَ الشَّشَامِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ
لَمَا اسْتَفَاقَا أَخْرَ الْمُسْنَدِ لَوْلَا دَفَاعُ النَّاسِ إِيَاهُما
قُلْنَا كِلَانَا سَاتِرُ وَجْهَهَا مِمَّا يَلِي جَازِبَهُ بِالْيَدِ
نَفْعُلُ فِي الْمَسْجِدِ مَا لَمْ يَكُنْ يَفْعُلُ لَأَبْرَارُ فِي الْمَسْجِدِ⁽²⁾

وَلَا يَرْعُوي أَبُو نَوَّاسُ، عَنْدَمَا يَزْجُرُهُ أَحْدُهُمْ بِقَوْلِهِ : «وَيَحْكُ ! أَلَا
يَمْنَعُ خَوْفُ اللَّهِ، وَلَا يَرْدُكُ حَيَاءُ مِنَ النَّاسِ؟» فَيَقُولُ : «يَا أَحْمَقُ : وَحْسِبْتَ
قَطْعَ الْمَهَامِهِ وَالسَّيَاسِبِ وَالرِّمَالِ إِلَّا لِلَّذِي حَجَجْتَ لَهُ وَإِلَيْهِ قَصَدْتَ !»⁽³⁾.

فَهَذَا الَّذِي يَفْحَشُ فِي مَكَةَ الْمَكْرُمَةِ حِينًا، وَحِينًا آخَرَ يَدْعُو إِبْلِيسَ لِيَرِدَ
إِلَيْهِ غَلَامَهُ الْمَفْضُلِ الَّذِي كَانَ «يُلْوَطُ بِهِ»، وَأَدْبَرَ عَنْهُ، فَيَقُولُ مِثْلَ قَوْلِهِ :
لَمَّا جَفَانِي الْحَبِيبُ، وَامْتَنَعْتُ عَنِي الرِّسَالَاتُ مِنْهُ وَالْخَبَرُ
دَعَوْتُ إِبْلِيسَ، ثُمَّ قَلْتُ لَهُ فِي خَلْوَةٍ، وَالْدُّمُوعُ تَنْهَمُ
وَيَدْعُعِي أَنْ إِبْلِيسَ قَدْ اسْتَجَابَ لِدُعَائِهِ :

(1) المصدر السابق: ص 219 و 220 والمرزياني: الموسوع: ص 428. والواشق: المحب. الحال: الجبل المرتفع.

(2) ديوان أبي نواس، ص 233.

(3) المصدر عينه (الحاشية). والذي زجره هو محمد بن عمرو الجماز، ابن أخت سلم الخاسر، وقد عرفه ورأى سوء فعلته.

فما مضت بعد ذاك ثالثةٌ حتى أتاني الحبيب يعتذر⁽¹⁾
ألا يكون زنديقاً؟ لا ريب أنه زنديق اجتماعي كبير، وقد يطول بنا
المقام لو تبعنا غزل أبي نواس في النساء والغلمان. ولكن الذي يقرأ قوله
ومجونه في غلام، أفحش في وصاله، تحدوه الرغبة في وضع كتاب في
هذا الباب، يقول:

رَبُّ غَزَالٍ كَائِنَهُ قَمَرٌ لَاحْ فَجَلَى الدُّجُونَ فِي الْبَلَدِ
سَأَلَتُهُ الْوَصْلَ كَيْ يَجُودَ بِهِ فَضَنَّ عَنِّي بِهِ، وَلَمْ يَجُدْ
فَقَلَتُ لِلظَّبِيِّ فِي صَعْوَبَتِهِ: يَا طَيْبَ الرُّوحِ، طَيْبَ الْجَسَدِ
كَمْ مِنْ أَخِي جَادَ بِالْوَصَالِ فَمَا أَخِيلَ مِنْ وَضَلِّنَا وَلَمْ يَلِدَا!



فَقُمْتُ حَتَّى حَلَّتُ مُثَرَّزَهُ مِنْهُ، وَسَوَيْتُ فَخْذَهُ بِيَدِي
ثُمَّ اعْتَنَقْنَا، وَظَلَّتُ أَلْثَمَهُ وَثَغْرَهُ مِثْلُ سَاقِطِ الْبَرَدِ
وَنَمْسَكَ خَتَامِ غَزْلِيَّاتِهِ بِتَصْرِيْحِهِ أَنَّهُ يُعْشِقُ غَيْرَ هِيَابِ، وَلِهِ دِينٌ فِي هَذَا
الْمُضْمَارِ وَلِلنَّاسِ آخَرُ، فَلَمْ يَفْسِدُونَ عَلَيْهِ حَيَاتَهُ؟ وَيَسْفَهُونَ أَقْوَالَهُ؟ يَقُولُ:

إِنِّي عَشَقْتُ وَمَا بِالْعُشْقِ مِنْ بَاسٍ مَا مَرَّ مِثْلُ الْهُوَى شَيْءٌ عَلَى رَاسِي
مَا لَيْ وَلِلنَّاسِ كُمْ يَلْحُوْنَيْ سَفَهَا دِينِي لِنَفْسِيِّ، وَدِينُ النَّاسِ لِلنَّاسِ⁽³⁾
أَمَا عَنْ مجُونِ أَبِي نواسِ فِي خَمْرِيَّاتِهِ، فَالْحَدِيثُ عَنْهَا طَوِيلٌ وَشِيقٌ،
وَكَيْفَ لَا؟ وَأَبُو نواسِ شَاعِرُ الْخَمْرِ الْأَوَّلُ فِي كُلِّ تَارِيخِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ،
«وَأَشَدُ الشُّعُّرَاءِ عَنْيَا بِالْخَمْرِ، وَأَكْثَرُهُمْ افْتَنَانًا فِيهَا، وَأَنَّ النَّاسَ جَمِيعًا
شَهَدُوا لَهُ فِي ذَلِكَ بِالسُّبْقِ وَالتَّقْدِيمِ، لَمْ يَفْضِلُوا عَلَيْهِ أَحَدًا مِنَ الشُّعُّرَاءِ،
الَّذِي جَاءُوا قَبْلَهُ، أَوْ بَعْدَهُ، وَهُمْ مَحْقُونُ فِي ذَلِكَ»⁽⁴⁾، فَهُوَ بِشِعْرِهِ فِيهَا لَا
يَرِيدُ الْوَقْوفَ عَلَى طَلْلِ، كَمَا فَعَلَ سَابِقُوهُ، بَلْ يَسْأَلُ عَنْ خَمَارِ الْبَلَدِ

(1) المصدر عينه. ص 313.

(2) المصدر السابق، ص 197.

(3) طه حسين: حديث الأربعاء. ص 436.

(4) طه حسين: حديث الأربعاء، ص 413.

ليشربها معتقدة من كف غلام أهيف، يقول:

عاج الشقئ على رسم يسائله
وَعْجَتْ أَسَائِلُهُ دُغْ ذَا عَدْمَتْكَ وَاشْرَنَهَا مَعْتَثَةً
صفراء تعرُّقُ بين الروح والجَسَدِ
من كفٍ مُضطَمِيرٍ الرَّئَارِ مُغْتَدِلٍ كَانَهُ غُضْنُ بَانِ غَيْرُ ذِي أَوْدٍ⁽¹⁾
وأبو نواس في جريه وراء الخمر، لا يحفل بقاعدة دينية أو خلقية،
بل يتخذ الإباحة والصراحة مذهبًا، ويرى الحياة، سكرة بعد سكرة، وفتاكا
ومجوناً ثم كفراً، وذلك بقوله:

الَا فاسقني خمراً وقل لني هي الخمرُ
فابن طال هذا عنده قصر الدهرُ
فعيش الفتى في سكرة بعد سكرة
ولَا خيرٌ في فَشِيكٍ بغيرٍ مَجاَنةٍ⁽²⁾
ولا تسقني سرًا إذا أمكن الجهرُ
إذا ما أردنا جمع وتحليل خمريات هذا الشاعر⁽³⁾، لضيق عنه هذا
البحث، ولكننا نقول إن ظاهر نصوص خمرياته وغزله الفاحش، تنبئ بأنه
كان زنديقاً، وأن زندقته أشبه بالزندة الفكرية الاجتماعية والدينية. فمن
زندقته الفكرية قوله:

دُغْ عَنْكَ لَوْمِي فِيَّ اللَّوْمِ إِغْرَاءً وَداوْنِي بِالْتِي كَانَتْ هِي الدَّاءُ



وقل لمن يدعى بالعلم معرفة حفظت شيئاً، وغابت عنك أشياء
لا تحظر العقر إن كنت امراً حرجاً فإن حظرك في الدين إزراء⁽⁴⁾
أما الاجتماعية ففي قوله:

(1) المصدر السابق، ص 416. والديوان، ص 46. وهناك بعض الاختلاف في رواية الكلمات.

(2) الديوان: ص 28. والبيت الأخير في: ط حسين: حديث الأربعاء: ص 418. وانظر بقية القصيدة في الديوان. حيث تراه مع عصبة من المجان يفحشون ويفجرون بغلام يلوطون به الواحد تلو الآخر.

(3) انظر إلى القصائد في الديوان في باب الخمريات وخاصة ص 1 و 24 ...

(4) المصدر نفسه.

وصيف كأس محدثة ملِكٌ تبَهُ مُغَنٌ وظرف زنديق⁽¹⁾

وأما الدينية ففي مثل قوله:

حياة ثم موت ثم بعث حديث خرافية يا أم عمر و⁽²⁾

وخلاصة القول أن أبا نواس عاش ماجناً يرى السعادة في اقتناص
الملذات وسماع القيان وهو يعاشر الخمرة، ويقول:

لكتما العيشُ في اللذاتِ، متكتناً وفي السَّماعِ، وفي مج الأباريق⁽³⁾

ونستخلص مما تقدم في أبي نواس، أنه كان يعتنق المجنون، ويتبعد
لملاذ الحضارة التي عاشها، والتي سببتها حياة المدن والقصور، وتلاقي
الأمم على اختلاف أعرافهم، ومزاجهم في مجتمع بغداد والبصرة، ودمشق
والковفة، ولكل من هذه الشعوب ثقافة وعادات وربما أديان متصلة في
نفوسهم يحتاج انتفاوها إلى قرون وقرون.

وهذا المجنون العاهر جعل أبا نواس يطعن في الدين الإسلامي ، كأنه
يرى فيه عائقاً لحياته الآثمة الغارقة في الخمر والمجنون. ولذلك تراه
مضطرباً في عقيدته تارة يعلن دهريته، - كما بینا .، وينفي البعث والنشور،
وطوراً يظهر مؤمناً عاصياً⁽⁴⁾. وعلى الرغم من كل ذلك، تراه يطلب عفو الله
ومغفرته، في رنة ذليلة خاضعة:

يا رب إن عظمت ذنوبِي كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم
ما لي إليك وسيلة إلا الرجال وجميل عفوك ثم إني مسلم⁽⁵⁾
ثرى ! هل يغفر الله لهذا الزنديق، آثامه وخطاياه، ويعفو عنه، وقد

(1) الديوان: ص.6. المرتضى: الأمالي: 1/143.

(2) ابن قيبة: الشعر والشعراء 2/691.

(3) الديوان: ص.43.

(4) أبو هنان: أخبار أبي نواس، ص.49.

(5) الديوان: ص.618.

رجاه معلنا إسلامه؟ هل يصفح له بعد عكوفه الطويل على المعصية؟ بقوله:
 ألم ترني أبحث اللھؤ نفسي ودينی، واعتكفت على المعاشي
 كأنّي لا أعود إلى مَعَادٍ ولا أخشى هنالك من قَصَاصٍ⁽¹⁾
 أو يقبل الله توبه زنديق عجن بالمعصية، وغُرق بدن لذتها حتى أذنيه؟
 في مثل قوله:

فإِنِّي قد شبعتُ من المعاشي وَمِنْ لَذَاتِهَا، وَشِيْغَنَ مَنِّي⁽²⁾
 ربما ! والله أعلم.

13 - أبو العتاهية (إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني)
 (748 - 130 هـ / 826 م)

أحد ثلاثة الكبار الذين اتهموا بالزندة في القرن الثاني الهجري⁽³⁾،
 ولكن منهجه وموضع شعره، اختلف عن نظيريه اختلافاً يبينا، فبينما يفصح
 بشار عن عقيدته بتقديس النار، وتفضيله إبليس على آدم⁽⁴⁾، وبجاهر أبو
 نواس بالغزل بالغلمان والفسق والمجون⁽⁵⁾، ترى أبو العتاهية يسلك دريأً
 آخر معاكساً لهما إذ يطرق باب الزهد بشعر غزير لم يألله المجتمع
 الإسلامي من قبل، فيرمي بالزندة، رماه بها كثيرون من معاصريه، وكذلك
 من جاء بعده، وقرأ شعره وأخباره.

وأول من اتهمه بالزندة من معاصريه، منصور بن عمار السلمي،
 المنافس له في فن الرhed والوعظ، عندما قال عنه: «أبو العتاهية زنديق»
 لأنّه لا يذكر في شعره الجنة والنار، وإنما يذكر الموت فقط، فيرد عليه أبو
 العتاهية بهجاء لاذع، يتندق فيه، وهو ينفي التهمة عن نفسه، يقول:

(1) المصدر، ص 622.

(2) المصدر: ص 617.

(3) والآخران، هما: أبو نواس وبشار بن برد.

(4) البحث ص 295 - 296.

(5) أنظر البحث ص 307 - 308.

يا واعظ الناس قد أصبحت متهمًا إذ عيَّبت منهم أمورًا أنت تأطيها كالملبس الشوب من عزٍّي وعورته للناس باديه ما إن يُواريها⁽¹⁾
وربما شنع عليه منصور بن عمار بالزنقة لتهاونه بالجنة، وابتداله ذكرها، إذ روى الأصفهاني مسندًا روایته إلى محمد بن أبي العتاهية أنه قال: «لما قال أبي في عتبة»⁽²⁾:

شُنْعَ عَلَيْهِ مُنْصُورٌ بِالْزَنْدَقَةِ، كَمَا شُنْعَ عَلَيْهِ أَيْضًا بِقَوْلِهِ:

إِنَّ الْمُلْكَ رَبُّكَ أَخْ
فَهَذَا بِقُدْرَةِ نَفْسٍ
سَنَ خَلْقِهِ وَرَأَيْ جَمَالِكَ
حُورَ الْجِنَانِ عَلَى مَثَالِكَ

وقال: «أيُصوِّرُ الحور على مثال امرأة آدمية، والله لا يحتاج إلى مثال! وأوقع له هذا على ألسنة العامة، فلقي منهم بلاء»⁽³⁾.

ورماه من معاصريه بالزندقة، أيضاً، سلم الخاسر، وربما كان ذلك لحسد أبي العتاهية منه، لانقطاعه إلى الفضل بن يحيى البرمكي وكثرة نواله من بره وخيره⁽⁴⁾.

ودلل سلم «على زندقة أبي العتاهية بكذبه في تنسكه وتقشهه، فهو ينفر الناس من الدنيا، ويدعوهم إلى الزهد، ومع ذلك فهو يمدح ويسأل، ويتهالك على المال، ويحرض عليه، ويقر على نفسه. قال سلم يندد بمراءة أبي العتاهية ونفاقه في زهده».

(1) الأصفهاني: الأغاني: 3/142 والرازي (محمد بن عبد الرحمن بن أبي حاتم): الجرح والتعديل. طبع حيدر آباد الركن 1952. 4/176. والخطيب البغدادي: تاريخ بغداد: 13/71.

(2) الأصفهانی: الأغانی: 151 / 3

(3) المصدر عنه.

⁽⁴⁾ المصدر السابق: 261/19. طبعة ساسى.

ما أقبح التزهيد من واعظ
لو كان في تزهيد صادقاً
ورفض الدنيا ولم يلقاءها
يخاف أن تنفق أرزاقه
الرزق مقسم على من ترى
يُرْهَدُ النَّاسَ لَا يُرْهَدُ
أَضْحَى وَأَمْسَى بِيَتِهِ الْمَسْجِدُ
وَلَمْ يَكُنْ يَسْعَى وَيَسْتَرِفُ
وَالرِّزْقُ عَنْهُ لَا يَنْفَدُ
يَنْأَى هُوَ الْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ⁽¹⁾

وثالث متهميه بالزنادقة من معاصريه، هو إبراهيم بن المهدى، الذي رأى فيه إنساناً سين الطوبة، رديء السيرة، يتحلل الزهد ويتكلفه ليصل إلى الشهرة الرفيعة، والمكانة العالية، كما رأه ينعي الحياة إلى الناس وبكيها، ويفسد عليهم فرحة الدنيا وبهجتها، وهذا ما ينافي روح الإسلام. قال هبة الله بن إبراهيم بن المهدى: «بلغ أبا العتاهية أن أبي رماه بالزنادقة في مجلسه، فعاتبه بقصيدة على لسان اسحق الموصلى، فكتب إليه أبي»⁽²⁾:

يا ويح ذي السن الضعيف أماله عن غيه قبل الممات تناهى
إني رأيتك مظهراً لزهادة تحتاج منك لها إلى أشباء
وقد ارتاب به «صاحب الزنادقة» (حمدويه)، فاتهمه بالزنادقة، وعزم
على اعتقاله وقتله، فموه عليه، ونجا منه⁽³⁾.

يبدو أن أشهر الأخبار التي وردت في رمي أبي العتاهية بالزنادقة في حياته، كان أكثرها تنافساً وتحاسداً وتباغضاً، - بينه وبين بعض الوعاظ والشعراء من أهل عصره - ولعلهم لم يختلفوا التهمة اختلافاً، بل تراهم وقد عللواها، واحتجوا لها، إذ وقفوا في زهده على شبهاه، ووجدوا سلوكه ينافق قوله وما يدعوه إليه، فارتباوا به، وطعنوه.

ويستفاد من تلك الأخبار، أن خصومه قرفوه بالزنادقة لأسباب مختلفة.

منها:

(1) الأصفهانى: الأغاني: 3/ 164. وابن خلكان: وفيات الأعيان: 2/ 352.

(2) الأغاني: 3/ 177 وانظر بقية القصيدة.

(3) المصدر السابق: 4/ 7. دار الكتب.

أ - إكثاره في زهده من الحديث عن الموت والفناء والقبور وما يتبع ذلك من حزن ومرارة وأسى وكآبة، وتقليله عن البعث والحشر والجنة والنار، مما يخالف ما جاء في القرآن من وصف مفصل للأخرة ونعييم الجنة وعذاب النار، ومما يستثير الشك في مصدر زهده البعيد في جوهره عن الإسلام، والقريب، ربما، من ديانات الأعاجم.

ب - استخفافه بالقرآن، وادعاؤه أن بعض قصائده خير من بعض سوره ! روى الأصفهاني عن ابن سلمة قال: «سمعت أبا العتاية يقول: قرأت البارحة «عم يتساءلون»⁽¹⁾، ثم قلت قصيدة أحسن منها»⁽²⁾.

ج - نفقة في زهده، فهو يدعى الغير للبذل والعطاء، وفي الوقت ذاته يجمع المال ويدخل به، ويكتنزه، وذلك مغایر للزهد الإسلامي، موافق للزهد المانوي. حسب رأي الجاحظ⁽³⁾، والبيروني⁽⁴⁾ :

هذا عن معاصريه، لكن بعض من ترجموا له، وقفوا عند زندقته، وأبانوا عن أسبابها وحددوا نوعها، منهم :

1 - ابن قتيبة الذي جعله دهرياً، في إشارة أبي العتاية إلى السماء، وقوله :

إذا ما استجَرَّت الشَّكُّ في بعْضِ مَا تَرَى فَمَا لَا تَرَاهُ الدَّهْرُ أَمْضى وَأَخْوَرُ⁽⁵⁾
وجعله زنديقاً، دون تحديد نوع زندقته في أقوال أخرى⁽⁶⁾.

2 - أبو الفرج الأصفهاني، رأه مطلعًا على آثار اليونان وأقوال

(1) القرآن الكريم: سورة الباء 1.

(2) الأصفهاني: الأغاني : 143 / 3.

(3) الجاحظ: الحيوان: 4 / 457 - 459 طبعة البابي الحلبي بمصر 1938.

(4) البيروني (أبو الريحان، محمد بن أحمد) الآثار الباقية عن الفرون الخالية: نشر إدوارد سخاو. ليزغ 1923، ص 207.

(5) ابن قتيبة: الشعر والشعراء: 2 / 679.

(6) انظر البحث: ص 314 الهامش رقم 2 والأغاني 3 / 151.

فلاسفهم، فزندقته على هذه الحال زندقة فكرية، ويتمثل بقوله في رثائه صديقه «علي بن ثابت» المتهم أيضاً بالزندقة⁽¹⁾:

بَكِيْتُكَ يَا عَلِيٌّ بِدَمْعٍ عَيْنِي فَمَا أَغْنَى الْبُكَاءُ عَلَيْكَ شَيْئاً
وَكَانَتْ فِي حَيَاةِكَ لِي عِظَاتٌ وَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيَا

قال الأصفهاني⁽²⁾: «هذه المعاني أخذها كلها أبو العتاهية من كلام الفلاسفة لما حضروا تابوت الاسكندر، ... قال بعضهم: كان الملك أمس أهيب منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس». وهذا المعنى هو الذي ذكره أبو العتاهية في شعره.

3 - ابن المعتز، يعتقد أنه كان ينتحل الزهد، فيظهر التقشف والتقوى، ويبطن الخبث والفساد، ويجزم بمانويته، إذ يقول: «والذي يصح عندي أنه كان ثنوياً يذهب مذهبهم، خيث الدين، ناسك الظاهر»⁽³⁾.

ومما تقدم، نرى أهل عصره، والمترجمين له من الأدباء والعلماء الأقدمين، يتفقون على أنه رمي بالزندقة إما تأثراً بالمانوية والدهرية، فتكون زندقته زندقة دينية، وإما تأثراً بآداب الفرس وفلسفة اليونان، ف تكون زندقته زندقة فكرية.

هذه آراء الأقدمين في أبي العتاهية، فكيف كانت آراء الكتاب المحدثين فيه؟

رأى «محمد بدیع شریف» أن زندقة أبي العتاهية، كانت زندقة دینية خالصة، لأنه آمن بالاثنينية، ودان بالمانوية، فقد بدأ بالغزل، ومال إلى الزهد، وتزندق فيما قاله في تصاعيف شعره من المعاني الدالة على الاثنية في زهد هو مبدأ أصيل من مبادئ المانوية يشكل بما تقع عليه الحواس،

(1) ابن التديم: الفهرست 473.

(2) الأصفهاني: الأغانی: 3 / 147.

(3) ابن المعتز: طبقات الشعراء: ص 364 و 228.

فكيف بمن لا تقع عينك عليه؟⁽¹⁾ كما رأه شعوبياً ورأى أن شعوبته قادته إلى اعتناق المانوية، واتخاذ الزهد سلاحاً لتدمير الحياة العربية الإسلامية، إذ أن «الزهد يقتل الطموح، ويصرف الأنفس عن الحياة، وينقل الأمة من أفق واسع تتنظم فيه الإنسانية، إلى أفق ضيق منطوري، تسعى المانوية إليه»⁽²⁾ وإذا ما كان أبو العناية شعوبياً، ويسعى إلى ترويج دين الشعوبية، فمن الممكن إضافة الرندقة السياسية إلى زندقتة الدينية.

وقد رأى «محمد محمود الدش» أنه كان يطن المانوية، ويصطنع الزهد ليستر به زندقته، وقد رام طمس الشريعة الإسلامية، وإضعاف العرب، وبعث الديانة المانوية، وإقامة الدولة الكسرية، وإذا ما كان زملاؤه الزنادقة قد أشاعوا مبادئهم عن طريق الخلاعة والمجون وأوصلوها إلى صفوف الخاصة، فقد سلك هو طريقه إلى بيوت العامة الفقراء عن طريق الزهد الذي يقوم على المسكنة والمذلة والخمول والسلبية في الحياة»⁽³⁾.

أما «محمد جابر عبد العال» فرأى أن زهده متاثر بالمانوية والمذاهب الفلسفية اليونانية والرهبة المسيحية⁽⁴⁾.

ورأى «جولد تسير» أنه تأثر بالبوذية كثيراً، وربما تزين له أنه «ملك في زي مسكين» يعني بوذا، وهو ابن ملك زهد في الملك⁽⁵⁾، واستدل على ذلك بشعره:

(1) محمد بدیع شریف: الصراع بین العرب والموالی. طبع دار الكتاب العربي - مصر - 1954. ص 98.

(2) المصدر السابق: ص 102.

(3) محمد محمود الدش: أبو العناية، حياته وشعره: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر. القاهرة سنة 1968، ص 136.

(4) محمد جابر عبد العال: حركات الشيعة المتطرفين: مطبعة السنة المحمدية - القاهرة 1954، ص 145 - 157.

(5) جولد تسیر (إجناس) العقيدة والشريعة في الإسلام: ترجمة محمد يوسف موسى ورفاقه: دار الكاتب المصري، القاهرة 1946، ص 142.

يا مَنْ تَشَرَّفَ بِالْدُّنْيَا وَطَبَّنَتْهَا لِيْسَ التَّشَرَّفُ رَفْعَ الطَّينِ بِالْطِينِ
إِذَا أَرَدْتَ شَرِيفَ النَّاسِ كُلَّهُمْ فَانْظُرْ إِلَى مَلِكٍ فِي زِيَّ مَسْكِينٍ⁽¹⁾
يَبْدُو مِنْ مَرَاجِعَهُ أَشْعَارَهُ، وَأَخْبَارَهُ، أَنَّهُ كَانَ بَصِيرًا بِالْمَانُوَيْهِ، مَؤْمَنًا
بِالْأَثْنَيْنِيَّةِ، كَمَا يَقُولُ فِيهَا⁽²⁾، مَحِيطًا بِالْأَدَابِ الْفَارَسِيَّةِ، مَلِمًا بِالرَّهْبَنَةِ
الْمَسِيحِيَّةِ، عَارِفًا بِالْبُودُزِيَّةِ مَطْلُعًا عَلَى الْفَكَرِ الْفَلَسُوفِيِّ الْيُونَانِيِّ.

وَبِمَا أَنَّ الْمَانُوَيْهِ مَزِيجٌ مِنَ الْمَجْوِسِيَّةِ وَالْمَسِيحِيَّةِ وَالْبُودُزِيَّةِ، لِذَلِكَ كَانَ
سُلْطَانُهَا مُسْتَحْكِمًا فِي نَفْسِهِ، مُسْتَغْبِضًا فِي شِعْرِهِ الزَّهْدِيِّ⁽³⁾. وَلَمْ يَكْتُفِ أَبُو
الْعَتَاهِيَّةِ بِهَذِهِ الْمَنَابِعِ الْفَكَرِيَّةِ، بَلْ نَهَلَ أَيْضًا مِنْ مَنَابِعِ الْفَكَرِ وَالْأَدَابِ
الْعَرَبِيَّيْنِ وَالدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ وَاخْتَلَفَ إِلَى حَلْقَاتِ الْمُتَكَلِّمِينِ، وَوَقَفَ عَلَى
مَذَاهِبِ أَصْحَابِ الْمَقَالَاتِ، كَالْزِيدَيَّةِ الْبَتَرِيَّةِ، وَالْجَبَرِيَّةِ⁽⁴⁾، وَحْفَظَ الشِّعْرَ، وَأَتَقَنَ الْعَرَبِيَّةَ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ،
وَسَمِعَ الْحَدِيثَ، وَفِي شِعْرِهِ مَا يَدْلِلُ عَلَى ذَلِكَ⁽⁵⁾.

وَيَلُوحُ مِنْ كُلِّ مَا سَبَقَ أَنْ عَقِيْدَةَ أَبِي الْعَتَاهِيَّةِ كَانَتْ مَزِيجًا مِنَ
الْإِسْلَامِ وَالْمَانُوَيْهِ فَهُوَ لَيْسَ مُوْحَدًا خَالِصًا، وَلَا مَانُوَيَا ثُنُوْيَا خَالِصًا، بَلْ
حاَوَلَ الْجَمْعَ بَيْنَ الْعَقِيْدَتَيْنِ⁽⁶⁾. فَهُوَ وَالْحَالَةُ هَذِهِ مَانُويٌّ مِنْ نَمْطِ جَدِيدٍ،
يَمْزُجُ بَيْنَ الثُّنُوْيَّةِ وَالْإِسْلَامِ⁽⁷⁾، إِلَى جَانِبِ تَذَبِّبَهِ فِي مَذَهِبِهِ، فَإِنَّمَا اعْتَقَدَ
شَيْئًا وَسَمِعَ طَاعُنًا عَلَيْهِ تَرَكَ اعْتِقَادَهُ إِيَّاهُ وَأَخْذَ غَيْرَهُ⁽⁸⁾، وَأَنَّهُ رَجُلٌ عَاشَ

(1) أبو العتاهية: الديوان: دار التراث بيروت: 1969م. ص 274.

(2) عبد الرحمن بدوي: من تاريخ الإلحاد في الإسلام: ص 38.

(3) الدش: أبو العتاهية: ص 133 و 139.

(4) الأصفهاني: الأغاني: 3/128 وابن نباتة المصري (جمال الدين) سرح العيون في شرح رساله بن زيدون: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. نشر دار الفكر العربي - القاهرة 1964. ص 457 وانظر: الشهري: ملل ونحل: 1/108 و 207.

(5) الديوان: 103.

(6) انظر ما قاله أحمد بن حرب في ذلك. الأغاني: 3/128.

(7) شوقي ضيف: العصر العباسي الأول: ص 242.

(8) الأصفهاني: الأغاني: 3/128.

وسط تيارات من الفلسفات المختلفة والمذاهب المتباعدة، فاختلطت عليه الحياة، فهو يستخدم ما في الثنوية من فكرة الخير والشر بقالب إسلامي موحد ويظهر الزهد ويتكشف ويلبس الصوف، ثم يطرب بعد ذلك ويُمجّن⁽¹⁾، ويحن إلى لهو الشباب، وانغماسهم في مفاتن الحياة ولذاتها⁽²⁾، ويحب الحياة، ويحرص على الدنيا ويجري وراء المال ويبخل به حتى على نفسه⁽³⁾، وهذا ما يرجع أنه كان زنديق دين ودنيا. أي أن زندقته ضمت جميع ضروب الزنادقة.

14 - شعراء آخرون زنادقة:

إن الزنادقة التي تفشت إلى حد كبير في القرن الثاني الهجري، لم تقتصر على الشعراء الذين أسلفنا ذكرهم، بل تعدتهم إلى شعراء آخرين اتهموا بالزنادقة، أو ظهرت آثارها في أفعالهم وأقوالهم، ولكن كتب الأدب لم تحفل كثيراً بذكرهم، منهم:

- سليمان الأعجمي: أخو الشاعر مسلم بن الوليد، استجواب لفسن وجون بشار بن برد بعد أن اختلف إليه في صغره، وقبل عنه مذهبة⁽⁴⁾ وقد رأينا أن بشاراً اتهم بالزنادقة ومات، ربما، بسيبها.

- عمرو الخاركي: عاش خبيث الدين، ماجنا، بدت في شعره عناصر زنادقة واضحة، كمثل قوله:

إِنْ كَنْتُ أَرْجُوكَ إِلَى سَلْوَةٍ فَطَالَ فِي حَبْسِ الضَّئْنِ لَبْثِي
وَعِشْتُ كَالْمَغْرُورِ فِي دِينِهِ يُؤْقَنُ بَعْدَ الْمَوْتِ بِالْبَعْثِ⁽⁵⁾

- منقذ بن عبد الرحمن الهلالي: عاش في صدر الدولة العباسية،

(1) الأصفهاني: الأغاني: 4/78 دار الكتب.

(2) المصدر السابق: 4/45 و 109.

(3) المصدر السابق 4/50 و 16 و 2 - 17.

(4) الجاحظ: الحيوان: 4/195. مكتبة الحلبى القاهرة. 1938م.

(5) ابن الجراح (عبد الله محمد بن داود): الورقة: دار المعارف - مصر 1953م، ص 56.

في مدينة البصرة، مجن وتهتك وتعهر، واتهم بفساد الأخلاق والدين، ورمي بالزنقة⁽¹⁾، فجاءت زندقته اجتماعية دينية.

- ديك الجن الحمصي (161 - 778 هـ / 850 م): اسمه الحقيقي عبد السلام بن رغبان، لم يدخل أرض العراق طيلة عمره، ومع ذلك كان ماجنا خليعاً⁽²⁾، ولم يبرا من الزندقة، ومما نسب إليه ودل على زندقته أبيات معروفة ومنسوبة إلى أبي نواس:

أَتَرْكُ لِلَّذَّةِ الْصَّفَبَاءِ نَقْدًا لِمَا وَعَدْنَاهُ مِنْ لَبَنٍ وَخَمْرٍ
حَيَاةً ثُمَّ مَوْتٌ ثُمَّ بَعْثٌ حَدِيثُ خُرَافَةٍ يَا أُمَّ عَمْرُو⁽³⁾

وإذا ما صحت نسبة هذا القول لديك الجن، أو أنه كان يتمثل بها في حياته، فإننا نراه يستهجن بما جاء في القرآن الكريم من وعد المؤمنين والمؤمنات بجنتان فيها أنهار من لبن وخمر وعسل⁽⁴⁾، كما يصرح بأن البعث بعد الموت هو حديث خرافية فينفي أيضاً ما جاء في القرآن عن البعث والنشور⁽⁵⁾. وبهذا تكون زندقة ديك الجن زندقة دينية، مضافة إلى زندقته الاجتماعية الماجنة.

- أبو الشمقمق (200 هـ / 815 م): مروان بن محمد، الشاعر الهجاء، ذو اللسان السليط، الذي هابه كل الناس حتى الشعراء الفحول، أمثال بشار بن برد الذي اشتري منه هجاءه له بمائتي درهم كجزية يدفعها كل عام⁽⁶⁾، خالط كبار الخلق والمجان في عصره، الذين اتهموا بالزنقة

(1) المرزباني: معجم الشعراء، ص 404.

(2) الزركلي: الأعلام: 5/4.

(3) الراغب الأصفهاني (أبو القاسم حسين بن محمد): محاضرات الأدباء: المطبعة الشرقية، القاهرة 1326هـ. 2/ 183.

(4) سورة محمد: 15/47.

(5) المعجم المفهرس لأنفاظ القرآن. مادة (بعث) ص 124. دار إحياء التراث العربي.

(6) الزركلي: الأعلام: 7/ 209.

مثل أبي نواس، ومسلم بن الوليد، وأيضاً الشاعر الزاهد أبو العناية⁽¹⁾.
وحتى حذوه، وبهذا يكون قد تزندق اجتماعياً.

- ومن اتهم في دينه، فأظهر الإسلام وأبطن الزندقة الشعراء:
إبراهيم بن سيابة واسحق بن خلف، وعلي بن ثابت⁽²⁾.

ورمي بالزنادقة شعراء آخرون أسرفوا في الخلعة والمجون⁽³⁾، وهذه الكثرة من الشعراء، الذين انعكس في شعرهم تيار الزندقة في القرن الثاني، إنما يمثلون مذهباً - هو الزندقة -. كان وجوده نتيجة حتمية للثقافات الأجنبية الراخدة بالمنطق وعلم الكلام والفلسفة، المتمثلة بمجتمع الكوفة والبصرة وبخاصة بغداد، الذي يعج بأقوام اختلفوا في الجنس والدين والعادات، وامتزجوا بالسكن والتزاوج، فجاء ولد هذا العصر مصهوراً من أفكار ومذاهب ونحل مختلفة، ناشتاً في حالة شك مؤقتة أو مستمرة أحياناً عند بعض الشعراء والعلماء والأدباء أيضاً.

يضاف إلى ذلك عوامل سياسية واجتماعية كثيرة، فقوى تيار الزندقة الذي رأيناه ولداً في الجاهلية، وشاباً زمن صدر الإسلام وبني أمية، ورجالاً كاملاً في العصر العباسي الأول، وكثير الزنادقة الذين ربطوا أنفسهم بنحل ومذاهب شتى، فتنوعت زندقتهم.

الزنادقة الكتاب والأدباء، وغيرهم...

تحديثنا عن الزندقة في صفوف الشعراء، وأوردننا المشهورين منهم في هذا المجال، وأتينا ببعض ما قالوه وتزندقوا به، من جحود بالدين ومرارة عنه، ونفاق في السريرة والطوية بحيث يبطنون ما لا يظہرون. وقد رأينا

(1) المرزباني: معجم الشعراء. ص 397.

(2) ابن المعتر: طبقات الشعراء. ص 93 وابن النديم: الفهرست: ص 473.

(3) ستحدث عنهم لاحقاً في فصل (المجون).

البعض يتعهر ويفجر ويرتكب الفواحش والموبقات، غير آبه للضوابط الدينية والأخلاقية والاجتماعية، والبعض الآخر يعيش المجون والسكر والظرف، وأيضاً الزهد.

وحتى لا نظلم الشعراء في عالم يعيش الزنندة بكل معاناتها فإننا سنبحث فيما يلي بزناندة آخرين من الكتاب والأدباء والعلماء ورجال حكم وسياسة.

1 - **النظام**: (إبراهيم بن سيار بن هانئ البصري) (231هـ / 845م)

هذا المتبحر في علوم الفلسفة والمنطق، والمطلع على أكثر ما كتبه رجالها من طبيعيين وإلهيين، انفرد بآراء خاصة، كانت دستوراً لفرقة تبعته⁽¹⁾.

عاشر النظام قوماً من الثنوية، وقوماً من السمنية، وخالفت ملائحة الفلاسفة، ودون مذاهبهم وبدعهم وشبههم، وأعجب بقول البراهمة ببطلان النبوات، استثقل أحكام الشريعة الإسلامية، وأنكر إعجاز القرآن في نظمه⁽²⁾، فكفره الكثيرون⁽³⁾، واتهموه بالزنندة⁽⁴⁾.

ومما أخذ على النظام، رأيه بشأن فرائض الدين الإسلامي، بحيث يرى أن من ترك صلاة مفروضة عمداً، لا يصح قضاوته لها بعد ذلك ولا يجب عليه قضاوها⁽⁵⁾. وهذا كفر حسب رأي أكبر الفقهاء، إذ أفتى أحمد بن حنبل بكفر تاركها عمداً، وأوجب الشافعي قتل تاركها، وأوصى أبو حنيفة بحبس تاركها وتعذيبه⁽⁶⁾.

(1) سميت بالنظامية نسبة إليه، البغدادي: الفرق بين الفرق. دار المعرفة - بيروت، ص 131.

(2) المصدر نفسه: ص 131 - 132.

(3) منهم أبو الهذيل، والججاني، والأشعرى، المصدر السابق، ص 132 - 133.

(4) الزركلي: الأعلام: 43/1.

(5) البغدادي: الفرق بين الفرق: ص 146.

(6) المصدر نفسه.

طعن النظام في أخبار الصحابة والتابعين، وعاب أصحاب الحديث الذين نقلوا عن أبي هريرة، وشكك بإيمان عمر بن الخطاب - يوم الحديبية، ويوم وفاة الرسول⁽¹⁾ ..

وكان النظام إلى جانب علمه الغزير، فاسقاً، جريئاً في ارتکاب عظيم الذنوب ، مدمداً في شرب المسكر، يقول في الخمر:

ما زلت آخذُ روحَ الرِّزْقِ فِي لَطْفٍ وَاسْتَبِحُ دَمًا مِنْ غَيْرِ مَذْبُوحٍ
حتى انتشيت ولبي روحانٍ في بدنِ الرِّزْقِ مُطْرَحٌ جَسْمٌ بِلَا رُوحٍ⁽²⁾

2 - عبد الله بن المقفع: (106 - 142 هـ / 759 - 760 م)

إمام من أنمة الكتاب، وأول من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق، ترجمتها للمنصور العباسي، كما ترجم عن الفارسية كتاب «كليلة ودمنة»، وأنشأ رسائل غاية في الإبداع⁽³⁾.

ولد هذا العالم الأديب في العراق مجوسياً (مزدكياناً)، وأسلم على يد عيسى بن علي، عم السفاح⁽⁴⁾، ولكن الدين الجديد لم يتمكن أن ينزع من قلبه ما علق به من دين الآباء والجدود، فتراه يمر ببيت نار للمجوس بعد أن أسلم، فتنازعه روحه، وتصبو نفسه إلى الميل إليه، ويتمثل بقول الأحوص:

يَا بَيْتَ عَاتِكَةَ الَّذِي أَتَعَزِّلُ حَذَرَ الْعِدَا وَبِهِ الْفَوَادُ مُوَكِّلُ
إِنِّي لَا مَتَحْكِمُ الصُّدُوْدُ وَإِنِّي قَسْمًا إِلَيْكَ مَعَ الصُّدُوْدُ لِأَمْيَل⁽⁵⁾
وبمثل هذا التصرف، يمكن أن يكون ابن المقفع قد أظهر الإسلام وأبغض دينه القديم (المجوسية) وألجه خوف القتل إلى المسترة، فينضوي

(1) المصدر، ص 147.

(2) المصدر، ص 150.

(3) منها الأدب الصغير، والأدب الكبير، ورسالة الصحابة. الزركلي: الأعلام: 140 / 4.

(4) المصدر السابق.

(5) الشريف المرتضى: الأimali: 1 / 135.

تحت لواء الزندقة الدينية، كما يعد إماماً في الزندقة الفكرية، فقد روي عن المهدي أنه قال: «ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المتفق»⁽¹⁾.

حاول ابن المتفق أن يعارض القرآن بكتاب من نظمه، وبذلك يكون قد نفى القدرة الإلهية عن «القرآن المنزّل» ولم يقم وزناً لدين «محمد بن عبد الله»⁽²⁾.

ولعل ابن المتفق كان يؤمن فعلاً بإحدى ديانات المجروس⁽³⁾، وربما شكك بها أيضاً كما شكك في الإسلام حين قال في «كلبنة ودمنة، باب بروزويه»: «فعدت إلى طلب الأديان والتلامس العدل منها، فلم أجده عند أحد من كلامته جواباً فيما سأله عنها ولم أرَ فيما كلاموني به شيئاً يحق لي في عقلي أن أصدق به ولا أن أتبعه»⁽⁴⁾.

وهذا الشك بالإسلام واعتقاد الثنوية، تؤكده ملاحظة «أحمد بن يحيى ثعلب» على أبيات لابن المتفق، رثى بها يحيى بن زياد:

رُزِئْنَا أبا عمرو ولا حَيٌّ مثله فِيلَه رِبُّ الْحَادِثَاتِ بِمَنْ وَقَعَ
فِيَانْ تَكُّ قد فارقْتَنَا وَتَرْكْتَنَا ذُوِيَّ خَلَّةٍ مَا فِي اِنْسَادِ لَهَا طَمَعَ
لَقَدْ جَرَّ نَفْعًا فَقَدْنَا لَكَ أَنَّا أَمِنَّا عَلَى كُلِّ الرِّزَايَا مِنَ الْجَزَعِ⁽⁵⁾
فقد رأى ثعلب في البيت الأخير فكرة الثنوية، في أن الخير ممزوج بالشر، والشر ممزوج بالخير. وربما يكون ذلك في قلب ابن المتفق، سيما وأنه فارسي الأصل عربي المولد واللسان، مطلع على فكر وعلوم وديانات الهند والإغريق والفرس والعرب، فلا غرو بعد هذا أن يتزندق دينياً وفكرياً، ويقتل على يدي أمير البصرة متهمًا بالزندة⁽⁶⁾.

(1) المصدر السابق.

(2) محمد بديع شريف: الصراع بين الموالي والعرب. دار الكتاب العربي - مصر 1954م، ص 67.

(3) عبد الرحمن بدوي: من تاريخ الإلحاد في الإسلام: ص 40 وما بعد.

(4) المصدر السابق: ص 51.

(5) أمالی المرتضی: 1/135. ويرى الأخفش أن الآيات قالها ابن المتفق برثاء ابن أبي العوجاء.

(6) الزركلي: الأعلام: 4/140.

3 - عبد الكريم بن أبي العوجاء: (155هـ / 772م)

وهو من الذين اتهمهم الشريف المرتضى بإظهار الإسلام لصون أهله ودمه وماله، وهو مدغل في الدين، مموه على المستضعفين، كافر مشرك وزنديق ملحد⁽¹⁾، قال لما قبض عليه والي الكوفة⁽²⁾، وأيقن بأنه مقتول: «أما والله لئن قتلتموني لقد وضعتم في أحاديثكم أربعة آلاف حديث، أحقر فيها الحلال، وأحل فيها الحرام، والله لقد فطرتكم في يوم صومكم، وصومتكم في يوم فطركم»⁽³⁾.

ومن اللافت للنظر تصريح ابن أبي العوجاء هذا في دمه «أكاذيب ومفتيارات» على الإسلام، حتى ينتقم لثورة جارفة في صدره على هذا الدين الذي حل محل معتقده القديم ومذهبه السابق، ربما، أو لغاية مخفية في أعمقه، لم يجهر بها، ولم تكشف عنها مرويات الكتب.

ويكفيه زندقة دينية تصريحة هذا، بوضعه الحديث الكاذب على لسان «الرسول» وجهره بتحريم الحلال وتحليل الحرام، بعدما أفسد الأحداث من الصبية وعلمهم مذهب⁽⁴⁾ فيقتل ويصلب، ويتهمه بشار بالحمق حيث باع الإسلام بالكفر، ويراه لا يصلني، وإن صام فبعض النهار، يبحث عن عتيق الخمر، ومن ثم يحلّي عنقه بالزندة لا بالحنفية⁽⁵⁾. يقول:

جاءَ بعَثَتِ الإِسْلَامَ بِالْكُفَرِ مُوقَأَ
 تَ فِي بَعْضِ النَّهَارِ صَوْمًا رَقِيقًا
 رِ عَتِيقًا، أَنْ لَا تَكُونَ عَتِيقًا
 دِ حَنِيفًا حُلِيَّتَ أَمْ زَنْدِيقًا

قَلْتُ عَبْدَ الْكَرِيمَ يَا ابْنَ أَبِي الْعَوْجَاءِ
 لَا تَصْلِي وَلَا تَصُومْ فَإِنَّ صُمْفَ
 لَا تَبَالِي إِذَا أَصْبَحَتَ مِنَ الْخَمْرِ
 لَيْتَ شِعْرِي غَدَا حُلِيَّتَ فِي الْجَيْشِ

(1) الأمالي: 1/127.

(2) وهو محمد بن سليمان والي الكوفة من قبل المنصور الخليفة العباسي. الطبرى: تاريخ الأمم والملوك 8/47.

(3) المصدر السابق. والأمالي: 1/128.

(4) الأصفهانى: الأغانى: 3/24. بولاق.

(5) المصدر السابق: 3/25. والأمالي: 1/137.

فبشار الزنديق، يتهم غيره بالزنندة، وهذا لعمري أكثر إثباتاً وأشد إيلاماً. ولعل ابن أبي العوجاء قد جمع في نفسه أكثر من زنندة، إذ كان في السر على دين المانوية وفي العلن على دين الإسلام، كما أنه قال بالتناسخ، ومال إلى الروافض، واعتقد بالقدر في بايبي التعديل والتجوير^(١).

4 - ابن وزير المهدى:

تفشت الزندة وانتشرت بين صفوف الخاصة وال العامة، حتى سرت إلى بيوت الوزراء والحكام، فقد تواترت الأخبار عن عزل الوزير معاوية بن يسار من قبل الخليفة المهدى لاعتناق ابنه تعاليم الزندة. وتقول هذه الأخبار «أن المهدى أراد أن يتحقق بنفسه من صدق الاتهام، فاستدعاى إليه ابن الوزير، الذى قدم مع أبيه، وسأله المهدى عن شيء من القرآن الكريم، فلم يحر جواباً»، فقال لوزيره: ألم تخبرنى أن ابنك يحفظ القرآن؟ فأجاب الوزير: بلى يا أمير المؤمنين، ولكن فارقني منذ مدة، فنسىه، فقال المهدى: قم فتقرب إلى الله بدمه، فقام ابن يسار فعثر ووقع وارتعد، فالتمس العباس عم المهدى من الخليفة أن يعفى الوزير من قتل ابنه، فأمر المهدى بعض من كان حاضراً، فضربت عنقه، ثم احتجب الوزير وانقطع بداره حتى مات سنة 170هـ⁽²⁾.

لكن الرواية المتقدمة لم تبين لنا وتفصح عن زندقة ابن الوزير هذا، وإنما نستدل منها على أنه قتل لعدم حفظه القرآن، ونتساءل هل يقتل الناس لمجرد اتهامهم بالزندقة وعدم معرفتهم وحفظهم للقرآن؟ أم أن هناك أسباباً أخرى لم تكشفها بطون الكتب بعد؟

لعل المهدى - وإن كان واجداً على الزنادقة وملاحقاً لهم في كل

(١) عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق. نشر العطار، القاهرة ١٩٤٨م، ودار المعرفة، ص ٢٧٣-٢٧٤.

(2) ابن طباطبا (محمد بن علي المعروف بابن الطقطقي): الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية: القاهرة 1923م، ص 163-166.

مكان - قد ثبتت من زندقة ابن وزيره، وإلا لما أمر وزيره المعظم، الذي كان قد فوضه تدبير المملكة والدواوين⁽¹⁾ أن يقوم ويتقرب إلى الله بدم ابنه. وهل يعقل أن يقتل الأب ابنه إلا لأمر شنيع و فعل فظيع؟ أو يشهد قتل ابنه إلا لمرقه عن الدين وعنده ذاك يجب قتله حسب أوامر الشريعة. فمن هنا نستنتج أن زندقة ابن الوزير كانت زندقة دينية.

5 - يزيد بن الفيض:

كان كاتباً لدى «المنصور»، قبض عليه (صاحب الزنادقة) نمر الكلوازي في عهد المهدي، الذي جد في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الآفاق، فأقر يزيد بما نسب إليه، فسجن، ثم هرب وتوارى⁽²⁾.

6 - يونس بن فروة: (150هـ / 767م)

كاتب أيضاً، متزندق، كتب للأمير «عيسي بن موسى» العباسي، ابن أخي السفاح، خالط من اتهم على الزنادقة من الكتاب والشعراء أمثال ابن المقفع، ووالبة بن الحباب، وحماد عجرد، وبشار بن برد، وحماداً الرواية وأخرين... كانوا يجتمعون على الشرب وقول الشعر، وبهجو بعضهم بعضاً⁽³⁾، وضع يونس (العربي بالولاء) كتاباً في مثالب وعيوب الإسلام⁽⁴⁾، وفي يونس هذا وملازمه لعصبة المجان المتزندقين يقول حماد عجرد: فلقد رضيت بعصبة أخيتكم وإنما لهم لك بالمعرة لازم⁽⁵⁾

عاش يونس بن فروة آخر حياته هارباً مستخفياً عن «عين الحكام» كنظيره يزيد بن الفيض، لأن ديوان الزنادقة لم يهدأ عن ملاحقتهم، حتى

(1) المرزاكي: الموضع: ص 395.

(2) الطبرى: تاريخ 8/ 165.

(3) الزركلى: الأعلام 8/ 263.

(4) الشريف المرتضى: الأمالي: 1/ 132.

(5) الزركلى: الأعلام 8/ 264.

في عهد الرشيد، الذي بدأ حكمه بتأمين الهاريين المستخفين، غير نفر من الزنادقة، ومنهم يونس ويزيد⁽¹⁾.

7 - يزدان بن باذان:

استشرت الزنادقة واستفحلا أمرها، فاشتد الخليفة «موسى الهادي» في طلب الزنادقة لأمرير:

أولهما تنفيذ وصية أبيه المهدي، وثانيهما كثرة عددهم، وتراء يأمر بإعداد ألف جذع لصلب جثتهم⁽²⁾.

بدأ «موسى» بتبنيهم فقبض على «يزدان بن باذان» بتهمة الإساءة إلى الإسلام وقد كان يزدان هذا كاتباً لليقطين - أحد رجال المنصور - ذكر عنه أنه حج، فنظر إلى الناس وهم يطوفون في البيت الحرام، مهرولين، فقال: «ما أشبههم إلا ببقر تدوس في البيدر». فصلبه الهاادي لاستهزائه بشعائر الدين، وقد بين الشاعر «العلاء بن الحداد الأعمى» مدى زندقة هذا الرجل ومرارة عن الدين، وحيث إيمانه وكفره بقوله للهاادي⁽³⁾:

أيا أمين الله في حَلْقِهِ
ووراث الكعبة والمئبر
ماذا ترى في رجل كافر
يُشبّه الكعبة بالبيدر
ويجعل الناس إذا ما سَعَوا
خُنْفراً تدوس البُرُّ والدُّوْسَرُ

فإذا ما صحت الرواية عن تشبيه الحجاج بظواهرهم كبقر تدوس في البيدر، فيكون قد تزندق زندقة دينية.

8 - تمامة بن أشرس: (213هـ / 828م)

أحد الفصحاء البلغاء المقدمين، اتصل بالرشيد والمأمون الذي اراد

(1) الطبرى: تاريخ 8/234.

(2) سيرة الليثي: الزندقة والشعوبية، ص 224.

(3) الطبرى: تاريخ 8/190.

أن يوزره فاستعفاه، من تلاميذه الجاحظ الذي قال عنه: «ما علمت أنه كان في زمانه قروي ولا بلدي كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه»⁽¹⁾ ومع هذه البلاعنة والفصاحة التي امتلكها، فقد عده المقريزي رئيساً من رؤوس الفرق الهاكمة⁽²⁾، اتهم بالكفر لقوله: «إن الآخرة هي دار ثواب أو عقاب، وليس فيها لمن مات طفلاً، لا يعرف الله تعالى، طاعة يستحق بها ثواباً، ولا معصية يستحق عليها عقاباً، فيصير حينئذ تراباً. ولقوله أيضاً: إن الأفعال المتولدة أفعال لا فاعل لها، وهذا ما يجر إلى إنكار صانع العالم»⁽³⁾.

لقد كان تمامة هذا مستهترأً مستهزاً، سكيراً ماجناً، روي عنه قوله، في دار الإسلام أنها دار شرك، وقوله لرفيق له، يوم رأى الناس يتعادون إلى المسجد لخوفهم فوات صلاة الجمعة: «أنظر إلى هؤلاء الحمير والبقر» ثم يردد: ماذا صنع ذاك العربي بالناس؟، يعني «الرسول». كما روي عنه أن المأمون ركب يوماً فرأى تمامة سكران، قد وقع في الطين، فقال له: «تماماً؟! قال: أي والله، قال: ألا تستحي؟ قال: لا والله، قال: عليك لعنة الله، قال: تترى؟ ثم تترى»⁽⁴⁾.

مما تقدم نرى أن تمامة قد تزندق زندقة فكرية، دينية، واجتماعية. قال بخلق القرآن، وسعى بأحمد بن نصر المروзи عند (الواشق) لمخالفته في المعتقد، فقتلته الخليفة، وقد انتقم منه جماعته «بني خزاعة»، في أرض مكة، وأطربوا جثته للوحوش الضارية⁽⁵⁾.

(1) الجاحظ: البيان والتبيين (1 - 3) تحقيق فوزي عطوي الشركة اللبنانيّة، ص.73.

(2) المقريزي: الموعظ والاعتبار في ذكر الخطط والأثار - بولاق - القاهرة / 1270هـ / 2 .347

(3) البغدادي: الفرق بين الفرق. ص.172.

(4) المصدر السابق: ص.173.

(5) المصدر. ص.174 - 175.

أ - ابن داود بن علي، ويعقوب بن الفضل: أقرا بالزنادقة في مجلس الخليفة المهدى، الذى أودعهما السجن ولم يقتلهمما لكونهما هاشميين، قائلاً: «أما والله لو لا أني كنت جعلت لله على عهداً إن ولاني هذا الأمر إلا أقتل هاشمياً لما ناظرتكم ولقتلتكم»^(١). وأوصى ابنه «موسى الهادى» وأقسم عليه ألا يناظرها من بعده، بل يقتلهمما على التو. ولكن ابن داود مات في الحبس قبل وفاة المهدى. أما يعقوب فقتل في سجنه في أول عهد الهاوى، وربما كان يدين بالمزدكية^(٢)، فامرأته أقرت بالزنادقة^(٣)، أمّا الخليفة، ووجدت ابنته فاطمة حبلى من أبيها، واعترفت بذلك وبزندقتها أيضاً، فضررت والدتها على رأسيهما وماتا^(٤).

ب - ابنة الشاعر مطیع بن إیاس: تفشت الزنادقة في مختلف طبقات المجتمع العباسى، فمن الشعراء إلى الكتاب، ومن العوام إلى الخاصة، وأصبحت مذهبأً وعقيدة يستشهد الناس في سبيلها، وما دامت تستشرى بين الذكور، فلم لا تدخل إلى خدور ربات الحجال؟ فتدین بها امرأة يعقوب بن الفضل وابنته، وكذلك ابنة الشاعر مطیع بن إیاس التي اعترفت صراحة أمام «الرشيد» أن أباها لقنتها تعاليم الزنادقة، وأنها قرأت كتب المانوية^(٥). ومن هذا الإقرار الصريح نستنتج أيضاً أن مثل هذه الكتب قد أتلق لألف سبب وسبب. ولو حق أصحاب هذه التعاليم إلى فترات طويلة من الزمن - تعدد انتهاء تاريخ بحثنا^(٦) - إما مجاهرين بمقائدتهم ملاحقين من الحكم وغيرهم، وإما مؤمنين سراً ظاهرين الإسلام.

(١) الطبرى: تاريخ 8/190.

(٢) الشهرستانى: الملل والنحل 2/86. دار المعرفة، والمزدكية قد أباحث النساء والمال.

(٣) الطبرى: تاريخ 8/191.

(٤) المصدر السابق.

(٥) الأصفهانى: الأغانى: 12/89 بولاق.

(٦) نهاية القرن الثاني الهجرى.

ج - هشام بن الحكم: (147هـ / 764م): اتهم بالزنادقة، والقول بالدهر، وإظهاره الإسلام للعمل على هدمه في براعة وتبصر، إذ كان مجللاً في علم الكلام، قوياً في حججه وجده عن ذات الإله وصفاته، كما اتهم في الطعن بالأنبياء والدفاع عن الأئمة⁽¹⁾. لكننا نراه يجادل الزنادقة لردعهم، وليس ابتغاء للخفيه وهرباً من أعين الرقباء⁽²⁾.

ولا غرو بعد هذا العرض للزنادقة في أصغر بحثنا، أن نرى الزنادقة قد تفشت بمعانيها المختلفة بين ظهرهم، دعاهم إليها دواع مختلفة، إن الدين قديم ألفوه وورثوه من الخلف إلى السلف بطقوسه ورموزه وعباداته، ولكنهم رأوا مناصب عديدة وعزيزة لا يستطيعون الوصول إليها إلا باتخاذهم الدين الجديد - ولو ثياباً ظاهرية، يخلعنها إذا خلوا إلى أهلهم - وإن لشك في الأديان عامة، والقول بسلطان العقل إلى أقصى حدوده⁽³⁾. ومثل هؤلاء قد نبذوا الأديان جملة، ودعوا إلى الإلحاد بأبعد معانيه. وأخرون انجرروا وراء شهواتهم وملذاتهم، فما الحياة إلا خمر ونساء وغلمان ! يغضبون على الدين عند تعارضه لرغباتهم.

والزنادقة كما رأينا توزعوا بين علية القوم وسفلاهم، خلفاء أمراء وزراء⁽⁴⁾ وشعراء وكتاب وعلماء. ولم تقتصر الزنادقة على الرجال وحدهم، وقد دلت النساء بدلائلهن في هذا المضمار.

وإذا ما كانت الخصومة الأدبية سبباً في الرمي بالزنادقة، كذلك كانت الخصومة الدينية والسياسية⁽⁵⁾. وقد عمد بعض الناس إلى اتخاذ الزنادقة ذريعة لانتقام من خصومهم سواء في ذلك الشعراء والعلماء والأمراء والخلفاء.

(1) البغدادي: الفرق بين الفرق. ص 65 وما بعد، الشهري: ملل ونحل: 2/ 21 وما بعد.

(2) الديبوري: عيون الأخبار 2/ 153. دار الكتاب العربي.

(3) وهي ظاهرة تماشي الإنسان في كل أصغر تاريخ الإنسانية.

(4) الوليد بن يزيد والبرامكة. البحث. زنادقة الأمويين، وابن التديم: الفهرست: ص 473.

(5) أحمد أمين: ضحي الإسلام: 2/ 157. دار الكتاب العربي.

ومن الممكن أن يكون قد رمى بها أناس كان لهم حرية رأي في بعض المسائل خالفوا فيها ذوي الرأي والشأن. على كل حال عرفت حركة الزندقة في العصر العباسي الأول عن الأعصر التي سبقت ونتج عن قرائح أصحابها شعر ونشر كثieran، كما قامت بالمقابل حركات الزهد والإيمان لتردد على حركات الشك والارتياح بمقالات علمية فقهية، مما أغنى المكتبة العربية، وجعل الأدب العربي يزخر بأنواع عديدة وضروب متباعدة من المواضيع والأفكار⁽¹⁾، فإذا ما استعرضنا بعض نتاج تلك الأعصر من فكر وعلم، نرى أن حياة اللهو والقصف والمجون قد صورت في كتاب الأغاني ودواوين الشعراء، وأن حياة الإيمان قد صورت في تراجم العلماء، أمثال طبقات ابن سعد، وطبقات المحدثين، فأنت تتارجح عند اطلاعك عليها بين اللهو والإباحة وبين الورع والتقوى، وتتصف إن حكمت أن الحياة أنواع وألوان متباعدة، فإن سرت مع الناس في مسكنهم وماكلهم، ملبسهم ومشربهم، عاداتهم وتقاليدهم، وما يصدر عنهم في كل ذلك فسترى مسجداً وحانة، وقارناً وزاماً، ومتهدجاً يرتفب الفجر، ومصطبيحاً في الحدائق، هناك تخمة من غنى، ومسكنة من إملاق، شكّاً في دين ومذهب وسياسة، وإيماناً في يقين. كل هذا كان في تلك الأعصر، وكل هذا سيكون في كل الأعصر.

القسم الرابع

الخصومات السياسية والأدبية:

طريق إلى الزندقة

من الملاحظ أن الخصومات السياسية - تتبعها الخصومات الأدبية - نشأت في الجاهلية مع الجماعة العربية في شكلها القبلي، وانتقلت معها إلى مراتع الإمارات، ومرابع الممالك. وكان الأدب بشعره ونشره رَسْم

(1) ستعرض بعضها بالعرض والمناقشة في نهاية البحث.

ولما جاء الإسلام، وانتشر في الجزيرة، وانساح خارجها، أخذ الأدب يساند هذا الدين ويساير هذا النظام⁽¹⁾. فكان سجل الأمة في طور تكوينها، وصحيفة الثورات الأهلية والصراعات الداخلية طوال احتدامها، وسيف الأحزاب السياسية القاطع في فترات تنافرها واصطراعها، حتى إذا ما قامت الدولة العباسية، رأيناً لوحات متنافرة، من طالبيين ناقمين، وأعاجم مناهضين، وعرب هالهم أن يروا تفوق الأعاجم، فانبروا يدافعون. فكانت الخصومات في ألوانها المختلفة تخرج من قالب أدبي - أكثره شعر - تزين بالنسبة والوصف والمديح، وتبرج بالهجاء والحماسة والفاخر، تتجه إلى شخص أو قبيلة أو حزب أو أمة، تصور أكثر ما تصور لها وما عليها...

ومن الطبيعي أن يتناول الأدب - شرعاً كان أم خطباً وكتابات وقصصاً. أمور الناس والدولة ونظامها، وللأدب حق مقرر ما دامت حرية مكفولة.

أولاً: الخصومات السياسية

أول ما يلقانا في هذا المجال، ما كان شرعاً سياسياً، تحفياً بالقبيلة واعتزازاً بمقانتها، لأنها دولة الشاعر التي يعيش في كنفها، ويرتبط معها بعقد اجتماعي أصلته التقاليد ووثقته العادات. صور الشاعر الجاهلي فضائل قبيلته، المتصلة بالسيادة والمجد وشرف النسب، وسعة السلطان. قال حسان بن ثابت في جاهليته:

ولقد ثُقلْدُنا العشيرةُ أمرَها ونسُودُ يوم النائباتِ ونعتلي
وتزور أبواب الملوكِ ركابُنا ومتى نحَّكم في البرئَةِ نَعْدِل⁽²⁾

(1) زمن الرسول والراشدين والأمويين.

(2) الديوان: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص 184.

قد بقيت نزعة هذه السيادة في شعر حسان سمة لقومه حتى بعد إسلامه، ولعلها كانت صدى لهذه المنافسة والخصومة بين المهاجرين والأنصار، وقد دل هذا الشاعر على ذلك بقوله:

ألا أيها الساعي ليُدرك مجدنا تأثِّكَ العُلَى فازْبَعْ عَلَيْكَ فسائِلٍ



نَصَرْنَا وَآوَيْنَا النَّبِيَّ وَصَدَقْتَ أَوَانِلُنَا بِالْحَقِّ أَوْلَ قَاتِلٍ
وَكُنَّا مَتَى يَغْزُ النَّبِيَّ قَبِيلَةَ نَصِلْ حَافِتَيْهِ بِالْقَنَابِلِ⁽¹⁾
ويختصم حسان إلى النبي من قريش، أشهر وأهم قبائل العرب في الجاهلية والإسلام فيقول:

وَيَوْمَ قَرِيشٍ إِذَا أَتَوْنَا بِجَمِيعِهِمْ وَطَثَنَا الْعُدُوَّ وَطَأَةَ الْمُتَشَاقِلِ⁽²⁾
لَكَنَّهُ يَعُودُ إِلَى نَزْعَةِ السِّيَادَةِ، وَلَعْلَهُ صَدِيَّ الْخُصُومَةِ السِّيَاسِيَّةِ بَيْنَ
المهاجرين والأنصار كما تقدم، فيقول:

وَكُنَّا مُلُوكَ النَّاسِ قَبْلَ مُحَمَّدٍ فَلِمَا أَتَى الإِسْلَامُ كَانَ لَنَا الْفَضْلُ⁽³⁾
أُولَئِنِكَ قَوْمٌ خَيْرٌ قَوْمٌ بِأَسْرِهِمْ فَمَا عُدَّ مِنْ خَيْرٍ فَقَوْمٌ لِهِ أَهْلٌ⁽³⁾
والخصوصيات السياسية كانت على أشدتها بين القبائل البدوية القديمة،
سببها مادي وأدبي، ويكون إما طمع في إيل ومرعى وبين وفرس، وإما رغبة
في رياضة أو أخذ بشار... يصور ذلك الأدب بشعره ونشره، ويدركي روح
الخصوصية، فتأتي الكلمة أشد إيلاماً من وقع الحسام، وبخاصة في « أيام
العرب الكثيرة» يقول دريد بن الصمة:

وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ غُزْيَةِ إِنْ غَوْتْ غَوْيَتْ وَإِنْ تُرْشِدْ غُزْيَةُ أَرْشِدْ
دَعَانِي أَخِي وَالْخَيْلُ بَيْنِي وَبَيْنِهِ فَلِمَا دَعَانِي لَمْ يَجْلِنِي بَقْعَدِهِ⁽⁴⁾

(1) ديوان حسان: ص 186 - 187. القنابل: طائفه من الخيل.

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق، ص 193.

(4) الأصفهاني: الأغاني: 4/9 بولاق. غزية: قبيلة من هوازن. القعد: الجبان، المتزاول.

والخصومات السياسية كثيرة، والقصص فيها طويلة، والشعر يمثل صراعاً دائماً، وأدباً قوياً خالداً، إن في أيام العرب بين قبائلهم، أو بينهم وبين أمم أخرى، كيوم ذي قار⁽¹⁾. وبه يقول الأعشى:

أما تميم فقد ذاقت عداوتنا
وغيَسْ عيلانَ مِنَ الْخَزْيِ وَالْأَسْفُ
منا غطاريْفُ ترجو الموت فانصرفوا
في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف⁽²⁾

وبذلك يقول العديل العجلي:

وما يعذون من يوم سمعت به للناس أفضل من يوم بذى قار
جئنا بأسلابهم والخيل عابسةٌ لما استلبنا لكسري كل إسوار⁽³⁾
فالنزعه التي تمثلها أبيات الأعشى، نزعه تطول العرب فيما بينهم،
ومن ثم تتجاوزهم إلى العجم، منوهه بشرف النصر، وأخذة على بعض معد
عدم مشاركتهم في أول حرب «قومية» عربية، كسروية.

أما أبيات العجلي ففيها فخر سياسي كبير، حين يستعمل الشاعر
صيغة أ فعل التفضيل في يوم ذي قار على كل أيام العرب التي سمع بها.

إن الصلات بين قبائل العرب - قبل الإسلام وبعده - كانت قائمة على التنافس والتريص، وانتهاز الفرص للظفر بمال أو شرف. وهذا هو ديدن المجتمعات البشرية زمن بحثنا، لذا فإن الخصومة السياسية كانت على أشدتها في الجاهلية، وخبت قليلاً في صدر الإسلام لتعود وتتضطرم من جديد إبان الحكم الأموي بين المنضوين تحت راية الأحزاب⁽⁴⁾،

(1) يوم ذي قار: من أشهر أيام العرب. دارت حوادثه بين العرب والفرس، وكانت الغلبة فيه للعرب. ابن عبد ربه: العقد الفريد: 5/262.

(2) المصدر السابق: 5/265 - 266 وقد روی الشطر الثاني من البيت الثاني «ترجي الموت».

(3) المصدر نفسه.

(4) كالحزب الأموي والعلوي والزبيري والخوارج.

والمؤيدين لهم من القبائل العربية، وتبليغ ذروتها في العصر العباسي الأول بين العرب وأبناء بجذتهم من جهة، وبين العرب والموالي «العجم» من جهة ثانية، والخصومة السياسية فرع من فروع شجرة الزندقة.

1 - الخصومة السياسية في الشعر القبلي:

إن الخصومة السياسية بين قبائل العرب قامت على العداوة والتنافس، وظهر ذلك في الغزو الدائم والسطو على المtau والممتلكات، والتعدي على الحمى والجار، وبقدر ما كان التناصر بين أفراد القبيلة، كان التخاصم بين القبائل في سبيل الشرف والرئاسة. لذلك كانت حياتهم مصبوغة بالدم، لا تكاد ترى سلماً دائمـاً، ولا يكاد يمر يوم دون غارة شنـاء، أو قتال رهيب، حتى عرفت عنـهم (الأيام)، وكانت كثيرة متصلة بالأدب شـرعاً وقصصـاً وخطابة.

وأول ما يلاحظ في هذه المسألة منزلة الشاعر بين أفراد قبيلته، فهو صحيفتها السائرة، ولسانها في نشر مفاخرها، وهجو أعدائها، فلا غرو إذا هنتـت القبيلـة عندما يبنيـ شاعـرـ فيها⁽¹⁾.

والذي يعنيـنا هنا أنـ شـعرـ هـؤـلاءـ كانـ مـثالـاًـ لـخصـومةـ سيـاسـيةـ زـنـدـقـيةـ، فهوـ شـعرـ الثـورـةـ وـالـكـفـرـ بـأـوضـاعـ فـرـضـتـ عـلـيـهـمـ الـحرـمانـ وـالـفـقـرـ. ومنـ الـحرـمانـ وـالـعـوزـ يـظـهـرـ عـرـوـةـ بـنـ الـوـرـدـ لـيـعـلنـ عـنـ نـظـريـتـهـ إـلـىـ حـيـاةـ الـجـمـاعـةـ فـيـقـوـلـ:

وإني امرؤٌ عافي إِنَّا نَيَّ شِرْكَةً وأنت امرؤٌ عافي انائكَ واحدُ
أَتَهْزَأُ مَنِّي أَنْ سَمِّنْتَ وَأَنْ تَرَى بجسمي شحوبَ الحقِّ والحقُّ جاهدُ
أَفَرَقُ جَسْمِي فِي جَسْوِ كَثِيرَةٍ وأَحْسَوْ قَرَاحَ الماءِ والماءُ بارِدُ⁽²⁾
وَمِنَ الْخُصُومَةِ السِّيَاسِيَّةِ لِعَلَاقَةِ الْقَبَائِلِ بِعَضِهَا قَوْلُ قَيسُ بْنُ الْخَطَيمِ⁽³⁾.

(1) ابن رشيق: العمدة: 1/65. دار الجيل.

(2) الشايب: تاريخ الشعر السياسي: ص 53.

(3) وذلك في يوم حاطب للخرج على الأوس وفي يوم «بعث» أيضاً. المصدر السابق. ص 56.

دعوتُ بنبي عوف لحقن دمائهم
فَلِمَا أَبْوَا سَامِحَتْ فِي حَرْبٍ حَاطِبٍ
وَكُنْتُ امْرَأًا لَا أَبْعِثُ الْحَرْبَ ظَالِمًا
فَلِمَا أَبْوَا أَشْعَلْتُهَا كُلَّ جَانِبٍ
وَقُولُهُ :

فَهَلَّا لَدِيْ الْحَرْبِ الْعَوَانِ صَبَرْتُمْ
فَأَبْنَاهَا إِلَى أَبْنَائِنَا وَنَسَائِنَا
وَيَجِيئُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ بِقَوْلِهِ :

إِذَا عُيْرَتْ أَحْسَابُ قَوْمٍ وَجَذَنَّا
ذُوِي نَائِلٍ فِيهَا كِرَامُ الْمُضَارِبِ
نَحَامِي عَلَى أَحْسَابِنَا بِتَلَادِنَا
لِمُفْتَقِرٍ أَوْ سَائِلِ الْحَقِّ رَاغِبٌ⁽¹⁾
وَمَنْ يَقْرَأْ شِعْرَ حَرْبِ الْبَسُوسَ يَرَأْ خَصْوَمَةَ عَصَبِيَّاتِ قَرِيبَةِ، وَعَوَاطِفِ
بَعِيدَةِ، وَغَضِبَّاً لِلْجَارِ، وَسَدَادَاً لِلْعُقْلِ مَعَ جَمْوحِ الشَّعُورِ، مَا يَعْنِي أَنَّ
الْخَصْوَمَةَ السِّيَاسِيَّةَ فِي الشِّعْرِ الْقَبْلِيِّ هِيَ إِحْدَى الْجُذُورِ لِلزَّنْدَقَةِ.

2 - في صدر الإسلام:

لَمْ تَخْلِ الدُّعَوَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ مِنْ حَرُوبٍ وَغَزَوَاتٍ اضْطَرَّ إِلَيْهَا الرَّسُولُ
لِتَشْبَيْتِ رَسَالَتِهِ، وَكَانَ الْأَدْبُ يَمَاثِي هَذِهِ الدُّعَوَةَ، يَنَاصِرُهَا تَارِيَةُ، وَيَنَاهِضُهَا
طُورِاً. سَمِعَ الرَّسُولُ الشِّعْرَ وَحَمِلَ حَسَانًا وَزَمَلَاءَهُ مِنَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَرْدُوا
عَلَى قَرِيشٍ وَيَنْصُرُوهُ بِالسَّتْهِمِ كَمَا نَصَرُوهُ بِالسَّلْحَتِمِ⁽²⁾، وَلَكِنَّهُمْ أَوْغَلُوا فِي
ذَلِكَ وَفَسَدُوا كَقُولَ حَسَانٍ فِي بَعْضِ الْمَهَاجِرِينَ :

أَمْسَى الْخَلَاءَ بِيَصْ قَدْ عَزَّوا وَقَدْ كَثَرُوا
وَابْنُ الْفُرَيْعَةَ أَمْسَى بِيَضْنَةَ الْبَلَدِ
أَمَا قَرِيشُ فَيَانِي لَسْتَ تَارِكُهُمْ
حَتَّى يُنَبِّيُوْهُمْ وَيَسْرُكُوا الْلَّأَثَ وَالْعُرَى بِمَعْزَلَةِ
وَيَسْجُدُوْهُمْ كُلَّهُمْ لِلْوَاحِدِ الصَّمَدِ⁽³⁾
فَيَقُولُ الرَّسُولُ : «يَا حَسَانَ نَفْسَتِي عَلَيْ إِسْلَامِ قَوْمِي» وَمَا ذَلِكُ ، إِلَّا

(1) المصادر السابقة. ص 57.

(2) ابن رشيق (أبو علي الحسن، القيرولي، الأزدي) العدة 2 / 30 و 20. دار الجيل - بيروت.

(3) الأصفهاني: الأغاني: 12 / 4 بولاق.

لأن حسانا بدأ قوله بالفخر واللمز على المهاجرين الوافدين على يثرب، وربما تضائق من كثرتهم.

يظهر الشعر هنا في أشكال شتى من الفخر والهجاء، والوعد والوعيد، سواء كان ذلك من جانب أنصار الدعوة الجديدة، أو كان من جانب قريش ومن لف لفهم، يقول علي بن أبي طالب يوم بدر:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَبْلَى رَسُولَهُ
بِمَا أَنْزَلَ الْكَفَّارَ دَارَ مَذَلَّةً
فَلَاقُنَا هُوَانًا مِنْ إِسَارٍ وَمِنْ قَتْلٍ
فَكُمْ تَرَكُوا مِنْ نَاسِئِنِ ذِي حَمْيَةٍ
صَرِيعًا وَمِنْ ذِي نَجْدَةٍ مِنْهُمْ كَهْلٌ⁽¹⁾
فِي جَيْهِ الْحَارِثِ بْنِ هَشَامَ بْنِ الْمُغَيْرَةِ:

بِأَمْرِ سَفَاهِ ذِي اعْتِرَاضٍ وَذِي بُطْلٍ
كَرَامُ الْمَسَاعِي مِنْ غَلَامٍ وَمِنْ كَهْلٍ
بِقَوْمٍ سَوَاهِمُ نَازِحِي الدَّارِ وَالْأَصْلِ
وَخَيْرُ الْمَنَابِيَا مَا يَكُونُ مِنْ الْقَتْلِ
لَكُمْ كَائِنُ خَبْلًا مُقِيمًا عَلَى خَبْلٍ
بِكُمْ وَاثِقُ أَنَّ لَا تَقِيمُوا عَلَى تَبْلٍ⁽²⁾
عَجِبْتُ لِأَقْوَامٍ تَغْنَى سَفِيهِمْ
تَغْنَى بِقَتْلِي يَوْمَ بَدْرٍ تَتَابِعُوا
أَصْبِبُوا كَرَاماً لَمْ يَبِيعُوا عَشِيرَةً
فَإِنْ يَكُنْ قَوْمٌ قَدْ مَضَبُّوا لِسَبِيلِهِمْ
فَلَا تَفْرَحُوا أَنْ تَقْتُلُوهُمْ فَقَتْلُهُمْ
عَلَى أَنْتِي وَاللَّاتِ يَا قَوْمُ فَاعْلَمُوا

وما نلاحظه في قول ابن أبي طالب، فخر بإسلامه، وهجاء بأعدائه، أما ابن المغيرة فيفخر بقتلاه فخراً جاهلياً، يذكرنا بقول الشاعر «تسيل على حد الظبات نفوسنا» كما أنه يقسم بالهته (اللات) أن يثار لهم.

إن شداداً بن الأسود الليثي يبكي قتلى بدر، ناكراً على الرسولبعث والنشر بقوله:

تُمْنِنَا السَّلَامَةَ أَمْ بَكْرٌ
يُخْبَرُنَا الرَّسُولُ لِسْوَفَ نَحْيَا
وَهَلْ لِي بَعْدَ قَوْمِي مِنْ سَلَامٍ
وَكَيْفَ حَيَا أَصْدَاءُ وَهَامٍ⁽³⁾

(1) ابن هشام: السيرة النبوية، 3/11. دار الكنوز الذهبية وأبلى: مَنْ وَأَنْعَمْ.

(2) المصدر السابق 3/12 و 13. وتبَل: العداوة وطلب الثار.

(3) المصدر السابق. 3/29. والصدى: بقية الميت في قبره.

جَدَّتْ بَعْدَ وِفَاتِ الرَّسُولِ مَسَأْلَةُ سِيَاسِيَّةٍ خَطِيرَةٍ، هِيَ مَسَأْلَةُ الْخِلَافَةِ، أَيْنَ تَكُونُ؟ كَيْفَ تَكُونُ؟ تَطْلُعُ إِلَيْهَا الْأَنْصَارُ بِحُجَّةٍ إِبْرَاهِيمَ وَنَصْرَتِهِمْ لِلنَّبِيِّ، وَطَمَعُ فِيهَا الْمُهَاجِرُونَ «الْقَرْشِيُّونَ» لِأَنَّهُمْ قَوْمُ النَّبِيِّ وَآلِهِ الْأَدْنَى. وَاشْتَدَتْ الْخُصُومَةُ فِي ذَلِكَ، وَلَمَّا تَمَّ الْأَمْرُ لِأَبِي بَكْرٍ، قَالَ أَبُو عَبْرَةَ الْقَرْشِيُّ :

شَكِّرًا لِمَنْ هُوَ بِالثَّنَاءِ حَقِيقٌ ذَهَبَ اللَّجَاجُ، وَبُوَيْعَ الصَّدِيقُ
إِنَّ الْخِلَافَةَ فِي قَرِيشٍ مَالَكُمْ فِيهَا وَرَبُّ مُحَمَّدٍ مَعْرُوقٌ⁽¹⁾

وَلَكِنَّ الْأَنْصَارَ لَمْ يَسْكُنُوا، فَذَكَرُوا مَوَاقِفَهُمْ فِي نَصْرَةِ الدِّينِ، وَأَيَامِهِمْ عَلَى قَرِيشٍ، حَتَّى بَدَتِ الْعَصِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةُ وَاضْعَافَةُ، وَكَادَتْ تَبْعَثُ حَرْبًا⁽²⁾، وَطَالَ الْلَّجَاجُ بَيْنَ قَرِيشٍ وَالْأَنْصَارِ، وَوَاجَهَ الْخَلِيفَةُ الْأُولُّ مُشَكَّلَاتَ الْمُرْتَدِينَ، مِنْ تَحْلِيلِ لِشَعَانِرِ الدِّينِ وَخَرْوَجَ عَلَى النَّظَامِ السِّيَاسِيِّ الَّذِي يَخْضُعُ الْبَدُو لِسُلْطَانِ الْحَضْرِ، وَتَعْلُقُ بِالْحُرْبِ الْجَاهِلِيَّةِ الْقَائِمَةِ عَلَى السَّفَهِ وَالشَّرَابِ، وَاتَّخَذَتْ لِذَلِكَ وَسَانِلَ شَتِّيًّا: التَّبْيُؤُ وَالثُّورَةُ وَمَنْعِ الزَّكَاةِ... وَسَابَرَ الْأَدْبُ هَذَا النَّشَاطُ السِّيَاسِيِّ، وَمَا رَافِقَهُ مِنْ خَصْوَمَاتِهِ.

قَدَمَ طَلِيْحَةُ الْأَسْدِيُّ الْمَدِيْنَةَ عَلَى رَأْسِ قَوْمٍ مِنْ (أَسْدٍ وَغَطْفَانٍ وَطَبِيعَةِ) يَسْأَلُ أَبَا بَكْرًا أَنْ يَحْطُ عَنْهُمُ الزَّكَاةَ، فَأَبَى، فَقَالَ شَاعِرُهُمُ الْحَطِيْبَيْةِ ثَائِرًا عَلَى بَعْضِ شَعَانِرِ الدِّينِ الْجَدِيدِ مُنْكِرًا لَهَا، مُهَدِّدًا بِالْحُرْبِ الْطَّاحِنَةِ، مَائِلًا إِلَى سَفَهِ الْجَاهِلِيَّةِ :

فِي الْعِبَادَةِ اللَّهُ مَا لِأَبِي بَكْرٍ
وَتَلْكَ لِعْمَرَ اللَّهُ قَاسِمُ الظَّهَرِ
وَهَلَّا خَشِيتُمْ حُسْنَي رَاعِيَةَ الْبَكْرِ
لِكَالْتَّمِّرِ أَوْ أَحْلَى إِلَيَّ مِنَ التَّمِّرِ⁽³⁾
أَطْعَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا كَانَ بَيْنَنَا
أَبْوَرَثَهَا بَكْرًا إِذَا مَاتَ بَعْدَهُ
فَهَلَّا رَدَدْتُمْ وَفَدَنَا بِزَمَانِهِ
إِنَّ الَّتِي سَأَلُوكُمْ فَمَنْعِثُمْ

(1) الشَّابِبُ: تَارِيخُ الشِّعْرِ السِّيَاسِيِّ: ص 132.

(2) انظر شعر حسان في ذلك: المصدر السابق، ص 132.

(3) المصدر السابق. ص 136.

وقال ابن الخنساء أبو شجرة بن عبد العزى، حين ارتد عن الإسلام
زمن أبي بكر:

سل الناسَ عنا كل يوم كريهةٌ إذا ما التقينا دارعين وحُسْراً
فرويَتْ رمحى من كتبةٍ خالدٍ وإنني لأرجو بعدها أن أعمراً⁽¹⁾

وقال أيضاً زمن عمر عندما منعه عطاءه:

ضَنْ عَلَيْنَا أَبُو حَفْصِ بْنَائِلَهُ وَكُلُّ مُخْتَبِطٍ يَوْمًا لَهُ وَرَقُ
ما زَالَ يَرْهَقْنِي حَتَّى خَذَيْتُ لَهُ وَحَالَ مِنْ دُونِ الرَّغْبَةِ الشَّفْقُ
لَمَّا رَهَبْتُ أَبَا حَفْصَ وَشُرْطَتْهُ وَالشَّيْخُ يَفْزُعُ أَحْيَانًا فَيَنْحَمِ⁽²⁾

وهذا شاعر آخر يبكي العهود السوالف أيام كان يرتع بالحرية في ظل
ملوك الحيرة ويأنف من دفع الجزية التي فرضها خالد بن الوليد على رهطه.
يقول ابن بقيلة:

أَبْعَدَ الْمُنْذِرِينَ أَرَى سَوَامِّا
وَيَعْدُ فَوَارِسَ النَّعْمَانَ أَرْعَى
فَصَرَنَا بَعْدَ هَلْكَ أَبِي قَبِيسٍ
ثُقَسَّنَا الْقَبَائِلَ مِنْ مَعْدَّ⁽³⁾ عَلَانِيَةَ كَأْيَسَارِ الْجَزَورِ

هذه الشواهد إنما تدل على خصومات سياسية تشوبها العصبية
والاضطراب وتشتم منها رائحة زندقة مختلفة المشارب. وإذا ما وصلنا إلى
خلافة عثمان ورأينا مقتله، يعلو الضجيج ويشتند أوار الخصومات السياسية
ويتوعد حسان الناس بقوله:

يَا لَيْتَ شَعْرِي وَلَيْتَ الطَّيْرَ ثُخِرْنِي
مَا كَانَ شَأْنُ عَلَيْيَ وَابْنَ عَفَانَا
لَنْ سَمِعْنَ وَشِيكَا فِي دِيَارِهِمُ⁽⁴⁾ اللَّهُ أَكْبَرُ يَا ثَارَاتَ عَثْمَانَا

(1) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك. 3/266. دار سويدان.

(2) المصدر السابق. 3/267.

(3) المصدر السابق. 3/362.

(4) المسعودى: مروج الذهب: 2/356. دار المعرفة. بيروت.

ويسع الوليد بن عقبة في الليلة الثانية لمقتل عثمان ينده ويقول:
 بني هاشم، ايء فما كان بيننا وسيف ابن أروى عندكم وحرائب
 غدرتم به كيما تكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مرازب
 فيجيئه الفضل ابن العباس عن هذا الشعر بملحاة ظاهرة هي أقرب
 ما تكون إلى تنافس أهل الجاهلية، بقوله:

فلا تسألونا سيفكم إن سيفكم أضيئ وألقاه لدى الروع صاحبُه
 وكان ولئ العهد بعد محمد على وفي كل المواطن صاحبُه⁽¹⁾
 كان الأدب إذن، والشعر منه بخاصة، معنياً بتسجيل حروب
 وخصومات بين الشام والعراق، وقد خضع لأساليب الجدل والمناقضة على
 أساس الدين والحكم، وتلون مع الأحزاب، تارة بين المهاجرين
 والأنصار، وطوراً بين عثمان ومن ثاروا عليه، ثم بين علي ومعاوية وبين
 مخاصمهما، أساسه عصبية قبلية، ومساره خصومات سياسية تتفكه بها
 مائدة الزندقة.

3 - في عصر بنى أمية:
 صار العرب في أعقاب «صفين» أحزاباً ثلاثة⁽²⁾. واستقرت الحكومة
 أموية، وأخذت لوناً هرقلياً، قال فيه عبد الله بن همام السلوبي:
 فإن تأتوا برملة أو بهندي نبایغها أميرة مؤمنينا
 إذا ما مات كسرى قام كسرى نَعْدُ ثلاثة متناسقينا⁽³⁾
 واشتدت الخصومات السياسية، وأخذ كل فريق يناضل عن رأيه
 بالسيف واللسان وكان الخلاف يبدو إما خالصاً للمذاهب والرأي، وإما
 متصلة بالمصالح المادية والعصبيات القبلية. وبرر الأمويون في سبيل ملكهم

(1) المصدر السابق.

(2) الخوارج - الشيعة والأمويين.

(3) المسعودي: مروج الذهب. 37/3.

كل وسيلة، وكان الشعر متنفساً مريحاً لعرض هذه المناحي، والأدب بعامة يسجل الخصومات السياسية، وتظهر هنا نزعة سياسية قوية، تعتمد على مقومات أجنبية قديمة، يمثلها جماعة من شعراء الفرس الذين دخلوا في الإسلام، ولم يجدوا في سياسة الأمويين هذه المساواة التي تعلموها، فأنكروا هذه السياسية، وكرهوا العرب بسيبها، وذكروا دولتهم الزائلة، ومفاخرهم العتيدة، وتمناً لو عاشوا في ظل الأكاسرة بدل هؤلاء الملوك.

وخير من يمثل هذه الفتنة الشاعر إسماعيل بن يسار النسائي حين يقول:

رَبِّ خَالٍ مُسْتَوْجٌ لِي وَعَمْ
إِنَّمَا سُمِّيَ الْفَوَارِسُ بِالْفُرْ
سِ مَضَاهَاةً رِفْعَةَ الْأَنْسَابِ
فَاتِرْكِيُّ الْجُورُ يَا أَمَامَ عَلَيْنَا
وَاتِرْكِيُّ الْجُورُ وَانْطَقِي بِالصَّوَابِ
وَاسْأَلِي إِنْ جَهَلْتَ عَنَا وَعَنْكُمْ
كَيْفَ كُنَّا فِي سَالِفِ الْأَحْقَابِ
إِذْ نَرْبِي بِنَاتِنَا وَتَدْسُو نَّسْفَاهَا بِنَاتِكُمْ فِي التَّرَابِ^(١)
وَيُسِيرُ عَلَى مَنْوَالِهِ يَزِيدُ بْنُ ضَبَّةَ، مَوْلَى ثَقِيفٍ، حِينَ يَفْخُرُ بِعُشِيرَتِهِ،
وَيَعْتَبُ عَلَى هَشَامَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَيَذَكُرُ بِأَمْجَادِ قَوْمِهِ، فَيَقُولُ:

أَلَمْ تَرَ أَنَا لِمَا وَلَيْنَا
رَأَيْنَا الْفَقْتَ حِينَ وَهِيَ عَلَيْهِمْ
أَمْرًا مُبْلِغٌ عَنِي هَشَاماً
أَلَمْ يَكُنْ بِالْبَلَاءِ لَنَا جَزَاءٌ
رَأَيْنَا النَّاسَ أَزْمَانًا طَوَالًا
وَلَيْنَا أَنَا لِمَا وَلَيْنَا^(٢)
وَيَدْخُلُ ابن يسار النسائي على هشام ليمدحه فيفتخر بالفرس ويقول:

إِنِّي وَجَدْكَ مَا عَوْدِي بِذِي خَوَرِ
أَصْلِي كَرِيمٌ وَمَجْدِي لَا يُقَاسُ بِهِ
وَلَيْ لِسَانٌ كَحْدَ السَّيْفِ مَسْمُومٌ
مَنْ مُثْلُ كَسْرِي وَسَابُورِ الْجَنُودِ مَعًا^(٣)
عَنْدَ الْحَفَاظَةِ، وَلَا حَوْضِي بِمَهْدُومِ

(١) الأصفهاني: الأغاني: 4/ 408. دار الكتب.

(٢) المصدر السابق. 7/ 95. دار الكتب. وانظر الكثير من ذلك في بحثنا عن الشعراء الزنادقة.

(٣) المصدر. 4/ 120.

وهكذا فإن الخصومات السياسية، النامية على جذور العصبيات القبلية والجنسية والدينية، هي كل حياة القوم الاجتماعية، وكان الناس نسوا أو تناسوا ما دعا إليه الرسول من نبذ التفاخر والتهاجي من مثل قوله في خطبة حجة الوداع:

«أيها الناس ! إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء، كلكم لآدم وأدم بن تراب»⁽¹⁾.

فالخصومات السياسية وقتئذ، أوصلت الشعراء إلى نعت خصومهم بالإشراك تارة، والكفر والزنادقة طوراً. والفرزدق في مدحه سليمان بن عبد الملك، نراه يدعو قيساً حين ثارت مع أصحابها في خراسان مشركة بربها، إذ يقول:

ولما رأينا المشركين يقوُّهم فُتيبة زحفاً في جموع الزمامِ⁽²⁾
ولا يكتفي بإشراك قيس وتكفيرها بأنعم ربها، بل يجعل جموعها
كجموع الزمام، وهم المجوس الذين يجاهدون الإسلام. وهنا نرى
العناصر الدينية وقد استعان بها الفرزدق وأقرانه لدعم خصوماتهم
واتجاهاتهم السياسية.

إن جريراً يعجب من وقوف الفرزدق مع تغلب المسيحية، ضد قيس
المسلمة، فيقول:

فخرث بقيسٍ وافتخرت بتغلبٍ فسوف ترى أيُّ الفريقيْن أربعَ
فاما النصارى العابدون صليبيَّهم فخابوا وأما المسلمين فأفلحو⁽³⁾

4 - في عصر بنى العباس:
كانت الحكومة الأموية عربية خالصة، غير خاضعة لطغيان الفارسية

(1) شوقي ضيف: التطور والتجدد. ص 110.

(2) المصدر السابق. ص 191.

(3) المصدر السابق. ص 192.

أو الرومية، وكان من ذلك أن وجد في نفوس العرب - ومنهم الشعراء - تياران متناقضان: أحدهما: قديم من بقايا الجاهلية، وهو العصبية التي بعثتها السياسة الأموية.

والثاني: إسلامي جديد، هو هذه العصبية الجنسية، والإسلام واحد أكثر قبائل العرب وكون منها أمة عربية كبيرة. وهاتان النزعتان تصارعتا في نفوس العرب وكان لهذا الصراع آثاره الدينية والاجتماعية والسياسية، ولا سيما حين قويت النزعة الجاهلية فذهبت بحكم الأمويين.

لما اعتز العرب بتليدهم من خلق وبيان، وطريفهم من إسلام ودولة غالبة، ثم استطالوا بذلك على الموالي واحتقرورهم، تولد في نفوس هؤلاء تيار عكسي، نقموا به على العرب، وأخذوا يعتزون بأمجادهم ودولتهم الذاهبة، وينعون العرب بالفقر والجهل ووأد البنات خوف الإملاق أو العار.

ولما ظفر بنو العباس بالحكم وانتقلت الخلافة من الشام إلى بغداد، كان للفرس نفوذ كبير يستريحون في ظله، ويتمون إعادة سلطانهم، وقد تم لهم ذلك على الرغم من فطنة العرب لهذه السياسة، يقول نصر بن سيار يدعو التزارية واليمنية إلى لم شعثهم في وجه هذا العدو، الذي لم ير له ديناً أنزل في كتاب غير دين قتل العرب.

فليغضبوا قبل ألا ينفع الغضبُ
كأنَّ اهل الحجا عن رأيكم عُزْبُ
مما تأشَّب، لا دينٌ ولا حسبُ
عن الرسولِ، ولم تنزل به الكتبُ
فإنَّ دينهمُ أن تُقتلَ العربُ⁽¹⁾

أبلغ ربعة في (مرزو) وآخواتهم
ما بالكم تلقوهن الحرب بينكم
وتتركون عدواً قد أظللكم
قدماً يدينون ديناً ما سمعت به
فمن يكن سائلاً عن أصل دينهمو

ونهض شعراء الفرس يفخرون على العرب، ويحتقرونهم، وتشتد الخصومة السياسية، فيتبرأون منهم زراية وأنفة.

(1) ابن عبد ربه: العقد الفريد 4/478. دار الكتاب العربي.

هذا بشار بن برد، قال له أعرابي، ما للموالى والشعر؟! فقال في العرب جميعاً:

أ حين كُسيت - بعد العزى - خزاً
ونادمت الكرام على العقارِ
ث فاخرُ يا ابن راعية وراغ
بني الأحرار حسبك من حساري
وكنت إذا ظمنت إلى قراغَ
شركة الكلب في ولع الإطارِ⁽¹⁾

وهذا الخريمي، كان من أكثر الناس اعتزازاً بنسبه، وهو القائل:

إني أمرؤ من سرارة الصندوق البصني عرق الأعاجم جلداً طيب الخبر⁽²⁾
وهذا المتكلي، كان من نداءات المتكفل العباسى يعتز بأعمجيمته،
يطالب بعودة أمجاد قومه، داعياً بنى هاشم إلى ترك الخلافة والعود إلى
الحجاز لأكل الضباب ورعي الغنم، لأن الملك عائد إلى قومه لا محالة،
إن بحد الحسام أو بفتوك القلم، يقول:

أنا ابن الأكابر من نسل جمٍ
وحائز إرث ملوك العجمِ
وطالبُ أوتارهم جهرةً
فمن نام عن حقهم لم أئمَّ
هلموا إلى الخلع قبل الندم
فقل لبني هاشم أجمعين:
لأكل الضباب ورعي الغنم
فعودوا إلى أرضكم بالحجاز
فياني سأعلو سرير الملوك⁽³⁾

إن الخصومات السياسية أخذت أشكالاً وألواناً مختلفة، ونمت في كل مناخيها إلى الزندقة.

عد العجم - وبخاصة الفرس - إلى مزية العرب الظاهرة التي يعتزون بها، وهي البلاغة، وقوة الخطابة، وحضور البديهة، فانتقصوا في ذلك قائلين: «أي ارتباط بين الكلام والعصا، وحمل العصا بأخلاق الفدائيين

(1) الأصفهانى: الأغاني: 6/242. دار الكتب.

(2) ابن قيبة: الشعر والشعراء: 2/731. دار الثقافة.

(3) الشايب: تاريخ الشعر السياسي: ص 283.

أشبه، وهو بحفة الأعراب وعنجهة أهل البدو، ومزاولة إقامة الإبل على الطرق أشكل، وبه أشبه⁽¹⁾، وعابوا العرب في آلاتهم الحرية، فسخروا من رماحهم ومن عري خيولهم⁽²⁾، وأكثروا من التأليف في مناقب العجم⁽³⁾، ومثالب العرب⁽⁴⁾.

كذلك وضع العجم قصصاً كثيرة في الأدب، وكانت هذه أخطر على العرب من الحرب الظاهرة، كما نسبوا الشيء إلى غير قائله، لإفساد الأدب العربي⁽⁵⁾. وكان لهم مجال فسيح في الحديث فوضعوا الكثير منها، وأسندوها إلى الثقات من الصحابة والتابعين، كمثل ما رووا عن الرسول: «سيأتي ملك من ملوك العجم فيظهر على المداňن كلها إلا دمشق»⁽⁶⁾. وفي حديث آخر: «لا تسبوا فارسياً بما سبه أحد إلا انتقم منه عاجلاً أو آجلاً»⁽⁷⁾.

قابل العرب ومن تعصب لهم عمل الأعاجم بمثله، فوضعوا الأحاديث الكثيرة في تفضيل العرب، ووجوب حبهم كقولهم عن الرسول: «من غش العرب لم يدخل في شفاعتي، ولم تنله مودتي» وأيضاً: «أحبوا العرب ثلاثة: لأنني عربي، والقرآن عربي، ولسان أهل الجنة في الجنة عربي»⁽⁸⁾.

ونستطيع بعد هذا أن نعزّو الخصومات السياسية في عهد بنى العباس إلى ثلات نزعات: العرب خير الأمم، العرب كغيرهم من الشعوب، تفضيل العجم على العرب⁽⁹⁾ ونشأ عن هذا الصراع نوع من الديمقراطية

(1) الجاحظ: البيان والتبيين: 3/398. الشركة اللبنانية للكتاب.

(2) المصدر السابق: 3/399.

(3) ابن النديم: الفهرست ص 179. دار المعرفة. ما أله سعيد بن حميد.

(4) المصدر السابق: ص 153. ما أله علان الشعوب.

(5) أحمد أمين: ضحى الإسلام: 1/71. دار الكتاب العربي.

(6) المصدر السابق: ص 75.

(7) المصدر السابق.

(8) المصدر السابق: ص 76.

(9) المصدر السابق، ص 57 وما بعد.

يعتنقها غير العرب ويدافعون بها أرستقراطية العرب، تبتدىء خصوماتهم معتدلة هادئة، وتنتهي متطرفة عنيفة متخذة في بعض الأحيان شكل زندة وإلحاد.

ثانياً: الخصومات الأدبية

رأينا كيف كانت العصبية القبلية زمن الجاهليين، وكيف خبت إيان ظهور الإسلام والخلفاء الراشدين، وكيف عادت لظهور من جديد في العصر الأموي وتشتد وتطور إلى عصبية جنسية في أواخر هذا العصر وتبلغ ذروتها أيام العباسين.

ورأينا أيضاً كيف كانت بذور هذه الحركة تتوزع في مضارب العرب لظهور جلية واضحة في أدبهم - منذ العصر الجاهلي وحتى نهاية عصر بحثنا ..

ظهرت الخصومات الأدبية إذن سافرة لا يسترها حجاب، وبدأ بين رجال الفكر حركة من المساجلات والمناظرات، كل يدافع عن وجهة نظره، ويرد على الآخر حججه وبراهينه.

من المعروف عن العرب أنهم أكثر الأمم اهتماماً بالأنساب والأحساب، حتى لقد وضعوا لذلك علوماً دقيقة برع فيها بعضهم، ومن أشهرهم أبو بكر الصديق⁽¹⁾.

دفعهم هذا الاهتمام والحرص على حفظ الأنساب إلى التفاخر والتخاصم، تارة بين العرب أنفسهم وما يختصون به من عصبيات قبلية، وطوراً بين العرب والأعاجم.

فإذا كان العرب مثلاً يتفاخرون بالملك، ردت عليهم الأعاجم بأن ملوك الأرض كلها منهم، فمنهم الفراعنة، والعمالقة، والأكاسرة، ومنهم سليمان

(1) ابن هشام: السيرة: 1/ 267. القاهرة 1936 م.

الذى سخرت له الإنس والجن والإسكندر الذى ملك الأرض كلها⁽¹⁾.

ولم يقف العجم عند هذا الحد، بل اتبوا منهاجاً خاصاً للتخاصل الأدبى والطعن فى أنساب العرب، فوضعوا كتب المثالب⁽²⁾. وحارب العرب العجم بسلاحهم وردوا على كتب المثالب بتأليف كتب الفضائل⁽³⁾.

وتجلت هذه الخصومات الأدبية أكثر ما تجلت في المنازرات والمساجلات. وكان يحدث أن يلتقي رجلان، أحدهما عربي والأخر فارسي فيتناولان موضوعاً ما كالضيافة مثلاً، فيقول الأعرابي: «نحن أقرى للضيف، لأن أحدنا ربما لم يملك إلا بعيراً، فإذا حل به ضيف نحره له»، فيقول الأعمى: «فنحن أحسن مذهباً في القرى منكم، نسمى الضيف مهمان، ومعناه أنه أكبر من في المنزل، وأملكتنا به»⁽⁴⁾.

ويروى عن بشار بن برد، أنه لما دخل على المهدى سأله «فيمن يعتد»؟ فقال: «أما اللسان والزى فعربيان، وأما الأصل فعجمي، كما قلت في الشعري يا أمير المؤمنين:

ونبئتُ قوماً بهم جنةٌ يقولون من ذا و كنتُ العلم
ألا أيها السائلِي جاهداً ليعرفني أنا أنس الكرم
نمَت في الكرام بنى عامرٍ فروعِي وأصْلِي قريش العجم⁽⁵⁾
وأبو نواس وأشعاره التي يسخر منها من تقاليد العرب وعاداتهم أكثر
من أن تحصى، وإنما نذكر منها لماماً ضئيلة، ك قوله:

(1) ابن عبد ربه: العقد الفريد: 254 - 255 القاهرة 1928 م.

(2) من الذين اشتهروا بوضع هذه الكتب: أبو البختري في كتابه «الفضائل». ومعمر بن المثنى، والهيثم بن عدي. الفهرست: ص 145 طبعة مصر 1348هـ ومنهم حماد الرواية الذي اشتهر بإفساد الأدب العربي وتشويه أخبار العرب، وعلان الشعري المشهور بكتاب المثالب. الفهرست: ص 153 - 154.

(3) الجاحظ: البيان والتبيين: 1/ 359 و 10/ 12 - 27 - 32... مصر 1947.

(4) البيهقي: إبراهيم بن محمد: المحسن والمساوي: جيسن، ألمانيا: 1902 م. ص 202.

(5) الأصفهاني: الأغاني: 3/ 21. بولاق.

وعجت أسأل عن خمارة البلد
لا در درك قل لي من بنو أسد
ليس الأعاريب عند الله من أحد⁽¹⁾
وكله أيضاً، يفضل تراث كسرى على تراث العرب:

تراث انو شروان كسرى ولم تكن مواريث ما أبقيت تميم ولا بكر
قصرت بها ليلي وليل ابن حرة له حسب زايك وليس له وفر⁽²⁾
وهذا علان الشعوبي يفضل العجم على العرب، ويفتخر بكسرويته،
إذ يقول:

إن لي فخراً مباءئه في قرار النجم مأهول
ورجالاً شريراً لهم غدق هم لما حازوا مباديل
كسرويات أبوئنا غرر زهر مقاويل⁽³⁾
ومن تخاصم أدبياً كتاب ومفكرون كالجيهاني⁽⁴⁾، الذي ألف كتاباً
سب فيه العرب، وتناول أعراضها وحط قدرها، واتهمهم بأكلة الحشرات
والهوام، وأنهم يتعاررون ويتهاجون، «وكانهم قد سلخوا من فضائل البشر»⁽⁵⁾.

وأبو حيان التوحيدى الذى يكرس نفسه ليعدد فضائل العرب، فى
شيء من التطويل، فيخاطب الجيهاني قائلاً: «... فإن العصبية في الحق
ربما خذلت صاحبها وأسلنته وأبدت عورته واجتببت مسأته، فكيف إذا
كانت في الباطل»⁽⁶⁾.

وثمة رواية يبدو فيها ابن المقفع حاذداً على العرب، رادهم إلى الفلاة
يرافقون اليرابيع والظباء، يأنسون بالوحش والجان، ينفي عنهم كل شيء

(1) نواس - أبو الحسن بن هانى: ديوان أبي نواس. ص 266. مصر 1898م.

(2) المصدر نفسه، ص 284.

(3) ياقوت - عبد الله الحموي - معجم الأدباء ج 12، ص 194، مصر 1938م.

(4) أبو عبيد، أحمد بن محمود بن نصر. الفهرست، ص 198 مصر.

(5) التوحيدى: أبو حيان: الامتناع والمؤانسة. 1/79. مصر 1942م.

(6) المصدر نفسه: 1/85 - 86.

حتى الشعر الذي هو فخرهم التليد، إذ يقول: «أي حكمة تكون أبلغ أو أحسن
أو أغرب في غلام بدوي، لم يشبع من طعام، يستوحش من الكلام، ويفزع
من البشر، ويأوي إلى القفر واليرابع والظباء، وقد خالط الغيلان، وأنس
بالجان، فإذا قال الشعر... يقول ما يكتب عنه، ويروى له، ويبقى عليه»⁽¹⁾.

حاول الأعاجم، - وربما كان ابن المقفع منهم - أن ينفوا صبغة الأمة
عن العرب فزعموا أن العرب قبائل متغيرة متنازعة، وفسروا الآية الكريمة
﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا
إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليمٌ خبير﴾⁽²⁾. بأن العجم هم الشعوب،
والقبائل هم العرب، والمقدم أفضل من المؤخر.

ويظهر أن الجدل كان يحتمد ويشتد بين الفريقين، وبين طوائف
المسلمين من العرب، ويقاد بيلبل الخواطر، لهذا انحى زيد بن جندب على
بعضهم باللوم، لأنهم أكثروا من الجدل فانقسموا وزاغت أنفسهم بقوله:

ما كان أغنی رجالاً ضلّ سعيئُهم عن الجدال وأغناهم عن الخطب
كتنا أناساً على دين فرقنا طول الجدال وخلط الجدّ باللعبة
قل للمُحلّين قد قرت عيونُكم بفرقه القوم والبغضاء والهَرَب⁽³⁾

كان كثير من حكام العرب وولاتهم يغرون بعض الشعراء ببعض،
ويحضونهم على التهاجي، يريدون الثأر - والثار زنقة - من قبائل غير
موالية، أو اللهو بهذا العبث. وكان الدهاء منهم يتغدون بإشغال الشعراء
بالتهاجي والتفاخر، وإشغال كثير من الناس بهذه الشخصيات الأدبية،
ليبعدوهم عن المشاركة في السياسية فلا يفرغوا للثورات عليهم.

كان معاوية يقول: «أنا لا أضع سيفي حيث يكفيوني سوطي، ولا

(1) الحصري: أبو اسحق: زهر الآداب وثمر الألباب: 2/102. القاهرة 1925 م.

(2) سورة الحجرات آية: 13.

(3) الجاحظ: البيان والتبيين: تحقيق هارون. وفي طبعة الشركة اللبنانية بدل طول الجدال
روي فرع الكلام في السطر الثاني: 1/37 و 42.

أضع سوطي حيث يكفيني لساني»⁽¹⁾.

وقال عبد الملك للعجاج: بلغني أنك لا تقدر على الهجاء. فقال: يا أمير المؤمنين، من قدر على تشييد الأبنية أمكنه تخريب الأخيبة. فقال: فما يمنعك من ذلك؟ قال: إن لنا عزّاً يمنعنا من أن نُظلم، وإن لنا حلماً يمنعنا من أن نُظلم، فعلام الهرجاء؟⁽²⁾

وكثيراً ما نرى هذا العداء الأدبي ينقلب فوق رؤوس الحكم - ولو كانوا خلفاء الدولة - في بعض الأحيان.

أراد معاوية أن يأكل ميراث عم الفرزدق. فغضب الفرزدق، وثار على الخليفة، معترضاً بأن الإسلام هو الذي أخضع لهذا الحكم، ولو أن عمله هذا حدث في الجاهلية لكان لهم معه شأن، وخطاب معاوية في خشونة وتهديد:

أبوك وعمي يا معاويَ أورثا
تراثاً فيحتاز التراث أقاربُه
فما بال ميراث الحُتَّاتِ أخذَه
وميراث حرب جامد لك ذاتَه
فلو كان هذا الأمر في جاهلية
علمَت من المرأة القليل جلائبه
وكم من أب لي يا معاويَ لم يكن
أبوك الذي من عبد شمس يقاربه⁽³⁾

هذه الخصومات الأدبية، مقرونة بالخصومات السياسية، أشاعت في المجتمع العربي - منذ الجاهلية وحتى العصر العباسي الأول - الفوضى، وانقضمت عري وحدته.

وهذه الحقيقة أدركها المتطرفون من العرب والمعجم على حد سواء، فكان أغلبهم من الزنادقة، وكانت خصوماتهم دليلاً على الزنادقة، وداعياً لاتهام أصحابها بضعف دينهم. ذلك أن هذا الصراع يرتبط إلى حد بعيد بما ذهب إليه عبد الرحمن بدوي⁽⁴⁾، إذ يرجع حرفة الزنادقة كلها أو معظمها

(1) ابن عبد ربه: العقد الفريد: 2/10. القاهرة 1940.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 2/45. دار الكتب.

(3) الفرزدق: الديوان: ص 22 - 23. دار الثقافة العربية.

(4) بدوي: الإلحاد في الإسلام: ص 23 - 24.

إلى العصبية الجنسية، التي يسميها «الشعوبية». وقد سبقه الجاحظ إلى ملاحظة ذلك، فقال عن العصبية أنها «لا تبقي ديناً إلا أفسدته ولا دنيا إلا أهلكتها، وهو ما صارت إليه العجم»⁽¹⁾.

وريما كان هذا الاتهام، من قبل بدوي والجاحظ، صحيحاً، لأن المتخصصين المتخصصين من العرب والمعجم اتجهوا لتدعيم موقفهم إلى القرآن والأحاديث الشريفة يختارون ما يتافق مع نزعتهم، ويضعون من الأحاديث ما يؤازر دعوتهم.

دفع هذا العمل بعض المستشرقين إلى المبالغة في الشك فيرى Goldziher موضوعة⁽²⁾. وضعها بعض المسلمين المتخصصين لجنس، ليبرهنوا أن الرسول أراد مساواة العرب بجميع الشعوب.

ويرى (Muir)⁽³⁾ و (Oleary)⁽⁴⁾ أن الصورة التي نزل عليها الدين الإسلامي كانت عربية صرفة. وما دامت هكذا فقد اعتبر العرب أن النبي نبيهم والدين دينهم والقرآن كتابهم، ولكن المعجم وقد تسلحوا بأيات كثيرة من القرآن وأحاديث جمة، كمثل «إن أقربكم عند الله أتقاكم» و «ما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون»⁽⁵⁾، لا يرون ما رأى العرب.

ولهذا فإن الخصومات السياسية والأدبية لم تتوقف، ودائماً كان يشتم منها رائحة زندقة.

(1) الجاحظ: رسالة الجاحظ في بنى أمية. ص 299. القاهرة 1933م. والمقرizi: النزاع والتخاصم. ص 101. مصر 1939م.

Goldziher Jgnas: Mu hamme danisehe studien 2 vol. Hallen 1888-90-p. 152. (2)

Muir. William. The Caliphate: (Edinlbburg, 1924) p. 42. (3)

O. Leary-de laey- Arabic thought and its place in History, London 1939. p.56. (4)

سورة سباء: آية 28. (5)

الفصل الخامس

الطابع الاجتماعي والحضاري للزندقة

القسم الأول

المجون

١ - معناه:

إذا بحثنا عن معنى المجون في اللغة، استطعنا أن نحدد بالضبط ما هو المقصود بأدب المجون، وأي أغراض كان يخوض فيها، وما جاء في اللغة: مجنت الأرض مجوناً إذا صلبت وغلظت، ومنه جاء اشتراق كلمة «ماجن» لصلابة وجهه وقلة استحيائه. وذكر أن الماجن عند العرب هو الذي يرتكب المقابع المردية والفضائح المخزية ولا يمضه عذل عاذل ولا تقرير من يقرعه^(١).

من هنا نرى المجون ارتكاناً لأعمال مخلة بالأداب العامة، دون تستر أو استحياء، والمجون ظاهرة خطيرة في المجتمعات الإنسانية، قد يديها وحديثها، والماجن لا يترجح ولا يروع، إن تغزل فأباح، وانحرف في غزله عن النساء وللمذكر استباح، وهذا السلوك يسير به إلى شعاب الزندقة بعض أشكالها.

(١) ابن منظور: لسان العرب. مادة مجن.

ترتبط نشأة المجون بالقرن الثاني ارتباطاً كاملاً، إذ أنه كان في القرن الأول - وما سبقه - مسألة فردية وليس تياراً عامياً، مثلما يحكى عن الوليد بن عقبة أخي عثمان بن عفان⁽¹⁾، وعن يزيد بن معاوية حين حج في خلافة أبيه، وجلس بالمدينة على شراب، ودعا عبد الله بن العباس والحسين بن علي لمشاركته حينما دخلا عليه، فامتنعا فقال:

إِلَيْكَ تُمَّ لَمْ تُجِبِ
إِلَى الْقِيمَاتِ الْلَّذَاتِ
وَالصَّهْبَاءِ الْمُطَرَّبِ
وَيَاطِيَّةً مُكَلَّلَةً
عَلَيْهَا سَادَةُ الْعَرَبِ
فَوَادِكَ تُمَّ لَمْ تَثِبِ⁽²⁾
وَفِيهِنَّ الَّتِي تَبَلَّثُ

ولعل أول الشعراء الماجنيين - بالمعنى الحقيقي للمجون - هو ابن خدام الأسد⁽³⁾.

ويصف لنا طه حسين بدء انتشار هذا التيار فيقول: «لم يكدر يبتدىء القرن الثاني حتى ظهر المجون وانتشر ووصل إلى قصور الخلفاء، ثم كانت ثورة العباسيين فتم انتصار الفرس على العرب... فتم انتصار العبّث والمجون»⁽⁴⁾. ولعل مجتمعاً عربياً لم يعرف اللهو والمجون كما عرفهما المجتمع العباسي في قرنه الأول، إذ شعر فيه العجم بحربيهم، فكانت منهم ثورة عاصفة على جميع التقاليد العربية، ومضى أبناء هذه الثورة يعبون من كؤوس اللهو والمجون حتى الثمالة، وانتشرت دورهما في كل مكان، وكانت تزخر بالخمر والغناء والقيان والغلمان.

(1) الأصفهاني: الأغاني: 4/177 بولاق.

(2) المصدر السابق: 14/61 دار الكتب والباطية: وعاء كبير للخمر.

(3) بروكلمن (كارل) تاريخ آداب اللغة العربية - ترجمة النجار. دار المعارف مصر 59 - 61 .203 / 1. 1962

(4) طه حسين: حديث الأربعاء. 2/81. دار المعارف. مصر 1958م.

ساعد في اتساع وانتشار هذه الموجة شيئاً: ظهور مذاهب شاكة ببللت الأفكار، - وعلى رأسها مذاهب الزنادقة والدهريين - ثم انتشار دور القيان. كما ساعد على انتشارها اختلاط العرب بالفرس وبغيرهم من الأعاجم، وقد غصت بيوت الأثرياء بالفاسدين المفسدين - كما يقول ديورانت - وأصبح السكر رذيلة شائعة بين كل الطبقات⁽¹⁾.

وساعد أيضاً مواقف بعض غلاة الفرق الدينية على تثبيت دعائم المجون والحضر على الإباحة⁽²⁾. حتى أن مواقف بعض هؤلاء الغلاة كانت تصبح طوفاناً يجرف في سبيله تعاليم الإسلام، وتقاليد العرب.

ويبدو أن هؤلاء الغلاة الذين حضوا على الإباحة، وساعدوا على انتشار المجون بدأوا - أكثر ما بدأوا - يزاولون نشاطهم في الكوفة. والكوفة نشأت بجوار الديانتين اليهودية والنصرانية، كما جاورت عقائد السكان الأصليين من مانوية وزرادشتية ومزدكية. ثم كان فيها ظهور فرق الغلاة والمتطرفيين، أمثال المنصورية والبيانية والخطابية والجناحية⁽³⁾. وهذا ما سبب في شيوع التحلل والتطرف في المجون، يقول في ذلك محمد جابر عبد العال: «المتأمل لمذاهب الكوفيين من الغلاة الذين حلوا المحرمات وسخروا بالدين، يجد مذاهبهم يطبقها هؤلاء المجان «من الشعراة» تطبيقاً لا يصطنعون فيه حيطة ولا حذر»⁽⁴⁾.

وينسب هذا الباحث إلى الكوفة كل إشارات المجون والزنادقة، وهو

(1) ديورانت: قصة الحضارة 2/ 454.

(2) فلهوزن: الخوارج والشيعة. ص 264.

(3) المنصورية: نسبة إلى منصور العجي. وقد كفرت بالقيامة والجنة والنار. والبيانية: من أتباع بيان بن سمعان: وقد نادوا باللوهبيته. والخطابية: اتباع أبي الخطاب الأسدي. والجناحية اتباع عبد الله بن معاوية. الفرق بين الفرق: البغدادي: ص 145. القاهرة 1948م.

(4) عبد العال (محمد جابر) حركات الشيعة المتطرفيين وأثرهم في الحياة الاجتماعية والأدبية لمدن العراق إبان العصر العباسي الأول. مطبعة السنة المحمدية - القاهرة 1954 م. ص 305.

يقول: إن المجنون لم يظهر ببغداد قبل أبي نواس⁽¹⁾، حتى لقد روى عن حذيفة صاحب الشرطة أنه قال: لما حبس أبو نواس كان أكثر من يزوره في حبسه المرد والشبان والخمارون وأصحاب الريبة⁽²⁾، ويمكننا أن نتصور مدى تأثير الرافضة في انتشار المجنون والتخلل، من قول بعض مشايخهم: «إن الله يشاء كل فاحشة ويريد كل معصية»⁽³⁾. ويرى عبد الرحمن بدوي، أن بعض الشعراء الذين اتهموا بالزنادقة، أمثال بشار وحماد عجرد، وأبان اللاحقي لم يكونوا زنادقة بالمعنى الصحيح، فهم أقرب إلى الشك والمجنون، وأولى باسم الشكاك العابثين منهم باسم الزنادقة الملحدين⁽⁴⁾. وعلى أية حال فإننا نلمح ارتباطاً وثيقاً بين المجنون والزنادقة، ويمكننا اعتبار المجنون أولى درجات الزنادقة.

ما تقدم يتيمنا أن المجنون لم يكن نزعة بريئة ساذجة، يدعو إليها الترف والتطرف الاجتماعي، ولكنه كان نتيجة مؤثرات عميقة كالمحاولات الدينية والفكرية والتطورات الخطيرة التي حدثت في تكوين المجتمع.

ولعل أول شيء نجده عند المجان، هو مجاهرتهم بارتكاب المحارم علينا دون مواربة، واتخاذهم أسلوب التصریح لا التلمیح، نرى ذلك واضحاً في شعر للأقیشر يجهز برکه الصلاة دون تحرج، وينتهكم بهذه الفرضية، قائلاً:

إذا صلّيت خمساً كل يوم
فإن الله يغفر لي فسُوقِي
فقد أمسكت بالحبل الوثيق⁽⁵⁾
ولم أشرك برب الناس شيئاً

(1) المصدر السابق. ص 269.

(2) المصري (ابن منظور): أخبار نواس 1/ 152.

(3) الخطاط (أبو الحسين عبد الرحيم) الانتصار. نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة 1914م، ص 6.

(4) بدري (عبد الرحمن) من تاريخ الإلحاد في الإسلام. مكتبة النهضة - مصر - القاهرة 1945م، ص 28.

(5) الأصفهاني: الأغاني 11/ 265. دار الكتب.

وَحِينْ يَمْسِكُ بِهِ أَحَدُ رِجَالِ الشَّرْطَةِ يَمْتَحِنُهُ فِي الصَّلَاةِ قَائِلًاً: كُمْ تَصْلِي كُلَّ يَوْمٍ فِي جِبْبٍ فِي سُخْرِيَّةٍ وَاضْعَفَهُ:

يَسَأَلُنِي هِشَامٌ عَنْ صَلَاتِي صَلَاةُ الْمُسْلِمِينَ فَقُلْتُ خَمْسُ صَلَاةُ الْعَصْرِ وَالْأُولَى ثَمَانٌ مُؤَاتَرَةً فَمَا فِيهِنَّ لَنِبْسٌ وَعِنْدَ مَغْيِبِ قَرْنِ الشَّمْسِ وَثُرٌ وَشَفْعٌ بَعْدَهَا فِيهِنَّ حَبْسٌ وَغُدْوَةً اثْنَتَانِ مَعًا جَمِيعًا وَلَمَّا تَبَدَّلَ لِلرَّأْيَيْنِ شَمْسٌ وَيَبْعَدُهُمَا لَوْقَتِهِمَا صَلَاةً لِنُسْكِ الْضُّحَاءِ إِذَا نِبْسٌ⁽¹⁾

وَنُرِى مُثْلَهُ مِثْلَهُ شِعْرًا عِنْدَ أَبِي دَلَامَةَ، الَّذِي يَخْرُجُ عَلَى حَدُودِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مَتَأثِّرًا بِتِيَارِ الْمَجُونِ الَّذِي اسْتَشْرِيَ فِي عَصْرِهِ، بِقَوْلِهِ:

وَوَاللَّهِ مَا لِي نِيَّةٌ فِي صَلَاتِهِ وَلَا إِلَرْ وَالْإِحْسَانُ وَالْخَيْرُ مِنْ أَمْرِي⁽²⁾
وَقَدْ أَحْسَنَ صَاحِبُ الْأَغَانِيِّ فِي وَصْفِهِ عِنْدَمَا قَالَ: «وَكَانَ فَاسِدُ الدِّينِ، رَدِيءُ الْمَذْهَبِ، مُرْتَكِبًا لِلْمُحَارَمَ، مُضِيِّعًا لِلْفَرَوْضَ، مُجَاهِرًا بِذَلِكِ»⁽³⁾.

أَمَّا الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ، فَيُعْتَبَرُ مِنْ أَنْمَةِ الْمَجَانِ، فَهُوَ يَجَاهِرُ بِاللَّذَّةِ وَارْتِكَابِ الْمُحْرَمَاتِ فِي مُثْلِ قَوْلِهِ:

أَشْهَدُ اللَّهَ وَالْمَلَائِكَةَ الْأَبْرَارَ وَالْعَابِدِينَ أَهْلَ الصَّلَاحِ أَنِّي أَشْتَهِي السَّمَاعَ وَشُرْبَ الْكَأسِ وَالْعُضُّ لِلْخُدُودِ الْمَلَاحِ وَالنَّدِيمَ الْكَرِيمَ وَالخَادِمَ الْفَارَّ يَسْعَى عَلَيَّ بِالْأَقْدَاحِ⁽⁴⁾

يَقُولُ أَبُو الْفَرْجِ عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدٍ: «كَانَ فَاسِقًا خَلِيلًا مَتَهِمًا فِي دِينِهِ»⁽⁵⁾، وَيَرْوِي السِّيَوْطِيُّ عَنْهُ: «أَنَّهُ كَانَ فَاسِقًا شَرِيبًا لِلْخَمْرِ، مُنْتَهِكًا

(1) المُصْدَرُ نَفْسَهُ 11/266. وَنِبْسٌ يَعْنِي نَطْلَقُ لِشُؤُونِ الْحَيَاةِ.

(2) المُصْدَرُ نَفْسَهُ 10/248.

(3) المُصْدَرُ نَفْسَهُ 10/235.

(4) المُصْدَرُ نَفْسَهُ 7/22.

(5) الْأَصْفَهَانِيُّ: الْأَغَانِيُّ: 2/7 دَارُ الْكِتَبِ.

لحرمات الله، وكثيراً ما اشتهر بالتلطُّط⁽¹⁾.

إن الوليد يجهه بلذته حين يعييه بعض الناس على الشراب فيقول:
ولقد قضيَت وإن تَجَلَّ لِمَتِي شَبَّتْ عَلَى رَغْمِ الْعِدَا لَذَاتِي
مِنْ كَاعِبَاتِ كَالْدُمِي وَمَنَاصِفِ وَمَرَاكِبِ لِلصَّيْدِ وَالثَّسَوَاتِ⁽²⁾

وتظهر نزعة المجنون عند الوليد واضحة جلية في تلك الأبيات التي
قالها عند موت هشام بن عبد الملك، حين سمع صياغ بناته ونديبهن،
فتغلب عليه روح المجنون والشذوذ في أكثر المواقف استشارة للحزن،
يقول:

إِنِي سَمِعْتُ بِلَيْلَ
إِذَا بَنَاثُ هَشَام
يَنْدُبَنَ وَالدَّهَنَ
يَنْدُبَنْ قَرْمَأْ جَلِيلًا
قَدْ كَانَ يَعْضُدُهُنَّ
أَنَا الْمُخَنَّثُ حَقًّا
إِنْ لَ—⁽³⁾.....

أما عصابة المجان، فقد كانت تضم كثيراً من الشعراء الذين انكبوا
على ملذاتهم وشهواتهم، وأمنوا بمبادئ المجنون: من خروج على الدين
والتقاليد، ومجاهرة بهذا الخروج. وكثيراً ما كانوا يجتمعون ويتطارحون
الشعر الدال على فساد مذهبهم، وعلى إمعانهم في المجنون.

ونجد عدداً كبيراً من الشعراء يندرجون في باب المجنون، منهم: أبان
اللاحقي والحسين بن الصحاك، ودعبدل الخزاعي، ومسلم بن الوليد،
ووالبة بن الحباب، ومحمد بن رياح، وأحمد بن روح، وحمدان الخزار،
والواسطي، والرقاشي، وأبو قابوس النصراني، والجماز، وأبو الشمقمق،

(1) السيوطي: (جلال الدين عبد الرحمن) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ص 166. ط: إدارة
الطباعة المنيرية - القاهرة - 1351هـ.

(2) الأغاني: 12/7 دار الكتب.

(3) المصدر السابق 6/109 بولاق. وأهملت كلمة في نهاية السطر الرابع لبذاتها ومعناها
أفضل بهن.

و عمرو الوراق، والحسين الخياط، وعلي بن الخليل، والقراطيسى، ورزين الكاتب، وحماد عجرد، ومطيع بن إياس، ويحيى بن زياد، وابن أبي عينية⁽¹⁾.

كثيراً ما كانت عصبة المجان تجتمع فتتطارح الشعر، تأنس بفاحش الكلام وتلذ برذيله.

يكتب أبو قابوس إلى أبي نواس، يصف له مجلساً ماجناً لم يحضره، فيقول:

فديُّك يا نُواسِي اصطَبْخنا بِكِبُرَةٍ وَبِلَبْلَةٍ وَطَاسِ
فَمَا كَانَتْ صَلَةُ الظُّهُرِ حَتَّى تَلَقَّفَنَا بِأَثْوَابِ الشَّعَامِ
تَوَسَّدَ بَعْضُنَا أَفْخَادَ بَعْضٍ وَظَلَّنَا فِي اخْتِلَاطِ وَالْتَّبَاسِ
فَيَتَحَسَّرُ أَبُو نُواسَ عَلَى حِرْمَانِهِ مِنْ هَذَا الْمَجْلِسِ، فَيَبَدِّرُ عَلَى
الإجابة:

خَلَا اخْلَالَكُمْ بِأَبِي نُواسِ قدْ وُفِّقْتُمْ لِخَلَالِ ظَرْفٍ
وَقَدْمَاً كَانَ ذَاكَ مِنَ التَّمَاسِ فَهَلَّا إِذْ عَرَمْتُ عَلَى اصْطِبَاحٍ
وَلَمْ تَكُ غَافِلًا عَنِّي كَنَاسِي ذَكَرَتْ خَلَاعَتِي وَمُسَاعِدَاتِي
أَبَا قَابُوسَ جَلْدُ لِي ضَبْوَحًا عَلَى مُزْدِ وَمُشَمِّعَةٍ وَكَاسِ⁽²⁾

هذه المجالس التي يعكف عليها أولئك الماجنون، كانت تحوي بين دفتيها كل أركان المجون وكل الرذائل، أي الخروج على الدين والتقاليد والعرف ، والوصول إلى زندقة دينية واجتماعية. كان كل واحد من أفراد عصبة المجان يستضيف الآخرين عنده، ويغريهم بلون أو باخر من ألوان المجون، فدادود الواسطي يغريهم بالخمر في مجلس يسمعون فيه الغناء، وأبو نواس يغريهم بارتكاب الفواحش، و يجعل ميعادها وقت الصلاة، إمعاناً في المجون والتهتك:

(1) أبو نواس (الديوان) ص 43، 44. تحقيق (إيفالد فاجنر) القاهرة - 1958م.

(2) المصدر السابق: ص 54.

فَإِنْ أَرَدْتُمْ فَتَنَاهُ أَتَيْتُكُمْ بِفَتَنَاهُ
وَإِنْ أَرَدْتُمْ عَلَامَةً صَادَفْتُمْ مَوْنِي مُؤَاتِي
فَثَاوِرُوهُ مُجَوْنَا فِي وَقْتٍ كُلُّ صَلَاةٍ^(١)

ويشير عمرو الوراق على خطى أبي نواس، فيدعوهم إلى الخمر والسماع، ويحل لهم ترك الصلاة:

هَذَا وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ أُولَى وَلَا وَقْتٌ عَضَرٌ^(٢)
وَأَمَّا الْحَسِينُ الْخَلِيلُ وَفَضْلُ الرَّقَاشِيِّ وَعَلِيُّ بْنُ الْخَلِيلِ وَالْقَرَاطِيسِيِّ
وَرَزِينُ الْكَاتِبِ وَحَمْدَانُ الْخَزَازِ، فَجَمِيعُهُمْ يَدْعُونَ بِأَقْيَ الْعَصَابَةِ إِلَى مِثْلِ مَا
تَقْدِمُ بِهِ أَخْوَانُهُمْ مِنْ خَمْرٍ وَسَمَاعٍ وَارْتِكَابِ فَوَاحِشٍ وَلَوْ بَيْنَ بَعْضِهِمْ
البعض، كما جاء في أبيات الْخَزَازِ.^(٣)

ويبدو أن المجنون كان يطلقهم من كل قيد والتفنن في الإقبال على الشهوات، وربما كان هذا الاتصال الشاذ له جذور في الإباحة المزدكية، وإلا فكيف نفس قول والبة بن الحباب:

حَتَّى إِذَا مَا انتَشَنَا وَهَرَّنَا إِلَيْنَا
رَأَيْتَ أَعْجَبَ شَيْءٍ مِنَ الْوَحْنِ جُلُوسُ
هَذَا يُقْبَلُ هَذَا وَذَاكَ هَذَا يَبُوْسُ^(٤)

والذي روی لنا من نقاوص أبي نواس مع عنان الجارية ومع غيرها من الجواري فهو يؤكد الدور الخطير الذي قمن به من إشاعة التهتك والفحش وسريان تيار المجنون.

وربما كانت «دقائق» المغنية صورة واضحة لهزلاء الجواري في

(١) المصدر نفسه، ص.61.

(٢) المصدر نفسه، ص.62.

(٣) المصدر نفسه، ص.64.

(٤) ابن المعتر: طبقات الشعراء، ص.89 دار المعارف مصر، 1956م.

مجونها وفحشها، حتى كانت تقول الشعر في وصف هنها، وفيها يقول أحدهم:

عَدِيمُتُكِ يا صديقةَ كُلِّ خَلْقٍ أَكُلُّ النَّاسَ وَيَحْكُّ تَعْشَقِينَا⁽¹⁾
وما لنا نذهب بعيداً في تصورنا لهذا التهتك، وفي استنتاج تأثير الجواري في حركة المجنون، وهذا شعر عنان في أبي نواس يدل على إباحة مطلقة:

عَجَباً مِنْ خَلْقِي يَذَعِي أَصْلَ الْلَّوَاطِ
فَإِذَا صَارَ إِلَى الْبَيْنِ تَخَسَّفُ مِنْ تَرَاطِ
فَالَّذِي يَعْلَمُ يَدْرِي مِنْ يَلِي وَجْهَ الْبِساطِ⁽²⁾

لم يكن المجنون وقفًا على عصابة من الشعرا أو الجواري، أو جماعة من الناس أو طبقة بذاتها في المجتمع، ولكنه فيما يبدو كان شائعاً بين أفراد من الطبقات المتباينة بتأثير العوامل الاجتماعية المختلفة، ونستطيع أن نلم بذلك من الروايات التي ذكرها حمزة الأصفهاني في اللواط المستشرى بين أفراد المجتمع. ومن ذلك أن أبو نواس رأى رجلاً من ولد المهلب ثم من ولد روح بن حاتم وفotope غلام يعفجه⁽³⁾. إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة، التي تصور لنا قوة تيار المجنون واستشرائه.

وكما ربطنا بين المجنون والزندة وأوجدنا بينهما صلة الجزء بالكل، كذلك علينا أن نذكر أن أغلب أفراد عصابة المجان كانوا من الموالي، وبعضهم تعصب ضد العرب، ولا تستبعد أن يكون مجنونهم هذا، وحثهم عليه، وسعيهم لانتشاره وإشاعته، جزءاً من سياستهم التي أرادوا بها هدم مقومات المجتمع العربي، والعودة إلى سالف مجد شعوبهم. والذي يجعلنا

(1) طبقات ابن المعzt: ص 89.

(2) ديوان أبي نواس: ص 83. ط (فاجنر). وخفف: سرعة.

(3) المصدر السابق: ص 94. وعفج: نكح وجامع و فعل به فعل قوم لوط.

نميل إلى هذا الرأي هو مجاهرتهم بمجونهم، وليس ضرورياً لمن يريد أن يستبعـح محرماً أن يجهـر به إلا إذا كان يقصد من وراء هذه المجاهرة الدعوة إلى مذهبـه التلـيد. وهذا ما نلمـحـه بالفعل في شـعـرـ المـاجـنـينـ، فـبـشـارـ يـدـعـوـ إلى اللـذـةـ دونـ وجـلـ منـ اللـوـامـ والـسـاخـطـينـ، إذـ يـقـولـ:

من راقـبـ النـاسـ لمـ يـظـفـرـ بـحـاجـتـهـ وـفـازـ بـالـطـيـبـاتـ الـفـاتـكـ اللـهـجـ
قالـواـ حـرـامـ تـلـاقـيـنـاـ فـقـدـ كـذـبـواـ مـاـ فـيـ التـزـامـ وـلـاـ فـيـ قـبـلـةـ حـرـجـ⁽¹⁾
وـنـجـدـ هـذـهـ النـاحـيـةـ وـاضـحـةـ عـنـدـ أـبـيـ نـوـاسـ الـذـيـ يـجـاهـرـ، وـيـؤـكـدـ
إـصـرـارـهـ عـلـىـ المـضـيـ فـيـ الـفـسـادـ وـالـغـيـ فـيـقـولـ:

لـسـتـ بـالـثـارـكـ لـذـاتـ الـنـدـامـىـ لـلـضـلـاحـ
قـلـ لـمـ يـبـغـيـ صـلـاحـاـ بـعـثـ رـشـدـيـ بـصـلـاحـيـ
أـطـيـبـ الـلـذـاتـ مـاـ كـانـ جـهـارـاـ بـاـفـتـضـاحـ⁽²⁾
وـرـبـماـ اـعـرـفـ أـبـوـ نـوـاسـ بـتـحـرـيمـ مـاـ يـرـتكـبـ، وـلـكـنـهـ يـسـتـشـعـرـ اللـذـةـ فـيـ هـذـاـ
التـحـرـيمـ، وـهـنـاـ دـعـةـ خـفـيـةـ لـلـإـبـاحـةـ، وـلـكـنـهاـ عـمـيقـةـ الـأـثـرـ، يـقـولـ:

فـحـذـهـاـ إـنـ أـرـدـتـ لـذـيـذـ عـيـشـ وـلـاـ تـغـدـلـ خـلـيلـيـ بـالـمـدـامـ
وـإـنـ قـالـواـ حـرـامـ، قـلـ: حـرـامـ وـلـكـنـ الـلـذـادـةـ فـيـ الـحـرـامـ⁽³⁾
وـلـاـ يـتوـانـيـ أـبـوـ نـوـاسـ عـنـ أـنـ يـمـزـجـ الـمـجـونـ بـالـكـفـرـ دـاعـيـاـ إـلـىـ
المـجـاهـرـ بـهـمـاـ، إـذـ يـقـولـ:

فـيـنـ باـسـ مـنـ أـهـوـيـ وـدـغـنـيـ مـنـ الـكـنـىـ فـلـاـ خـيـرـ فـيـ الـلـذـاتـ مـنـ دـوـنـهـ سـتـرـ
وـلـاـ خـيـرـ فـيـ فـتـكـ بـغـيـرـ مـجـانـةـ وـلـاـ فـيـ مـجـونـ لـيـسـ يـتـبـعـهـ كـفـرـ⁽⁴⁾
وـهـنـاكـ مـاجـنـونـ غـيرـ مـشـهـورـينـ عـنـدـ دـارـسـيـ الـأـدـبـ. فـمـنـهـمـ أـبـوـ

(1) بـشـارـ (بـنـ بـرـدـ): دـيـوـانـ تـحـقـيقـ مـحـمـدـ عـاشـورـ. لـجـنـةـ التـالـيفـ وـالـتـرـجـمـةـ وـالـنـشـرـ الـقـاهـرـةـ، 1950 - 1954.

(2) دـيـوـانـ أـبـيـ نـوـاسـ، صـ685. دـارـ الـكتـابـ الـعـربـيـ.

(3) المـصـدرـ نـفـسـهـ: صـ693.

(4) المـصـدرـ نـفـسـهـ: صـ308 وـ28.

النضير⁽¹⁾، الذي أظهر الخلاعة والمجون والفسق، ونافس أبو نواس في عشق جنان جارية الناطفي وهو الذي قال فيها:

أنا واللَّهِ أهْوَكُ وأهْوَكُ وأهْوَكُ
وأهْوَى قَبْلَةً مِنْكِ عَلَى بَرْزَدْ ثَنَايَاكِ⁽²⁾

... إلى آخر هذا الشعر الرخيص

ومثل هذا الغزل الماجن يذكرنا بغزل حماد عجرد في «جوهر» جارية ابن عون:

إِنِّي لِأهْوَى جَوَهْرًا وَيُحِبُّ قَلْبِي قَلْبَهَا
وَأَحْبُّ مَنْ خَبَّي لَهَا مَنْ وَدَهَا وَأَحْبَّهَا⁽³⁾

ومن غير المشهورين آدم بن عبد العزيز، وهو عربي من بني مروان، كان في أول أمره خليعاً ماجناً منهمكاً في الشراب، حتى أن أحد الرواة، قال عنه: «ما رأيت قرشياً أ Merchant من منه»⁽⁴⁾. وكذلك حمزة بن ييض، ومحمد بن عمرو الجماز، وسعيد بن وهب، ويحيى الحارثي وزرزر الرفاء⁽⁵⁾، والخاركي الذي كان خبيثاً سفيهاً ماجناً، وشعره كله لا يقل فحشاً عن قوله:

إِذَا لَامَ عَلَى الْمُرْزِ نَصِيحٌ زَادَنِي حَرْصًا
وَلَا وَاللَّهِ يَا قَوْمٍ فَلَا أَفْلِمُ أَوْ أَخْصِي⁽⁶⁾

ومنهم أيضاً ابن خدام الأسدية، والغمر بن أبي الغمر، وعمرو بن حسان بن هاني، وعلي بن كثير، ومنقذ بن عبد الرحمن الهلالي. وجميعهم

(1) عمرو بن عبد الملك مولىبني نجع.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 11/287. دار الكتب.

(3) المصدر السابق: .76/13

(4) المصدر السابق: .78/17

(5) هدارة: اتجاهات: ص218.

(6) بن الجراح (أبو عبد الله محمد بن داود) الورقة: ص56. دار المعارف، مصر، 1953م.

خباء في مجونهم، أصحاب شراب وفتوة، إلا أخيرهم فما جن منهم في دينه⁽¹⁾.

هذه الكثرة من الشعراء تظهر بوضوح كيف كان تيار المجون قوياً في المجتمع العربي، وبخاصة في القرن العباسي الأول، وعلى العموم فقد نستخلص بعض عناصر المجون من أرجوزة الرقاشي التي ضمنها أنواع المجون وأركانه، وهو يأمر فيها أتباعه ورفقاء الماجنين باتباع اللواط وشرب الخمر والقامار والهراش بين الديكة والكلاب. وأول أرجوزة المجون هذه:

أوصى الرقاشي إلى خلاني وصيَّةِ المُحَمْمُودِ فِي إِخْرَانِه⁽²⁾
ومما تقدم، يتبيَّن لنا أن تيار المجون كثيراً ما التقى بالخمريات،
ولعل عبارة آدم بن عبد العزيز خير صادق على ذلك الالتفاء، فحين اتهم
بالزندة، دافع عن نفسه قائلاً: «كنت فتى من فتيان قريش أشرب النبيذ
وأقول ما قلت على سبيل المجون»⁽³⁾. كما التقى هذا التيار بشعر الغزل
الخلع الماجن، كغزل حماد عجerd وأضرابه الذين مر ذكرهم. والتقى أيضاً
بالزندة كما أوضحتنا، وبالشذوذ الجنسي، ويتبَّعُ لنا هذا في أبيات والبة
ابن الحباب التي مطلعها:

يُعَاطِيْنَا الرُّجَاجَةَ أَرِحَّيَّةَ رَخِيمُ الدَّلَّ بُورُكَ مِنْ مُعَاطِيْ⁽⁴⁾
وظاهرة الشذوذ الجنسي قديمة قدم قوم لوط، ولكنها نفشت كثيراً حينما
وصلت الحضارة العربية طور نضوجها، وبدأ يتطرق إليها الانحلال الخلقي.

(1) أنظر الأسدى في الأmedi: المؤتلف والمختلف: ص114. مكتبة القديسى: القاهرة 1354هـ والباقيين: في المرزباني: معجم الشعراء، ص232 - 282، مكتبة القديس: القاهرة - 1354هـ

(2) ابن المعتر: طبقات الشعراء. ص226.

(3) الأصفهانى: الأغانى: 14/59. دار الكتب.

(4) طبقات ابن المعتر: ص88.

وأهم أسباب ذلك، اختلاط عدد كبير من الأجناس البشرية المختلفة بالأديان والعقائد والعادات والتقاليد، ويقول التويهي: من الحق القول إنه نشا عن اختلاط كل هذه الأجناس اختلاطاً نجم منه كثير من الاضطراب والشك⁽¹⁾.

ومهما يكن من أمر فالمجتمع العربي، عرف أنواعاً مختلفة من الانحرافات الجنسية: عرف حب الذكور للذكور، كما يتضح في شعر الخاركي وحماد عجرد، ومطيع بن إياس، ووالبة بن الحباب، وأبي نواس، والحسين بن الصحاح وغيرهم، وعرف حب الإناث للإناث كما في قول أبي العتاهي:

أَفِقْنَ فَيَانَ (ال فعل) أَشْفَى مِنِ السُّحْقِ
وَلَيْسَ يَسُوَّغُ الْخَبْرُ بِالْجُبْنِ فِي الْحَلْقِ
وَأَوْيَ لَبِيبٍ يَرْقَعُ الْخَرْقَ بِالْخَرْقِ
إِذَا احْتَاجَ مِنْهُ ذَاتٌ يَوْمٌ إِلَى الدِّقِ⁽²⁾
أَلَا يَا ذَوَاتَ السُّحْقِ فِي الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ
أَفِقْنَ فَيَانَ الْخَبْرُ بِالْأَدْمِ يُشْتَهِي
أَرَاكِنَ تَرْتِقْنَ الْخُرُوقَ بِمَثْلِهَا
وَهَلْ يَصْلُحُ الْمَهْرَاسُ إِلَّا بِعُودِهِ

وعرف من الانحرافات الجنسية اللذة التي تكون من الاتجاھين، وقد صورها أبو نواس ومطيع بن إياس⁽³⁾، كما عرف «العادة السرية»، ويقول ابن منظور: إن أبو نواس هو أول القائلين في هذا الشذوذ⁽⁴⁾، ومن ابتكارات المجنون للشهوات الشاذة اتصال الآدميين بالحمير⁽⁵⁾. واتصالهم بالكلاب⁽⁶⁾.

(1) التويهي (محمد): نفسيه أبي نواس، ص 104. النهضة المصرية القاهرة 1953م.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 3/137. بولاق. وضعنا في السطر الأول كلمة (الفعل) بدلاً من الكلمة الصريحة. وهي بذلة. والمهراس: حجر متقور يدق فيه.

(3) المصدر نفسه 13/329. دار الكتب.

(4) ابن منظور (المصري) أخبار أبي نواس 1/110. الجزء الأول - مطبعة الاعتماد القاهرة 1324م.الجزء الثاني - مطبعة المعارف بنداد 1952م.

(5) طبقات ابن المعتر: ص 388.

(6) الجاحظ: الحيوان 1 - 3. ص 219. دار صعب.

ومما تقدم يتبيّن لنا أنّ تيار المجنون هو صدى لحياة مجتمع مختلف الطبقات، يعجّ بأقوام تباينوا في الجنس والمعتقد والعادات، واختلطوا وتزاوجوا ونشأ عن ذلك مجتمع جديد فيه الاتجاهات المختلفة من دين ودنيا.

وما دمنا في ذكر طبقات المجتمع، فإن المجنون والعبث واللهو، وما نتج عنها وداخلها من فنون الفحش وانتهاك المحرمات، قد فشا في جميعها من الخلفاء وأكابر القوم إلى الشعراء - وقد عرضنا لمجنونهم - وهبوطاً إلى عامة الناس .

ولعل أول من شرب المسكر من الخلفاء يزيد بن معاوية، فقد روي عنه أنه كان لا يمسى إلا سكراناً، ولا يصبح إلا مخموراً، فقيل له يزيد الخمور⁽¹⁾.

والوليد بن عبد الملك، فكان يشرب يوماً ويدع يوماً. واعتاد هشام الشراب أيام الجمعة بعد الصلاة، وشغف يزيد الثاني باثنتين من القيّان هما سلامه وحبابة. غير أنّ الوليد ابنه يزد الجميع في الشراب والتهتك، وقد روي عنه أنه اتّخذ بركة في قصره، فكان يملأها خمراً ثم ينزع ثيابه ويغتسل فيها ويشرب منها، ويظل كذلك حتى يظهر النقص في البركة⁽²⁾. وهو الذي فتح المصحف يوماً فوافق ورقة فيها « واستفتحوا وخار كل جبار عنيد ، من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديده»⁽³⁾، فقال علقوه، ثم أخذ القوس والنبل فرماه حتى مزقه، ثم قال:

أَتُوعِدُ كُلَّ جَبَارٍ عَنِيدٍ فَهَا أَنَا ذاك جَبَارٌ عَنِيدٌ
إِذَا لَاقِيتَ رَئِيكَ يَوْمَ حَشْرٍ فَقلْ لِلَّهِ مَرْقَنِي الْوَلِيدُ⁽⁴⁾
ولقد أورد صاحب الأغاني خبراً يصور مجلساً من مجالس شربه

(1) حتى: تاريخ العرب، ص 291.

(2) المصدر السابق. ص 292.

(3) سورة إبراهيم. آية 15 - 16.

(4) الأصفهاني: الأغاني: 125/6. بولاق.

ووصف فيه ما كان يمارسه هذا الخليفة من العهر والمجون⁽¹⁾.

ولذا ما انتقلنا إلى بغداد، عاصمة بنى العباس، نرى إبراهيم ابن المهدى يعاور النيد ويمارس العناء⁽²⁾.

هذا عن بعض خلفاء الدولتين الأموية والعباسية. أما عن القضاة وهم ما دون الخلفاء في التدرج الطبقي، فقد شكا أهل البصرة إلى المأمون بأن القاضي يحيى بن أكثم فسد أولادهم، إذ هو لواطي ظهرت منه الفواحش وارتكاب الكبائر، حيث يقول:

أربعة تفتئنُ الحاظهم
فواحد دُنياه في وجهه
وآخر دُنياه مفتولة
وثالث قد حاز كلتيهما
ورابع قد ضاع ما بينهم

فعين من يعشّقُهم ساهرة
منافق ليست له آخره
من خَلْفِه آخره وافره
قد جمع الدنيا مع الآخره
ليست له دنيا ولا آخره⁽³⁾

وفي مجونة وشذوذه يقول ابن أبي نعيم:

يا ليت يحيى لم يلذَّة أكْتُمْهُ
ولم تَظُنْ أرض العراق قَدَمْهُ
أي دواة لم يلْفَها قلمُه
وأي شِغَبٍ لم يَلْجِه أرْفَمْهُ⁽⁴⁾

وفيه يقول راشد بن اسحاق:

وكتنا نرجُي أن نرى العدل ظاهراً
فاغْقَبَنَا بعد الرَّجَاءِ قُنُوطُ
ومتى تصلح الدنيا ويصلح أهْلُها
وقاضي قضاة المسلمين يلْوِظُ؟⁽⁵⁾

(1) المصدر السابق: 72/2.

(2) المسعودي: مروج الذهب 32/4. دار المعرفة.

(3) المصدر السابق. 21/4.

(4) المصدر السابق. 22/4.

(5) المصدر السابق. 24/4.

ولعلنا لا نغالي إذا رأينا أن المجنون تفشي بين جميع طبقات المجتمع نزولاً حتى القيان والجواري. وطبعي أن تكون حياة هؤلاء ماجنة خلية، ليس فيها طهر إلا شذوذًا، ولعل الجاحظ يعطينا أحلى صورة عن علة ذلك بقوله: «كيف تسلم القينة من الفتنة... وهي إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بين الخلعاء والمجان... بنيت كلها على ذكر... العشق والصبوة والشوق والغلمة⁽¹⁾». وهؤلاء الجواري كن يختلفن ما بين عوادة وزامرة وصناجة ورقاصة وطنبورية ودفافة إلى جانب روایتهن للشعر. وكن يستخدمن معرفتهن في اجتذاب الرجال إليهن بوسائل مختلفة، إذ كن يكتبن أبياتاً مثيرة على عصائبهن، وعلى الذوابات والمناديل والوسائد والأسرة⁽²⁾، روى بعض العباسين أنهم رأوا «عرب» وعليها قميص مكتوب في وشاحه:

وإني لأهواه مسيناً ومحسناً وأقضى على قلبي له بالذى يقضى
فحتى متى روح الرضا لا ينالنى وحتى متى أيام سخيطك لا تمضي⁽³⁾
كانت دور القيان مقراً شبه دائم لطالبي المتعة، ولأصحاب المجنون،
روى الأغاني أنه اجتمع يوماً أبو نواس والحسين بن الضحاك وأبو العتاهية
وهم مخمورون، فقالوا: أين نجتمع؟ فقال القراطيسي:

ألا قوموا بأجمعكم إلى بيت القراطيسي
لقد هيأنا الثزل غلام فاره طوسى
وقينات من الحور كamodel الطواوىس⁽⁴⁾

وكانت بيت القراطيسي من بيوت القيان الكبيرة، التي كان يجتمع فيها الشعراء، ومثله بيوت أخرى⁽⁵⁾، يحتفلون فيها بحبهم وبمجنونهم وإثنهم. ومن

(1) الجاحظ: ثلات رسائل - نشر يوشع فنكل - المطبعة السلالية - القاهرة - 1344هـ، ص 72.

(2) الوشاء (أبو الطيب محمد بن أنس بن يحيى) المعoshi أو (الطرف والظرفاء). نشر مكتبة الخانجي القاهرة - 1953م. ص 172.

(3) المصدر السابق: ص 173.

(4) الأصفهاني: الأغاني: 20/89. طبعة السادس.

(5) المصدر 13/122 (أساسي).

خير ما يصور هذا المجتمع الماجن قصيدة أبي العناية التي نقتطف منها:

لهفي على الزمن القصير
في فتية ملوكها علينا
يتعاونون مدامنة
صهباء من حلب العصير
ومحضرات زرتنا
بعد الهدو من الخدور
متنعمات في النعيم مضممات بالغبیر⁽¹⁾
ما تقدم نكون قد بينا أن المجون يتلقى مع الزندقة في فروعه
وعناصره وأصوله. فمجالسة الغلمان كفر والكفر زندقة وقد نهى الرسول عن
هذه المجالسة في أحاديثه. عن أنس قال: قال رسول الله: «لا تجالسو
أبناء الملوك فإن النفوس تشتاق إليهم ما لا تشتاق إلى الجواري العواتق»⁽²⁾
وعن أبي هريرة عن الرسول قال: «لا تملأوا أعينكم من أولاد الملوك فإن
لهم فتنة أشد من فتنة العذارى»⁽³⁾ والرقص والغناء بدعة وكفر، قال أبو
الوفاء ابن عقيل: قد نص القرآن على النهي عن الرقص، فقال: «لا تمشي
في الأرض مرحًا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً»⁽⁴⁾.

والاطلاع على طقوس المجوس واليهود والنصارى وعقائدهم، واتباع
بعضها أحياناً هرطقة وزندقة، وهذا ما اتهم به أبو نواس وأترابه⁽⁵⁾.

والازدراء بالدين وتلفيق الأحاديث الكاذبة والسخرية من الناس مجون
وزندقة، وهذا ما فعله مطيع ابن إبياس⁽⁶⁾. ومثله عمر الخاركي الذي أنكر
البعث والنشور⁽⁷⁾.

(1) المصدر 4/60. دار الكتب. يتعاونون: يتدالون. محضرات: دقائق الخصور. الهدو: أوائل الليل

(2) ابن الجوزي: تلبيس إيليس، ص 274.

(3) المصدر نفسه.

(4) قرآن كريم: سورة الإسراء، آية 37.

(5) طبقات ابن المعتز: ص 201.

(6) طه حسين: حديث الأربعاء: ص 473 وما بعد دار الكتاب اللبناني.

(7) الشكمة: الشعر والشعراء. ص 173.

والخمر محرم صراحة في القرآن الكريم والإنجيل المقدس وقد بينا ذلك فيما سلف، يقول أبو هاشم: من تاب عن كل شيء إلا أنه شرب جرعة من خمر فإنه يعذب عذاب أهل الكفر⁽¹⁾.

إن المجنون هو انغماس في اللهو وتحلل في الأخلاق، وببعضه يرجع إلى الهرب من الحياة والتخفف من أعبائها الثقيلة، مما ساعد على اختلال في موازين المجتمع وفساد في قيم البشر، فكان الشك يتسلط على نفوس كثيرين وتتسليط معه ألوان الإلحاد والزنادقة.

القسم الثاني

الزهد

1 - معناه:

الزهد: لغة الإعراض عن الشيء احتقاراً له، من قولهم شيء زهيد أي قليل، وهو عند الصوفية أخذ قدر الضرورة من العلال، وقيل: بغض الدنيا والإعراض عنها، وقيل: ترك راحة الدنيا طلباً لراحة الآخرة. وقد اختلف العلماء في تفسير المزهود فيه، فقيل: الدنيا والدرهم والمطعم والمشرب والملبس والمسكن، والحياة. ويشتمل الزهد عندهم على ثلاثة أمور، كلها من القلب دون الجوارح. فالأول: صحة اليقين وقوته، فالله تعالى يتکفل بإرزاق عباده. والثاني: كمال اليقين. وقد قيل: من زهد في الدنيا هانت عليه المصائب. والثالث: سقوط منزلة المخلوقين من القلب وأمتلائه من محبة الحق. وأنشد بعضهم:

وَمَا الزَّهْدُ إِلَّا فِي انْقِطَاعِ الْعَلَائِقِ وَمَا الْحُقُّ إِلَّا فِي وُجُودِ الْحَقَائِقِ
وَمَا الْحُبُّ إِلَّا حُبُّ مَنْ كَانَ قَلْبُهُ عَنِ الْخَلْقِ مَشْغُولاً بِرَبِّ الْخَلَائِقِ⁽²⁾

(1) ابن الجوزي: تليس إيليس: ص 83.

(2) البستاني (بطرس): دائرة المعارف. دار المعرفة - بيروت 9/278. مادة زهد. وانظر لسان العرب: مادة زهد.

يعتبر المستشرق كارلو نلينو الزهد من موضوعات الشعر الجاهلي⁽¹⁾، كما يعتبر عدي بن زيد العبادي النصراني⁽²⁾، من الشعراء الزهاد، وما ذاك إلا لأنَّ هذا الشاعر وصف فناء الأمور الدنيوية، وذكر عواطف الزهد، فقال بلسان المقابر:

أَنَّهُ مَوْفِ عَلَى قَرْنِ زَوَالٍ
يُشَرِّبُونَ الْخَمْرَ بِالْمَاءِ الزَّلَالِ
عُمِّرُوا دَهْرًا بَعِيشِ حَسْنٍ
وَكَذَاكَ الدَّهْرُ يُودِي بِالرِّجَالِ
إِنَّهُ يَلْاحِظُ تَغْيِيرَ الزَّمْنِ وَدُورَاتِهِ بِالنَّاسِ، وَيَصْرُحُ فِي قَصِيدَةِ أُخْرَى بِأَنَّ
كُلَّ شَيْءٍ يَزُولُ وَلَا يَخْلُصُ مِنْ بِرَاثَتِ الْمَوْتِ غَيْرَ رَبِّ الْمَوْتِ، الَّذِي خَلَقَ
الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ فَيَقُولُ:

لِيْسَ شَيْءٌ عَلَى الْمَنْوَنِ بِبَاقِي غَيْرِ وَجْهِ الْمُسَبِّحِ الْخَلَاقِ⁽⁴⁾
وَمِنْ الْجَدِيرِ بِالذِّكْرِ، أَنَّ عَدِيَّ بْنَ زَيْدَ، أَحَبُّ فِي زَهْدِيَّاتِهِ ذِكْرُ
الْحَوَادِثِ التَّارِيْخِيَّةِ الْعَظِيمَةِ كَشَوَاهِدِ مَلْمُوسَةٍ لِتَرْسِيْخِ إِيمَانِهِ فِي نَفْوِسِ
سَامِعِيهِ، وَمَا قَالَهُ وَهُوَ فِي الْحَبْسِ:

أَينَ كَسْرَى كَسْرَى الْمُلُوكِ أَنْوَشَرْ
وَإِنَّ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورْ
وَيَنِّو الْأَصْفَرُ الْكَرَامُ مَلُوكُ الْـ
روْمِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَذْكُورُ



وَتَذَكَّرُ رَبُّ الْخَوْزَنِيْقِ إِذْ شَـ رَفِ يَوْمًا وَلِلْهُدَى تَفْكِيرُ



(1) نلينو: تاريخ الآداب العربية. ص 90. دار المعرفة.

(2) الزركلي: الأعلام 4/220.

(3) الأصفهاني: الأغاني: 2/112. دار الكتب.

(4) هدارة: اتجاهات: ص 281.

ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمُلْكِ وَالْمَأْوَى وَارْتَهُمْ هُنَاكَ الْقُبُورُ
ثُمَّ صَارُوا كَانِهِمْ وَرَقٌ جَّا فَفَأْلَوْتَ بِهِ الصَّبَا وَالدُّبُورُ⁽¹⁾

ويرى شوقي ضيف أن الزهد نشأ نشأة إسلامية خالصة، فقد دعا إليه القرآن ودعته إليه السنة النبوية. حيث القرآن في غير مكان على الخلوص لله والاستسلام له والانقياد إليه، «إذ أن الفائزين برضوان الله هم» «التابون العابدون السائرون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين»⁽²⁾، وهذا كله صرف كثيراً من المسلمين الأولين إلى الزهد في حطام الدنيا، وأكده لهم الحديث النبوي ذلك، من مثل ما يروى من أن رجلاً قال للرسول: «دلني على عمل إذا أنا عملته أحبني الله وأحبني الناس»⁽³⁾، ويذهب شوقي ضيف إلى أن عهد فيما أيدي الناس يحبك الناس⁽⁴⁾. ويرى شوقي ضيف إلى أن عهد الفتوح وما رافقه من مزج للشعوب قد أدخل إلى الزهد عناصر أجنبية كثيرة على رأسها عناصر مسيحية كانت في العراق والشام ومصر، عملت على اتساع هذه التزعنة وفي اضطراد نموها وازدهارها⁽⁵⁾. ويرى أن قاتدة أحد زهاد العراق ينقل عن التوراة، والشعبي أحد عباده ينقل عن السيد المسيح⁽⁵⁾.

إن ما ينبغي التنبه إليه، أن الزهد مذهب له خصائص معينة، وأصول وعناصر يرتكز عليها، إنه فكرة عميقة يعتقد بها الإنسان، فتتغلغل في كيانه.

ولعل الميل إلى الزهد، وبخاصة في العصر الأموي والعباسي الأول، تجلى في العراق، وربما كان بدء ذلك في أيام عثمان بن عفان، إذ

(1) الأصفهاني: الأغاني: 2/36. بولاق.

(2) قرآن كريم 9/112. وكلمة سائرون: تفيد الرحلة عن الدنيا ومتها.

(3) ضيف (شوقي): التطور والتجدد في الشعر الأموي. ص 56. دار المعارف - مصر.

(4) المصدر السابق: ص 57.

(5) المصدر السابق: ص 59.

حرم عامر بن عبد قيس على نفسه الزواج واللحم⁽¹⁾، وقد وجد في العراق، منذ القرن الأول الهجري كثير من النساء الذين أطلق عليهم اسم (العباد)، ويقول جولد تسيهير إن انتشار الإسلام في تلك الربوع أفسح للنفوس المتعطشة لهذا المجال الروحي ويسر لها اكتساب تجارب من مخالطة المسيحية⁽²⁾. ويرى هذا الباحث أن للبوذية تأثير واضح في الزهد الإسلامي⁽³⁾.

إن تأثير العناصر المسيحية - يقول: «فون كريمر» - قد أدت إلى نمو الزهد في المجتمع الإسلامي العربي⁽⁴⁾، ويقر بروكلمان ذلك في حديثه عن أبي العتاهية⁽⁵⁾.

من غير المستبعد وجود تأثيرات مختلفة في حركة الزهد، مسيحية كانت أم بوذية، تسربت إلى العرب مع حركة المزج السكاني، والتقاء الثقافة العربية بالثقافات الأجنبية المتباينة. ولكن هذه الحركة التي ظهرت آثارها في الشعر العربي لم تكن متصلة بدوافع دينية فحسب، بل كانت نتيجة دوافع مختلفة تعمل على ترسيخ وجودها إلى جانب الدوافع الدينية، وأكبر الظن أن الحروب الداخلية الطويلة التي استمرت في العراق عصربني أمية هي التي أعدت لذلك. وإن بعض من خسروا هذه الحروب ولم يستطعوا اقتناص الدنيا من أيدي الأمويين تحولوا إلى الزهد فيها والتطبع إلى الآخرة. وكذلك كان لظلم الولاة - ولادةبني أمية .. وتعسفهم مع

(1) المصدر السابق: ص 58.

(2) جولد تسيهير (إجناس): العقيدة والشريعة والإسلام. ص 131 ترجمة يوسف موسى وأخرين. دار الكتب المصرية، 1946.

(3) المصدر نفسه: ص 141 - 142. وبخاصة مذهب السننية من نهل الهند.

(4) كريمر (فون): الحضارة الإسلامية ومدى تأثيرها بالمؤثرات الأجنبية: ترجمة مصطفى بدرا. نشر دار الفكر العربي - القاهرة 1947م. ص 120.

(5) بروكلمان (كارل): تاريخ آداب اللغة العربية. ترجمة عبد الحليم النجار. دار المعارف. الجزء الأول 1959. الثاني 1961. الثالث 1962. 35 / 2.

العراقيين أثر في الزهد.. ويكتفي أن تتمثل بالحجاج الذي أودى بحياة مائة ألف وعشرين، وبخالد القسري ويوسف بن عمر^(١).

إن من يقرأ الجاحظ في «بيانه» وهو يعدد أسماء زهاد الكوفة والبصرة، يخيل إليه أن أكثر الزهاد كانوا من بنين في العراق⁽²⁾. وإن عوامل مختلفة هيأت لاتساع موجة الزهد. ولعل (جب) قد أشار إليهم حين أرجع أصول شعر أبي العتاهية إلى زهاد البصرة وواعظيها⁽³⁾.

اختلط إذن العامل الديني بعوامل أخرى سياسية واجتماعية وربما اقتصادية أيضاً. ومن الممكن أيضاً إن وجود العصبيات ونشأة الأحزاب وتطاحنها المرير كان من الأسباب التي دفعت الناس إلى التماس النجاة باللوذ إلى مراتع الدين والتطور الاجتماعي الذي حدث بعد أن سيطر العرب على بلاد الشام والعراق ومصر وغيرها من البلدان، كان له أثر خطير في تيار الزهد وتطوره.

فشيوع تيارات اللهو والمجون والوصول إلى الزندقة، ووجود الفوارق الواضحة بين الطبقات الاجتماعية، كان لا بد أن يوجد حركة عكسية مضادة تعكس نفسها على تقوى الله وتنصرف بكليتها إلى العبادة ، وتحاول أن تبتعد عن مجتمع زعزع الشك أركانه وغرته المذاهب والنحل والأراء والثقافات الأجنبية، كما فعل الحسن البصري الذي كان ينزع إلى حياة روحية خالصة لا تشوبها شائبة الصور الشكلية في العبادة⁽⁴⁾.

وَمَا يَهْمَنَا وَنَحْنُ فِي صِدْرِ تِيَارِ الزَّهْدِ عِنْدَ الْعَرَبِ أَنْ نَعْرِفَ أَنْ بَعْضَ
غَلَّةِ هَذَا الْمَذْهَبِ قَدْ أَخْفَوْا أَنفُسَهُمْ تَحْتَ سَتَارِ الزَّهْدِ وَكَانُوا زَنَادِقَةً
بِالْفَعْلِ، وَكَانُوا تَسْتَرُهُمْ هَرُوبًا مِّنْ أَثْرِ السِّيَاسَةِ الْعَنِيفَةِ الَّتِي اتَّبَعَهُمُ الْحُكَامُ

(1) این عید ریه: العقد الفرید. 3 / 21.

(2) العاخط: البيان والتبيين: 3/84. الشركة اللبنانية للكتاب.

Gibb H. A. R. : Arabic literature introduction. London 1926. p42. (3)

(4) نيكلسون (رينولد): في التصور الإسلامي وتاريخه. ترجمة أبو العلا عفيفي - القاهرة 1947م، ص.3.

ويخصّ العباسيون مع الزنادقة. يقول في ذلك محمد جابر عبد العال: «كان من أثر السياسة التي انتهجها بنو العباس أن أخذ الأدب يتلون ليرضي طبقة الحاكمين... ولبس الأدب ثوب الخداع وانتقل من التعبير عن اللذة واقتحام الحرام إلى الدعوة إلى التقشف والزهد، ولكنه تقشف وزهد لا يصوران نفساً آثرت الباقيه على الفانية، وإنما يصوران مذاهب اتخدت هذا اللون من الحياة لخداع الناس عن حقيقة أمرها، وكان يحمل لواء هذا الأدب الخادع أبو العناية»^(١).

3 - الزهاد الزنادقة:

1 - ألوى العتاولة:

رمي أبو العتاهية بالزنندة، اتهمه بها من أهل عصره منصور بن عمار السلمي لتنافس بينهما في فن الزهد. قال الأصفهاني⁽²⁾: «لما قصّ منصور بن عمار على الناس مجلس البعوضة⁽³⁾، قال أبو العتاهية: إنما سرق منصور هذا الكلام من رجل كوفي، فبلغ قوله منصوراً فقال: أبو العتاهية زنديق ! أما ترونـه لا يذكر في شعره الجنة ولا النار، وإنما يذكر الموت فقط ! فبلغ ذلك أبا العتاهية، فقال فيه:

يا واعظ الناسِ قد أصبحتَ مُتهماً
كالمُلئِّس الثوبَ منْ عُزْيٍ وعورتَه
فأعظمُ الإِثْمِ بعْد الشَّرْكِ تَعلَمُهُ
عِزفَانُهَا بِعِيْوَبِ النَّاسِ تُبَصِّرُهَا
لم ينفِ أبو العتاية ما رمي به، بل نراه يتهم هو الآخر منافسه
منصوراً بالشيء نفسه، ولعل منصوراً شَتَّع على أبي العتاية بالزنقة لقول

(١) عبد العال (محمد جابر): حركات الشيعة المتطرفين وأثرهم في الحياة الاجتماعية والأدبية لمدن العراق، إبان العصر العباسى الأول. القاهرة ١٩٥٤م. ص ١٢٨.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 34/4. دار الكتب.

(3) يزيد قصص ما يتعلّق بالبعوضة من خلقها وصفتها وما أودعه الله فيها من الأسرار.

رجاء بن سلامة: «سمعت أبا العتاهية يقول: قرأت البارحة: «عم يتساءلون»⁽¹⁾، ثم قلت قصيدة أحسن منها»⁽²⁾. وربما شنَّع عليه بذلك لتهاونه بذكر الجنة وابتداله لها بشعره، إذ يقول في عتبة التي أحب: كأنَّ عثابة من حُسْنِها دُفِيَّةٌ قَسْ قَشَّتْ قَسَّها يا ربُّ لَوْ أَنْسَيْتَنِيهَا بِمَا فِي جَنَّةِ الْفَرْدَوْسِ لَمْ أَنْسَهَا ولعله رماه بالزندة لتصويره حور الجنان على مثال المرأة الآدمية، بقوله:

إِنَّ الْمَلِيكَ رَآكَ أَخْ سَنَ خَلْقِهِ وَرَأَى جَمَالَكَ فَهَذَا بِقَدْرَةِ نَفْسِهِ حُورَ الْجِنَانِ عَلَى مِثَالِكَ⁽⁴⁾
واتهمه سلم الخاسر بالزندة، ربما لحسد الشعراء بعضهم لبعض⁽⁵⁾، أو لأنَّه رأى في تنسكه وتقشفه رياءً، إذ ينفر الناس من الدنيا، ويدعوهم إلى الزهد، ومع ذلك فهو يمدح ويسأل، ويتهالك على المال، ويحرص على ما يصيبه منه، ويقترب على نفسه⁽⁶⁾. قال سلم يندد بمراءاته ونفاقه في زهده: ما أَبْيَحَ التَّزْهِيدُ مِنْ وَاعِظٍ يُزَهِّدُ النَّاسَ وَلَا يَزَهِّدُ لَوْ كَانَ فِي تَزْهِيدِهِ صَادِقًا أَضْحَى وأَمْسَى بِيَتِهِ الْمَسْجُدُ⁽⁷⁾
واتهمه إبراهيم بن المهدى بالزندة أيضاً، لأنَّه كان ينتحل الزهد انتحalaً، يطلب به الشهرة، ويسعى إلى المكانة العالية، ينعي الحياة إلى الناس ويبكيها، ويفسد عليهم فرحة الدنيا وبهجتها، مما ينافي روح الدين الذي يعتقد، يقول له:

(1) قرآن كريم: 1/78.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 4/34. دار الكتب.

(3) نفس المصدر 4/51. وابن قتيبة: الشعر والشعراء 2/679. دار الثقافة.

(4) ابن قتيبة: الشعر والشعراء: 2/679.

(5) الأصفهاني: الأغاني: 19/261. طبعة ساسي.

(6) المصدر نفسه. 19/269.

(7) المصدر نفسه 19/276 و4/76 دار الكتب.

إِنَّ الْمُنْتَهِيَةَ أَمْهَلَتْكَ عَتَاهِيَ وَالْمَوْتُ لَا يَسْهُو وَقَلْبُكَ سَاهِي
يَا وَيْنَ ذِي السُّرُّ الْمُضِعِيفِ أَمَّاَهُ عَنْ عَيْنِهِ قَبْلَ الْمَمَاتِ تَنَاهِي



أَضْلَلْجَهْوَلَاً مِنْ سَرِيرِتِكَ التِي تَخْلُو بِهَا وَارْهَبْ مَقَامَ اللَّهِ
إِنِّي رَأَيْتُكَ مُظَهِراً لِزَهَادَةٍ تَحْتَاجُ مِنْكَ لَهَا إِلَى أَشْبَاءَ⁽¹⁾
وَاتَّهْمَهُ حَمْدُوِيَهُ صَاحِبُ الزَّنَادِقَهُ بِالْزَّنَادِقَهُ، حِيثُ ارْتَابَ بِأَمْرِهِ، وَعَزَمَ
أَنْ يَعْتَقِلَهُ وَيَقْتَلَهُ، فَمُوهُ عَلَيْهِ أَمْرُهُ، وَنَجَّا مِنْهُ⁽²⁾.

يُبَدِّلُ أَكْثَرَ الْأَخْبَارِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي قَذْفِ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ بِالْزَّنَادِقَهُ هِيَ
تَنَافِسٌ وَتَحَاسِدٌ وَتَبَاغِضٌ بَيْنِهِ وَبَيْنِ بَعْضِ الْوَعَاظِ وَالشَّعَرَاءِ. وَلَكِنْ مِنْ رَمَاهُ
بِالْزَّنَادِقَهُ لَمْ يَخْتَلِقْ التَّهْمَهُ اخْتِلَاقًا، بَلْ عَلَلَهَا تَعْلِيلًا دَقِيقًا، وَاحْتَجَ لَهَا،
وَوَضَحَّهَا، وَوَقَفَ فِي زَهْدِهِ عَلَى شَبَهَاتِهِ، وَوَجَدَ فِي سُلُوكِهِ نَقَائِصَ.

وَيُبَدِّلُ أَيْضًا أَنْ خَصْوَمَهُ قَرْفَوَهُ بِالْزَّنَادِقَهُ لِأَسْبَابٍ عَدَّهُ، مِنْهَا أَكْثَرُ فِي
زَهْدِهِ مِنَ الْكَلَامِ عَنِ الْمَوْتِ وَالْفَنَاءِ وَالْقَبُورِ، حَتَّى غَلَبَ عَلَى زَهْدِهِ الْحَزَنُ
وَالْمَرَأَهُ وَالْأَسَى وَالْكَابَهُ، فِي مَثَلِ قَوْلِهِ:

مَا أَقْرَبَ الْمَوْتَ مِنَّا تَجَاوِزَ اللَّهُ عَنَّا
كَانَهُ قَدْ سَقَانَا بِكَأسِهِ حِيثُ كُنَّا
وَقَوْلُهُ:

وَمَشِيدٌ دَارًا لِي سُكُنَ ظَلَّهَا سَكُنَ الْقَبُورَ وَدَارَهُ لَمْ يَسْكُنِ
وَقَوْلُهُ:

إِنِّي أَرِفُّتُ وَذَكْرُ الْمَوْتِ أَرْقَنِي
وَإِنَّمَا الْمَرءُ فِي الدُّنْيَا بِسَاعَتِهِ
وَقَلَّتُ لِلَّدْمَعِ أَسْعِدَنِي فَأَسْعَدَنِي
سَائِلٌ بِذَلِكَ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالْزَّمَنِ⁽³⁾

(1) المصدر نفسه / 4 / 101.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 4 / 7.

(3) أبو العتاهية: الديوان ص 277 - 78. دار التراث - بيروت. 1969م.

ومن الأسباب التي رموه بالزندقة لأجلها، أنه لم يكن صادقاً في زهذه، بل كان منافقاً، فقد كان يدعى غيره إلى الزهد في لذات الدنيا، ويجمع هو المال، ويبخل به، ويعيش على استجداء الناس، وهذا العمل مفارق للزهد الإسلامي قريب وموافق للزهد المأني⁽¹⁾، ومنها، قوله بالدهر، وهو مذهب قوم ورد ذكرهم في القرآن الكريم: «إِنَّ هِيَ إِلَّا حِيَاةٌ الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمُبْعوثِينَ»⁽²⁾. «وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حِيَاةٌ الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يَهْلُكُنَا إِلَّا الْدَّهْرُ»⁽³⁾. إذ يشير إلى السماء ويقول:

إِذَا مَا اسْتُجِرْتَ الشَّكَّ فِي بَعْضِ مَا تَرَى فَمَا تَرَاهُ الدَّهْرُ أَمْضَى وَأَجْوَزُ⁽⁴⁾

ومنها رميء بالثنوية، إذ يقول فيه ابن المعتز: «والذي يصح عندي أنه كان ثنوياً» ويقول في حديثه عن العتاهية ابنه: «كان أبوه خبيث الدين، يذهب مذهب الثنوية، إلا أنه كان ناسك الظاهر»⁽⁵⁾.

ومنها اتهامه بالقول بمذهب الفلسفه عندما وقف على قبر صديقه، علي بن ثابت، يبكي أحرّ بكاء، ويردد هذه الأبيات:

وَمَنْ لِي أَنْ ابْثُكْ مَا الْدِيَا
كَذَاكَ خَطُوبُهُ نَشَرًا وَطَيَّا
فَمَا أَغْنَى الْبَكَاءُ عَلَيْكَ شَيئًا
وَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيَا
أَلَا مَنْ لِي بِأَنْسِكَ يَا أَخَيَا
طَوَّثُكَ خَطُوبُ دَهْرَكَ بَعْدَ نَشَرٍ
بَكِيَّتُكَ يَا عَلَيَّ بَدْمَعٍ عَيْنِي
وَكَانَتْ فِي حِيَاتِكَ لِيَ عِظَاتٌ

(1) حيث كان زهاد المأني الزندقة يقتاتون بما يتصدق به الناس عليهم، ويحيون من أرزاق غيرهم. الجاحظ: الحيوان: 4: 457 - 459. طبعة البابي الحلبي - مصر 1938م.

(2) قرآن كريم: س المؤمنون: آية 37.

(3) المصدر: س الجاثية: آية 24.

(4) ابن فقيه: الشعر والشعراء: 679 / 2.

(5) ابن المعتز (عبد الله) طبقات الشعراء: ص 364 و 228. دار المعارف، مصر، 1956م.

(6) الأصفهاني: الأغاني: 4/ 44. دار الكتب. قال أبو الفرج: أخذ أبو العتاهية معانيه من كلام الفلسفه، لما حضروا تابوت الإسكندر، قال بعضهم: كان الملك أمسِ أهيب منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمسِ.

ومنها مجنونه وخلالعنه في شبابه، قال أبو الفرج: «كان في أول أمره يتختن، ويحمل زاملة المختشن»⁽¹⁾.

ومنها كنيته، لتهتكه وانحلاله ومجنونه وعتوه⁽²⁾.

ومنها مخالطته لكتار المجان والخلعاء ممن رموا بالزندة أمثال: والبة بن الحباب، وأبي الشمقمق⁽³⁾، والقراطيسي⁽⁴⁾. ومسلم بن الوليد⁽⁵⁾، وبشار بن برد⁽⁶⁾، وسلم الخاسر⁽⁷⁾، وأبي نواس⁽⁸⁾. والحسين بن الصحاك⁽⁹⁾. وكان يشرب معهم ويفجر، ويلهوا ويتعهر، يقول أبو الفرج: «كان أبو نواس وأبو العتاهية ومسلم وطبقتهم يقصدون منزل إسماعيل بن معمر، ويجتمعون عنده، ويقصفون، ويدعوا لهم القيان وغيرهن من الغلمان»⁽¹⁰⁾.

إن في زهد أبي العتاهية ما يشير إلى أنه كان متأثراً بتعاليم المانوية، وبفكرة الائثنية خاصة، وقصيدته «ذات الأمثال» خير شاهد على ذلك، فهو يقول فيها:

لكلٌّ شيءٌ معدنٌ وجوهرٌ وأوسطُ وأصغرُ وأكبرُ
وكلٌّ شيءٌ لاحقٌ بجوهرِهِ أصغرُهُ متصلٌ بأكابرِهِ
لكلٌّ إنسانٌ طبيعتانٌ خيرٌ وشَرٌّ وهما ضدان⁽¹¹⁾

(1) المصدر السابق. 1 / 4.

(2) المصدر السابق. 4 / 2 و 3.

(3) المصدر السابق 4 / 10 و 7 و 87.

(4) المصدر السابق 23 / 194. ساسي.

(5) المصدر 4 / 27 و 41. دار الكتب.

(6) المصدر السابق 4 / 28 و 72.

(7) المصدر 4 / 11.

(8) المصدر 4 / 15 - 71 - 82 - 84.

(9) المصدر السابق 23 / 195 ساسي.

(10) المصدر السابق 23 / 194.

(11) المصدر السابق 4 / 37. دار الكتب. وانظر باقي القصيدة.

ولربما كانت معانٍ أبٍياته مستفادة من التعاليم الثنوية، فهو يتحدث عن الخير والشر، ويرى أنهما عنصراً لتكوين العالم. ويكرر أبو العتاهية مثل هذه المعانٍ في زهدياته مراراً فهو يقول:

الخير والشرُّ في التصوير بينهما لو صُورَا لك بَؤْنٌ غِيرُ مُؤْتَلِفٍ⁽¹⁾
ويتأثر بما يعتقد الثنويون من أن الشر ينشأ من الظلمة، والخير ينشأ
من النور، فيقول:

لم تَقْتِحِمْ بي دواعي النَّفْسِ مَعْصِيَةً إِلا وَيَبْنِي وَبَيْنِ النُّورِ ظَلَمَاءُ⁽²⁾
ويشير إلى أن العالم قد فشا فيه الشر وغلب عليه، ويؤمن بأن الخير
يتضاءل لأنَّ عَقِيمَ لا يلد خيراً، بل يلد شراً، يقول:

الخَيْرُ وَالشَّرُّ مُزَدَّادٌ وَمُنْتَقَصٌ فَالخَيْرُ مُنْتَقَصٌ وَالشَّرُّ مُزَدَّادٌ⁽³⁾
فالخيرُ ليس بمولود له ولدٌ لكنَّ له من بناتِ الشرِّ أولادٌ⁽³⁾
وينظر إلى الإسلام والعالم والعباد من خلال المفاهيم الثنوية
المأنيَّة⁽⁴⁾، وربما كان على مذهب الجبرية، حيث لا يملك الإنسان من
أمرٍ شَيْئاً⁽⁵⁾. إنه يقول:

أَرَى النَّاسَ فِي الدُّنْيَا مُعَافِيًّا وَمُبْتَلِيًّا وَمَا زَالَ حُكْمُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ مُرْسَلاً
كَفِي عِبْرَةً أَنِّي وَأَنْتَ يَا أَخِي نُصْرَفُ تَصْرِيفًا لَطِيفًا وَنُبْتَلَى⁽⁶⁾
والزهد الذي يدعو إليه، أقرب إلى زهد المأنيَّة، فهو يحضر على
اعتزال الحياة والرضا بالحرمان، ويفضل الكفاف على الترف، والبُؤس
على النعيم، ويستغنى برغيف يابسٍ، وبكوز ماء بارد، ويستحسن الانقطاع

(1) أبو العتاهية: الديوان: ص 165. دار التراث.

(2) المصدر السابق. ص 1.

(3) أبو العتاهية (حياته وشعره) محمد محمود الدش. ص 374. دار الكاتب العربي - القاهرة 1968م.

(4) المصدر نفسه: ص 244.

(5) الأصفهاني: الأغاني: 5/4. دار الكتب.

(6) ديوانه، ص 211. الدش.

عن الناس للتأمل والتفكير، والاعتبار بمصير من سبق من الأمم والناس، يقول:

رَغِيفُ خَبْزِ يَابِسٍ تَأْكِلُهُ فِي زَوِيلَةٍ
وَكَوْزُ مَاءِ بَارِدٍ تَشْرِبُهُ مِنْ صَافِيَّةٍ
وَغَرْفَةً ضَيْقَةً نَفْسُكَ فِيهَا خَالِيَّةٍ
مُعْتَبِرًا بِمَنْ مَضِيَّ مِنَ الْقَرُونِ الْخَالِيَّةِ⁽¹⁾
إن من يقرأ مثل هذه الأفكار في شعر أبي العتاية يرى أنه كان زنديق دين، لأنه كان يؤمن بالاثينية، وربما أبطن المانوية، قال عنه محمد بديع شريف: «بدأ بالغزل، ثم مال إلى الزهد، فاتهمه بعض الناس بالزنادقة لما انتشر في تصاعيف شعره من المعاني الدالة على الاثينية، وميل زهده إلى مبادئ زهد المانوية، وعدم ذكر البعد في شعره، شأنه شأن زنادقة العصر الذين لا يؤمنون إلا بما تقع عليه الحواس، ولأنه كان يقول: «إذا كنت تشک فيمن تراه فكيف بمن لا تقع عينك عليه»⁽²⁾.

ولعل زندقته الدينية هذه واتته من شعوبيته⁽³⁾، التي قادته إلى اعتناق المانوية. وربما اتخذ من الزهد وسيلة للطعن في الحياة العربية وفي دين العرب. قال عنه محمد بديع شريف: «إذا كان أبو نواس فتح للناس باباً عريضاً في الغزل والإباحة، فإن أبي العتاية فتح لهم باباً آخر في الزهد، وأصبح شعره ذا أثر واضح في كثير من تعاليم التحل التي نبضت، وليس الضرر من شعر أبي نواس بأكثر من هذا الضرر الذي يقتل الطموح، وينقل الأمة من أفقه الواسع الذي ينظم الإنسانية، إلى أفق ضيق فيه عكوف وانطواء تسعى المانوية إليه»⁽⁴⁾. رأى محمد محمود الدش بعد أن درس

(1) المصدر السابق، ص 307.

(2) شريف (محمد بديع): الصراع بين الموالي والعرب - ص 98 - دار الكتاب العربي - مصر 1954م.

(3) هو إسماعيل بن القاسم مولى عترة العيني الكوفي ثم البغدادي. فهو عربي بالولا.

(4) شريف: الصراع بين الموالي والعرب. ص 102.

حياة هذا الشاعر، وتعمق في بحث زندقته وزهده، أنه كان يبطن المانوية وأنه اصطنع الزهد ليستر به زندقته والوصول إلى هدفين رئيسيين: الأول دفع الإهتمام بالزندقة الذي كان يلاحقه، والآخر إشاعة مبادئه - الزهد المانوي - بين العامة الذين يجدون الوسيلة إلى حانات الخمور وبيوت المجنون والجواري والفلمان لأنهم فقراء.

المهم من كل ما تقدم، ومن مراجعة أشعار وأخبار أبي العتاهية، أنه كان بصيراً بالمانوية، خبيراً بسيرة رهبانها، وقد استمد منها في زهده شيء الكثير⁽¹⁾. وكان محظياً بالأداب الفارسية، وقد نقل من حكمها وأمثالها نقلاً كثيراً⁽²⁾، كما كان ملماً بالرهبة المسيحية⁽³⁾، عارفاً بالبوذية⁽⁴⁾، مطلعًا على بعض المذاهب الفلسفية، ولا سيما منها الدهرية⁽⁵⁾، ناهلاً أيضاً من المنازع الفكرية والأدبية والدينية والعربية والإسلامية، مختلفاً إلى حلقات المتكلمين، واقفاً على مذاهب أصحاب المقالات كالزيدية البتيرية⁽⁶⁾. والجبرية⁽⁷⁾ متربعاً إلى مجالس العلماء قارئاً القرآن، مصرياً لأطراف من الحديث، متأثراً بكل ذلك.

ويلوح لنا من كل ما سبق أن عقيدته كانت مزيجاً من الإسلام والمانوية، وشاهدنا على ذلك ما تنبه إليه معاصره أحمد بن حرب، الذي يقول: «كان مذهب أبي العتاهية القول بالتوحيد، وأن الله خلق جوهرتين متضادتين، زاعماً أن الله سبر كل شيء إليهما قبل أن تفني الأعيان جميعاً.

(1) المصدر نفسه ص 124 و 242

(2) ص 72 وشوقى ضيف: العصر العباسى الأول. ص 244

(3) عبد العال: حركات الشيعة. ص 161 و 173

(4) الدش: أبو العتاهية ص 68

(5) عبد العال: حركات الشيعة: ص 147

(6) الأصفهانى: الأغانى: 6/4 دار الكتاب

(7) ابن نباتة (جمال الدين المصري) سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ص 457 - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الفكر العربي - القاهرة - 1964م

وكان يقول بالوعيد ويتحريم المكاسب، ويشيع بمذهب الزيدية البترية المبتدةعة، كان مُحَبِّراً^(١) ويعقب شوقي ضيف على ذلك بقوله: «إين حرب يضع في يدنا المفتاح لحل مشكلة أبي العتاهية، فهو مانوي من نمط جديد، يمزج بين المانوية والإسلام»^(٢). وهذا ما يرتب أبو العتاهية في مراتب الزنادقة الدينين، إذ كان يظهر الزهد تضليلًا وخداعاً فقد كان يطرب أن لبس الصوف وتكشف^(٣). ويحن إلى أيام الشباب واللهو، ويبكي مفاتنها ولذاتها، ويتحسر على مواجهها ومسراتها، في مثل قوله:

وغضونه الخضر الرطاب
غير منتظر الإياب
ب وطيب أيام التصابي
ولأبكين من الخصاب
لملد والمنية في طلابي⁽⁴⁾

لهفي على ورق الشباب
ذهب الشباب وبيان عنني
فلا ينكين على الشباب
ولأبكين من البلى
إنسي لأعمل أن أخـ

وريما رتب في مسار الزندقة الفكرية بسبب ثقافته الأجنبية، قال معاصره العباس بن رستم: «كان أبو العناية مذبذباً في مذهبها، يعتقد شيئاً، فإذا سمع طاغناً عليه ترك إعتقاده إياه وأخذ غيره»⁽⁵⁾

وعلى الجملة فشعر الزهد الذي كان يحمل لواءه أبو العتاهية وصالح بن عبد القدس، فيه نزعة ثنوية، والشوادر التي تمثلنا بها تدل على استحكام المانوية في قلبه، وقد كان يصدر عنها في فكره وسلوكه، ويتأثر بها في قوله وفعله، ويدعى الزهد ليختفي نحلته ويحفظ حياته⁽⁶⁾. وهي ترجمٌ أن ما يرمي به لهو إلحاد ومرroc من الدين.

(1) الأصفهاني الأغاني : 5/4 دار الكتب.

(2) ضيف: العصر العباسي الأول: ص 242.

(3) الأغاني : 78 / 4 دار الكتب.

(4) أصفهانی: أغاني: 3/148 بولاق.

(5) المصدر السابق 6/4 دار الكتب.

(6) الدش: أبو العتاهية ص 137.

شاعر حكيم، كان متكلماً يعظ الناس في البصرة، أكثر ما بقي من شعره حكمٌ ومواعظ، قال فيه ابن المعتز: «أما الرجل فله في الزهد في الدنيا، والترغيب في الجنة.... وذكر الموت والقبر ما ليس لأحد»⁽¹⁾ ثم يضيف: «فيما عجياً كيف يمكن أن يقول زنديق مثل هذا القول ! وكيف يكون قائله زنديقاً»⁽²⁾!

أجمع القدماء على أنه من كبار الزنادقة، ولعل زهده كان زهداً ثانوياً مانويَاً، قال ابن المعتز: «أخذ صالح في الزنادقة»⁽³⁾ وقال المرزباني: «كان حكيم الشعراً زنديقاً متكلماً يقدمه أصحابه في الجدال عن مذاهبهم»⁽⁴⁾ وقال الشريف المرتضى: «وأما صالح بن عبد القدوس فكان متظاهراً بمذاهب الثنوية»، وذكر أنه لما نظر فيما قُذف به من الزنادقة بحضوره المهدي، قال له المهدي: ألسنت القائل:

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى في ثرى رفسيه
إذا ارعوى عاوده جهله كذى الضئى عاد إلى نكسه⁽⁵⁾

ثم قُدم فُقِيل أو صُلبَ على الجسر ببغداد. وقال عنه الخطيب البغدادي: «يقال أنه كان مشهوراً بالزنادقة»⁽⁶⁾ أما الأصفهاني فاعتبره عبد الكريم بن أبي العوجاء من أتباع الثنوية⁽⁷⁾ صنفه ابن النديم في عداد زعماء

(1) ابن المعتز: طبقات الشعراء: ص 91

(2) المصدر نفسه ص 92

(3) المصدر نفسه ص 90

(4) المرزباني: أبو القاسم (علي بن الحسن بن عبد الله): تهذيب تاريخ ابن عساكر 373 / 6 - دار المسيرة - بيروت - 1975 م

(5) أمالى المرتضى: 145 / 1.

(6) البغدادي (أبو بكر، أحمد بن ثابت) تاريخ بغداد - مكتبة الخانجي - مصر - 9.1931 303

(7) الأصفهاني: الأغاني: 3 / 146 دار الكتب.

المانوية وعلمائهم، إذ ألف كتاباً في نصرة مبادئهم، وتأيد آرائهم، وتصدى للمتكلمين المناضلين عن الإسلام، وجعل يهاجم مقالاتهم، ويهدم أدلةهم.⁽¹⁾ ويقال: إن أبو المهذيل العلاف ناظره فقطعه ثم قال له: على أي شيء تعزم يا صالح؟ فقال: استخير الله وأقول بالإثنين!⁽²⁾ . وروي أنه رُوِيَ يصلِّي صلاة تامة الركوع والسجود، فقيل له: ما هذا ومذهبك معروف! قال: سنة البلد، وعادة الجسد، وسلامة الأهل والولد.⁽³⁾

لم يبقَ من شعر هذا الزاهد الزنديق شيء يدل على مسار حياته، ربما، لأن يد الخصوم عبشت بتناجه، ولكن الشريف المرتضى حفظ له بيتين يكشفان عن تسره وتحرجه وتحزنه على نفسه وحرصه على حياته، فقد كان يخشى السجن والعذاب والقتل إذا ما افتضح سره، فهو يقول:

**رَبِّ سِرِّ كَتْمَتْهُ فَكَانَيِ أَخْرَسْ أَوْ ثَنَى لِسانِي خَبْلُ
لَوْ أَنِّي أَبْدَيْتُ لِلنَّاسِ عِلْمِي لَمْ يَكُنْ لِي مِنْ غَيْرِ حَبْسِي أَكْلُ⁽⁴⁾**

هرب صالح^{*} من البصرة، حين تشدد المهدى في تعقب الزنادقة، فاتى دمشق واستخفى بها زمناً، ولكن قريشاً الحنظلي قبض عليه وحمله إلى المهدى، فأمر بحبسه، فلبث في سجنه مدة طويلة، وفي شعره ما يدل على ألمه وفزعه وهو في السجن، يقول:

**فَلَسْنَا مِنَ الْأَحْيَاءِ فِيهَا وَلَا الْمَوْتَى
لَهُ حَارِسٌ تَهْدَا الْعَيْوَنُ وَلَا يَهْدِ
مِنَ النَّاسِ لَا نَخْشَى فَتَّشَى وَلَا نَفْشِي⁽⁵⁾**

**خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيَا وَنَحْنُ مِنْ أَهْلِهَا
طَوِيْ دُونَنَا الْأَخْبَارَ سِجْنٌ مُمْنَعٌ
قُبِرْنَا وَلَمْ نُدْفَنْ فَنَحْنُ بِمَعَزِّلٍ**

(1) ابن النديم: الفهرست: 374 دار المعرفة.

(2) أمالى المرتضى: 144/1.

(3) المصدر السابق.

(4) المصدر نفسه 145/1.

(5) المصدر نفسه 145/1.

وذكر ابن المعتز شيئاً آخر لاعتقاله وقتله، وهو أنه طعن على الرسول، ورجح أن الرشيد هو من قبض عليه، وتولى محاكمته، ويقول⁽¹⁾: «حدثت أنه أنهى إلى الرشيد عنه هذه الأبيات، يعرض فيها بالنبي»:

غَصَبَ الْمُسْكِينَ زَوْجَتَهُ فَجَرَثَ عَيْنَاهُ مِنْ دُرَرَه
ما قَضَى الْمُسْكِينُ مِنْ وَطَرٍ لَا لِلْمُعْشَارِ مِنْ وَطَرَه
عَذْتُ بِاللَّهِ اللَّطِيفِ بِنَا أَنْ يَكُونَ الْجُورُ مِنْ قَدَرِهِ

وخلاصة القول في زهد صالح بن عبد القدس أنه كان زهداً مانوياً، يمكن أن يصل بينه وبين البوذية، إذا المانوية تتأثر بها، وقد مضت الدولة تقاومه وأصحابه مقاومة عنيفة. إن هناك مسألة كبيرة الأهمية لا بد من الوقوف عندها، تلك هي حياة العربي - الذي انساح من جزيرته شملاً وشرقاً وغرباً - الساذجة البسيطة السهلة تعقدت، والديانات والثقافات المختلفة تسربت، جاء في الحديث عن ابن عباس: «كان هذا الحي - من الأنصار - وهم أهل وثن مع هذا الحي من اليهود وهم أهل كتاب، فكانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم وكانوا يقتدون بكثير من فعلهم»⁽³⁾ وعن أبي هريرة قال: «لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبواهم، وقولوا: آمنا بالذي أنزل إلينا، وأنزل إليكم وإليها والله واحد»⁽⁴⁾ وعن أبي داود عن أبي الدرداء، قال: سمعت رسول الله يقول: «من اشتكتي منكم شيئاً أو أشتكتي أخي له فليقل: ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء فاجعل رحمتك في الأرض، اغفر لنا حوبنا وخطابانا أنت رب الطيبين، أنزل

(1) ابن المعتز: طبقات الشعراء: ص 90.

(2) يشير إلى تزوج الرسول لزينب بنت جحش الأسدية بعد أن طلقها مولاه زيد بن حaritha أنظر في ذلك: الشيباني (علي بن محمد أبو الحسن) أسد الثابة في معرفة الصحابة: 5 / 463 المكتبة الإسلامية - بيروت

(3) أخرجه أبو داود: أحمد أمين: ضحي الإسلام 1/ 231 دار الكتاب العربي.

(4) المصدر السابق عن البخاري.

رحمةً من رحمتك، وشفاءً من شفائك على هذا الموج فبورو⁽¹⁾.

والأعاجم الذين كانوا وثنين أو منوين واليهود والنصارى دخل بعضهم في الإسلام ولم تنتَ رؤوسهم من كل ما علق بها من ديانات آبائهم وأجدادهم. وحقًّا ما يقال: إن الأمم والشعوب وإن إتحدت ديناً فكل منها يختلف نظرها في تفاصيل هذا الدين عن الأمم الأخرى. فهي تنظر إلى هذا المعتقد من خلال تاريخها، ونظمها الاجتماعية، وأديانها المتعاقبة، وأيضاً، وأيضاً تقاليدها وثقافتها وتربيتها، وإلى غير ذلك.

إن نظر العالم الواسع الثقافة إلى الدين غير نظر العامي الجاهل، ونظر كلبها غير نظر الصوفي الراهن.

لذلك وإذا ما رأينا زهداً في المجتمع الإسلامي - في أقصى بحثنا - فليس هذا بغرير ولكنه يبدو زندقة في بعض وجوهها، إذا ما نظرنا إلى بعض ما جاء على لسان الرسول: ورواه أبو هريرة: «يا أيها الرسل كلوا من طيبات ما رزقناكم»⁽²⁾ وأيضاً: «إن الله يعني بالحنينية السمحنة، ولم يعنني بالرهبانية المبدعة، سنتي الصلاة والنوم، والإفطار والصوم، فمن رغب عن سنتي فليس مني»⁽³⁾.

وقال أيضاً: ولا تشدوا على أنفسكم فيشدد عليكم. فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار، رهبانية ابتدعواها ما كتبناها عليهم»⁽⁴⁾.

وكان هناك نزعة لبعض الصحابة في الغلو في الدين كنزعه عبد الله أبن عمرو الذي كان ينام ولا يفطر، ولا يؤذى حقوق أهله إنهم أكاكاً في العبادة، فقال له الرسول: «يا عبد الله إن لك في رسول الله أسوة حسنة،

(1) المصدر السابق / 1/ 341.

(2) ابن عبد ربه: العقد الفريد: 2/ 375 دار الكتاب العربي.

(3) المصدر السابق.

(4) المصدر السابق.

فرسول الله يصوم ويفطر ويأكل اللحم، ويؤدي إلى أهله حقوقهم. يا عبد الله إن لله عليك حقاً، وإن لبدنك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً⁽¹⁾.

وبعد كل هذا نرى تشددًا في الدين، وابتداعاً لتقاليد، وغلواً في مناج مختلفة، منهم من يلبس الصوف ويلتزمه⁽²⁾، ومنهم من يتبتل، والبتولية حرام في الإسلام. رُوي عن الرسول أنه قال: «تناكحوا تناسلوا» وأيضاً «النکاح من سنتي ومن رغب عن سنتي فليس مني»⁽³⁾

كما جاء في القرآن الكريم: «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها...»⁽⁴⁾ وروي عن الرسول أيضاً: «لا رهبانية ولا تبتل ولا سياحة في الإسلام»⁽⁵⁾ ومنهم من تغالى في تخشعه وهذا ما نفاه الصحابة، روي عن عمر بن الخطاب أنه نظر إلى شاب قد نكس رأسه متبعداً فقال له: «يا هذا إرفع رأسك فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب، فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما في قلبه فإنما أظهر نفاقاً على نفاق»⁽⁶⁾ كما نفاه الإنجيل المقدس عند كلامه عن العشارين، وعن مثل الفريسي والعشار⁽⁷⁾.

ومنهم من خالفوا أعمال الإيمان بحركاتهم وتصراتهم، وادعوا أنهم إذا اشكلت عليهم مسألة، فإنهم بالخلوة يصلون إلى الله - متتجاوزين الشريعة والرسول - وبالرؤبة والمنام يعرفون الحلال من الحرام⁽⁸⁾.
ومنهم من سار مسار المذاهب والنحل، حتى وصفهم المؤمن بقوله:

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر نفسه.

(3) ابن الجوزي تلبيس إبليس: 292.

(4) القرآن الكريم سورة الروم آية 21. والنحل: آية 72.

(5) الجوزي: تلبيس إبليس 297.

(6) المصدر نفسه: ص 291.

(7) انظر في ذلك متن إصلاح 5 و6 وبعد.

(8) الألوسي (خير الدين البغدادي) جلاء العينيين في محاكمة الأحمديين: ص 101 و 102 - دار الكتب العلمية - بيروت.

«وطائفه قد إتخذ كل رجل منها مجلساً... لعله يدعوا فئة إلى ضرب من البدعة، ويعادي من خالقه في الأمر ويشيط بدمه، وهو قد خالقه من أمر الدين بما هو أعظم من ذلك»⁽¹⁾.

ولعل الشعرا الزهاد قد تاهوا في بعض تأملاتهم الدينية فزاغوا عن الرشد وضلوا عن السبيل، ومنهم:

3 - شعرا آخرون:

الزاهد المعروف بشر بن الحارث، الذي يقول:

قطع الليالي مع الأيام في خلق والنوم تحت رواق الهم والقلق
أحرى وأعذر لي من أن يُقال غداً إني التمس الغنى من كف مُختلق
قالوا قنعت بهذا قلت القنوع غنى ليس الغنى كثرة الأموال والورق⁽²⁾
فهذا الشاعر يفضل أن تمر أيامه وليليه، وهو يرتدي الثياب البالية،
من أن يسأل رزقاً وافراً من الغير، ويصرّح بأن الغنى ليس في جمع المال.
وقد نسي قول القرآن الكريم: «ثم ردنا لكم الكرة عليهم وأمدناكم
بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نقيرا»⁽³⁾.

ومن شعرا الزهد محمد بن كنasse: الذي ترفع عن حياة مجان الكوفة، ، فلم يستطعوا اغراءه بالإشتراك في تيار لهوهم ومجونهم، ولكنه ينحدر إلى التهاجي مع هذه العصابة فينعتهم باللثام معتبراً بالفقر والعوز، عندما يقول:

تُؤْنِبِنِي أَنْ صُنْتِ عِرْضِي عِصَابَةٌ لها بين أطباب اللثام بصيص
أَكْلُمُ وجهي لا أبا لأبيكم مطامع عنها للكرام محيس
معاشي دُؤَنِنَ القوت والعرض وافر وبطني عن جدو اللثام خميس⁽⁴⁾

(1) أمين: ضحي الإسلام 1/368.

(2) ابن الجوزي: صفة الصفوة: الطبعة الأولى 2/189. حيدر أباد الدكن - 1355 هـ.

(3) سورة الإسراء. آية 6.

(4) الأصفهاني: الأغاني 13/340 دار الكتب.

ومن الشعراء الزهاد محمود بن الحسن الوراق، وتظهر عنده جبرية المتصوفة وتكلهم كما تظهر هذه التزعة عند أبي العتاهية، ويقول الوراق:

كُبُرَ الْكَبِيرُ عَنِ الْأَدِبِ **أَدْبُ الْكَبِيرِ مِنَ الْتَّعْبِ**
حَتَّىٰ مَتَىٰ وَالِىٰ مَتَىٰ **هَذَا التَّمَادِي فِي الْلَّعْبِ**
وَالرَّزْقُ لَزَلَمْ تَأْتِهِ **لَاتَّاكَ عَفْوًا مِنْ كَثَبِ**
 إن نمت عنه لم ينم حتى يحرّكه السبب⁽¹⁾

ومن شعره ما يظهر، أنه كان يحضر على الصبر والتجلد لمصائب الدهر، قبل وقوعها، فربما أمن أن الحياة مليئة بالمصائب وهذه المصائب سوف تحل لا محالة، يقول:

يُمَثِّلُ ذُو الْحَزْمَ فِي نَفْسِهِ **مَصَابِهِ قَبْلَ أَنْ تَنْزَلَا**
فَإِنْ نَزَلَتْ بِغَتَّةٍ لَمْ تَرْغَهُ **لَمَا كَانَ فِي نَفْسِهِ مَثَلًا**
رَأَى الْهَمَ يُفْضِي إِلَىٰ آخِرِ **فَصَبَّبَرَ آخِرَهُ أَوْلَاهُ**⁽²⁾
 ومن شعره ما يظهر أنه كان يستخدم القياس والمنطق ليُسْكِنَ الذين

يدعون حب الله وهم يعصونه ويقول:

هَذَا مَحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ **تَعَصُّبِ الْإِلَهِ وَأَنْتَ تَظْهَرُ حَبَّهُ**
لَوْ كَانَ حَبَّكَ صَادِقًا لَأَطْعَتْهُ **إِنَّ الْمُحَبَّ لِمَنْ يَحْبُّ مَطِيعُ**⁽³⁾
 ومن المتزهد़ين محمد بن يسِير، الذي ذكر الموت كثيراً في شعره،
 ويحس الإنسان حين يقرأ هذا الشعر أنه بالفعل يعبر عن اتجاه حياته
 ومذهبِه في دنياه يقول:

وَيلٌ لِمَنْ لَمْ يَرْحَمْ اللَّهُ **وَمِنْ تَكُونُ النَّارُ مَثْوَاهُ**
يَا حَسْرَتِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مَضِيَّ **يَذْكُرُ فِي الْمَوْتِ أَنْسَاهُ**
مِنْ طَالَ فِي الدُّنْيَا بِهِ عُمْرَهُ **وَعَاشَ فَالْمَوْتُ قُصَارَاهُ**⁽⁴⁾

(1) البغدادي (الحافظ أبو بكر محمد بن علي الخطيب): تاريخ بغداد (14 جزء) 88 / 13
مطبعة السعادة، القاهرة - 1931.

(2) ابن المعتن: طبقات الشعراء. ص. 368.

(3) المصدر السابق ص 380.

(4) العبرد (أبو العباس محمد بن يزيد) الكامل ص 225 - نشر ويليم رايت - ط لبيزغ 1864 م.

وريما كانت رهبة الموت تعذب ابن يسir، وثير شجونه، وتدفعه إلى التمسك يتقوى الله وعرى الدين، يقول:

أي صفو إلا إلى تكدير وسرور ولذة وحبور عجبًا لي ومن رضاي بدنيا أي يوم على أفعى يوم به تبرز النعاء سريري⁽¹⁾ ومع هذا الزهد البين كان ابن يسir ماجنا هجاء خيثاً، فهو متعدد بين تيارين متناقضين اشد التناقض بالرغم من أنهما يصبان في ساقية واحدة فهو هاجد خاشع في آن وماجن خليع في آخر⁽²⁾. وإلى هذا الرأي ذهب طه الحاجري، إذ صوره في صورة الرجل القلق الذي يجد حيناً ويهزل أحياناً، والذي كان يقبل على النيد كما يقبل على الكتب⁽³⁾.

ومن الزهاد سعيد بن وهب، كان كسابقه خليعاً وما جنا في أول أمره⁽⁴⁾، وشغوفاً بالغلمان والشراب⁽⁵⁾، ولكنه نسك وتزهد وانطلق إلى الحج سائراً على قدميه ليكفر عما ارتكب من آثام ومعاصي، فائلاً في رحلته تلك:

وأطروا الأجنَّ من رمل الفليبِ
زهرة الدنيا وفي وادٍ خصيـبِ
صَخِـبِ المـَـزْهـرِ كالظـبـيـ الـربـيـ
وهـذا من كـلـ فـنـ بـنـصـيـبـ
فـلـعـلـ اللهـ يـعـفـوـ عنـ ذـنـوبـيـ
(6)

قـدـمـيـ اـعـتـورـاـ رـمـلـ الكـثـبـ
رـبـ يـوـمـ رـحـتـمـاـ فـيـهـ عـلـىـ
وـسـمـاعـ حـسـنـ مـنـ حـسـنـ
فـاحـسـبـاـ ذـاكـ بـهـذـاـ وـاصـبـراـ
إـنـماـ أـمـشـيـ لـأـنـيـ مـذـنـبـ

(1) المصدر نفسه ص 223.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 14/17 دار الكتب.

(3) الجاحظ (أبي عثمان عمرو بن بحر) البخلاء - تحقيق طه الحاجري - دار المعارف مصر .293 مص 292 - 1958

(4) الخطيب العدادي تاريخ بغداد 9/73.

(5) الأصفهاني: الأغاني: 69 / 20 ساسي:

(6) البغدادي: تاريخ بغداد 9/74

ففي شعره هذا يريد أن تسير به رجلاه في مفاوز الصحراء بعد أن كانت تقواده إلى مراتع اللهو، ولربما عفا الله عن ذنبه بهذا العمل.

ومنهم عبد الله بن المبارك، كثُر في شعره الزهد وذم الدنيا⁽¹⁾، يقول في ذم انغماس الخلفاء في اللهو:

أرى أناساً بآدَنِي الدين قد قَنعوا ولا أراهم رضوا بالعيش بالدون
فاستعن بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين
فلم يكتفي هذا الشاعر بزهده وتقواه وعبادة مولاه، بل راح يهجو
الخلفاء الذين باعوا دينهم بدنياهم كما يدعى، وهذا لعمري زنقة كبيرة.

ومنهم يحيى بن المبارك، الذي كان عفيفاً تقىاً⁽²⁾، والذي أحرق
شعره في مدح الرشيد والبرامكة والأمراء ولم يبق منه سوى الموعظ
والزهديات⁽³⁾. ونشتم من زهدياته أنه كان يؤمن بالدهر، يقول:

رَبِّ مَغْمُومٍ بِعَاقِبَةٍ غَمْطَ النَّعْمَاءِ مِنْ أَشَرِهِ
وَامْرَئٌ طَالَتْ سَلَامَتُهُ فَرْمَاهُ الدَّهْرُ مِنْ غِيَرَةِ
وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ مُنْقَلِبٌ بِالْفَتَنِ حَالِينَ فِي عُصْرَةِ⁽⁴⁾.

ومنهم عمرو بن المغيرة الصيرفي ويسمى «بهلوان الجنون»، تعرض
للرشيد في طريقه للحج، أثناء مروره بالكوفة وقال فيه شعراً يذكرنا بشعر
أبي العتاهية «الدوا للموت»:

هَبْ أَنْكَ قَدْ مَلَكْتِ الْأَرْضَ طُرَّاً وَدَانْ لَكَ الْبَلَادُ فَكَانَ مَاذَا؟
أَلِيَسْ غَدَّاً مَصِيرَكَ جَوْفَ تُرْبٍ وَيَحْثُو التُّرْبَ هَذَا ثُمَّ هَذَا؟⁽⁵⁾

(1) ابن الجراح (أبو عبد الله محمد بن داود) الورقة - دار المعرف - مصر ص 14 1953 م.

(2) ابن المعتر، طبقات الشعراء ص 273 .

(3) ابن الجراح: الورقة ص 27 .

(4) السلمي (أبو عبد الرحمن) بتحقيق نور الدين شربية - دار الكتاب العربي - مصر -
ص 273 ط 1953 م. طبقات الصرفية. غمط: احقره. أشر: مرح.

(5) ابن الجوزي: صفة الصفة 2/290 ودائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) مادة
بهلوان.

وتراه يعني على الناس العيش الهنيء، وكأن الله حرم ذلك، يقول:

يا من تمئع بالدنيا وزينتها ولا تنام عن اللذات عينا
شغلت نفسك فيما لست تدركه تقول لله ماذا حين تلقاء⁽¹⁾

ومنهم سعدون المجنون، الذي صام ستين سنة. وفي شعره يجيز
النبيذ للشباب ويعصمه عن الكهول. وربما فعل ذلك لأنه كان يحتسيه في
شبابه ثم انقطع عنه فيشيخوخته، يقول:

تركث النبيذ لأهل النبيذ وأضيخت أشرب ماء قراحا
فإن كان ذا جائزأ للشباب فما العذر فيه إذا الشيب لاحا⁽²⁾

فيما عدا هؤلاء الشعراء الزهاد، نجد تيار الزهد يمتد إلى شعراء
آخرين، لم يُعرفوا بالزهد فقط، بل ربما كانوا إلى المجنون والتهتك والإباحة
والزندقة أقرب، وربما ظهر عندهم الزهد في فترات صحي أو لغير
لأسبابهم وأقعدتهم عن الجري وراء غيهم.

وأكثر هؤلاء شهرة أبو نواس: الذي رأيناه زنديقاً كبيراً في مجونه
وخلالعه وخرمياته، ونراه الآن يكشف لنا عن نظرات في الزهد والتدين
وسوء الحياة الدنيا التي تنتهي بالفناء، وهي خبرة مُجرب عرف اللهو والإثم
ومارسهما حق الممارسة، يقول:

أيَّة نار قدح القادح وأيَّ جد بلغ المازح
لله دُر الشيبِ من واعظٍ وناصحٍ ولو حظى الناصحُ
يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهجه الحق له واضحٌ⁽³⁾
وهو يتحدث في مكان آخر عن تجربة ثانية له في اتصاله بالدنيا،
فيقول:

(1) الكبي (ابن شاكر) فوات الوفيات 1/105.

(2) ابن الجوزي: صفة الصفة 2/288 - 290.

(3) الزيبي (علي أحمد): زهديات أبي نواس - ص 37 مطبعة كوستا توماس - القاهرة
1959 م.

~~أبا حمزة~~ وجه في التراب عتيق
لهم كل حي هالكا وابن هالك
فقل لقريب الدار إنك نازح
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت
لها عن عدو في ثياب صديق⁽¹⁾

لا : فليست الدنيا عدواً لأحد، إذا عرف الإنسان حدهُ فوقف عندهُ.
وأبو النواس لا يدرك الدنيا وبهرجها إلا غصبا عنه، بعد أن مال نجمه إلى
الأفول فراه يقول :

انقضت شرتي فعفت الملاهي إذ رمى الشيب مفرقي بالدوahi⁽²⁾
وأبو النواس الذي أوغل في طلب الدنيا، وغلا في أطابها، حاول
الاستفادة من تجاربها في وعظ الناس وإرشادهم، إذ لا مجال لاحتواها،
يقول :

يا طالب الدنيا ليجتمعها جمحت بك الأمال فاقتصر
والحرص يفقر أهله حسدا والرزق أقصى غاية الأمد⁽³⁾
ويذكر أبو النواس الموت ليجعل منه عظة وعبرة، مستدلاً بوقوعه
على تفاهة الدنيا وهوأن شأنها، يقول⁽⁴⁾ :

الموت منا قريب وليس عنا بنازح
في كل يوم نعيٰ تصيح منه الصوانخ
حتى متى أنت تلهم في غفلة وتمازخ
والموت في كل يوم في زند عنيسك قادح
وأبو نواس الذي نراه هنا يذكر الموت، يقر بأنه آت لا محالة، ويعظ
الناس بالإبعاد عن اللهو والمجون لأن الموت بالمرصاد، هل تناهى قوله:

(1) المصدر نفسه ص 43.

(2) المصدر نفسه ص 56.

(3) المصدر نفسه ص 40.

(4) المصدر نفسه ص 70.

كم لبلاة قدبتُ اللهُوبها لو دام ذاك اللَّهُوللَّاهِي
 حرّمها الله، وحَلَّلَتْها فكيف بالعفوِ من الله⁽¹⁾
 وهل تناسى حين وهب نفسه ودينه لله والعربدة لا يخاف يوم
 الحساب، بل قل لا يقر به، وإذا ما كان فلا يهابه وقصاصه، يقول:
 ألم ترني أبحثُ اللَّهُونفسي وديني، واعتكفتُ على المعاصي
 كأنني لا أعودُ إلى معادٍ ولا أخشى هنالك من قصاصٍ⁽²⁾
 وأبو النواس الذي شب على الجري وراء الدنان والغانيات، يحاول
 أن يهذب نفسه في كبيرة، أن ينتقل إلى حياة الجد والوقار، انتقال زنديق
 من حال إلى حال.

نراه يسعى جاهداً باعطاء النصح، وبخاصة إلى كبار السن أن يتبعدوا
 عما فعله هو، أو يتبعدوا عنه، في قوله:

أيا من بين باطئَة ورقَّ وعود في يَدِي غانِيْ يُغَنِّي
 إذا لم تَنْهِ نفَسَكَ عن هواهَا وتحسن صونها فإليكَ عنِي
 فإنني قد شَيَعْتُ من المعاصي ومن لذَّاتِها، وشَيَعْنَ مِنِي⁽³⁾
 ومنْ أَسْرَا، وأقْبَحْ من لبيِّ يُرى مُشَطَّرِيَا في مثلِ سُنِّي
 وعلى العموم فأبو نواس الذي عاش في المجون وللمجون وانغمس في
 الزندقة حتى أذنه، حاول احتواء دنياه بتطلعات زهدية في آخر أيامه، ولكن
 أتى له ذلك والعهر والفحجر والخمرة تجري في جسده جريان الدم في
 عروقه. ونخت كلاماً عنه بقوله الذي طلبه الرشيد لأجله وأودعه المطبق⁽⁴⁾ .
 ومُلْحَّة في العدل، ذات نصيحة ترجو إثابة ذي مُجْوِنِ مارقِ
 بَكَرَتْ تبصُّرُني الرَّشاد وسِيمَتْيَ غير الرَّشاد، ومذهبِي وخلاقِي
 كم رُضِّتْ قلبي - فاعلمي - وزَجْرُته فرأى أتباع الرَّشِيدِ غير مواقِي

(1) أبو نواس: الديوان ص 623 - دار الكتاب العربي - بيروت 1982 م.

(2) المصدر نفسه ص 622.

(3) المصدر نفسه ص 617.

(4) المصدر نفسه ص 218 والمطبق = السجن.

وإلى جانب شعراء الزهد نرى شاعر متزهدات، غالوا في زهدهن، فتركوا للذائق الدنيا وبهرج الحياة، منهم ريحانة التي ذكرت لإبراهيم بن أدهم^(١) فخرج ليراهما، فإذا بجارية سوداء قد أثر البكاء في خديها خطأ، فذاكرها شيئاً من أمر الآخرة، فأنشأت تقول:

من كان راكِبَ يوم ليس يأْمُنُهُ وليله تائِهَا في عتب دُنيا
فكيف يلتَذُّ عيشاً لا يطِيبُ لهُ وكيف تَعْرُفُ طعم الغموض عيناه^(٢)

ومن شعرها في كراهية الدنيا والتذكير بالموت الذي يحل حتى بالملوك فيخرجهم من ظلال نعيمهم إلى عفن قبره، بقولها:

وَمَا عَاشَ الدُّنْيَا بِنَاجٍ مِّنَ الرَّدَى وَلَا خارِجٌ مِّنْهَا بِغَيْرِ غَلِيلٍ
فَكُمْ مَلِكٌ قَدْ صَرَّرَ الْمَوْتَ بَيْنَهُ وَأَخْرَجَ مِنْ ظُلْلٍ عَلَيْهِ ظَلَّلٍ^(٣)

ومن شعرها أيضاً، الذي ربما كان جزءاً من مذهب الصوفية والزهاد، والذي تدعو فيه إلى العبادة والنسك الدائم وسهر الليالي في درس القرآن، ولعلها ترسم طريقة للصلوة، فيتمايل المصلون كالرهبان وكتمايل الأغصان من هبوب الأرياح بقولها:

فِيَنَ النَّوْمَ خُسْرَانٌ
فِيَنَ الذَّنْبَ نَسِيرَانٌ
وَلَلْقَرآنَ أَخْدَانٌ
فَهُمْ فِي اللَّيْلِ رُهْبَانٌ
يَمْيِلُونَ كَمَا مَالَ
تَعَوَّذَ سَهْرَ اللَّيْلِ
وَلَا تَرْكَنُ إِلَى الذَّنْبِ
فَكُنْ لِلْوَحْيِ دَرَاسَةً
إِذَا مَا الْلَّيْلُ فَاجَاهُمْ
يَمْيِلُونَ كَمَا مَالَ^(٤)

(١) زاهر مشهور توفي ١٦١ هـ الزركلي: الأعلام / ١ / 31.

(٢) بدوي (عبد الرحمن) - شهيدة العشق الإلهي (رابعة العدوية) ص ١١٣ - مكتبة النهضة - مصر ١٩٤٨ م.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه ص ١١٤.

ومنهن ميمونة الشاعرة، وهي من المتزهدات المتنسكات، حتى لتعد من الصوفية، ومن شعرها قولها في المكافحة، وفيه أيضاً إشارة للخمر الرمزية عند المتصوفة، تقول:

قلوبُ العارفِينَ لَهَا عَيْنُ
تَرَى مَا لَا يَرَاهُ النَّاظِرُونَ
وَالسَّنَةُ بَسَرٌ قَدْ تَنَاجِي
أَجْنَحَةُ تَطِيرُ بِغَيْرِ رِيشٍ
إِلَى مَلْكُوتِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
فَتَسْقِيهَا شَرَابُ الصَّدْقِ صِرْفًا
وَتَشْرَبُ مِنْ كَنْوَسِ الْعَارِفِينَ⁽¹⁾

وخلال الكلام من الزهاد والزاهدات، أنهم - وإن لم يكونوا كلهم - قد فضلوا الكفاف عن الترف، والبؤس على التعميم، واستغفروا عن طيبات الحياة الدنيا، واستحسنوا الانقطاع عن الناس، وأتوا إلى حجرة ضيقة أو مسجد بمكان قصبي يتفرغون فيه للعبادة والقراءة والتأمل والتفكير في الكون والخلق، والإعتبار بمصير من سبق من الأمم والملوك، وربما كان كل ذلك من معالم الزهد عند رهبان المانوية والمسيحية والبوذية والاطلاع على بعض المذاهب الفلسفية، ولا سيما مذهب الدهورية. فورد في تزهدتهم إشارات إلى الأتئية المجنوسية، والرهبة المسيحية البوذية، ونظرة شؤم إلى الحياة الدنيا. كل ذلك بعيد عن جوهر الدين الإسلامي وكما جاء على لسان رسوله⁽²⁾. ويكتفينا أن نردد ما قاله رسول الله لعبد الله بن عمرو: «يا عبد الله إن لك في رسول الله أسوة حسنة، فرسول الله يصوم ويفطر، ويأكل اللحم ويؤدي إلى أهله حقوقهم، يا عبد الله إن لله عليك حقاً، وإن لبدنك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً»⁽³⁾

يكفيانا هذا القول لتشير أن أكثر زهد من ذكرنا يميل إلى الزندقة والخروج عن المعروف والمأثور.

(1) المصدر نفسه.

(2) انظر في ذلك البحث ص 389 - 390.

(3) ابن عبد ربه - العقد الفريد 2/370 دار الكتاب العربي.

القسم الثالث

حضارة الزندقة

وانعكاساتها الإجتماعية

ما إن خرج العرب من جزيرتهم يرتادون آفاق الأرض، حتى طرأ على حياتهم تغير كبير. ذلك أن أعداداً كبيرة منهم خرجت من مواطنها الأصلية إلى مواطن جديدة استقرت فيها وتزاوجت مع أهلها، وخضعت لمؤثرات دخيلة غيرت من حياتهم في كل شيء تقريباً، حتى الجزيرة مستقرهم الأساسي - لم تعتصم من هذه المؤثرات التي غزتها عن طريق الجواري والرقيق.

وسرعان ما نرى مجتمعات جديدة نشأت في مختلف أقاليم البلاد المفتوحة، و تكونت من خليط من العرب والأجناس الأصلية.

ولعل من أهم العوامل المؤثرة في حياة العرب الاجتماعية والسياسية والدينية، حركة التعرّب الجنسي التي اختلطت منهاجاً عن طريق السبي والزواج بنساء من أجناس مختلفة، وعن طريق الموالي وهم الأعاجم الذين أسلموا وكانوا عاملاً هاماً خطيراً في نشر اللغة العربية في المناطق المفتوحة.

ومع ذلك كانت عوامل التعرّب تعمل عملها في دمج هذه العناصر المختلفة ومحو أسباب الاختلاف فيما بينها من نواحيها المتباينة، ففي بعض المناطق المفتوحة، نجد أن العرب المهاجرين إليها قد تأقلموا في وطنهم الجديد، واندمجوا في حياته الاجتماعية، حتى أنهم كانوا يلبسون السراويل - كما يلبسها أهل خرسان⁽¹⁾ - ويشربون النبيذ ويحتفلون بعيدي النيروز والمهرجان⁽²⁾.

(1) هدارة: اتجاهات الشعر العربي ص 55.

(2) عيدان فارسيان مشهوران.

ومما لا شك فيه أن العرب لم يستطيعوا أن يتجنبوا المؤثرات الحضارية القوية التي تسلطت عليهم من الحضارتين البيزنطية والفارسية، رغم تحرجهم من الخضوع لهذه المؤثرات أو معارضتها، فقد حدث في خلافه عمر بن الخطاب أن وقع حريق في أبنية الكوفة القصبية فلما استأذنوه في بنائها بالحجارة، قال: افعلوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطالوا في البنيان وألزموا السنة⁽¹⁾. وعند تدفق الأموال على العرب في أعقاب الفتوحات العديدة، افتن العرب في وجوه إإنفاق هذه الأموال الطائلة ، - ولم تكن حضارتهم الساذجة تتبع لهم طريقة إنفاق هذه الأموال - ووجدوا بغيتهم في أبهة الشياطين وفخامة الدور وأفانيين اللهو والاستمتاع بالملذات التي كانت تتمتع بها الحضارتين الفارسية والبيزنطية⁽²⁾. وإذا ما كانت الحضارة هي التفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والمباني والملابس ، وسائر عوائد المنزل وأحواله... وهي تتکثر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعم بأحوال الترف»⁽³⁾ ، فإن بعضًا من العرب قد انساق إلى مثل هذا ، وشرب كأسها حتى الشفالة ، وانعكست هذه الأفاني على كرام نفوس الكثيرين الذين تأثروا بها.

وهكذا أخذت الحياة الاجتماعية تعتقد بتأثرها بالحضارات ، وأصبح شرب الخمر فيها ، والعكوف على الملذات شيئاً طبيعياً ، ومظهراً من مظاهر الحضارة ، ولهذا نرى قسماً كبيراً من الناس في جميع حواضر العرب ، يعيش على الشهوات والمتعة واللهو والشراب ، حتى الحجاز نفسه تعرض لبرمجة جديدة في الحياة ، فازدهر فيه الغناء وفنون اللهو والعبث⁽⁴⁾ . وهذه

(1) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك 1/ 271 ط أولى - المطبعة الحسينية المصرية.

(2) المسعودي: مروج الذهب 74 بولاق 1283 هـ أنظر طرب يزيد ومنادته على الشراب وطرق لاهو.

(3) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر 1/ 310 القاهرة 1274 هـ.

(4) الأصفهانى: الأغاني 1/ 249 دار الكتب.

المظاهر الحضارية رأيناها فيما سبق من البحث ينابيع، يت سابق الزنادقة لشرب مانها العذب، وكما رأيناها بحيرات متعددة الجوانب لقارب من تزندق، ومن رام التزندق.

ونستطيع أن نتمثل بشخصية الوليد بن يزيد، الذي كان مشغوفاً أشد الشغف بنوع جديد من الحياة المادية والعقلية، وأنه كان متعلقاً أشد التعلق بهذا النوع من الحضارة الجديدة⁽¹⁾. والسؤال المطروح هو أي نوع من المظاهر كان لتلك الحضارة الجديدة؟ لقد كانت تمثل في إيمان الوليد وكثرة من أمثاله في التحلل مما يفرضه دينهم عليهم. فقد وقر في نفوسهم بعد اتصالهم باللوان الحضارة المختلفة، إن الحرية الدينية معناها أن يغفل كل امرئ ما يحب وما يشتهي دون أن يخشى عيني رقيب أو لومة لائم. مما يمنع من الشراب إذن والتفنن في مجالسه؟ وما يمنع من الإباحة الاجتماعية في كل صورها وأشكالها؟ ما الذي يمنع الوليد من أن يصنع قبة على قدر الكعبة ويحاول أن ينصبها فوقه لتصير مجلس شراب⁽²⁾، من نوع مبتكر جديد يجلب له المتعة واللهة لمجرد إحساسه بأنه يمارس حرية الدين التي كفلتها له الحضارة الجديدة؟ وما الذي يمنع الوليد أن يطلب من الكوفة الخلعاء والشعراء الماجنين فيسمع منهم من أنواع الفسق والمجون ما يطرد له ويسكر عليه؟ كقول عمار ذي كنان:

أشتهي منكِ منكِ مكاناً مُجَنِّداً⁽³⁾

والوليد إذا شاء أن يستمتع بالغناء بعث في طلب (معبد) من المدينة، وهىئت له بركة خمر وماء، حتى إذا انتهى، وأخذ الطرب بمجامعه ألقى بنفسه في البركة، ثم يتلقاه الخدم بالمجامر والطيب⁽⁴⁾. والوليد لم يكن

(1) ط حسين: من حديث الشعر والثر. ص 83 - دار المعارف مصر - 1953 م.

(2) الطبرى: تاريخ الأم والملوك 7/280 المطبعة الحسينية المصرية.

(3) كل مرتفع مستدير يسمى جنداً ، والمكان الذي يقصده الشاعر واضح من البيت.

(4) الأصفهانى: الأغانى: 1/52 دار الكتب.

ليوفر وسائل الدولة وأجهزتها الحضارية في تلبية مطالب لهوه ولذته، فيكتب إلى والي خراسان ليبعث إليه برابط وطنابير مما دعا أحد الشعراء إلى السخرية والتهكم إذ يقول:

أَبْشِرْ يَا أَمِينَ اللَّهِ
بِإِبْلٍ يُحَمِّلُ الْمَالَ
عَلَيْهَا كَالْأَنَابِيرَ
بِغَالٍ تَحْمِلُ الْخَمْرَ
حَقَائِبُهَا طَنَابِيرَ
وَدَلُّ الْبَرِّيَاتِ
بِصَوْتِ الْبَمْ وَالْزِيزِ
فِهَا لَكَ فِي الدُّنْيَا
وَفِي الْجَنَّةِ تَحْبِيرَ⁽¹⁾

إلى هذا الحد إذن وصلت الحياة الإجتماعية للعرب في عصور بحثنا، ولم يقتصر فقط على أصحاب الغنى والجاه والثروات، فقد تجد معوزاً يشتهي كسرة خبز، ومع فقره المدقع فهو أكثر تهتكاً من الخليفة الوليد بن يزيد⁽²⁾. وربما أرجعنا سبب ذلك إلى طبيعة انسان ذلك الزمن وب بيته، ونشأته، ومدى تأثيره بالدين، ومقدار خضوعه للمؤثرات الحضارية.

صور أدبية حضارية اجتماعية:

أفرزت الحياة الإجتماعية الجديدة للعرب طبقات الموالي والرقيق، وقد كان تأثير هذه الطبقات خطيراً جداً في المجتمع العربي، إذ انعكس على السنة الشعراء والكتاب نموذجاً حضارياً رائعاً. ونستطيع أن نتمثل صورة كاملة لبيوت القيان وللقيان أنفسهن ومدى تأثيرهن في المجتمع مما كتبه الجاحظ في رسالة القيان، بحيث تتحسس مدرسة أدبية نثوية رائعة، يشرك كاتبها جميع حواس الإنسان في رسم صوره وجلاء مضمون نصه، يقول: «إن في الجمع بين الرجال والقيان ما دعا إلى الفسق والإرهاط والعشق... وإن أكثر من يحضر منازل القيان إنما يحضر لذلك لا لسماع ولا

(1) الطبرى: تاريخ 7/298 المطبعة الحسينية. الأنابير أكdas الطعام / تحبير سرور.

(2) هدارة: اتجاهات الشعر العربي ص 61.

إبتياع... ومن الآفة عشق القيان... لأنهن يجمعن للإنسان من اللذات ما لا يجتمع في شيء على وجه الأرض. وللذات كلها إنما تكون بالحواس... فللعين النظر إلى القينة الحسناء... وللسمع منها حظ، وللمس فيها الشهوة والحنين إلى الباه⁽¹⁾ والحواس كلها رواد القلب... وإذا شاهد المشاهد القينة رامته باللحظ، وداعبته بالتبسم وغازلته في أشعار الغناء،... وأظهرت الشوق إلى طول مكثه، والصباية لسرعة عودته، والحزن لفراقه... وليس يحسن هاروت وماروت وعصا موسى وسحرة فرعون إلا دون ما تحسنه القيان،... والقينة تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها، بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث وصنوف اللعب والأخانيث وبين الخلعاء والمجان ومن لا يسمع منه كلمة جد، ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروعة»⁽²⁾.

إن هذه الصورة للقيان وببيوتها لهي محتوى زندقة اجتماعية خطيرة⁽³⁾. ولكن الذي يعنينا هنا، هو انعكاس هذه الزندقة على مدارس الأدب، التي كان أحد روادها الجاحظ. فسارت رسالته هذه على دروب الزندقة تماشياً ركبانها وتبيان شؤونها وأحوالها، وفي الوقت ذاته تنشئ أدباءً رفيع المستوى.

إن هذا النص يطلعنا على أنواع كثيرة في حياة المجتمع العربي آنذاك، وعلى دور الرقيق في توجيهه تيار اللهو والمجون وتهيئة ألوان المتعة الحسية من كل لون: إنه يكشف لنا عن دور هذه الدور التي كانت منتشرة في الحواضر المختلفة: في الكوفة، وفي البصرة، وفي دمشق ثم في بغداد.

دور القيان ودورها:

كانت هذه البيوت إذن تبيع للناس المتعة المحرمة واللهو والعبث

(1) الباه: النكاح والجماع. اللسان مادة (بهر) 13/479 دار صادر.

(2) الجاحظ: ثلاث رسائل ص 65 نشر يوش نكل - المطبعة السلفية - القاهرة 1344هـ.

(3) قد يينا ذلك في أنواع الزندقة.

المجون فيسيغون ذلك كله مع كؤوس الشراب وسماع الغناء، ومشاهدة ألوان الرقص، وكانت هذه البيوت أيضاً مدارس للغزل المكشوف وتوجيه الحب ناحية الجنس، ومعارض لأنواع شتى من الجمال الذي لا يتستر ولا يتخفي وراء حجاب.

من هذه البيوت خرجت الجواري الحسان، اللائي تلقين دراسات خاصة في فن معاملة الرجال، ومحاولة إغرائهم واجتذاب قلوبهم وأموالهم، وكانت لديهن فنون الإيقاع والعزف على الآلات الموسيقية، واشتهرن في أنواع من الرقص والتشبيه، كما كانت لديهن ثقافة في الشعر، حتى إننا نجد من بينهن شاعرات لهن شعر رقيق أمثال عريب ومقيم وجنان معشقة أبي نواس، وعنان جارية الناطفي⁽¹⁾. وكان من أشهر هذه البيوت العامة بيت أبي عمير الذي اشتهر بجاريته عبادة⁽²⁾. وبيت أبي الخطاب الذي اشتهر بقينة تعرف بذاته الحال⁽³⁾. وبيت ابن رامين في الكوفة وكانت أشهر قيانيه سلامه الزرقاء⁽⁴⁾.

إن بيوت العرب - وبخاصة الموسرين منهم - كانت مليئة بالجواري والقيان اللائي تعلمن ارضاً ساداتهن بكل هذا اللهو والعبث وصار الإستمتاع بالنساء سهلاً ميسوراً لدن طبقة الإشراف والأغنياء، فبدأ بعض المثقفين ينحرفون عن هذه المتعة ويدعونها رخيصة مبتذلة، ويتمسون طرقاً أخرى للتنفيس عن شهوتهم⁽⁵⁾.

«سمات حضارية»: الجواري

لم يكن تأثير الجواري والرقيق في هذا السبيل شرًّا كله، أو زندقة

(1) الأصفهاني: أغاني 175/18 ساسي و 31/7 دار الكتب و 115/20 ساسي.

(2) المصدر نفسه 44/20 ساسي.

(3) المصدر نفسه 17/50 ساسي.

(4) المصدر نفسه 13/127 دار الكتب.

(5) التوبيري (محمد): نصيحة أبي نواس. ص 106: مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - 1953.

اجتماعية بشتى أنواعها وحسب، بل كان فيه بعض الخير، ولمحات حضارية. فقد أشاعت الجواري حب الجمال والإحساس به، ونشرن أنواعاً من الظرف في بيتهن، ورقن المشاعر والأحاسيس، وظهر أثر ذلك في موضوعات الشعر وفي أسلوبه وصوريه، وقد بلغ من شيوع الظرف - وبخاصة في العصر العباسي الأول - أن أصبح للظرفاء رسوم وتقاليد خاصة بهم، وكثيراً ما اختلط معنى الظرف بالمجون والزنقة، على اعتبار أن الظريف له الحرية في خوض الأحاديث ولو كانت خروجاً عن العرف والتقاليد والدين. وإذا تطلعنا إلى تعريف الظرف بأنه «يكون في صباحة ورشاقة القد، ونظافة الجسم والثوب، وبلاعنة اللسان، وعدوية المنطق، وطيب الرائحة، والتقرز من الأقدار.. وخفة الحركة، وملاحة الفكاهة والمزاح»⁽¹⁾، إنَّ تبحرنا في هذه الصفات نرى أنها مبادئ حضارة، ربما أنها كانت نتيجة زندقة الظرف والمجون.

اللباس: أما زي الظرفاء في اللباس، ونعالهم الغالية، وحلبهم المختلفة الأنواع والألوان، وعطورهم الباهظة الأثمان، وسلوكهم أثناء الطعام، وجود كتابات تتميز بظرفها في أكمام وعصائب وذوابي أزياء الجواري الظرفيات من أمثل:

اتركاني والمعاصي وعلى الله خلاصي⁽²⁾
كل هذا يجعلنا نشعر أن الظرف انتج معالم حضارية جميلة. والواقع أن الأزياء في ذلك العصر كانت في مجموعها صورة من صور الحضارة الجديدة التي شاعت، ففي الحواضر اتخد الناس أزياء ترجع في أصولها إلى الملابس البيزنطية أو الفارسية⁽³⁾. ولم يبق أثر من الزي العربي القديم

(1) الجوزي (ابن): *أخبار الظراف والمتماجنين*. ص 12 - مكتبة القدس - دمشق - 1347هـ.

(2) الروشاء (أبو الطيب محمد بن اسحق بن يحيى): *الموشى* نختة 160 - مكتبة الخانجي - القاهرة - 1953 م.

(3) الطبرى: تاريخ: 9/284 المطبعة الحسينية.

إلا في البوادي وعند بعض العامة، حيث نجد الخليفة المنصور يأخذ الناس بلبس القلنس الطوال⁽¹⁾. فيصفها أبو دلامة في سخرية ظاهرة، يقول:

وكنا نُرجِّي من إمام زِيادة فزاد الإمام المصطفى في القلنس
تراها على هام الرجال كأنَّها دنانُ يهود جُلُّث بالبرانس⁽²⁾

الأعياد: ومن السمات الحضارية التي أفرزها المجتمع، وربما اعتبرت في بعض الأحيان زندقة، اشتراك العرب المسلمين في احتفالات أعياد الفرس القديمة، مثل عيد النيروز والمهرجان واشتراكهم أيضاً في أعياد النصارى⁽³⁾. التي كانت تتوزع ببغداد على أديار معروفة كما كان الإحتفال بيوم السعانيين عيداً عاماً يشترك فيه جمهور الناس، حتى الخلفاء أنفسهم⁽⁴⁾. مما يكشف لنا عن سمة حضارية بارزة، هي وجود حرية دينية مكفولة للجميع. ومما يؤكد ذلك ما يذكره الشاعر أبو قابوس من مباهة النصارى في كنائسهم أيام عهد الرشيد يقول:

أبا الفضل لو أبصرتنا يوم عيدهنا رأيت مباهأة لنا في الكنائس⁽⁵⁾

العمان: ومع تأثر الأعياد والأزياء بنظم الحضارات الأجنبية، تأثرت حركة العمران والبناء، فمن الأوصاص، وبيوت الشعر، والقصب، أخذوا يتدرجون في العمران، حتى أصبحوا يهتمون باقامة القصور الضخمة، وزراعة البساتين الفواحة بالشذى⁽⁶⁾، وعرف الناس في هذا العصر جميع

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه البرنس: قلنسوة طوبيلة.

(3) الشابستي (أبو الحسن علي بن محمد) الديارات ص 3 - مطبعة المعرف - بغداد - 1951 م.

(4) الأصفهاني الأغاني: 128 / 9 دار الكتب.

(5) شبحو (لويس) شراء النصرانية بعد الإسلام ص 241 - مطبعة الآباء اليسوعيين - بيروت 1926 م.

(6) العلي (صالح أحمد): التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة - ص 167 - مطبعة المعارف - بغداد - 1952 م وابن المعتز: طبقات الشعراء - ص 209 دار المعارف مصر.

أسباب اللهو وفنونه فلعبوا النرد والشطرنج، وعنوا بتربية الحمام⁽¹⁾، وتهارشا بالديوك والكلاب⁽²⁾، وانتشر لعب الميسر حتى وصل إلى طبقة الفقراء⁽³⁾.

بناء المدن: والحقيقة أن تأسيس بغداد كان نقلة نوعية لتطور المجتمع العربي وأغرقه في الحضارة ومظاهرها المادية، كما إن إنتقال الدولة إلى المشرق جعل الحياة الاجتماعية معقدة مشتبكة التواهي، فأصبح المال ميزان الرجال، وترددت الأمثال في بغداد: المال مال، وما سواه محال، ولهذا توسله الناس، لا يعفون عن محرم، ولا يتورعون عن خبيث حتى أصبحت مراحل الدين شركاً من شرaka⁽⁴⁾.

ومع تدفق الثروة على المدن وبخاصة البصرة وبغداد، ازدادت الرغبة في المتعة وحب الشراب والتلذذ بأطiable الحياة الحضارية، وبدأ ظهور الزناقة والمجان يستشري في المجتمع ويشكل علني فاضح مما حدا بالمهدى إلى ملاحقتهم والإقصاص منهم⁽⁵⁾، ويبدو أنه قد اشتد اغراق الناس في ألوان الحضارة واندماجهم فيها، وكان شعارهم في ذلك «لا تؤخر لذة اليوم إلى الغد» كما جاء على لسان هبة الله بن ابراهيم بن المهدى⁽⁶⁾. وأصبح عشق الرجال للنساء وعشق النساء للرجال أمراً مألوفاً، ونجد في هذا المضمار «عليه بنت المهدى» تهوى خادمين في قصر الرشيد، هما طل ورشا، وتكتب فيهما الأشعار الكثيرة⁽⁷⁾.

(1) الجاحظ: الحيوان 3/ 91 مكتبة البابي الحلبي.

(2) الأصفهاني: الأغاني 6/ 75 دار الكتب.

(3) الجاحظ: الحيوان 5/ 115 الحلبي.

(4) الحاجري (طه): مقدمة البخلاء ص 24 دار المعارف - مصر - 1958 م.

(5) الطبرى: تاريخ 8/ 10 - 10 المطبعة الحسينية.

(6) الصولى (أبو بكر محمد بن يحيى) الأوراق قسم أشعار أولاد الخلفاء ص 50 مطبعة الصاوي 1936 م قسم أخبار الشعرا مطبعة الصاوي 1934 م.

(7) الصولى: الأوراق: قسم أشعار الخلفاء ص 61.

ويبدو مما تقدم أن للزندقة إنعكاس كبير على مجرى الحياة العربية في كل أقصى بحثنا، وهذا الإنعكاس ظهر في المأكل والمشرب والملابس وفي حركة العمران وغير ذلك من التصرفات الإنسانية مما اعتبرناه معالم حضارية واسعة.

معالم أدبية فكرية:

علم الكلام: ونستطيع هنا أن نفهم نشوء بعض النظريات في علم الكلام، بل بعض المذاهب الكلامية⁽¹⁾، إذا ما نظرنا إلى الخصومات العنيفة والكثيرة التي كانت تقوم بين كبار المعتزلة⁽²⁾. ونستطيع أن نفهم أيضاً بزوغ الحركات السياسية الحضارية التي ظهرت في أواخر عهد الأمويين، وأوائل حكم العباسين، وأهم هذه الحركات حركة الشعوبية⁽³⁾.

والى جانب هذه وتلك لا يمكننا أن ندرك التطور الروحي في بلاد العرب، والحياة العقلية عامة على حقيقتها إلا إذا نظرنا إلى حركة الزندقة بحسبانها عاملاً خطيراً لعب دوره في ذلك التطور وتلك الحياة.

ولعل الإعتزال الأول قاده فريق من السنة تطروا في معارضتهم لزندقة الثنوية، واضطروا لتحقيق مهماتهم إلى اتخاذ أسلحة من الجدل أقوى إقناعاً من الإحتجاج بالوحى، وأبلغ أثراً من ملاحقة السلطات للزنادقة، وقد وجد المعتزلة ضاللهم في المنطق والجدل الإغريقي، وفي وسائل النصارى الجدلية بدحض الإدعاءات الزندقية⁽⁴⁾.

حركة الترجمة: وليس من قبيل المصادفة أن تنشط حركة ترجمة كتب الفلسفة والمنطق الإغريقية، وأن يؤسس المؤمن بيت الحكم، وأن يُؤلف

(1) كذهب المعتزلة.

(2) بدوى من تاريخ الإلحاد في الإسلام ص 27.

(3) المصدر نفسه.

(4) جب: دراسات في حضارة الإسلام ص 92.

هيئة من العلماء والفقهاء، ويعهد ببرئاسة هذه الهيئة إلى يحيى بن أكثم، ويقول: «إنني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا سبباً لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أرجى وأصلح للدين، وإما شاك فيقيق، ويثبت، فينقاد طوعاً، وإما معاند فيرد بالعدل كرهاً»⁽¹⁾ لا شك أن جمع مثل أولئك العلماء فيه توحيد لجهودهم وحتى تكون أشد فاعلية في سد السبل على الزنادقة، ذلك إن اشتداد حملات الزنادقة ولا سيما في الناحية العلمية والأدبية كان يقتضي مثل هذا العمل.⁽²⁾

ولم يكن من قبيل المصادفة كذلك، أن يظهر من صفوف المعتزلة، الرجل الذي استطاع الرد أكثر من سواه على من بين مثالب العرب، فقد أنشأ عمرو بن بحر الجاحظ أديباً نثرياً رفيع المستوى برسائله الجزلة الرائعة وكتبه المختلفة الموضوعات والمشارب ولا ريب في أنه إختار موضوعاته حسب ذوقه، موجهاً في أكثرها لأغراض محددة، وإن كانت أغراضاً متوارية في الغالب.

وربما كان ثلاثة من هذه الأغراض أهمية خاصة بالنسبة لبحثنا. ففي كتابه «البيان والتبيين» كشف عن غنى موارد الدراسات الإنسانية العربية، وقام من الناحية الأخرى في رسالته عن الكتاب بذم نقائصهم ولكنه في الوقت ذاته أدمج من التراث الفارسي ما كان ذا قيمة علمية ثم أنه ثالثاً نافع عن التراث العربي الإسلامي ببقية كتبه، وقاوم كفر الطبقات المتعلمة وتشككها. وربما كان كتابه (الحيوان) يخفي غرضاً دينياً تعليمياً هو اظهار حكمة الخالق في خلقه⁽³⁾.

ونستطيع أن نتبيّن معالم حضارة في مجالات فكرية عده، منها:

(1) أحمد أمين: ضحى الإسلام 2/58 القاهرة 1956 م.

(2) العدوи (إبراهيم): المجتمع العربي ومناهضة الشعوبية 221 - مكتبة نهضة مصر - القاهرة 1961

(3) جب: دراسات ص 93 - 94

١ - الترجمة: جدّ مفكرو الزندقة - وبخاصة المانويين منهم - في تأليف الكتب للدعـاية لمذهبـهم، حتى غدت أدبياتـهم كثيرة ومنتشرة بين الناس بلغـات عـديدة سـريانية وفارـسـية ثم عـربية^(١)، ورـوجـوا لمذهبـهم حيث سعوا لنـشر كـتبـهم داخلـ المجتمعـ العـربـيـ، ولـيسـ هـذاـ وـحـسـبـ بلـ أـنـ ما أـحـيـوهـ منـ تـرـاثـ مـانـوـيـ فـارـسـيـ قـدـيمـ، وـماـ نـشـرـوهـ منـ كـتبـ تـرـجمـوـهـاـ منـ الفـارـسـيـ إـلـىـ العـرـبـيـ، اـسـتـهـدـفـواـ مـنـ خـالـلـهـ مـقـارـعـةـ التـرـاثـ العـرـبـيـ وـالـتـفـاخـرـ بـهـ، وـمـحـاـولـةـ إـحـلـالـهـ مـحـلـ الثـقـافـةـ وـالـفـكـرـ العـرـبـيـ^(٢). كانـ ابنـ المـقـفعـ رـائـداـ مـنـ روـادـ هـؤـلـاءـ، فـمـنـ آـثارـهـ التـيـ اـتـهـ فـيـهاـ بـالـزـنـدـقـةـ هـيـ أـنـهـ مـنـ كـبـارـ النـقلـةـ مـنـ الفـارـسـيـ إـلـىـ العـرـبـيـ. وـقـدـ نـقـلـ وـتـرـجمـ كـتـبـاـ فـارـسـيـ نـشـرـتـ الزـنـدـقـةـ وـشـجـعـتـ عـلـىـ إـلـحـادـ، مـنـهـ كـتـبـ مـانـيـ وـابـنـ دـيـصـانـ وـمـرـقـيـونـ^(٣) وـكـذـلـكـ فـعـلـ بـتـرـجمـتـهـ لـكـتـابـ كـلـيلـةـ وـدـمـنـةـ وـزـيـادـتـهـ الـكـلـامـ الـذـيـ فـيـ أـوـلـ الـكـتـابـ^(٤). ولـكـتـابـ «ـخـدـاـ يـنـامـهـ»، وـكـتـابـ مـزـدـكـ، وـكـتـابـ التـاجـ فـيـ سـيـرـةـ اـنـوـشـرـوـانـ وـغـيرـهـاـ مـنـ الـكـتـبـ الـفـارـسـيـةـ^(٥).

اتـهـمـ ابنـ المـقـفعـ بـزـيـادـةـ بـابـ بـرـزوـيـةـ فـيـ كـلـيلـةـ وـدـمـنـةـ قـاصـداـ بـذـلـكـ تـشـكـيـكـ ضـعـيفـيـ العـقـائـدـ فـيـ الدـيـنـ وـجـرـهـمـ إـلـىـ مـذـهـبـ الـمـنـانـيـةـ^(٦)، وـإـذـاـ ماـ كـانـ ابنـ المـقـفعـ مـتـهـمـاـ فـيـماـ زـادـ عـلـىـ تـرـاجـمـهـ، فـلـمـ يـسـلـمـ عـنـ مـثـلـهـ فـيـماـ نـقـلـ وـكـتـبـ. يـقـولـ الـبـاقـلـانـيـ: إـنـ ابنـ المـقـفعـ اـتـهـمـ بـمـحـاـولـتـهـ تـأـلـيفـ كـتـابـ يـعـارـضـ فـيـ الـقـرـآنـ، وـيـؤـيدـ هـذـاـ الـكـلـامـ الـبـيـرـوـنيـ^(٧).

(١) فـارـوقـ عـمـرـ: التـارـيـخـ الـإـسـلـامـيـ وـفـكـرـ الـقـرـنـ الـعـشـرـينـ صـ 130ـ.

(٢) الـمـصـدـرـ نـفـسـهـ صـ 131ـ.

(٣) الـمـسـعـودـيـ: مـرـوـجـ الـذـهـبـ 30/243ـ مـصـرـ 1357ـ هـ/ 1938ـ مـ.

(٤) ابنـ خـلـكـانـ: وـفـيـاتـ الـأـعـيـانـ 1/414ـ القـاـمـرـةـ 1949ـ مـ.

(٥) ابنـ النـديـمـ: الـفـهـرـسـ 172ـ دـارـ الـعـرـقـةـ.

(٦) قـدـورـةـ: الشـعـورـيـةـ صـ 157ـ دـارـ الـكـتـابـ الـلـبـانـيـ.

(٧) الـبـاقـلـانـيـ (ـمـحمدـ بـنـ الـظـيـبـ بـنـ الـقـاسـمـ): إـعـجازـ الـقـرـآنـ صـ 18ـ مـصـرـ 1315ـ هـ وـالـبـيـرـوـتيـ (ـمـحمدـ بـنـ أـحـمـدـ): تـحـقـيقـ مـاـ لـلـهـنـدـ مـنـ مـقـولـةـ مـقـبـولـةـ فـيـ الـعـقـلـ أـوـ مـرـذـوـلـةـ صـ 76ـ لـبـيـزـ 1925ـ مـ.

أما أوضح ما اتهم به ابن المقفع بالزندة فهو ما نشره القاسم بن إبراهيم في كتابه المعروف بكتاب «الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع»⁽¹⁾ حيث أظهر زندة ابن المقفع بطرق شتى، منها: دفاعه عن النور، ونقده وتهكمه بإله القرآن، واستخفافه بالرسول، وهجومه على التصديق الأعمى دون بحث وتدقيق، وثورته وهجاؤه للإسلام، بقوله: «فلا نعلم ديناً منذ كانت الدنيا إلى هذا الزمان أخبت زبدة كلما مغض وأسفه في ذلك التمixinis أهلاً وأبتر أصلاً، وأمر ثمراً وأسوأ أنثراً على أمته، وأوحش سيرة وأغفل عقلًا وأعبد للدنيا وأتبع للشهوات من دينكم».

ومنها نقده للعقائد الإيمانية، حيث يقول: «فصارت الغلبة للشيطان بأن تبعه الخلائق على ضلاله إلا أقلهم».

نفهم مما تقدم أن ابن المقفع جنح في ترجماته ومؤلفاته جنوح زنديق دين يبطئ غير ما يظهر، ولكنه في الوقت نفسه أغنى المكتبة العربية والفكر العربي بترجماته عن الفارسية، ويمكنا القول بأنه كان وعاءً من الأواعية التي امتزجت فيها حضارة العرب بغيرها من الحضارات الساسانية وربما الهندية، كما كان أحد الجسور الذي عبرت عليه الثقافات الأعمجية لتخالط مع الثقافة العربية، ويبدو أن الشاعر أبانا اللاحقي نال على منوال ابن المقفع في هذا المضمار، وخير ما فعله هو نظم «كليلة ودمنة» في أربعة عشر ألف بيت شعر، وقد نظم بجانبها أرجوزة مزدوجة في الصوم والزكاة، وأخرى في التاريخ الفارسي وفي نشأة الخلق وعلم المتنطق. وبذلك مكن لشيوخ الشعر التعليمي في العربية⁽²⁾. كان أبان يعرف الفارسية، ويترجم عنها، وكان على اطلاع وسعة علم بأدب الفرس القديم، فكان ذلك داعياً له إلى التعلق بتراث الفرس والتغنى به في جميع مظاهره⁽³⁾.

(1) إبراهيم (القاسم بن): كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع ص 8 - 50 روما 1927 م.

(2) شوقي ضيق: العصر العباسي الأول: ص 333 - 334.

(3) بدوي: من تاريخ الإلحاد في الإسلام ص 38.

ولا نتحدث هنا عن زندقة أبان، فقد أبنا ذلك في الحديث عن الزنادقة⁽¹⁾. ولكن الذي نريد إيضاحه هو ما عكسه نتاج هذا الشاعر من حضارة إنسانية في قصائده، إن في مجال الترجمة أو المنطق أو الشعر التعليمي. ونكتفي هنا بقطعة من هذا الشعر افتتح بها باب الأسد والثور في كليلة ودمنة، وهي تمضي على هذا المنوال، يقول:

يَرْضِى مِنَ الْأَرْفَعِ بِالْأَخْسَى
يَفْرُحُ بِالْعَظِيمِ الْعَتِيقِ الْيَابِسِ
كَمَثْلِ الْكَلْبِ الشَّقِيقِ الْبَانِسِ
شَيْئٌ إِذَا مَا كَانَ لَا يَغْنِيهِمْ
إِنَّ أَهْلَ الْفَضْلِ لَا يَرْضِيْهِمْ
كَالْأَسَدِ الَّذِي يَصِيدُ الْأَرْنَبَا
ثُمَّ يَرَى الْغَيْرَ الْمَجَدُ هَرْبَا
فَيَرْسِلُ الْأَرْنَبَ مِنْ أَظْفَارِهِ
وَيَتَبَعُ الْعَيْرَ عَلَى أَدْبَارِهِ⁽²⁾

فمثل هذه الأرجوزة في كليلة ودمنة، وغيرها في كثير من الموضوعات التعليمية التي عني بالنظم فيها، اصطفى أبان لها لغة جزلة متينة، طالما فتنت معاصره ومن تلامهم، أمثال ابن المعتز الذي قال في التعريف به: «كان شاعراً أدبياً، عالماً ظريفاً، منطقياً، مطبوعاً على الشعر مقتداً عليه، وهو الذي نقل كليلة ودمنة شرعاً بتلك الألفاظ الحسنة العجيبة.. ولم يقدر أحد من الناس أن يتعلق عليه بخطأ في نقله، ولا أن يقول: ترك من لفظ الكتاب أو معناه»⁽³⁾. ونستطيع القول إذا ما سلمنا بأن أبانا قد نقل كتاباً أدبياً في أربعة عشر ألف بيت من الشعر العربي الموزون: إن مثل هذا العمل يعد إرثاً عظيماً في مجال الثقافة العربية والحضارة الإنسانية، ويضارع لا بل يفوق ما اعتبر به الإغريق في اليادة هوميروس.

إن نقل وترجمة الكتب الفارسية واليونانية القديمة كان لها - بدون شك - دور حضاري مهم، ربما دون قصد.

كما كان لتأسيس بيت الحكم في بغداد لجمع الكتب لمقارعة

(1) انظر البحث: فصل الزنادقة.

(2) ضيف: العصر العباسي الأول ص 334 والعيير: حمار الوحش.

(3) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص 241 دار المعارف - مصر.

الزنادقة، وترجمة كتب المنطق والفلسفة، لتكون أسلحة في الجدل الفكري مع الزنادقة الأثر الحضاري نفسه.

2 - الشعر: إن الأندية الأدبية، التي كان لها أثر في الأدب لا يمحى، ويد على الشعر لن ينالها النسيان، لم تكن تجتمع في أماكن معينة، أو منازل معروفة، إنما كانت تتواجد حيث يتاح لها الإجتماع، كانت تنتقل بأدبها عموماً وبشعرها خصوصاً بين مدن العراق زمن العباسين وبين مدن الجزيرة والشام قبل ذلك، وتترنح في هذه الأماكن وضواحيها من الحدائق والبساتين والأديرة والمساجد إلى العحانات وبيوت اللهو والمجون. وكانت تجتمع بنوع خاص في قصور الخلفاء والأمراء والوزراء والقادة وكبار الناس. وكانت تتألف من دون شك من العالم والفقير، وبخاصة من الشعراء الممتازين بالشك في كل شيء⁽¹⁾ والعبث بكل شيء، يلقون في مجالس الخلفاء والوزراء طبقات أخرى من الناس لا تشک ولا تعث ولا تعاطي المجنون، وكانوا يلقون المتكلمين والرواة وعلماء اللغة، فكانت أشعارهم وأحاديثهم صورة متطابقة لمجالسهم، متأثرة بجد المجددين وهزل الهازلين، ومهارة الوزراء والأمراء.

ونراهم يرون الشعر، وينقدون الشعراء، ويتحدثون بطراائق الحديث وغرائبها، ويتناولون الخلفاء والأمراء إما بالمدح وضرورب الشفاعة، وإما بالقذع والهجاء.

والشك والمجنون هما عنصران من عناصر الزندقة لم يكونا كل شيء، وإنما كان إلى جانب الشك يقين، وإلى جانب الهزل جد.

إن الشعراء ويليهم الكتاب يمثلون الجماعة حقاً، ويعبرون عن أهوانها وميلها وصفون ما تضطرب فيه من ضروب الحياة.

وليس من شك في أن صلة حقيقة قوية كانت تصل بين أولئك

(1) طه حسين: حديث الأربعاء ص 354 دار الكتاب اللبناني.

الشعراء وبين طبقات الناس المختلفة، فتجعل من الشعراء تراجمة صادقين لم يخطر لهذه الطبقات من خواطر، وما يضطرب في نفوسها من عواطف.

كان هؤلاء الشعراء يمثلون عصورهم تمثيلاً صحيحاً فلنا أن نتذمّر مقياساً ومرأة وإذا ما أخذنا عصر بنى العباس مثلاً لنا، فإن تغير الحياة في هذا العصر لم يحدث الشك والمجنون ويجامهـر بهما، ولم يغير الشعر من هذه الناحية وحسب، إنما أحدث تغييراً في الشعر من ناحية أخرى، فالشعراء الذين أخذنا عليهم مأخذ الزندقة، قد أحدثوا سهولة في التعبير عما في النفس، لأنهم أطلقوا العواطف والأهواء حريتها، وفكروا كما أحبوا، وعاشوا كما أحبوا، مستفيدين من ضعف الرقيب الدينـي وضعـف الرقيب السياسي⁽¹⁾، أصبحـت العواطف حرة إذن وأصبحـت الألسنة حرة، ونشأـ من هذه الحرية تنافـس في اللذـة واستباقـ إليها وتنافـس في وصفـها واستباقـ إلى إجادـة هذا الوصفـ، وكان إذا اجتمع هؤلاءـ الشعراءـ إلى لذـة ما تنافـسـواـ فيـ أيـهمـ يـسبقـ صـاحـبهـ فيـ اقتـناـصـهاـ وـوـصـفـهاـ، ومنـ هـنـاـ كـثـرـ الإـفتـانـ فيـ اللـذـاتـ والـقولـ.

ثم تغيرـتـ الفـاظـ الشـعرـ لهذاـ السـبـبـ، فإنـ العـاطـفةـ أـصـبحـتـ تستـطـيعـ أنـ تـصـفـ نـفـسـهاـ منـ غـيرـ تـكـلـفـ ولاـ تـقـيـدـ بـقـدـيمـ مـورـوثـ، كـمـثـلـ قولـ أبيـ نـواسـ، وـنـحـنـ نـراهـ يـتـحرـرـ مـنـ وـالـوقـوفـ عـلـىـ الـطـلـلـ وـيـتـحرـرـ مـنـ سـؤـالـهـ وـيـهـزـأـ وـيـسـخـرـ مـنـ هـذـاـ الـوقـوفـ يـبـغـيـ استـبـدـالـهـ بـالـعـوجـ عـلـىـ الـحـانـاتـ وـبـيوـتـ

الـشـربـ :⁽²⁾

عاـجـ الشـقـئـ عـلـىـ دـارـ يـسـائلـهـ وـعـجـتـ اـسـأـلـ عـنـ خـمـارـ الـبـلـدـ لاـ يـرـقـىـ ءـالـهـ عـيـنـيـ مـنـ بـكـىـ حـجـراـ وـلـاـ شـفـىـ وـجـدـ مـنـ يـصـبـوـ إـلـىـ وـثـدـ دـغـ ذـاـ عـدـمـتـكـ، وـاـشـرـبـهـ مـعـتـقـةـ صـغـرـاءـ تـعـنـقـ بـيـنـ الـمـاءـ وـالـرـبـدـ

وـإـذـاـ كـانـ الشـاعـرـ يـسـطـعـ أـنـ يـشـرـبـ جـهـراـ فـمـاـ لـهـ لـاـ يـصـفـ الـخـمـرـ كـمـاـ

(1) المصدر نفسه ص 357

(2) الديوان ص 46 دار الكتاب العربي. صفراء تفرق بين الروح والجسد.

يحب دون أن يخشى لومة لائم، كقول أبي نواس:

واشرب سُلَافَا كعين الديك، صافيةٌ من كفٍ ساقيةٌ كالرِّيم، حوراءٌ
صفراءٌ ما تُرِكَتْ، زرقاءٌ إن مُزِجَتْ تسمو بحظَّينِ من حُسْنٍ، وللأءٌ
تنزوُ فَوَاقِعُهَا منها إذا مُزِجَتْ نَزُوْالِ الجنادِبِ من مَرْجٍ وأفباءٍ^(١)

نشأ عن هذا كله أن إشتد تقد الأذهان عند الشعراء ، وأصبح قول
الشعر أيسر وأسهل ، وكانت النتيجة الشعرية لهذا العصر أضخم وأعظم منها
لغيره من العصور الماضية ، منها القول البديع والشعر الطريف ، ومنها
الساقط السخيف اللفظ والرديء المعنى ، والذي كان يعني هؤلاء هو وصف
شعورهم من جهة والتتفوق والغلبة من جهة أخرى.

وللننظر إلى هذه المنافسة الشعرية لثبتت صحة قولنا. وجود نفر من
الشعراء مجتمعين يتناشدون ويتحادثون ، حتى إذا كان الظهر سأل واحد
منهم: أين نحن العشية؟ فأخذ كل واحد منهم يدعو الجماعة إلى بيته ،
وعرض عليهم أبو نواس: أن تكون الدعوة شرعاً ، وأن تذهب الجماعة إلى
أشد الشعراء إجادة ، وأحسنهم كلاماً^(٢) فقال الواسطي^(٣).

وَظَلَّ بَيْتٌ كَنْبِيزِنْ قَوْمُوا لِمَنْزِلٍ لَهُوِ
وَذَاتٌ عَقْلٌ رَصِيزِنْ وَقِيلَّنْتَهُ ذَاتٌ غُنْنِيجِ
مِنْ مُخْكَمٍ «ابن رزين» تَشَدُّو بِكُلِّ طَرِيفٍ
قال أبو نواس:

لَا، بَلْ إِلَيِّ ثَقَاتِي قَوْمُوا بِنَالِحِيَاتِي
قَوْمُوا نَلَذْ جَمِيعًا بِقَوْلِ هَاكَ وَهَاتِ



(١) المصدر نفسه ص 34 / الحظ: التصيّب. الأء: الفرج الكامل. تنزو: تتب.

(٢) طه حسين: حديث الأربعاء ص 358.

(٣) هو داود بن رزين الواسطي.

فَثَاوْرُوهُ مُجُونًا فِي وَقْتٍ كُلِّ صَلَاةٍ

وقال الخليع:

إِلَى شَرَابِ الْخَلِيلِ
وَأَكَلَ جَنْدِي رَضِيعَ
بِالْخَنْدَرِيْسِ صَرِيعَ

إِلَى «الخليل» فَقَوْمُوا
إِلَى شَرَابِ لَذِيْنَ
وَنَيْلِ أَحْوَى رَخِيمَ

وقال الرقاشي:

حَلَّتْ بِبَيْتِ «الرِّقاشِيِّ»
إِنْتِي بِهَا لَا أَحَادِيشِي
مُشَاشِكُمْ وَمُشَاشِي
نَطَاحُ سُدِ الْكَبَاشِ

لَلَّهُ دَرُّ عُقَارِ
عَذْرَاءَ ذَاتِ احْمَرَارِ
قَوْمُوا نَدَامَايَ رَوَوَأَ
وَنَاطِحُونِي بِكَاسِ

وقال عمرو الوراق:

إِلَى سَمَاعِ وَخَنْمَرِ
ثُطَاعُ فِي كُلِّ أَمْرٍ
أُولَى وَلَا وَقْتُ عَضْرٍ^(۱)

عُوْجُوا إِلَى بَيْتِ «عَمْرٍ»
وَنَا شَجَائِيلِيْنَا
هَذَا، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ

وقال الحسين الخياط وغيره قولًا شبيهاً بما قاله هؤلاء الشعراء،
ومضى كل واحد منهم يرغب ويبحث على اللذة، في لفظ سهل رشيق، غير
متكلف، بل كأنهم كانوا يتحدثون نثراً وبسهولة تامة، ورأى أبو نواس أن
أحداً لم يسبق صاحبه فاقتصر أن يذهبوا إلى الحانة وليس إلى بيت أحد،

وقال:

أَلَا قَوْمُوا إِلَى الْكَرْزِ
إِلَى مَنْزِلِ خَمَّارِ
إِلَى صَهْبَاءَ كَالْمِشْكِ
وَبُسْتَانِ بَهَنْخُلُ
لَهُ زَهْرٌ بِأَشْجَارِ
فَإِنْ أَحَبْبَتُمْ لَهُواً^(۲) أَتَيْنَاكُمْ بِمَزْمَارِ

(1) طه حسين: حديث الأربعاء ص 358 وما بعد.

(2) المصدر نفسه.

يستوقفنا الكلام هنا إلى ما كان يمتاز به شعر هؤلاء الشعراء - الذين نستطيع أن نصفهم جميعاً في مصاف الزنادقة⁽¹⁾ - وانعكاس حياة المجتمع عليه معنوياً ومادياً وكيف كان تصوره وشعوره وتعبيره عن هذا التصور والشعور !

عواطف حرة يصفها كلام حر، ومعانٍ سهلة مألوفة لم يطل صاحبها البحث عنها، وإنما وجدتها في نفسه، فأظهرها في لفظ غير متكلف، وعكسها صورة صادقة عنه وعن الآخرين، فجاءت صورة شعرية جميلة ترتدي ثوباً حضارياً جديداً أما الجسد فعاهر، وغارق في لذات الدنيا، أما التوب فحرير خرج من أرض الهند وحاكته أيدي الفرس وصيغته أنامل العرب. فهو والحالة هذه يمر بمراحل أربعة كما أن الشعر يمتاز بحالات أربع: الشك، والمجون، وحرية العواطف، وسهولة اللفظ، على الأقل عند هؤلاء الشعراء.

من الحق أن نعرف لأمثال هؤلاء - المتزندقين - ولأبي نواس بخاصة شيئاً غير هذا الفسق والإغراء في المجون، ألا وهو التوفيق بين الشعر وبين الحياة الحاضرة ومعنى ذلك العدول عن طريقة القدماء، فليس يليق بساكن بغداد المستمتع بالحضارة ولذاتها، أن يصف الخيام والأطلال، ويهرب إلى الغلة مستأنساً بالوحش مستوحشاً من الإنسان، كقول الأحimer السعدي :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسانٌ فكدت أطير⁽²⁾
 وإنما يجب عليه أن يصنف القصور والرياض ويعني للخمر، ويتناغم بالقيان، لقد قال أبو نواس في الخمر ما لم يقله غيره وأراد تحديد الشعر

(1) لما حرته أشعارهم من ظرف ومجون وخلاعة وعهر وتحلل من أحكام الدين وشرائعه.

(2) الشكعة (مصطفى): الشعر والشعراء في العصر العباسي ص 19 دار العلم للملايين - بيروت.

لينقله من البداوة إلى الحضارة، وربما من العروبة إلى الفرس، وهذا ما اتهمه به بعضهم⁽¹⁾ ونستطيع أن نستخلص أصول مذهب أبي نواس الجديد من خمراته الكثيرة التي يقول في بعضها:

لا تبكِ ليلى ولا تطرب إلى هنـد
فالخمرُ يا قوتةُ والكأسُ لؤلؤةُ
تسقيك من عينها خمراً ومن فمها
شيءٌ خصصتُ به من بينهم وحدي⁽²⁾

ونشعر ونحن نقرأ مثل هذه الأبيات بقفزة نوعية نحو الحضارة الجديدة نشعر فيها بجمال يستهوي ويجذب القارئ السامع، جمال في اللفظ وجمال في المعنى، فليس في اللفظ كلمة غريبة، بل هو لفظ متخير غير مبتذر، وليس في المعنى شيء مستغلق، بل هي معان مألوفة، وقد استطاع الشاعر أن يقارب بينها، ويحدث من هذه المقاربة جمالاً ولذة، وانظر إلى قوله:

فالخمرُ ياقوته والكأسُ لؤلؤةُ في كفٍّ جارية ممشوقة القدْ
تسقيك من يدها خمراً ومن فمها خمراً فما لك من سُكّرين من بُدْ
فهذه الطائفة من التشبيهات يتلو بعضها بعضاً، هي التي تحدث في نفسك اللذة، وانظر إلى الشطر الثاني من البيت الأخير تجده حضارياً، فانياً في الحضارة ومتراقاً مغرقاً في الترف، يعبر عن حضارته وترفه:

لي نشوتانِ وللنـدانِ واحدةٌ شيءٌ خصصتُ به من بينهم وحدي
كان أبو نواس إذن يريد أن ينهج بالشعر منهجاً جديداً، فيدعوا إلى تجنب سنة القدماء في المعاني والألفاظ، كما كان أشد الناس إلحاضاً في تغيير الأسلوب الشعري⁽³⁾، كقوله في قصيده:

(1) طه حسين: حديث الأربعاء ص 410.

(2) الديوان ص 27 دار الكتاب العربي - بيروت.

(3) الديوان ص 46 وانظر طه حسين: حديث الأربعاء ص 416.

عاج الشقيّ على رسم يسائله وعُجّتُ أساؤ عن خمارة البلد....

فهو يأخذ الناس بأن ينظروا إلى ما حولهم، من جمال الطبيعة، فيألفوه ويصفوه، ولا يشغلوا عن الرياض، بطلول الجزيرة وصغارها، ومثل هذا الشعر كثير في ديوانه. هو إذن مقتنع بوجوب ترك القديم، ونهج منهج حضاري جديد، وإن لم يحفل فيه بقاعدة دينية أو خلقية، وإنما اتخذ الإباحة المزدكية والصراحة الزندقية مذهبًا وسيلاً، في مثل قوله:

الآ فاسقني خمراً وقلْ لي هي الخمرُ ولا تسقني سرًا إذا أمكن الجهرُ



ولا خيرَ في فَتَكِ بغيرِ مَجَانَةٍ ولا في مُجُونٍ ليس يتبعُه كُفَرٌ⁽¹⁾

ولا يعني هنا إثم أبي نواس أو مجونه، إنما يعنينا ما في شعره من جمال فني حضاري عكسته سيرة حياة هذا الشاعر وسلوكيه في هذا المجتمع، نستطيع القول - بعد ما تقدم - أن موجة المجنون الزندقية الحادة جعلت أبا نواس وأضرابه⁽²⁾. من الشعراة، يستعيضون في مقدماتهم من الوقوف على الطلل إلى وصف الخمر، ويضيفون إلى قصائدهم عناصر جديدة استمدوها من بيتهما الحضارية ومن نفسيتهم المتعطشة إلى اللذة.

3 - الفكر: لعلنا نتفق - بعد كل ما قدمناه حول طبيعة الزندقة والزنادقة وما قاموا به من أدوار في مجالات شتى، وبخاصة الشعر والترجمة - بأن هذه الحركة كانت تنظيمًا فكريًا قويًا ذا منهج دقيق انتشر في أرجاء بلاد العرب، وتمركز في العراق والأقاليم الشرقية، وتستر بالدين، واستهدف تقويض الإرث العربي من أدب ولغات ودين عن طريق التشكيك والتأويل والسخرية.

إن البحبوحة الاقتصادية، والإستقرار السياسي، وأثر الثقافات

(1) الديوان ص 28 وحديث الأربعاء ص 418.

(2) كمسلم ابن الوليد وأبي العتاهية وبشار ضيف: العصر العباسي الأول ص 165.

الأجنبية، وتساهل الحكماء مع العقائد المختلفة، أدى إلى نوع من التحلل الحضاري واصطراع الأفكار والأراء في المجتمع، فكان أن ظهرت جماعات أو حلقات من الكتاب والشعراء والمفكرين المعجبين بالحضارنة الساسانية ومُثلها. وكان من أهداف هذه الحلقات أن يشيعوا آراء وقيمًا أعمجية، ويدعوا إلى إحياء الثقافة الفارسية بنظمها ومذاهبها، ومنها المانوية وتطبيق هذه النظم في المجتمع وفي أجهزة الدولة بدلاً للإرث العربي. ولم تكن هذه الحلقات مشتتة، بل كانت متماسكة يشرف عليها أفراد ذوو أهداف وميول مشتركة، ويطلق عليهم «إخوان الصدق» يعملون من خلال الكتابة والنشر على ترويج آرائهم والدعاية لها⁽¹⁾.

حاول الزنادقة ضمن مخططهم الفكري وضع كتب تعارض القرآن في أسلوبه وبلامغته ومحتواه ومواضيعه - كالذى حاوله عبد الكريم ابن أبي العوجاء -⁽²⁾ وكتبوا الرسائل الكثيرة في مثالب العرب، كما كتبوا رسائل وأشعاراً في المانوية، وألفوا كتاباً في الدفاع عن المانوية⁽³⁾. وكانت كتبهم ورسائلهم ذات ورق صقيل وحبر عميق، وغلاف مزركش بديع، وذوق في الإخراج والنشر⁽⁴⁾ ولذلك كانت تطلب من غير المانويين للإطلاع عليها، والتعرف على محتواها، والرد على هجومها، ودحض آرائها،⁽⁵⁾ ونتج عن ذلك إنشاء مجالس المناقرة في الدور والقصور والمساجد، وبين العلماء، وفي حضرة الخلفاء. ومهمة هذه المجالس النظر في أمور شتى من ضمنها المسائل الدينية، وإذا كان الخلاف شديداً في المذاهب الفقهية، وبين الأمصار وبين العرب والأعجم، وبخاصة بين الزنادقة والإسلام فقد كان

(1) DAWOOD :Acomparative study.. Ph.d 1965. p. 35 FF.

(2) فاروق عمر: التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين: ص 131.

(3) المصدر نفسه ص 132.

(4) الجاحظ: الحيوان (١ - ٣) ص 42 وما بعد دار صعب.

(5) كما فعل واصل ابن عطاء الذي كتب كتاباً بعنوان «ألف مسألة للرد على الزنادقة» والجاحظ الذي وضع كتاباً (في فضائل القرآن ومعانيه الجميلة) فاروق عمر: التاريخ الإسلامي ص 133.

هذا وقوداً صالحًا لإشعال نار المناظرة وحدها⁽¹⁾.

ويظهر أن المأمون رمى من بعض مجالسه إلى غرض بعيد وهو أن تثار بين يديه المسائل الدينية المختلفة فيسمع الآراء والحجج ثم يفصل في أوجه الخلاف، قال يحيى بن أكثم: "... وأني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا، سبباً لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أرضي وأصلح للدين إما شاك فيتبين ويثبت فینقاد طوعاً وإما معاند فيرد بالعدل كرهاً⁽²⁾ والمأمون بهذا يريد أن يجعل مجلسه مجمعًا علمياً، له النظر في مسائل الخلاف، وبعبارة أخرى أراد أن يجعل مجلسه «محكمة» يتنازع فيها الخصوم ، وكل يدللي بحجه، والنزاع حول المذاهب والأراء الدينية، ثم تحكم المحكمة ويجب أن ينفذ حكمها ، وهذه سمة حضارية ، ربما نتجت عن إنعكاسات الزندقة.

ولعل المأمون الذي أراد لمجلسه أن يكون ذا إطلاع واسع بكل فروع المعرفة رغب في الفلسفة والعلوم العقلية كثيراً ، وتبع ذلك اتساع العمل في بيت الحكمـة، روى ابن النديم: «أن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات ، فكتب إليه يسألـه الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم الـقديمة المخزونـة المـدخـورة بـبلـدـ الرـومـ، فأجابـ إلى ذلك مـلـكـ الرـومـ بـعـدـ اـقـتنـاعـ، فـأـخـرـجـ المـأـمـونـ لـذـلـكـ جـمـاعـةـ منـ الـعـلـمـاءـ... فـأـخـذـواـ مـاـ وـجـدـواـ مـاـ اـخـتـارـواـ، فـلـمـ حـمـلـوهـ إـلـيـهـ أـمـرـهـ بـنـقـلـهـ - إـلـيـ الـعـرـيـةـ - فـنـقـلـ⁽³⁾».

وقال ابن نباتـةـ المصرـيـ، عندـ كـلامـهـ عنـ المـأـمـونـ وـسـهـلـ بنـ هـارـونـ، «وـجـعـلـهـ كـاتـبـاـ عـلـىـ خـرـائـنـ الـحـكـمـةـ، وـهـيـ كـتـبـ الـفـلـاسـفـةـ التـيـ نـقـلـتـ لـلـمـأـمـونـ مـنـ جـزـيرـةـ قـبـرـصـ⁽⁴⁾ وـلـعـلـ نـقـلـ مـثـلـ هـذـهـ الـكـتـبـ إـلـيـ بـلـادـ الـعـرـبـ، وـتـرـجـمـةـ مـحتـواـهـاـ، قـدـ سـاعـدـ عـلـىـ اـتـسـاعـ الـفـكـرـ وـانـسـيـاحـهـ بـيـنـ الـعـقـائـدـ وـالـأـدـيـانـ

(1) أحمد أمين: ضحى الإسلام 2/ 54 دار الكتاب العربي.

(2) طيفور (ابو الفضل أحمد بن أبي طاهر): كتاب بغداد ص 15 نشر الحسيني - القاهرة - 1949 م.

(3) ابن النديم: الفهرست ص 339 دار المعرفة - بيروت.

(4) المصري (ابن نباتـةـ) سـرـحـ العـيـونـ شـرـحـ رسـالـةـ اـبـنـ خـلـدونـ صـ 132ـ - القـاهـرـةـ 1861ـ مـ.

وشرائعها وبين الفلسفة والمنطق ومبادئها، فانبرى أصحاب العلم والمعرفة بكل ذلك، يتبارزون ويتناظرون في مجالس ومقالات تبحث عن كل شيء وفي كل شيء. فيبرز من ذلك أصحاب مذاهب كان لهم أثر بالغ الخطورة، إن في مسار الزندقة بكل فروعها - والفكيرية منها - وإن في نتائج إنسانية حضارية كثيرة. من هؤلاء مثلاً، أبو هذيل العلاف، رئيس «الإعتزال» في عصره، الذي اتصل بالفلسفة اليونانية، وقرأ فيها⁽¹⁾، ولعل اتصاله هذا بفلسفة الإغريق هو الذي مكنه من وضع مبادئ المعتزلة، الذين قال فيهم الخياط: «إنهم أرباب النظر دون جميع الناس، وإن الكلام لهم دون سواهم»⁽²⁾ فأبو الهذيل وأضرابه من المعتزلة يعتقدون المجالس والمناظرات فيما ينظرون بعضهم بعضاً، ويناظرون غيرهم من أصحاب المذاهب الأخرى والأديان الأخرى، ويقول الخياط عن مناظراتهم: «هل على الأرض أحد رد على الدهريين سوى المعتزلة، كالنظام، وأبى الهذيل وأشياهم؟! الذين ألفوا الكتب ليردوا فيها على أصناف الملحدين من الدهرية والثانوية»⁽³⁾ وما يعني هنا أن ترجمة الفكر الإغريقي من فلسفة ومنطق وامتزاج الفكر العربي بالفكر اليوناني والفارسي، وما نشأ عن ذلك من كتب جديدة وجديدة ومجالس، ومناظرات، إنما إنعكس ايجاباً على مسار الحضارة، وبروز سمات حضارية لم تكن معروفة من ذي قبل، ويمكن القول بأن الرد على الزندقة - ولائية زندقة انتموا - كان له الباب الواسع لبروز تلك السمات الحضارية، وإن كانت على أيدي المعتزلة. نقل عن الجاحظ: «أن كبار المتكلمين ورؤساء النظاريين، (وعلى رأسهم المعتزلة) اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم، فصاروا بذلك سلفاً بكل خلف، وقدوة لكل تابع»⁽⁴⁾.

(1) المعتزلي (أحمد بن يحيى بن المرتضى الرizdi) المنة والأمل: ص 26 حيدر آباد 1316 هـ / 1902 م.

(2) الخياط (أبو الحسين عبد الرحيم): الانتصار ص 17 - القاهرة 1914 م.

(3) المصدر نفسه ص 41.

(4) أحمد أمين: ضحى الإسلام: 3/95 دار الكتاب العربي.

إن المتكلمين، وقوامهم المعتزلة، قد وضعوا في العربية الأسس التي بني عليها بعد (علم البحث والمناظرة)⁽¹⁾ ولهم الفضل الأول في وضع الأسس الأولى لعلم الكلام وعلم البلاغة، وعلم الجدل والمناظرة وإنهم كانوا المنفذ الأول الذي دخل منه فلاسفة المسلمين إلى الفلسفة اليونانية، لأنهم أول من استعان بالفلسفة اليونانية. إن اتصال أبي الهذيل العلاف بالفلسفة اليونانية، جعل فكر حياته يمتلأ بالمناظرة والجدل مع الزنادقة، والشكاك، والمجوس، والثنوين. وقد ناظر صالحًا بن عبد القدوس فأفحمه فقال فيه صالح :

أبا الهُذيلِ هَدَاكَ اللهُ يَا رَجُلُ فَإِنْتَ حَقًا لَعَمْرِي مُغْضِلٌ جَدِيلٌ⁽²⁾

أفرزت الزنادقة إذن علماء وأدباء، ومن العلماء: أبو عيسى الوراق، وهو أستاذ ابن الرواندي الذي اشتهر بالإلحاد، كان معتزلياً، ثم رافضياً، وقال عنه الخياط أنه كان مانويًا يؤمن بمبدئي (النور والظلمة)، ويعتقد بخلود الأجسام⁽³⁾. ومنهم أيضًا أبان بن عبد الحميد اللاحقي، وكان على سعة علم بأدب الفرس القديم، والتعلق بتراث الفرس والتغني في جميع مظاهره⁽⁴⁾ اتخذ أمثال هؤلاء العلماء المتهمين بالزنادقة، من الثقافة والفكر سلاحًا ماضياً يشهرونها في وجه العرب، فعقدوا المجالس، التي كان ظاهراً بها نشاطاً فكريًا، وباطنها نشر تعاليمهم ومعتقداتهم، وألبسو كتبهم ثوباً براقًا تستهوي قراءتها الناس. وهذه المجالس والكتب وإن كانت نجاري البعض⁽⁵⁾، بأن مضامينها تماشي الزنادقة، وربما تدعوا لهم، فقد كانت لها أيضًا سمات حضارية في تغذية الفكر العربي، بمده بثقافات ومعارف لم

(1) المصدر نفسه.

(2) المرتضى أمالى : 1/ 144 وهناك تغيير في رواية كلمات البيت عند أحمد أمين: ضحى الإسلام 3/ 98.

(3) الليثي: الزنادقة والشعرية ص 205.

(4) بدوى: الإلحاد في الإسلام ص 38.

(5) الجاحظ: ثلاث رسائل ص 42 القاهرة 1324 هـ.

تُكَن متوافرة من ذي قبل. ومما يأسف له أحمد أمين^(١). أن الشعوبية - وأكثرها زنقة - أزهرت في عصر تدوين العلوم ، وكل حركة علمية أُسست آنذاك، ولم يكن لنا علم مدون قبل ذلك. ويعرف هذا الكاتب الأديب بأن اقتنان تدوين العلم إنما كان بسطوة الشعوبية ، ويقول: «كان ذلك من سوء حظ العلم»^(٢)، ولذلك أجهد العلماء أنفسهم في تعرّف أسرار الشعوبية وخفاياها وآثارها في العلم.

ونحن لا نوافق الكاتب على رأيه، وأقل ذلك، شهادته بأن دوراً
كبيراً كان لهم في تدوين العلوم، وتدوين العلوم لم يكن من سوء حظ العلم
بل من حسن حظه، اللهم، إلا إذا كان يرمي إلى علم قائم بذاته، ربما علم
الزنادقة، أو علم الشعوبية. ومن حسن حظ العلوم أيضاً، أن بعض هؤلاء
العلماء أخذ يعرض لنقد ما يُمجّده العرب، من نسب ولغة ورأي وعادات،
كما فعل أبو عبيدة بتفنيده كذب قوم، اختلقوا انتسابهم إلى العرب وكما
فعل سيبويه إذ خطأ العرب في بعض أقوالهم⁽³⁾ وهذا النقد وأمثاله استتبع
نتيجة جيدة في بعض وجوهها، وهي عرض ما للأمم الأخرى - عن قصد
علمي أو مذهبى - لتكون المقارنة أتم. فتُعرض الكلمات الفارسية بجانب
الكلمات العربية، والحكم الأجنبية، والبلاغة الأجنبية، والنظام الفارسي
- والأداب الأعجمية بما يقابلها أو يخالفه عند العرب وهذا - من دون شك -
مفید للعلم والعقل والفكر.

كان لنشاط العلماء الزنادقة - أمثال ابن الرواundi - في التأليف أثر كبير من الناحية الفكرية والعلمية، فقد دفع الكثير من العلماء والفقهاء إلى الرد عليهم ومعارضتهم.⁽⁴⁾

(1) أحمد أمين: ضحى الإسلام 1/77

(2) المصدر السابق.

.78 المصادر نفسه / 1 (3)

(4) أمثال النوبختي والخياط والجبائي. الخياط: / الانتصار ص 97 و 152 و 154 و 155 و 172 و ابن القارح: رسائل البلغاء ص 201.

علم الكلام: وليس من شك في أن هؤلاء الزنادقة قد تركوا أثراً ملحوظاً في الدين والشعر والأدب. فقد أحدثوا معانٍ جديدة في تفسير لغة القرآن وساعدوا على انتشار مبدأ التأويل فانتشر بسببهم علم الكلام. واشتد الجدل بينهم وبين العلماء والفقهاء فكانت حركة غزيرة في التأليف والمناظرات، فوضعت كتب كثيرة في الرد على الزنادقة والملحدين وساعدتهم حذقهم للعربية، وحفظهم أخبار وأشعار العرب على صنع أخبار وأشعار مزيفة وكان جبهم للمجون واللهو سبيلاً لأشعارهم الرقيقة وأدبهم الظريف، وكان لهم الأثر البين في تحرير الفكر، والجهر بالعقائد والأراء الغربية.

يبدو لنا مما تقدم - ومن الصراع الفكري الناتج عن المنضويين تحت لواء الزنادقة وخصومهم، والذي يمكن أن نعده من السمات الحضارية - ما يلي :

- اتجاه المفكرين إلى المؤلفات الفلسفية الإغريقية، وإلى مؤلفات المنطق الجدلية الذي كان قائماً بين المذاهبنصرانية⁽¹⁾.
- دفع النظام الديني إلى الوقوف نصيراً للدراسات العربية على أساس دينية، ربما لصد هجمات الزنادقة والرد عليهم ومقارعتهم فكريأ.
- بذل كثير من الجهد لمقارعة نتاجهم الفكري والأدبي المتشرب لأفكار الأعاجم والمتمقص أسلوب آدابهم، بفكر وأدب عربيين متشربين تقليد الجزيرة ونظمها قبل الإسلام وبعده⁽²⁾.
- تداخل المأثورات الساسانية من أدب - بشقيه، نثر وشعر - وفكر وترجمة، في آداب العرب وعلومهم الإنسانية.

(1) جب دراسات في الحضارة الإسلامية، ص 16.

(2) المصدر نفسه ص 17.

- جمع أحاديث الرسول، وظهور علم الحديث، وربما نتج ذلك من كثرة الوضع والتزيف⁽¹⁾.
- بزوع فن النقائض في الشعر عصر بنى أمية، تلك النقائض التي كانت تدور رحاها بين ثلاثة الكبار: جرير والفرزدق والأخطل⁽²⁾.
- بروز الشعر السياسي، الذي اقترن نشأته بظهور الأحزاب السياسية وبخاصة في العصر الأموي⁽³⁾.
- نشوء فن الغزل الرقيق الذي أصبح فناً مكتملاً قائماً بنفسه، وربما كان للشعراء الماجنين دور كبير في مسار هذا الفن⁽⁴⁾.
- بروز الشعر المذهبى بدءاً من (الكميت) صاحب الهاشمتيات، التي يقول عنها شوقي ضيف إنها: «تعد لوناً أدبياً جديداً في تاريخ الشعر العربي»⁽⁵⁾ وهي مناظرات تعتمد قبل كل شيء على الإقناع العاطفى⁽⁶⁾.
- فتح باب الإباحة والتعبير الحر، في الشعر، عن مختلف نوازع النفوس والشهوات، وإيجاد القصيدة الخمريّة، واختيار اللغة المألوفة في نظمها، والجنوح إلى البساطة والسهولة والرقّة بتأثير الغناء والموسيقى وترف الحياة الاجتماعية وتطورها على وجه العموم⁽⁷⁾ واختيار الأوزان الرشيقـة القصيرة وتحريفها وتعديلها حتى تتلاءم مع الغناء الجديد. يقول شوقي ضيف عن ذلك في الوليد بن يزيد: «والوليد من هذه الناحية يعد خطوة نهاية لعصره وللتغييرات المختلفة التي حدثت في أوزان

(1) المصدر نفسه، ص 20.

(2) - نقائض جرير والفرزدق.

(3) أحمد الشايب: تاريخ الشعر السياسي. مكتبة النهضة المصرية.

(4) أنظر في ذلك شعر عمار ذي كناز: الأصفهاني: الأغاني: 174/20 بولاق.

(5) شوقي ضيف: تطور وتجديد: ص 291. دار المعارف - مصر.

(6) لمصدر نفسه، ص 277.

(7) أنظر أبيات الوليد بن يزيد في أمالى المرتضى 1/89.

- الثورة على افتتاح القصائد بذكر الأطلال ووصفها والبكاء عليها، ولعل أبي نواس يعبر تعبيراً صادقاً عن ذلك الشعور الذي كان يخالج أمثاله، إذ يقول:

مالي بدارٍ خللت من أهلها شغلٌ ولا شجاني لها شخصٌ ولا ظللٌ
لا الحزنُ مني برأي العينِ أعرفه وليس يعرفني سهلٌ ولا جبلٌ
فهاؤك من صفتَي إنْ كُنْتَ مُختَبِراً ومُخْبِراً تَفَرَّاً عنِي إذا سَأَلُوا⁽²⁾

ومثله فعل مطعيم بن إيساس عندما قال:

لأحسنٍ مِنْ يُبَدِّي حَارُّ بِهَا الْقَطَا وَمِنْ جَبَلَنِي طَيٌّ وَوَصْفَكُمَا سَلَعَا
تَلَاحِظُ عَيْنَيِّ عَاشِقِينِ كِلَاهُمَا لَهُ مُقْلَهٌ فِي وَجْهِ صَاحِبِهِ تَرْعَى⁽³⁾

وأبان بن عبد الحميد اللاحمي⁽⁴⁾ وأشجع السلمي⁽⁵⁾، ومنصور النمري⁽⁶⁾، وسلم الخاسر⁽⁷⁾، وبشار بن برد⁽⁸⁾، ومن الملاحظ أن هؤلاء الشعراء - اتهم أكثرهم بالزندقة - كانوا يستغلون بداية قصائدهم في التعبير الحر عن أنفسهم ومشاعرهم ونوازع حياتهم، وفي ذلك سمات حضارية فكرية وعقلية، ولنقل أيضاً نهجية، وإن لاح المجنون في بعض هذا البدايات، في مثل ما جاء عن أبي نواس - يوم تهنتة الأمين بالخلافة - إذ قال: «يا أمير المؤمنين: إن شعراء الملوك قبلى شببوا بالمدر والحجر، والشاء والبقر، والصوف والوبر، فغلغلت طباعهم، واستغلقت معانיהם»، فإن

(1) التطور والتجديد: ص 272.

(2) أبو نواس: الديوان: ص 698 - 700 دار الكتاب العربي - بيروت.

(3) الأصفهاني: الأغاني: 12/103. دار الكتب.

(4) الصولي: الأوراق (أخبار الشعراء) ص 15.

(5) المصدر نفسه، ص 113.

(6) ابن قيبة: الشعر والشعراء 837.

(7) ابن المعتن: طبقات الشعراء ص 102.

(8) المصدر ص 323.

رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في الإنشاد، وبدأ قصيده بوصف الخمر مباشرة دون تعمية أو تورية، إذ قال:

ألا دارها بالماء حتى تُلينها فلن تُكرِّم الصهباء حتى تُهينها⁽¹⁾
- الخروج على العمود الشعري في بعض نواحيه، والدليل على ذلك مخاصمة العلماء والرواة المتمسكين بالعمود الشعري لأولئك الشعراء. فابن الإعراقي يقول عن شعرهم: «إن كان هذا شعراً فما قالته العرب باطل»⁽²⁾. وكذلك كان اسحق الموصلي لا يعد أبو نواس شيئاً، لأنه (ليس على طريق الشعراء)⁽³⁾.

ونستطيع أن ندرك مخالفته أمثال هؤلاء الشعراء لعمود الشعر التقليدي من ذلك النص الذي يرويه ابن رشيق عن ابن وكيع ويقول فيه: «إنما تُروي أشعار هؤلاء لعدوبة ألفاظها، ورقتها، وحلاؤها معانيها، وقرب مأخذها، ولو سلك هؤلاء مسلك المتقدمين في غلبة الغريب على أشعارهم، ووصف المهامه والقفار، وذكر الوحوش والحيشات، ما رويت»⁽⁴⁾.

هناك إذن فروق واضحة في نهج القصيدة، وفي القواعد الفنية للشعر، كمثل قول أبي نواس متأثراً بعلم الكلام:

يَا عَاقِدَ الْقُلُوبِ مِنِّي هَلَّا تَذَكَّرْتَ حَلَّا
تَرَكْتَ مِنِي قَلِيلًا مِنَ الْقَلِيلِ أَقْلًا
يَكَادُ لَا يَتَجَزَّأُ أَقْلُ فِي الْلَّفْظِ مِنْ لَا⁽⁵⁾
أو ما شابه ذلك من المعاني التي أدخلتها الحضارة الجديدة والثقافة

(1) أبو نواس: الديوان، ص 121 (ط. فاجنر) القاهرة 1958.

(2) المرزياني (أبو عبد الله محمد بن عمران): الموضع في مأخذ العلماء على الشعراء، ص 304. المطبعة السلفية - القاهرة - 1343هـ

(3) المصدر نفسه. ص 264.

(4) ابن رشيق (أبو علي الحسن القيرواني) العمدة في صناعة الشعر ونقده: 1/ 58 مكتبة الخانجي - القاهرة، 1917م.

(5) أبو نواس: الديوان: ص 380 دار الكتاب العربي.

الجديدة التي نقلت المجتمع نقلة فكرية ضخمة ! . أما عيار اللفظ في عمود الشعر التقليدي الذي حددوه بالطبع والرواية والاستعمال^(١) ، فقد خرج عليه أمثال هؤلاء الشعراء ، ربما لينقلوا الشعر من أرستقراطية البيانات العلمية إلى الشوارع والأزقة ، حيث تحيا طبقات الشعب الغالبة في المجتمع ، وبذلك تراجعت الألفاظ الجزلة الفخمة التي كانت تملاً الفم وتقتضم السمع ، وتقدمت الألفاظ السهلة الرقيقة الخافتة ، يلتفت الشعراء أكثرها من أفواه العامة . وهذه قفزة حضارية كبيرة ، بحيث تدرج الأدب من الخاص إلى العام .

(١) هدارة: اتجاهات، ص162.

الخاتمة

لقد درسنا في هذا البحث مسار الزندقة من الجاهلية، وحتى القرن

الثالث

للهجرة، من خلال الأدب.

وموضوع الزندقة في عصور بحثنا من الموضوعات الغامضة، نظراً لقلة المصادر بين أيدينا، ولعدم تحرير رواتها تحريراً دقيقاً، والقليل الموجود منها قد أصابه الاضطراب والتشویش، لأن خصوم الزندقة أدخلوا على النصوص من التبديل والتغيير ما يوافق هواهم، ويلائم عصبيتهم، وطريقتهم في الرد على الخصوم⁽¹⁾. كما يرجع إلى غيرة القيمين على الدين الذين أتلقوا هذه المصادر خشية انتشار الزندقة بين الناس. ولكننا حاولنا أن نجمع الشتات في بحث أردناه متاماً، وربطنا سدى هذه القلة من الشذرات، المفتتة في مراجع ومصادر عديدة، بلحمة الثقافات الأجنبية المختلفة - فارسية، يونانية، هندية، مسيحية - لخرج برسم واحة أدبية، زرعنا فيها المختار من شعر الشعراء، وأقوال الأدباء والكتاب.

تحديثنا عن الزندقة باعتبارها موضوعاً عاماً جديداً، فحدّدنا معناها، وتبعنا تطورها، وأوضحتنا علاقتها بالأعاجم، ورأينا أنها أربعة أنواع:

زندقة سياسية، زندقة اجتماعية، زندقة دينية وزندقة فكرية.

(1) العصبية الدينية والمذهبية والجنسية والقبلية..

وكان من الطبيعي أن نتناول في البحث نزاعي المجنون والزهد، فرأينا المجان زنادقة اجتماعيين، عاشوا على هواهم ومشتهاهم دونما رادع أخلاقي أو وازع ديني. أما الزهد، فقد اعتبره البعض نزعة مضادة للزنادقة، فقد رأينا أكثره انحرافاً عن جادة الدين ومروراً على شرائعه، وأثبتنا ذلك بشعر على لسان أبي العتاهية، الذي اعتبره بعضهم⁽¹⁾ أبو الشعر الديني، وأكبر زهاد العرب، وغيره من الشعراء الزهاد.

وأتينا بشاعرات زاهدات ورأينا فيهن بعضاً من الزندقة، ولا أظن أن باحثاً واحداً تطرق إلى أمثالهن. والجهد الذي بذلناه في إعداد هذه الدراسة كان شاقاً وعسيراً ليتناسب مع أهمية الموضوع، واتساع زمانه ومكانه، فميدان الأدب واسع رحب، يتضمن أهدافاً متشابكة متراقبة أحياناً، متضادة متنافرة أحياناً أخرى، كما أنه متعدد الصلات والعلاقات بمعارف وفنون كثيرة، من فلسفة وعلوم منطق، وتراث وفقه، ومجون وتصوف، ومذاهب مختلفة، وعلوم إنسانية متباعدة، له مع كل منها سيل وصلة، ونعتقد أننا في هذا البحث قد توصلنا إلى بعض النتائج الجديدة بالنسبة للحياة العربية عامة، في أعرق بحثنا ، منها :

- إثبات وجود الأحزاب العربية، وحزب الموالي، وجميعها متكاملة العناصر، قائمة على برنامج محدد، له زعماؤه وقادته.
- تطور فكرة القومية، وظهور الشعوبية، وارتباط ذلك بالزنادقة.
- إثبات وجود تأثير قوي للثقافات الفارسية والهندية والإغريقية، في مزج معارفها بعلوم العرب، وعلاقة ذلك بالفكر المتزندق.
- دراسة تيارات المجنون والزهد، ودخولهما محافل الزندقة بصفة خاصة، ودراسة الشعراء الزنادقة ، والشعراء الزهاد والمجان، الذين كشفنا النقاب عن بعضهم ولأول مرة.

(1) هدارة: مصطفى: اتجاهات الشعر العربي ص 595

-

دراسة عناصر الشكل في شعر شعراء الزندقة، وبخاصة في العصر العباسي الأول: واثبات خروج الشعراء عن الوزن والقافية، وتجديدهم في الصنعة الشعرية ، وعدم اقتصارها على شاعر بعينه.

-

كل هذا يمكن أن يقال عن النواحي الجديدة التي تضمنتها هذه الدراسة التي نرجو أن تكون قد سدت فراغاً في تاريخ أدبنا العربي، وأدت وبالتالي لدارسي هذا الأدب صورة مليئة، غنية، بالأشكال والألوان، نأمل أن تفي بالغرض.

-

والشيء الذي استوقفني خلال البحث، وأردت أن يكون بحثاً مستقلأً، هو دراسة زندقة كل شاعر، أو كاتب على حدة، والجديد في كتاباتهم من حيث الشكل والمضمون، والفصل بين زنادقة العرب وزنادقة الأعاجم، وزنادقة الطبقات من الملوك حتى الرقيق، وحضارة الزنادقة. وكل منها يصلح أن يكون بحثاً مستقلأً كاملاً، وإذا كانت العادة قد جرت بأن توصف البحوث العلمية ذات القيمة بأنها مبتكرة فإني لست أدعى أن هذا البحث قد استفتح مغاليق أسرار كانت طي الكتمان، ولكني آمل أن يكون قد توصل إلى بعض النتائج الجديدة التي كانت الوسيلة إليها دراسة الأدب العربي دراسة صابرة.

وإذا ما وجد الدارسون لهذا البحث بعض الظلال، أو القتام فهذا عجزي وتفصيري، وما أنسب ولا أدعى الكمال لنفسي، وحسبي أنني فكرت وحاولت وأملت.

والله الموفق

المصادر والمراجع

- الكتاب المقدس (العهدين، القديم والجديد).
- الكتاب المقدس (قاموس): نخبة من اللاهوتيين. مجلس كنائس الشرق الأدنى، بيروت، 1971 م.
- القرآن الكريم.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الأزرقي (أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد): أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار. دار الأندلس.
- الألوسي (محمود شكري): بلوغ الارب في أحوال العرب. المطبعة الرحمانية، القاهرة 1924 م.
- الألوسي (خير الدين البغدادي): جلاء العينين في محاكمة الأحمديين. دار الكتب العلمية، بيروت.
- الأصفهاني (علي بن الحسين، بن محمد القرشي): الأغاني. دار الفكر، بيروت 1973. عن بولاق، ومطبعة ساسي، ودار الكتب المصرية.
- الأصفهاني (أبو فرج): الأغاني. مطبعة التقدم بالقاهرة.
- الأ müdî، الأسدî: المؤتلف والمختلف. مكتبة القديسي، القاهرة 1354هـ.

- أمين (أحمد): فجر الإسلام. دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1969.
- ضحى الإسلام. دار الكتاب العربي.
- البستاني (بطرس): دائرة المعارف. دار المعرفة، بيروت.
- البغدادي (أبو منصور عبد القاهر بن طاهر): الفرق بين الفرق. دار المعرفة، بيروت، ونشر عزت العطار الحسيني، القاهرة 1948.
- البغدادي (الحافظ أبو بكر محمد بن علي الخطيب): تاريخ بغداد. مطبعة السعادة، القاهرة، 1957.
- البغدادي (أبو الحسين عبد الرحيم): الانتصار. نشر لجنة للتأليف والترجمة، القاهرة 1914.
- البغدادي (عبد القادر بن عمر): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. القاهرة 1930.
- البيروني (محمد بن أحمد): تحقيق ما للهند من مقوله مقبولة في العقل أو مرذولة. ليينرج 1925.
- البيروني (أبو الريحان، محمد بن أحمد): الآثار الباقية من القرون الخالية. نشر إدوارد سخاو، طبع ليينرج 1878 - و1923.
- البيهقي (إبراهيم بن محمد): المحاسن والمساوي. جيسن، ألمانيا 1902م.
- الباقلاني (محمد بن الطيب بن القاسم): إعجاز القرآن. مصر 1315هـ.
- البلاذري (أبو الحسن): فتوح البلدان. دار الكتب العلمية، بيروت 1983.
- التوحيدي (أبو حيّان): الامتناع والموانسة. شرح أحمد أمين وأحمد الزين. القاهرة 1939 و1942.
- الشعالي (عبد الملك بن محمد): ثمار القلوب. القاهرة (1908 - 1923).

- الجاحظ (عمرو بن بحر، أبو عثمان): البيان والتبيين ١ - ٢ - ٣.
تحقيق فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت.
- كتاب الحيوان. تحقيق فوزي عطوي، دار صعب، بيروت وتحقيق عبد السلام هارون، مصر 1938.
- الحيوان. مطبعة السعادة. القاهرة ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م وتحقيق عبد السلام هارون، مطبعة البابي الحلبي، مصر 1938.
- الجاحظ. رسالة فيبني أمية. القاهرة ١٣٤٢هـ / ١٩٣٣م.
- كتاب البخلاء. تحقيق طه الحاجري، دار المعارف، مصر ١٩٥٨م.
- البيان والتبيين. مطبعة الفتوح. القاهرة، ودار صعب، بيروت.
- الجرجاني (علي بن عبد العزيز): الوساطة بين المتنبي وخصومه. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥١.
- الجلالين، تفسير (جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي).
المكتبة الشعيبة.
- الجمحى (أبو عبد الله بن سلام البصري): طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين. دار الفكر، بيروت.
- الجهشياري (محمد بن عبدوس): الوزراء والكتاب. مطبعة الحلبي، القاهرة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م.
- الجارم (محمد): أديان العرب في الجاهلية. القاهرة ١٩٢٣.
- الحاجري (طه): مقدمة البخلاء. دار المعارف، مصر ١٩٥٨م.
- الحسن (ابن هاني): الفرح والتهاني بأخبار الحسن بن هاني. مصورة معهد المخطوطات، جامعة الدول العربية رقم ٣٢ أدب.
- الحصري (أبو اسحق): زهر الأدب وغمر الألباب. القاهرة ١٩٢٥.
- الحموي (ياقوت): معجم البلدان. دار صادر، بيروت.

- الحوفي (أحمد محمد): أدب السياسة في العصر الأموي. ط5، دار نهضة مصر.
- الغريبوطلي (المهدي العباسى): تاريخ الكعبة. دار الجيل، بيروت 1976.
- سلسلة أعلام العرب، القاهرة 1966.
- الخياط (أبو الحسين عبد الرحيم): الانصار. نشر لجنة للتأليف والترجمة، القاهرة 1914.
- الخياط (أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد عثمان المعتزلي): كتاب الانصار والرد على ابن الرواندي الملحد. تحقيق د. نيرج، القاهرة 1925هـ/1344م.
- الدوري (د. عبد العزيز): الجذور التاريخية للشعوبية. دار الطبيعة، بيروت، ط2.
- العصر العباسي الأول. نشر دار المعلمين الآلية، بغداد 1945.
- الدينوري (أحمد بن داود أبو حنيفة): الأخبار الطوال. ليدن 1888.
- الرازي (محمد بن عبد الرحمن بن أبي حاتم): الجرح والتعديل. طبع حيدر آباد الركن 1952.
- الراغب الأصفهاني (أبو القاسم حسين بن محمد): محاضرات الأدباء. المطبعة الشرقية، القاهرة 1326هـ.
- الزبيدي (علي أحمد): زهديات أبي نواس. مطبعة كوستاتوماس، القاهرة 1959.
- الزبيدي (محمد مرتضى): تاج العروس من جواهر القاموس. مصر 1307هـ.
- الزركلي (خير الدين): الأعلام. دار العلم للملايين، بيروت، ط خامسة، 1980.
- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن): تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين.

- مطبعة السعادة، مصر 1371هـ/1952م.
- الكنز المدفون والفالك المشحون. مصر 1288م.
- شرح شواهد المغني. مصر 1322.
- السلمي (أبو عبد الرحمن): طبقات الصوفية. تحقيق نور الدين شريبة، دار الكتاب العربي، مصر 1953م.
- الشيباني (علي بن محمد أبو الحسن): أسد الغابة في معرفة الصحابة. المكتبة الإسلامية، بيروت.
- الشابستي (أبو الحسن علي بن محمد): الديارات. مطبعة المعارف، بغداد 1951 - 1966.
- الشایب (أحمد): تاريخ الشعر السياسي. مكتبة النهضة المصرية.
- الشهرستاني (أبو الفتح محمد عبد الكريم بن أبي بكر): الملل والنحل. تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، منشورات مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة 1968، ومطبعة مخيم، القاهرة.
- الشريف المرتضى (علي بن الحسين الموسوي العلوى) أمالي المرتضى: غرر الفوائد ودرر القلائد. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967.
- الصولي (أبو بكر، محمد بن يحيى): الأوراق. قسم أخبار الشعراء، مطبعة الصاوي، القاهرة 1934.
- الطبرى (محمد بن جرير): تاريخ الأمم والملوك. دار المعارف، القاهرة، ودار سعيدان، بيروت.
- العاملى (السيد محسن الأمين الحسيني): أعيان الشيعة. مطبعة ابن زيدون، دمشق.
- العدوى (إبراهيم): المجتمع العربي ومناهضة الشعوبية. مكتبة نهضة مصر، القاهرة، 1961.
- العلى (صالح أحمد): التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة.

- مطبعة المعارف، بغداد 1952.
- العقاد (عباس محمود): أبو نواس. نشر مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1957.
- الغزالى (الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمود بن أحمد): فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة. القاهرة 1901.
- المنقذ من الضلال. دمشق 1934.
- القالى (أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي): الأمالى. دار الكتب المصرية، 1344هـ/1926م.
- القاسم (ابن إبراهيم): كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع. روما، 1927.
- الكتبي (ابن شاكر): فوات الوفيات. مصر 1922.
- الكلبي (أبو منذر هشام بن محمد بن السائب): كتاب الأصنام. تحقيق أحمد زكي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة 1965.
- الليثي (سميرة مختار): الزندقة والشعوبية. مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة 1968.
- اللبان (إبراهيم عبد المجيد): الفلسفة والمجتمع. ط النهضة المصرية، القاهرة 1950.
- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي): مروج الذهب ومعادن الجوهر. دار المعرفة، بيروت 1982.
- المفضل الضبي (أبو العباس بن محمد): المفضليات. شرح الأنباري، بيروت.
- المقدسي (المطهر بن طاهر): كتاب البدء والتاريخ. باريس 1903.
- المعرى (أبو العلاء): رسالة الغفران. تحقيق فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت.

- المهزمي (أبو هفان بن عبد الله): *أخبار أبي نواس*. مكتبة مصر 1953.
- المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد): *الكامل في اللغة والأدب*. تحقيق محمد إبراهيم والسيد شحاته، مطبعة نهضة مصر.
- الكامل. *شرح المرصفي*، طبعة القاهرة.
- الكامل في اللغة والأدب. نشر وليم رait، طبعة ليزج 1864.
- المقرنزي (تقي الدين أحمد بن علي): *المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأثار*. القاهرة، بولاق، 1270.
- النزاع والتناقض بينبني أمية وبني هاشم. مصر 1939.
- المرزبانى (أبو عبد الله، محمد بن عمران): *الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء*. تحقيق علي محمد الجاوي، دار النهضة، مصر 1965.
- معجم الشعراء. مصر، 1354.
- المعتزلي (أحمد بن يحيى بن المرتضى الزيدى): *المنية والأمل*. حيدر آباد 1316هـ/1902م.
- المرزبانى (أبو القاسم، علي بن الحسن بن عبد الله): *تهذيب تاريخ ابن عساكر*. دار المسيرة، بيروت 1975.
- التوبيهي (محمد): *نفسيه أبي نواس*. النهضة المصرية، القاهرة 1953.
- التوبختي (أبو محمد الحسن بن موسى): *كتاب فرق الشيعة*. استانبول 1931.
- النجيرمي (أبو اسحق إبراهيم بن عبد الله الكاتب): *إيمان العرب في الجاهلية*. تحقيق محب الدين الخطيب، القاهرة 1328هـ.
- الوشاء (أبو الطيب محمد بن اسحق بن يحيى): *الموشى أو (الظرف والظرفاء)*. مكتبة الخانجي، القاهرة 953.
- اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح العباسي): *تاريخ اليعقوبي*. دار صادر، بيروت والنجف، 1351هـ.

- ابن الأثير (عز الدين): الكامل في التاريخ. دار الكتاب العربي، بيروت، والمطبعة الأميرية، مصر ودار المعارف، القاهرة 967.
- ابن الألوسي (السيد نعمان خير الدين، البغدادي): جلاء العينين في محاكمة الأحمديين. دار الكتب العلمية، بيروت.
- بدر (مصطفى): الحضارة الإسلامية. ترجمة، دار الفكر العربي، القاهرة 1947.
- بدوي (د. عبد الرحمن): من تاريخ الإلحاد في الإسلام. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط 2 1980.
- شهيدة العشق الإلهي (رابعة العدوية). مكتبة النهضة، مصر 1948.
- ابن أبي حديد: شرح منهاج البلاغة. دار الهدى الوطنية، بيروت.
- يومي (الأستاذ السباعي): تهذيب الكامل للمبرد.
- ابن الجوزي (جمال الدين): نقد العلم والعلماء. مطبعة السعادة، مصر، 1340هـ.
- أخبار الظراف والمتماجنين. مكتبة القدس، دمشق، 1347هـ.
- تلبيس إيليس. دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن الجراح (عبد الله محمد بن داود): الورقة. دار المعارف، مصر، 1953.
- ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي): جمهرة أنساب العرب. تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر 1977.
- ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الطاهري): الفصل في الملل والأهواء والنحل. وبهامشه الملل والنحل، دار المعرفة، بيروت 1983.
- ابن خبیب (محمد): المحبر. دار المعارف، مصر وحیدر آباد 1361هـ.
- ابن خلدون: المقدمة. تحقيق (د. علي عبد الواحد وافي)، مطبعة

- البيان العربي، مصر 1376 هـ، والمطبعة البهية، القاهرة.
- المقدمة. تحقيق (د. علي عبد الواحد وافي)، مطبعة البيان العربي، مصر 1957م.
- العبر وديوان المبتدأ والخبر. القاهرة 1274هـ.
- ابن خلkan (شمس الدين الشافعي): وفيات الأعيان. ط بولاق 1282هـ.
- ابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبي بكر): وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان. دار صادر، بيروت.
- ابن رشيق (أبو علي الحسن، الأزدي) القيرواني: العمدة في صناعة الشعر وأدابه ونقده. المطبعة التجارية، مصر 1955م، ودار الجيل، بيروت ط الرابعة 1972.
- ابن سعد (محمد بن منيع): كتاب الطبقات. دار صادر، بيروت 1958.
- ابن شاكر (الكتبي): فوات الوفيات. مصر، 1299هـ.
- ابن طباطبا (محمد بن علي، المعروف بابن الطقطقي): الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية. مطبعة الموسوعات، القاهرة 1317هـ/1923م.
- ابن العبري (غريغوريوس الملطي): تاريخ مختصر الدول. المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1958.
- أبو عبيد (أحمد بن محمود بن نصر): الفهرست. مصر.
- ابن عبد البر (أبو عمر يوسف): الاستيعاب في معرفة الأصحاب. تحقيق علي محمد البحاوي، نهضة مصر، القاهرة 1849.
- ابن عبد ربه (أحمد بن محمد الأندلسبي): العقد الفريد. دار الكتاب العربي، بيروت 1965. وتحقيق محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، القاهرة 1359هـ، ولجنة التأليف والنشر، القاهرة.

- ابن قتيبة (أبو عبد الله بن مسلم الدينوري): عيون الأخبار. دار الكتاب العربي. بيروت.
- الشعر والشعراء. دار المعارف مصر 1966.
- المعارف. دار المعارف ، مصر.
- المعارف. دار إحياء التراث العربي ، بيروت 1970م.
- تأویل مختلف الحديث في الرد على أعداء أهل الحديث. القاهرة 1925.
- ابن القارح: رسائل البلغاء.
- ابن كثیر (أبو الفداء الحافظ): البداية والنهاية. دار الفكر ، بيروت 1978.
- ابن المعتز (عبد الله): طبقات الشعراء. تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف ، مصر 1956.
- ابن منظور (جمال الدين بن مكرم المصري ، أبو الفضل): لسان العرب.
- أخبار أبي نواس (جزءان). مطبعة الاعتماد، القاهرة 1924 ، ومطبعة المعارف بغداد 1952.
- ابن المزرع (مهلهل بن يموت): سرقات أبي نواس. تحقيق محمد مصطفى هدارة ، دار الفكر العربي ، القاهرة 1957.
- ابن النديم (محمد بن اسحق أبو الفرج): الفهرست. دار المعرفة، طبعة ليزج ، ومطبعة الاستقامة ، مصر وبيروت 1978.
- ابن نباتة (جمال الدين المصري): سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون. مطبعة الحلبي 1957 ، وتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، القاهرة 1964.
- ابن هشام (أبو محمد عبد الملك): كتاب السيرة النبوية. القاهرة 1955 ، دار الكنوز الذهبية.

- أبو هفان (عبد الله بن أحمد بن حرب المهزمي): أخبار أبي نواس. تحقيق عبد الستار فراج. مكتبة مصر، القاهرة 1953م.
- الجندي (علي): تاريخ الأدب الجاهلي. مكتبة الجامعة العربية، بيروت 1966.
- حتى (د. فيليب) ورفاقه (د. إدوارد جرجي - د. جبرائيل جبور): تاريخ العرب. دار غندور، بيروت.
- الحموي، ياقوت (الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله، بن عبد الله، الرومي البغدادي): معجم البلدان. دار صادر، بيروت 1977.
- حمزة (فؤاد): قلب جزيرة العرب. مصر 1933.
- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام. مكتبة النهضة المصرية، ط 7، 1964م.
- حسن إبراهيم حسن ومحمد زكي إبراهيم: السيادة العربية (ترجمة)، القاهرة 1934، من سياسة نامة باريس
- حسين (طه): المجموعة الكاملة لمؤلفاته. المجلد الثاني، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 2، 1980.
- من حديث الشعر والشعر. دار المعارف، مصر، 1953م.
- الحوفي: أدب السياسة.
- داود، الأب جرجس: أديان العرب قبل الإسلام. ووجهها الحضاري والاجتماعي، دار مجد، بيروت 1981.
- دائرة المعارف الإسلامية: الترجمة العربية. مصر 1957.

الدواوين:

- المعلقات السبع. الزوزوني، شرح، دار الجيل، بيروت.
- الأعشى الكبير (ميمون بن قيس): الديوان. شرح محمد حسين، نشر مكتبة الآداب بالجاميز.

- حاتم الطائي: الديوان. دار بيروت 1974.
- عبيد بن الأبرص: الديوان. دار بيروت 1979.
- الأعشى: المؤسسة العربية، بيروت. تحقيق فوزي عطوي، دار المعرفة، بيروت 1968.
- عنترة: الديوان. دار صعب، بيروت ودار المعرفة.
- أبو نواس: الديوان. دار الكتب المصرية. رواية الصولي، مخطوط رقم 1265.
- ديوان. تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي. دار الكتاب العربي، بيروت 1982.
- الفرزدق: الديوان. مكتبة الثقافة. بغداد.
- جرير: الديوان. دار الأندلس، بيروت.
- الأخطل: شعر. تحقيق (د. فخر الدين قباوة). دار الآفاق، بيروت ط 2، 1979 م.
- كثير: ديوان. طبعة الجزائر. بيرس.
- ابو العناية: ديوان. نشر لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1914.
- بشار بن برد: ديوان. تحقيق محمد عاشور، لجنة الترجمة القاهرة، أجزاء 1950 - 1957.
- الكمي: ديوان الهاشميات، نشر هور ومتزر.
- ليبد بن ربيعة العامري: ديوان. دار صادر، بيروت.
- النابغة الذبياني: ديوان. المؤسسة العربية للطباعة، بيروت.
- طرفة بن العبد: ديوان. المؤسسة العربية للطباعة، بيروت.
- الدش (محمد محمود): أبو العناية. حياته وشعره، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1968.

- أبو العتاهية: الديوان. دار التراث العربي، بيروت 1969.
- حسان (ابن ثابت): الديوان. دار التراث العربي، بيروت.
- أبو نواس (الحسن بن هانئ): الديوان. مصر 1898.
- تحقيق (إيفالدفاجنر). القاهرة 1958.
- المفضل الصبي (أبو العباس بن محمد): ديوان المفضليات. شرح الأنباري، طبعة لайл، بيروت 1920.
- زكار (د. سهيل): تاريخ العربي والإسلام، منذ ما قبل المبعث وحتى سقوط بغداد، دار الفكر، بيروت، ط 3، سنة 1979م.
- زيدان (جرجي): تاريخ آداب اللغة العربية. ط الثالثة، مطبعة الهلال، القاهرة 1936.
- سالم (عبد العزيز): تاريخ العرب في عصر الجاهلية. دار النهضة العربية، بيروت 1971.
- شيخو (الأب لويس)، اليسوعي: المشرق. السنة الأولى، عدد 15 ، ص 681.
- شعراً النصرانية.. قبل الإسلام..
- شعراً النصرانية بعد الإسلام. مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت 1926.
- شريف (محمد بديع): الصراع بين الموالي والعرب. دار الكتاب العربي، مصر 1945.
- الشكعة (مصطفى): الشعر والشعراء في العصر العباسي. دار العلم للملائين، بيروت.
- صديقي. الحركات الدينية - السياسية في إيران. باريس 1938.
- الصالح (صباحي): منهل الواردين. شرح رياض الصالحين، دار العلم للملائين، بيروت، ط 2/1973.
- الصاوي (محمد إسماعيل عبد الله): شرح ديوان جرير. درا الأندلس.

- ضيف (شوفي): التطور والتجديد في الشعر الأموي. دار المعارف، مصر .
- الفن ومذاهبه في الشعر العربي. دار المعارف، مصر ط.9.
- العصر العباسي الأول. دار المعارف، مصر.
- طيفور (أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر): كتاب بغداد. نشر الحسيني، القاهرة 1949م.
- علي (د. جواد): المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. دار العلم للملائين، بيروت 1980.
- عبد القادر (حامد): قصة الأدب الفارسي. مكتبة نهضة مصر بالفجالة، القاهرة 1951م.
- عمر (د. فاروق): العباسيون الأوائل. الجزء الثاني، دمشق 1973.
- التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين. مؤسسة المطبوعات العربية، بيروت 1980م.
- عباس محمود العقاد: أبو نواس. دراسة في التحليل والنقد، مطبعة الرسالة، القاهرة.
- عطوان (حسين): الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول. دار الجيل، بيروت.
- علي بن الحسن بن عبد الله (أبو القاسم): تهذيب تاريخ ابن عساكر. دار المسيرة، بيروت 1975.
- عبد العال (محمد جابر): حركات الشيعة المتطرفين وأثرهم في الحياة الاجتماعية والأدبية لمدن العراق إبان العصر العباسي الأول. مطبعة السنة المحمدية، القاهرة 1954.
- قدورة (زاهية): الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول. دار الكتاب اللبناني، 1972.

- قباوة (فخر الدين): شعر الأخطل. دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط
ثانية، 1979.
- كردعلي (محمد): رسائل البلغاء. تصنيف مطبعة لجنة الترجمة والنشر،
القاهرة 1946.
- مكى (الطاھر أھمد): امروء القيس. حیاته وشعره، دار المعارف، مصر
.1970
- د. النعمان القاضي: الفرق الإسلامية في الشعر الأموي. دار
المعارف، مصر.
- هيكل (محمد حسين): حياة محمد. مكتبة النهضة المصرية طبعة 13،
1968 م.
- هدارة (محمد مصطفى): اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني
الهجري. دار المعارف، مصر ط.2.
- يوحنا الدمشقي (منصور بن سرجون): كتاب المائة مقالة في الإيمان
الأرثوذكسي. تعريب الاشمندرية أديريانوس شكور، المكتبة البوليسية،
لبنان، 1984.
- ياقوت الحموي: معجم البلدان. دار صادر، بيروت.
- ياقوت الحموي (عبد الله): معجم الأدباء. مصر، 1938.

المصادر الأجنبية

- E. Renan: Histoire Générale et Système comparé des langues Sémitiques. Paris, 1855. Vol I.
- James hamilton: Sinai, The Hegas and Soudan. London 1857. After Hamilton.
- D.D. Luckenbil, Ancient Records of Assyria and Babylonia. (Chicago 1927) V.I.
- بروكلمان (كارل): تاريخ الشعوب الإسلامية. ترجمة فارس وبعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 8، 1979م.
- جب (هاملتون): دراسات في حضارة الإسلام. دار العلم للملايين، بيروت 1979.
- فيدا (جورج): الزندقة في الإسلام. مجلة الدراسات الشرقية 1940، .1938
- G.Vaida. Les Zindiqs en Pays d'Islam au début de la période abbaside R.S.D. XXI. 1937
- ماسيون: مادة زندقة. دائرة المعارف الإسلامية. عذاب الحلاج.
- L.Massignon: La passion d'al-Hallag.
- B.Leuis: The significance of Heres.
- جب، هامتون: دراسات في حضارة الإسلام. دار العلم للملايين، بيروت - الطبعة الثالثة 1979
- Hamilton. A.R. Gibb. (Studies on the Civilisation of Islam). Beacon Press, Boston, Massachusetts.
- بروكلمان، كارل: الإمبراطورية العثمانية وانحلالها. ترجمة فارس وبعلبكي. دار العلم للملايين. بيروت 1949
- فون جرونباوم (جوستان فون): شعراء عباسيون. تحقيق مطبع سلم الخاسر أبو الشمقمق، دار مكتبة الحياة، بيروت 1959
- Nicholson, R.A. A Literary History of the Arabs. Cambridge 1956.
- Broune. Edward G.A. Literary History of Persia, (London) 1909.

- Nizam oul-Moulk: Siasset Naméh. Paris (1891-1897).
- Muir: Willian Temple. " The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall" (Edinburgh 1924).
- كيستر: مجلة بين النهرية: «الحيرة وعلاقاتها مع الجزيرة العربية». العدد السابع. بغداد 1974.
- فان فلوتن: السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بنى أمية. ترجمة حسن إبراهيم حسن وزكي إبراهيم، القاهرة 1934.
- فلهوزن: الدولة العربية. ترجمة (أبو ريدة)، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
- يوهان فاك: العربية. ترجمة عبد الحليم النجار، دار الكتاب العربي، القاهرة 1951.
- سايمز (المستشرف جيمس د): شرح ديوان الفرزدق. مكتبة الثقافة العربية - بغداد.
- Lammens: S.J. "Etudes sur le Siecle des omayyads" (Beyrouth, 1936).
- فون كريمر: الحضارة الإسلامية ومدى تأثيرها بالمؤثرات الأجنبية. ترجمة مصطفى طه بدر. نشر دار الفكر العربي. القاهرة 1947.
- جولد تسيلر (إنناس): العقيدة والشريعة في الإسلام. ترجمة محمد يوسف موسى ورفاقه، دار الكاتب المصري، القاهرة 1946.
- Goldziher Jgnas: Mu hamme danisehe studien. 2 vol. Hallen 1888
- O. Leary-de laey- Arabic thought and its place in History, London 1939.
- بروكلمن (كارل): تاريخ آداب اللغة العربية. ترجمة النجار، دار المعارف مصر 59 - 61، 1962.
- فلهوزن: الخوارج والشيعة.
- ديورانت: قصة الحضارة.
- فاجنر (إيفالد)، تحقيق، ديوان (أبي نواس)، القاهرة، 1958.

- فنكل (يوشع) نشر، الجاحظ، ثلاث رسائل، المطبعة السلفية، القاهرة .1344
- نللينو: تاريخ الآداب العربية. دار المعارف، مصر.
- Gibb H. A. R. : Arabic literature introduction. London 1926.
- نيكلسون (رينول): في التصوف الإسلامي وتاريخه. ترجمة أبو العلاء عفيفي - القاهرة 1947م.
- رايت (وليم)، نشر، الكامل للمبرد، لينبرج، 1964م.
- DAWOOD :Acomparative study.... Ph.d 1965.

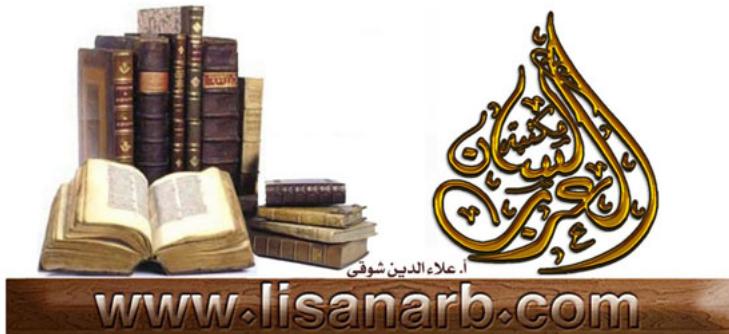
فهرس الموضوعات

الإهداء	5
توطئة	7
- العرب في الجاهلية وصدر الإسلام	7
- حالتهم الاجتماعية	10
- عاداتهم واعتقاداتهم	10
المقدمة	15
الفصل الأول: تأثر العرب بالأديان والمرج بينها	23
أ - تأثر العرب بالأديان	23
ب - المرج بين الأديان	32
ج - المراكز الدينية	34
د - الهجرات الدائمة من الجزيرة العربية وإليها	34
ه - الحملات العسكرية	36
الفصل الثاني: الزندقة	43
القسم الأول: المعنى اللغوي والاصطلاحى للزندقة	43
القسم الثاني: الجذور التاريخية للزندقة	55
- في الجاهلية	55
- في صدر الإسلام وعصر بنى أمية	62
- في العصر العباسي الأول	69
القسم الثالث: المؤرخون القدماء والمحدثون للزندقة	72
القدماء	72

80	- المحدثون
88	القسم الرابع: أهداف الزنادقة
97	الفصل الثالث: مراحل الزنادقة وأنواعها
97	القسم الأول:
97	أولاً: زنادقة العصر الجاهلي
99	ثانياً: الزنادقة في صدر الإسلام
104	ثالثاً: الزنادقة في العصر الأموي
109	القسم الثاني: الزنادقة في أوجها (العصر العباسي الأول)
116	- عقائد المجروس
119	- زنادقة الفرق والأحزاب والدعاة
		- الأحزاب (عوامل نشأتها - الأمويون - الشيعة - الخوارج - الزبيرون -
119	المرجحة - المعتزلة)
135	- زنادقة الفرق:
135	1 - فرق الشيعة (الكيسانية - الزيدية - الرافضة)
139	2 - فرق الخوارج (الأزارقة، النجدات، الأباضية، الصفرية)
		- زنادقة ثورية: (حركة بيهها فريد - السنباذية - الإسحاقية - الخرمية -
146	الأفشين - المازيار - الرواندية - السيسية - المقنعة)
154	القسم الثالث: أنواع الزنادقة:
		1 - زنادقة دينية: (أحاديث مزيفة - إنكار الأديان - اللهو والمجون، طريق زنادقة دينية)
154	2 - زنادقة فكرية: (العبث الفكري - الشعر وسيلة فكرية للزنادقة)
		3 - زنادقة سياسية: (نظام العباسيين السياسي - موقف الخلفاء من وزرائهم)
167	4 - زنادقة اجتماعية: الظرف والحضارة من وسائل الزنادقة
176	- دعوة التحرر والتحلل سبيل الزنادقة الاجتماعية
178	- العصبية والعنصرية (الخناقون وتطرفهم)
181	الفصل الرابع: الزنادقة:
187	القسم الأول: زنادقة العصر الجاهلي

191	أمرف القيس والإباحية المزدكية
193	أدعية النبوة (مسلمية - سجاح - آخرون)
	شعراء زنادقة: الأعشى - سويد المصطلقي - طرفة بن العبد - النابغة
197	الذبياني
	زنادقة آخرون: عنترة العبسي - علقمة بن عبدة - عمرو بن كلثوم
207	التغلبي - الحارث البشكري - تأبظ شرأ
	القسم الثاني: زنادقة العصر الإسلامي والأموي (الهجران والخمر والزنادقة) - الحطيثة - الوليد بن عقبة - أبو محجن الشقفي -
	النعمان بن نضيلة - ابن أرطأة - طويس - الأخطل - جرير والفرزدق - الوليد بن يزيد - عبد الله بن معاوية - الأحوص - اسماعيل النسائي
212	مروان بن محمد - الجعد بن درهم
266	القسم الثالث: زنادقة العصر العباسي الأول
271	- زنادقة من غير العرب - غایاتهم
	1	- الزنادقة الشعراء: أبو دلامة - الحمادون الثلاثة - مطیع والبه - يحيى
	الحادي - أبان - علي بن الخليل - صالح بن عبد القدوس - بشار -	
273	آدم بن عبد العزيز - وسلم الخاسر - أبو نواس - أبو العتاهية - آخرون
	2	- الزنادقة الكتاب والأدباء وغيرهم: النظام - ابن المقفع - ابن أبي
	المو جاء - ابن وزير المهدى - ابن الغيض - ابن فروة - ابن باذان - ابن	
322	الأشرس - آخرون
333	القسم الرابع: الخصومات السياسية والأدبية طريقة إلى الزنادقة:
334	أولاً: الخصومة السياسية
337	- الخصومات السياسية في الشعر القبلي
338	- الخصومات السياسية في صدر الإسلام
342	- الخصومات السياسية في عصر بنى أمية
344	- الخصومات السياسية في عصر بنى العباس
348	ثانياً: الخصومات الأدبية
355	الفصل الخامس: الطابع الاجتماعي والحضاري للزنادقة
355	القسم الأول: المجنون: معناه - نشأته - مساره
372	القسم الثاني: الزهد: معناه - مساره

377	... - الزهاد الزنادقة. (أبو العناية - صالح بن عبد القدس، وأخرون)
398	... - شاعرات زاهدات
400	القسم الثالث: حضارة الزنادقة وانعكاساتها الاجتماعية ...
403	- صور أدبية اجتماعية (القیان - الأعياد - اللباس - العمران - المدن - العلوم) ...
409	- معاالم أدبية فكرية: ترجمة - شعر - فکر - علم الكلام ...
431	الخاتمة ...
435	المصادر والمراجع ...



الزنادقة والزنادقة

يتناول هذا الكتاب نظرة إجمالية الى واقع العرب الاجتماعي زمن الجاهلية وصدر الاسلام وعاداتهم وطرق عيشهم وعباداتهم واعتقاداتهم وتأثيرهم بالأديان السماوية والأرضية والمزاج بينما ثم مفهوم الزندقة اللغوي والاصطلاحي ، والجذور التاريخية لهذا المفهوم ومراحلها وأنواعها من دينية وفكيرية وسياسية واجتماعية من الجاهلية الى العصر العباسي الأول مروراً بالعصر الاموي .

كما يورد أشهر الزنادقة ونوعية زندقتهم وما هيتها ورأي الشعراء والكتاب ومدعى النبوة ومتخصصي القوميات والأديان، ثم إثبات الطابع الاجتماعي والحضاري للزنادقة وما أفرزته تجمعات الشعوب والأمم ومزجته، فكان المجنون والزهد ...

نرجو أن يكون لهذا الكتاب بعض النفع للمتخصصين في الدراسات العربية الذين يغدون الاطلاع على جانب مهم من حياة العرب وأدبهم .

من المقدمة